al- Iskandari, ʿUmar

# تاريخ مصر

# من الفتح العثمانى

Tarikh Misr

( الى قبيل الوقت الحاضر )

مع نبذ فى أخبار بعض الأمم التى ارتبطت بمصر فى ذلك العهد


تأليف

عمر الاسكندرى و سليم حسن

وراجعه

الميجر ا . ج . سفدج


قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانوية
و بمدرسة دار العلوم




( الطبعة الخامسة )

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر
١٣٤٠ هـ — ١٩٢١ م



**محمد على باشا**

**رأس الاسرة المحمدية العلوية**

عن صورة بدار الكتب السلطانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى يقصُّ الحق من أنباء ما قد سبق ، والصلاة والسلام على محمد أفضل من صدق فيما نطق ، وعلى آله ضياء الغَسَق ، ونظام النَّسَق . وبعـــد فهذا الكتاب يُعتبر كجزء ثان لأول – هو « تاريخ مصر الى الفتح العثمانى » – غير أن السابق ، لتطاول عصوره وتعدد أجياله ، كان مجمل العبارة ، لطيف الإشارة ، وهذا اللاحق ، لتقارب العهد بحوادثه ، وتعاظم العبرة بوقائعه ، صار مسهب القول فى جملة أغراضه عامة ، وفى حوادث مصر الهامة خاصة

وهو باتّباعه هـــذه الخطة يطابق منهاج دراسة التاريخ لتلاميذ السنة الثانية من المدارس الثانوية المصرية ، مُلماًّ بوقائع يحتّمها المقام ويوجب سردها المنهاج اجمالاً وإن لم يُصرّح بهـا تفصيلاً ، كما أنهُ بمزاياه المعهودة النظير فى صِنْوه يفسح الرجاء لأن يقبل عليه غير التلاميذ من القراء

وقد استقى هذا الكتاب من أوثق كتب التاريخ المعتبرة ، عربية وفرنجية أهمها :

تاريخ ابن اياس ، تاريخ القرمانى ، تاريخ الاسحاقى ، دولة المماليك للاستاذ السير وليم ميور ، تاريخ تركيا للأستاذ استانلى لينبول ، تاريخ أوربا (مجموعة – رِڤنجتون) ، الترك العثمانيون تأليف كريسى ، اضمحلال الدولة الإغريقيـــة واستيلاء الترك على القسطنطينية تأليف إدْوِن پيرز ، دائرة المعارف البريطانية ، القاهرة وبيت المقدس ودمشق للأستاذ مَرْجوليوث ، دليل دار الآثار العربية ، تحفة الناظرين للشيخ الشرقاوى حقائق الأخبار عن دول البحار لصاحب السعادة اسماعيل باشا سرْهَنْك ، قصة القاهرة للاستاذ استانلى لينبول ، مصر فى القرن التاسع عشر تأليف كَمرون ، نابليون

فى مصر تأليف الحاج براون ، الانقلاب المصرى تأليف بيتَن ، تاريخ الجبرتى ، البحر الزاخر لمحمود باشا فهمى ، صفحة من تاريخ محمد على تأليف مرِى ، محمد على ومصر تأليف سنت جون ، خطط على باشا مبارك ، بعض كتابات ألسُن فِلِب ، « الخديوية » تأليف دِيسى ، « مصر » تأليف البارون دى مَلُرتى ، مصر والخديوى تأليف إدْوِن ديليون ، تكوين التاريخ الأوربى تأليف هَنْدرُوز ، دليل دار الآثار المصرية ، مصر الحديثة للورد كرومر ، الاقتصاد السياسى للطلبة المصريين تأليف الاستاذ طُد ، تاريخ القناطر الخيرية تأليف الميجر براون ، تكوين مصر الحديثة للسير أوكلند كُلفِن ، انجلترة فى مصر تأليف مِلْنَر ، تقارير معتمدى برطانيا العظمى فى مصر

هذا وان عظيم الشكران وجزيل الثناء لمن كان لهم آثار مساعدة فى تجميل رونق هذا الكتاب بالصور البديعة ، وأجدرهم بالذكر حضرة البارع الدقيق على افندى يوسف الموظف بتنظيم القاهرة

وحرر بالقاهرة فى ٨ ذى القعدة سنة ١٣٣٤ الموافق ٦ سبتمبر سنة ١٩١٦

# الباب الأول
# عهد الدولة العثمانية

## الفصل الأول
## الفتح العثمانى لمصر

العلاقات القديمة بين مصر وتركيا

كانت الدولة العثمانية منذ استتبّ سلطانُها بآسيا الصغرى على تصادُق ومصافاة لدولة المماليك الجراكسة المصرية ، تدور بين سلاطينهما رسائلُ الوداد وعقودُ المهادنة. وابتدأ ذلك من عصر السلطان الظاهر برقوق المصرى ومُعاصره السلطانِ يلْدِرِمَ « بايزيدَ » العثمانى

الحرب بين بايزيد الثانى وقايتباى

وبقيت هذه الحالُ مَرْعيَّة الى زمن السلطان « بايزيد الثانى » ابن محمد الفاتح إذ نازعه أخوه الأميرُ « جَمّ » فى الملْك ، فقاتله بايزيد وهزم جيوشه ، وفرّ جم الى الأشرف قايتباى سلطان مصر ملتجئاً فأجاره ، وطلب بايزيد تسليمه اليهِ فلم يجبه قايتباى ، فحقد عليه . وانضم ذلك الى النزاع القائم بينهما على إمارة أبناء ذى الغادر* ( التى كانت فى حماية مصر ثم تدخّلت الدولةُ العثمانيةُ فى شؤونها وادعت حمايتها ) ؛

* وهى احدى الدول التركمانية التى أسست على انقاض دول التتار ورأسها قراجا بن ذى الغادر وقد استولت على اكثر أرمينية وكردستان وديار بكر وخضعت أخيراً للمصريين فكان لا يتولى أمير منها الا باذن صاحب مصر

ثم ان أحد أمرائها التجأ الى العثمانيين مستنصرا فنصروه وولوه الامارة افتياتا على المصريين ، بل أمدوه بما انتصر به على ولاة مصر فكان ذلك سببا للنزاع بين الدولتين المصرية والعثمانية

والى ما بلغ بايزيد من أن قايتباى أخذ من رسول ملك الهند هدايا كان أرسلها الى السلطان بايزيد . فاتخذ بايزيد من كل ذلك ذريعة الى اعلان الحرب على الدولة المصرية ، فجهز جيشاً عظيماً توغّل فى البلاد الشامية الى قرب حَلَب حيث التقى بِهِ جيشُ المصريين ، فكانت الهزيمةُ على العثمانيين . فأتبعه بجيش آخر كانت عاقبته كسابقه . وزحف الجيش المصرى على البلاد العثمانية فالتقى بجيش جرّار عثمانى، فكانت الحرب بينهما سِجالاً مدة انتهت بالصلح والمصافاة ، إلاّ أنها صارت سبباً لتجسيم التنافس والتزاحم بين الدولتين على الاستئثار بالعظمة و بسط النفوذ والزعامة على الممالك الاسلامية

صلح غير دائم

اسباب جديدة للعداوة

من أجل ذلك لم يدم هذا الصلح طويلاً ، إذ أخذ العثمانيون من جهة يحرضون القبائل والامارات التابعة لمصر على التخلص من سيادتها ، ويضعون العراقيل فى سبيل تجارتها مع غربى آسيا وأواسطها ، مما جعل ورود الصوف ومنسوجاته وأنواع الفِرَاء الفاخرة والمماليك الجراكسة الى البلاد المصرية نادراً جدًّا بل ممتنعا فى أواخر أيام الغورى . وكان أشدّها على المصريين امتناعُ ورودِ الرقيق من المماليك ، إذ هم مادّة الجيش ورجالُ الحكومة . ومن جهة أخرى أخذ سلاطينُ مصر يُجيرون كلَّ من التجأ اليهم من أبناء السلاطين العثمانيين والأمراء الفارّين من وجه الدولة العثمانية، ثم استرسلوا فى الأمر وهبُّوا يُوادّون مَن عادى العثمانيين من سلاطين الدول المجاورة لهم ، مثل « أوزون حَسَن » سلطان العراق ثم بعده الشاه اسماعيل الصَّفَوِىّ ( المؤسس الثانى لدولة ايران الحالية ) وغيرهما . ولم تزد هذه المُوادّة على اكثرَ من تبادُل المراسلاتِ ، مع أن الشاه حاول جعلَها محالفة دِفاعٍ وهجومٍ فلم يُفلح لُبعد مابين الأُمتين فى المذهب ، وذلك من اغلاط الغورى . واستطار شررهذه الإِحن والأحقاد بسماح الغورى بأن يمرّ بطريق الشام الوفدُ الذى أرسله الشاهُ اسماعيل الى مملكة البُنْدُقية ليعرِضَ عليها أن يتحدا معاً على محاربة العثمانيين ، وبإجارة السلطان الغورى للأمير قاسم ابن أخى السلطان سليم الأول العثمانى ، واجارة الشاه اسماعيل للأمير

حقد سليم على فارس ومصر

مراد أخي قاسم، وكان السلطان سليم أراد قتلهما ، فطلبهما منهما فلم يجبياه . فكان ذلك ( الى خوفه من استفحال دولة الفرس الجديدة أو تحول المودة القليلة بين مصر وفارس الى حِلفٍ سياسي وتناصُر حربيّ ) سبباً لاعلان سليم الحرب على الفرس اولاً ثم على مصر ثانياً

محاربة فارس

ولما زحف السلطان سليم على بلاد الشاه اسماعيل وهزمه هزيمة منكرة أراد أن يكتسح جميع بلاده ويقضى على البقية من دولته . فوجد الشاهَ أتلف كلَّ ما خلفه في مدنه وقلاعه من المؤونة والذخائر ، وانتظر سليم ورود غيرها من بلاده ، فعلم أن قبائل التركمان وامارة الغادرية التابعة لمصر قد أغارت على قوافله ومنعت وصولها اليه ، فقلّت الأقوات في معسكره واضطرب الجيش ، فحرمه ذلك ثمرة انتصاره

مساعدة مصر لفارس

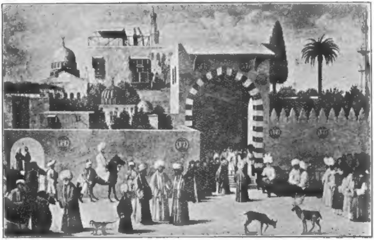
هذه كل المساعدة التي قامت بها مصر للشاه ، مع انها لو سيّرت جيشاً يقطع خط الرّجعة على العثمانيين لكان التاريخُ على غير ما هو عليه . فاضطُرَّ سليمٌ الى الرجوع الى بلاده منتقماً في طريقه من امارة الغادرية ، فقتَل أميرَها علاء الدين وضمَّ بلاده الى ملكه ، وولى غيرَه من أبناء اسرته الغادرية . واحتجَّ الغوري على ذلك ، فقابل سليم احتجاجهُ بارسال رأس علاء الدين اليه . وحينئذٍ علم الغوري أن الحرب واقعة لا محالة ، فاستعد لملاقاته بتجهيز جيش عزم على أن يقوده بنفسه ، ولكن بعد فوات الفرصة : فان الشاه اسماعيل لم يعد في القوة التي كانت له قبل : فقد هلكت أبطاله ، وتشتّت شملُ رجاله ، وخربت بلادُه ، فأمن السلطان سليم غائلته وتفرغ لحرب مصر . ومع كل هذا كان من الممكن انتفاع الغوري بما بقي للشاه من القوة ، ولكنه لم يفعل أو لم يُقنع الشاه بضرورة ذلك

استعداد الغوري للقتال

أراد الغوري أن يستجمع كل ما عنده من قوة العَدَد والعُدّة . وكانت موارد الثروة قد نضبت بمصر ، لقطع البرتقالِ طريقَ التجارة الهندية عليها ، فلم يكَدْ يهمُّ بجمع المماليك حتى تخاذلوا وتعللوا عليه بقلة النفقة المصروفة لهم وماهم فيه من العُسْر . وكان الفسادُ قد دب في أخلاقهم ، وقلّت وطنيّتهم ، وجرّأهم على ذلك مَيْلُ الغوري

الى مماليكه الخاصة الذين جلبهم لنفسه واتخذهم عُدَّةً له يتقوى بهم على المماليك القدماء اذا هموا به. وبعد تساهلٍ من الطرفين أمكن الغوريَّ اثناء شتاء سنة ١٥١٥-١٥١٦م (٩٢٢هـ) إعدادُ جيش يخرج به الى حدود آسيا الصغرى، فجمع فى هذا الجيش على قلته اكثر من فى مصر من رجال القوة الحربية والأدبية: فخرج فيه الخليفة العباسى، وقضاة المذاهب الأربعة، ورؤساء مشايخ الطرق الصوفية وكبار العلماء والأعيان، ورؤساء المغنين والموسيقيين والمضحكين وارباب الصناعات وغيرهم. وترك بمصر حامية من المماليك تقدر بنحو ألفين، وأناب عنهُ الدَّوَادارَ الكبيرَ « طومان باى » ابن أخيه. وبلغهُ أن الأسطول العثمانى يقصِدُ الاسكندرية، فعزَّز حاميتها، وحصَّن قلاعها بنحو مائتى مدفع. وخرج من القاهرة بموكب عظيم تتقدَّمهُ الطبولُ والزُّمور وتُدَق أمامَه الكؤوس. خرج بهذا الجيش فى شدَّة حَمارَّة الصيف على غير عادة الملوك فى خروجهم،

خروج الجيش المصرى الى الشام



السلطان الغورى فى حاشيته – [ وهو الجالس عن يمين المدخل ]
( رسم على افندى يوسف عن صورة بدار الآثار العربية )

فقاسى الجنودُ الأهوالَ والشدائدَ فى اجتياز صحراء طور سيناء وأوْدِية فلَسْطين، ودخل كلَّ مدينة فى الشام بموكب عظيم وخاصَّة مدينةَ دِمشْقَ وحَلب وحَماة

خروج الجيش العثمانى

وخرج السلطانُ سليم من القسطنطينية بجيش عظيم مُدرّبٍ على الحرب ذكر بعضُهم أنهُ يبلغ ١٥٠ ألف مقاتل مسلّحين بكثير من المَكاحِل والمدافع والبُندُقيات. فلما صار على حدود الشام أراد أن يَكيـد للمصريين بمكيدتين، نجح فى احداهما وأخفق فى الأخرى:

خدع سليم للغورى

ففى الأولى تمكن من أن يستميل اليهِ «خيْربك» نائب حلب من قِبَل مصر و«جان بَرْدِى الغزَالى» نائب حماة، ووعد الأول بولاية مصر والاخر بولاية الشام. ومع أن نائب الشام وغيرَه أخبروا السلطان الغورى بخيانة خير بك لم يعبأ بكلامهم لِما يرى من شدة تواضعه واخلاصه

رسل سليم للغورى

وفى الثانية أراد أن يخدع الغورى بصَرفه عن القتال وأخْذِه على غِرة، فأرسل اليهِ أولاً أثناء برُوزه من القاهرة بتوسُّط الخائن نائب حلب رسالةً يعتذر فيها عما فرط منه فى شأن البلاد التابعة لمصر ويعِدُه بأن يُعيدها اليه ويفتح طريق تجارة الرقيق والصوف والفراء، وبالجملة يفعل كل ما يطلبه الغورى. وكاد الغورى وأمراء عسكره يُخدعون بذلك لولا مراعاتهم جانب الحيطة بالخروج الى الشام. وأرسل اليه ثانية وهو بحلب رسلاً عليهم أحد قواده وقاضى «عسكر الروم ايلى» يصرفون الغورى عن قصده، ويؤكدون إخلاص سلطانهم له وشدة رغبته فى المهادنة والصلح بشرط أن لايتدخّل الغورى بينهُ وبين الشاه اسماعيل الذى لم يقصد سليم بخروجه غيرَه والذى أفتى علماء القسطنطينية بجواز حربه وقتله لرَفضه وخروجه عن شعائر أهل الملّة. فأكرمهم الغورى وسيَّرهم معزَّزين الى معسكر سليم، وأرسل اليه رسله صحبة أمير كبير من المصريين يعرض عليه توسُّطه فى الصلح بينهُ وبين الشاه. فغضب سليم وهمَّ بقتل الرسول، فشُفِع فيـه فأطلقه مُهانًا مُشَعَّثًا وقال له: قل لأستاذك ان اسماعيل الصفوى خارجيٌّ وأنت مثلُه، وسأبدأ بك قبله، وموعدنا «مَرْجُ دابق» (على بعد يوم شمالى حلب). فخرج الغورى فى نحو ثلاثين ألف مقاتل، وخلّف أمواله وذخائره فى قلعة حلب الحصينة فى حامية لها. فلما كان صبيحة يوم الأحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ﻫ (١٥١٦م)

واقعة مرج دابق

( وهو اليوم الذى سقطت فيه الدولةُ المصريةُ من عالم الدول المستقلة العظيمة ) دهَمه العثمانيون بجيش يربو على الجيش المصرى بأضعاف ، فعبَّأ الغورى كتائبه . وكان من غلطاته الكبرى فى خَرْجَته هذه أنه آثر مماليكه الخواصَّ ( الذين اشتراهم بماله ) بكل كرامة ورعاية وإنعام ، وقصَّر فى استجلاب مودة المماليك القدماء من عتقى السلاطين والأمراء ، حتى شاع بينهم أن السلطان يريد أن يجعلهم أمام مماليكه الخواص ليكونوا دَرِيئةً لهم من مدافع العثمانيين التى تفوق مدافع المصريين عظماً وسرعة قَذْفٍ وبُعْدَ مرمىً . فسدت نياتُ بعضهم ، وانضمَّ ذلك الى خيانة « خير بك » و « جان بَردى الغزالى »

فلما التقى الجمعان حملت الميمنةُ والقلبُ حملة أزالوا بها العثمانيين من مواقفهم ، وقتلوا منهم بضعة آلاف ، واستولوا على كثير من أعلامهم ومدافعهم ، وكادت الغلبةُ تكون للمصريين. وهمَّ السلطان سليم بالهرب ، لولا أن خير بك انهزم بكتيبته (وكان على الميسرة ) ، وتبعهُ جان بردى الغزالى ، فاختل نظام الجيش المصرى . واتفق أن وصل للعثمانيين فى ذلك الوقت مدد من المدفعية ، وظهر كمين لهم أحاط بالجيش المصرى . ورأى المماليكُ القدماء من المصريين أن المماليكَ الخواصَّ لا يقاتلون ، ففترت هممُهم ووَهَنَتْ عزائمهم ، وتخاذلوا ، ولم يصبروا على نيران المدافع العثمانية ، فركنوا الى الفرار ، وبقىَ السلطان الغورى فى جماعة قليلة يناديهم ليعودوا فلم يلتفتوا اليه ، ففُلِج لساعته ، وسقط عن جواده . ولما شاع موته فى المعسكر تفرَّقوا ، واستولى العثمانيون على مُعسكرهم ، وغنِموا منه مالا يُحصى ، ولم يوقف للغورى على أثر ، واستمرت الواقعة من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر . ولما رجع المنهزمون الى حلب انقلب عليهم أهلها ، واستولوا على ودائعهم عندهم ، وفتكوا بهم ، فلاقوا منهم شرًّا مما لاقوا من العثمانيين . وانتظر أهل حلب قدوم السلطان سليم فسلّموه المدينة ، واستولى على قلعتها بدون قتال ، وغنم منها ألوف الألوف من الأموال والذخائر . وخُطب باسمه فى مسجدها ، وانضم اليه خير بك وغيره من المماليك الخوَنة ، وحلقوا لحاهم أو قصروها ، وتزيوا بزى

موت الغورى

العثمانيين. ثم ذهب السلطان سليم الى دمشق ، فاستولى عليها ، ودانت له جميع مدن الشام بلا مُنازع . ومكث بها مدةَ ثلاثة أشهر يرتّبُ نظامها ، ويُحكِمُ أمورها

عودة الجيش الى مصر

أما بقية المنهزمين من المصريين فرجعوا الى مصر في حالة يرثى لها ، ورجع معهم جان بردى الغزالى ، وكأنهُ قصد برجوعه الى مصر أن يَفُتَّ في عَضُدِ المصريين ، ويكون عونًا وجاسوسًا للعثمانيين ، وكانت أفعاله كلها في مصر ترمى الى ذلك ، لأنهُ خرج عَقِبَ دخولهِ مصر بحملة الى الشام ليُنقِذ غزةَ من العثمانيين ، ففرق عساكره في البلاد ، ولم يلاق العثمانيين الاَّ بفئة قليلة لم تلبث ان انهزمت ، وكانت هزيمتهم سببًا في فشل طومان باى ( الذى خلّفه الغورى سلطانًا على مصر ) في تأليف جيش عظيم آخر يدافع عن القاهرة . فقد كابد في جمعه مشقات عظيمة ، وتخاذل المماليك

طومان باى يحاول المقاومة

واشترطوا عليه شروطاً أشدّ مما اشترطوا على الغورى وبقُوا في خلاف : هل يحاربون العثمانيين على حدود جزيرة الطور وهم منهوكو القوى من قطع الصحراء أو في شمالي القاهرة. حتى دهمتهم جيوش العثمانيين وصارت على مقربة من القاهرة . فخرج طومان باى في جيش مختلط من جميع أجناس المحاربين ، وأسرع في حفر الخنادق ونصب المدافع في ظاهر الرَّيْدانيّة ( صحراء العباسية وعين شمس الى بركة الحج ) . وكان يظن أن الجيش العثمانى يقابله وجهاً لوجه فيها، فكان غيرُ ما ظنّ، إذ لم يكَدْ الجيشان يتلاقيان

واقعة الريدانية

يوم ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ حتى افترق الجيش العثمانى لكثرته الى ثلاث فرق: فرقة كانت وِجهتها المصريين بالريدانية ، وفرقة سارت تحت الجبل الأحمر والمقطم وأحاطت بهم من اليمين الى الخلف ، وفرقة سارت الى جهة بولاق وأحاطت بهم من الشمال . وصبر المماليك ساعةً قُتل فيها عدد عظيم من العثمانيين وقوادهم منهم سِنان باشا أكبر القواد والوزراء للسلطان سليم ، ولم يدم ذلك إلاَّ رَيْثَما تمت حركة الالتفاف ، وعندها وُجهت المدافع والبنادق على المصريين من كل صَوب ، ولم يكن

دخول العثمانيين القاهرة

لهم نظيرها ، فلم يسعهم إلاّ الفرارُ . وصبرَ طومان وجماعته صبرَ الأبطال ، ولكنهم اضطروا أخيراً الى الفرار الى الجيزة . وسار العثمانيون الى القاهرة فدخلوها فِرَقًا ،

ونزل السلطان سليم بمعسكره الخاص على ساحل بولاق والجزيرة الوسطى * ولم يدخل المدينة . وبقى كذلك الى يوم الثلاثاء رابع المحرم سنة ٩٢٣ هـ . فلما كانت ليلةُ الأربعاء خامس الشهر لم يشعر السلطان سليم بعد صلاة العشاء إلاَّ وقد هجم عليه فى معسكره السلطان طومان باى بمن التف حوله من المماليك . فاختل نظام المعسكر واختلط الحابلُ بالنابل ، وساعد المماليك كثيرٌ من العامة والغوغاء ونواتيُّ بولاق . فما بزغ الفجر حتى قُتل من العثمانيين خلق كثير . ثم جاءت فرقة أخرى مدداً للمماليك بقيادة الدوادار الأمير علاَّن من جهة الناصرية ، وحَمِى وَطيسُ القتال بين الفريقين من بولاق الى الناصرية ، وملَكَ المماليك اكثر المدينــة بعد أن قتلوا الألوف فى شوارعها وحاراتها من العثمانيين المتفرقين . ثم جمع العثمانيون شملهم وطردوا المماليك من حى بولاق الى قناطر السباع ( السيدة زينب ) حتى تحصنوا ( المماليك ) بحى الصليبة وحفروا الخنادق حوله من جميع الجهات . وخُطب يوم الجمعة للسلطان طومان باى على منبر جامع شَيخون وغيره ، واستمر القتال كذلك أربعة أيام بلياليها من ليلة الأربعاء الى صبيحة يوم السبت ٨ المحرم . فحاصر العثمانيون حى الصليبة من كل جهاته ، واشتد الامر على المماليك فتخاذلوا وتسللوا عن السلطان طومان باى . فبقى يقاتل فى نفر من المقدَّمين الأمراء وبعض العبيد ، حتى اذا لم يبقَ للدفاع فائدة فرّ الى بركة الحبش ( بين الساحل القبلى بمصر القديمة وبين معادى الخبيرى ) وعَبَر من ساحل طرة الى ضفة النيل الغربية بالجيزة . واستولى العثمانيون على المدينة مرة أخرى . وطلع السلطان سليم الى القلعة بعد ذلك بعشرة أيام ، واستحوذ على ما فيها من الأموال والذخائر . وبقى بالقلعة نحو شهر شاع فى خلاله ان طومان باى سار فى عسكر عظيم ممن تراجع اليه من المماليك والتف حوله من عرب الصعيد ، وانهُ قادم الى القاهرة

مجهودات طومان باى الاخيرة

القتال فى شوارع القاهرة

وبعد أيام جاءت رسل من عند طومان باى الى السلطان يعرضون عليه الصلح بأن تكون مصر تحت سيادة العثمانيين فى الخطبة والسكة والخراج ، وأن يكون

عرض الصلح

---

* هى الجزيرة التى أمام قصر النيل

طومان باى نائباً عن سلطان العثمانيين فى مصر. فقبل ذلك السلطان سليم وأرسل اليه وفداً من قضاة مصر وأعيانها و بعض المقدمين. فلما وصلوا الى السلطان طومان باى بجهة البهنسا ثار المماليك بطومان باى، ولم يرضوا بالصلح وقتلوا بعض رجال الوفد، فلم يسع طومان باى الاّ مجاراتهم مكرَهاً. وتقدم الى بلاد الجيزة لينازل العثمانيين فى موقعة فاصلة، فاجتاز السلطان سليم اليه النيل بجيوشه. والتقى الجيشان بقرب « وردان » يوم الخميس ١٠ ربيع الأول سنة ٩٢٣ ﻫ ( ١٥١٧ م ) فدارت الدائرة أولاً على العثمانيين وقتل منهم مقتلة عظيمة. إلاّ أن نيران المدافع والبندقيات العثمانية مزّقت جيش المصريين المختلط ( الخالى يومئذٍ من اكثر المعدات الحربية ) كل مُمزَّق، فكانت هذه الموقعةُ الخامسة هى ختامَ الوقائع الحربية التى دافع بهـا المماليكُ المصريون عن بلادهم، ولم يقم لهم بعدها قائمة إلاّ ما كان من استبداد بعض سلالتهم بشأن مصر كما سيأتى

واقعة وردان

القبض على طومان باى

أما السلطان طومان باى فإنه لما فرّ من وجه السلطان سليم ذهب الى أحد رؤساء الأعراب بالبحيرة المدعو « حسن بن مَرْعى » وكان له عليه أيادٍ عظيمة، فاختفى عنده واستحلفه أن لا يخونه، ولكنه نقض الحَلف وكاشف السلطانَ سليماً بأمره، فأرسل اليه عسكراً قبضوا عليه متنكراً فى زِى الأعراب، وجاءوا به الى السلطان سليم. فحين رآه قام له وعاتبه ببعض الكلام، وبقى معه فى معسكره عدة أيام يحضر مجلسهُ ويسائلهُ السلطان سليم عن شؤون مصر وادارتها وسياسة أهلها وكيفية ريّها وجباية خراجها وبقية أمورها، مما جعل طومان باى يطمئن اليهِ ويظن من إقباله عليهِ أنه سيكون نائباً عنه فى ملك مصر

قتل طومان باى

غير أن ذلك كان استدراجاً من السلطان سليم، إذ بعد ما وقف منه على كل ما أراد أمر فى يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ ﻫ ( ١٥١٧ م ) بأن يعود بطومان باى الى القاهرة. فدخلوا به وهو بزى الأعراب من جهة شارع أمير الجيوش الى البرقوقية، حتى اذا صار تحت باب زَوِيله أنزلوه عن فرسه. وكان لايدرى ماذا

يُضنع به ، فلما رأى الحبال مدلاّة من حَلْقة الباب علم أنه مشنوق ، فتشهد وقرأ الفاتحة وسأل الناس أن يقرءوا له الفاتحة ، وشُنق بين ضجيج الناس عليه بالبكاء . وبقى مصلوبًا ثلاثة أيام ، ثم أُنزل ودُفن خلف مدرسة الغورى (جامع الغورى)، وكان له من العمر نحو ٤٤ سنة . ولم يُشنق ممن حكم مصر من الخلفاء والسلاطين سلطان غيره

السلطان سليم فى مصر بعد الفتح

أما السلطان سليم فانهُ أقام بمصر نحو ثمانية أشهر . فكان معسكره أول الفتح ببولاق والجزيرة الوسطى؛ ثم أقام بالقلعة نحو شهر ثم بمدينة الجيزة وامبابة قريبًا من شهر ثم أقام بجزيرة الروضة والمقياس مدة ثم توجه بجنده الى مدينة الاسكندرية ، فكانت



السلطان سليم — فاتح مصر

( رسم على افندى يوسف )

مدة غيابه وايابه ١٥ يوماً. ثم رجع وأقام بجزيرة الروضة وبُنِيَ له بها بجانب المقياس في طرف الجزيرة الجنوبي جَوْسَق من الخشب أقام به بقية المدة إلاّ زمناً يسيراً أقامهُ ببيت الأشرف قايتباى المطل على بركة الفيل

وفى أثناء اقامته بمصر سنّ لها بعض أنظمة ادارية ، ونقل الى القسطنطينية اكثرَ ما فى القلعة ومنازل الأمراء والسلاطين والمساجد والزوايا والأربطة من النفائس والذخائر والكتب حتى أعمدة الرخام ومُركّباته

ونفى من مصر الى القسطنطينية كل أبناء السلاطين واكثر المقدمين والأمراء والخليفة العباسى بعد ما نزل له عن الخلافة واكثر العلماء والقضاة وكل من له نفوذ وإمرة بمصر

ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات المشهورين بإجادة العمل فيها من كل الطوائف ، فجمعوا منهم نحو الف صانع ونقلوهم الى الاستانة ليذيعوا الصناعات الدقيقة فيها ، فرجع بعضهم الى مصر بعد عهده وبقى آخرون . قيل انه بطل فى مصر بذلك نحو ٥٠ صناعة فكان كل ذلك سبباً فى تأخر مصر فى الصناعات

أما ولاية مصر فاختار لها السلطان سليم أثناء اقامته اكبر وزرائه « يونس باشا » والياً عليها، ثم رجع عن ذلك قبيل سفره من مصر وولى عليها ملك الأمراء « خير بك » وولى على الشام « جان بردى الغزالى »

وباستيلاء السلطان سليم على مصر صارت البلاد جزءاً من الدولة العثمانية

ويجدر بنا قبل الكلام على حكم العثمانيين فى مصر أن نذكر شيئاً عن منشئهم ونهوضهم، وأهم الحوادث فى تاريخهم أيام حكمهم فى مصر، حتى نكون على علم بأهم الأحوال التى أحاطت بمصر فى ذلك العهد

# الفصل الثانى

## نبذة فى تاريخ الدولة العثمانية

### ١ — ﴿ منشأ العثمانيين ونهوضهم ﴾

الجنس التركى

العثمانيون جيل من الأجيال التركية المتشعبة من الجنس المغولى المعتبر من أعظم الأجناس البشرية عدداً . وأصل منشئه « بلاد منغولية » ، ومنها انتشر غرباً وشمالاً وتشعّبت منه فى آسيا أمم وقبائل استقلت بنفسها وصار لبعضها ملك كبير : مثل أمة « الهُون » المفتتحة شرقى أوربا يقودها زعيمها « أتيلاً » ، ومثل دولة الأتراك السلاجقة[1] المستَبِدَّة بِملك العباسيين، ومنهم الدولة المعروفة بسلطنة الروم السلجوقية، وقد سبق ذكرها فى الكلام على الحروب الصليبية[2]

وفى أوائل القرن السابع الهجرى ( الثالث عشر المسيحى ) قامت للمغول دولة وثنية قوية بقيادة زعيمهم العظيم « جنكيز خان » ثم حفيده « هولاكو » ، فاكتسحت ممالك آسيا الوسطى والغربية ، وقوّضت عرش الخلافة العباسية، وأتت من فظائع التقتيل والتخريب ما لا ينساه التاريخ . وكانت القبائل التركية الاسلامية تفرّ من وجوههم مؤثرين الهجرة على الخضوع لجَورهم . ومن هذه القبائل قبيلة صغيرة تدعى «الأغوز» ، خرجت من ديارها فى أواسط آسيا وغرّبت حتى وصلت الى آسيا الصغرى التى بقى جزء منها وقتئذٍ فى حوزة السلاجقة : تلك هى القبيلة التى نشأت منها الدولة العثمانية

ارطغرل

وبينما تتجول هذه القبيلة فى آسيا الصغرى برأسها كبيرها «أرْطُغْرُلْ» إذ وجدت

---

(١) سموا السلاجقة نسبة الى « سلجوق » رئيس القبيلة التى نشئوا منها
(٢) كتاب تاريخ مصر الى الفتح العثمانى

جيشين يقتتلان : أحدهما من المغول، والآخر من السلجوقيين. فانضمت الى الجيش الذى كاد ينهزم ، وهو السلجوقى ، فانتصر بها على المغول وطردهم من بلاده ، فرأى السلطان السلجوقى « علاء الدين » وجوب مكافأة « أرطغرل » على معونته له ، فأقطعه قطعة من الأرض قرب مدينة « بُرُوسة » على تخوم أملاك الدولة الرومانية الشرقية تسمى « إسكى شهر » ( سُلطانونى ) . فكانت مهد الدولة العثمانية، وفيها وُلد « عثمان » بن « أرطغرل » الذى تُنسب الدولة اليه

عثمان — وُلد عثمان سنة ٦٥٦ ﻫ ( ١٢٥٨ م ) فنشأ مولعاً بالحرب مُظفَّراً فيها ، فانتزع فى صباه من دولة الروم الشرقية مدينة «قره حِصار » وغيرها. فمنحه سلطان «قونية» لقبَ « بك » ورقّاه الى مرتبة الأُمراء

وفى سنة ٦٩٩ ﻫ (١٣٠٠م) قضى المغول على البقية الباقية من الدولة السلجوقية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحكموا تلك البلاد بأنفسهم ، فاستقلت فيها عشرُ إمارات تركية ، إحداها إمارة «عثمان» الذى اعتُبر من ذلك الحين المؤسس للدولة العثمانية وأول حاكم مستقل فيها ، أما باقى الإمارات التركية فاندمجت فى هذه الإمارة على توالى الأيام ، وسمّوا أنفسهم عثمانيين أيضاً

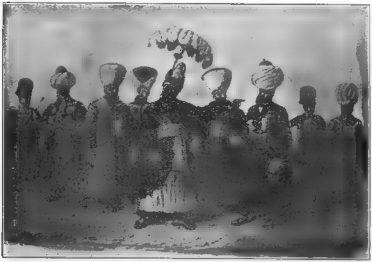
فتح بروسة — وأخذ عثمان ينظّم أملاكه ويوسع نطاقها فى الجهة الغربية ، فاستولى على كثير من أملاك الدولة الرومانية الشرقية. وقبل وفاته فتح ابنُهُ «أُرخان » مدينة « بروسة » بعد حصار طويل ، فصارت بعدُ حاضرَةَ الدولة

أرخان — وفى سنة ٧٢٦ ﻫ (١٣٢٦م) خلف عثمان ابنُهُ « أُرخان » ( ٧٢٦ – ٧٦١ ﻫ : ١٣٢٦ – ١٣٥٩ م ) ، فواصل الحرب على الدولة الرومانية الشرقية ، فافتتح منها « نيقوميديَة »و« نيقية » ( أزنيق ) وكثيراً من البلاد الأسيوية التى كانت لم تزل فى حوزتها. ثم جنح «أرخان» الى السلْم ، فقضى نحو عشرين عاماً بلا طَعْن ولا نِزال ، عُنِى فيها بتثبيت دعائم ملكه فى البلاد التى فتحها ، وإصلاح الحكومة وتنظيم الجيش، وقد كان لعمله الأخير اكبر أثر فى اتساع رُقعة المملكة وتأييد مجدها ، وذلك بفضل

إنشاء طائفة « الإنكشارية » ( العسكر الجديد ) ، التى كوّنها وعُنى بتدريبها حتى صارت أهم فرقة فى الجيش

الانكشارية

ومنشأ هذه الطائفة ان الدولة كانت تأخذ كل عام نحو ألف صبى من ابناء النصارى الذين قُتل آباؤهم فى الحرب وتُلقّنهم الدين الإسلامى وتُربّيهم تربية عسكرية منظمة ، منطبقة على أدق القواعد الحربيـة التى امتاز بها الترك فى ذلك الزمان، حتى صارت هذه الطائفة لامثيل لها فى القوة والإقدام والمرانة على الحرب . وكان يُفتح أمامهم طريق الرقىّ الى اكبر المناصب فى الدولة ، فعُدّ ذلك اكبر مشجع لهم على الطاعة وخوض غمار الحروب ، وبقى هذا النظام متبعاً نحو ثلاثة قرون . غير أنهُ تسوهل فيهِ أُخرَيات هذه المدة ، فكانت الجنود الجدد تُجمع من الاسرات التركية ، ومن أبناء الانكشارية أنفسهم . ولما طال عليهم الأمد استأثروا بالسلطة، وأساءوا استعمالها ، وأصبحوا منبع الشغب والقلاقل فى الدولة ، فقضى عليهم السلطان محمود الثانى أوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٢٦ م ( ١٢٤١ ﻫ )



بعض ضباط الانكشارية

( رسم على افندى يوسف )

مبدأ الفتوح العثمانية باوروبا

ولما أتمَّ « أرخان » تنظيم الجيش و إصلاح الشؤون الداخلية عاد الى العمل على توسيع نطاق أملاكه ، فأغار على الشاطئ الأوربى ، واستولى فيه على مدينة « غليبولى » وغيرها من المدن شمالى مضيق الدردنيل ( ٧٥٨ ﻫ : ١٣٥٧ م ) ، فكان ذلك مبدأ الفتوح العثمانية فى أوربا ، التى أخذت من وقتئذ تزداد وتعظم ويقفو بعضها بعضاً

مراد الاول

ولما تولى الملك « مراد الأول » ابن أرخان ( ٧٦١ – ٧٩٢ ﻫ : ١٣٥٩ – ١٣٨٩ م ) همَّ بمواصلة تلك الفتوح ، فأخضع معظم بلاد « الرُّومَلى » ( الروم ايلى ) واستولى فيها على « أدِرْنَة » ( التى أصبحت عاصمة جديدة للدولة ) و « فِلِبُّوبُوليس » ( فِلِبَّة ) وغيرهما من المدن العظيمة ، فضاق بذلك نطاق أملاك الدولة الرومانية الشرقية

اخضاع الروملى

وهال هذا الفوزُ الكبير أمراء أوربا . فعزموا على ردّ الترك الى بلادهم فى آسيا ، فخرج لذلك الوجه ملوك « البوسنة » ( البُشْناق ) و « المَجَر » و « الصِّرْب » بجيش عظيم ساروا به الى « أدِرْنَة » . فهزمهم الترك شر هزيمة سنة ٧٦٥ ﻫ ، ( ١٣٦٣ م ) . ثم قفوا على أثر ذلك بإخضاع « بُلْغاريا » وضمها الى أملاكهم سنة ٧٩١ ﻫ ( ١٣٨٨ م ) فعاوَد الفزَعُ إمارات أوربا الشرقية ، وتحالفوا على قهر مراد . فسار الى الصرب ليردّهم ، فالتقى بهم فى واقعة « قُوصوَة » الشهيرة سنة ٧٩٢ ﻫ ( ١٣٨٩ م ) ، فاصطلم جيوشهم اصطلاماً . الاّ أنه قُتِلَ على إثر الموقعة : طعنه صربى ثار به من بين القتلى . وكانت نتيجة تلك الواقعة أن دخلت « الصرب » أيضاً فى حوزة الدولة العثمانية

اخضاع بلغاريا

والصرب

ولم تكن غزاوت مراد قاصرة على أوربا ، بل كان سيل جيوشه يتدفق على آسيا فاستولى فى أوائل حكمه على مدينة « أنْقِرَة » ، وواصل بعدُ فتوحَه فيها ، فاندرجت أربع من الإمارات العشر التى قامت على أنقاض دولة السلاجقة فى سلك الأملاك العثمانية

بايزيد الاول

ثم خلفه ابنه « بايَزيد الأول » ( ٧٩٢ – ٨٠٥ ﻫ : ١٣٨٩ – ١٤٠٢ م ) ، فلم يقلّ عن أبيه مهارةً وإقداماً . فأخضع باقى الإمارات التركية فى آسيا ، ووطّد

أركان دولته فى أوربا ، وزاد عليها كثيراً من مدن الرومّلى ، التى كانت لم تزل بعد فى يد المسيحيين

حروب صليبية أخرى تثار على العثمانيين

من أجل ذلك عمَّ الهول والفزع معظمَ الأوربيين ، من كثرة فتوح العثمانيين وسرعة تقدمهم فى أوربا ، وقامت ضجة دينية للحضّ على غزاتهم . فقام البابا يدعو الناس باسم الدين الى مقاتلتهم ، وخرج لذلك جيش أوربى عظيم بقيادة « سيجسْمُنْد » ملك المجر ، ضم بين كتائبه كثيراً من فرسان فرنسا وألمانيا . وكان بايزيد إذ ذاك غائباً فى آسيا ، ففاز الأوربيون فى بادئ الأمر ، واستردوا من الترك كثيراً من المدن

واقعة نيقوبوليس

ثم شرعوا فى حصار مدينة « نيقوبوليس » ، وهى من أمنع المدن على نهر « الطونة » فلما علم بايزيد بذلك أسرع للقائهم ، فهزمهم هزيمة تُعدّ من أنكر الهزائم التى دوَّنها التاريخ ، بحيث لم ينج من جيوشهم الا النزر اليسير ، سنة ٧٩٩ هـ ( ١٣٩٦ م )

وشرع بايزيد بعد واقعة نيقوبوليس هذه فى غزو بلاد اليونان ، فأخضع منها « تِساليا » و « أبيروس » ، وكان على وشك التأهب لفتح القسطنطينية ، التى طالما تاقت نفسه ونفسُ الفاتحين من المسلمين لغزوها ، لولا أن داهمته غارة التّتار على أملاكه الأسيوية بقيادة الجبَّار الشهير « تَيْمُورْلَنك » . فخرج بايزيد لِصدّه ، وتقابل الجيشان

واقعة انقرة

فى « أنقِرَة » سنة ٨٠٥ هـ ( ١٤٠٢ م ) . فكانت الهزيمة على العثمانيين ، وأُخذ بايزيد أسيراً* ، فبقى فى أسره حتى مات كمداً بعد ذلك بثمانية أشهر

وقد كادت هذه الهزيمة تكون قاضيةً على العثمانيين ، لولا أن هلَك « تيمورلنك » وتشتت شمل دولته إثر وفاته . وكان لبايزيد أربعة أولاد ، بقوا عشر سنين يقتتلون من أجل العرش

محمد الاول

ثم انتهى الأمر بتغلب أحدهم « محمد الأول » ( ٨١٦–٨٢٤ هـ : ١٤١٣–١٤٢١ م ) فكان من خيرة سلاطين آل عثمان : لمَّ شعث الدولة بعد أن مزّقها « تيمورلنك » وكبح جماح الإمارات التى كانت أخذت تتمرد على الدولة لِما رأته من انهزامها الشنيع ،

* من الاقاصيص المتداولة انه وضع فى قفص من حديد

وأصلح ما أفسدته الفتن التي حدثت بينهُ وبين إخوته قبل خلوص الملك له . ولم يمض عليه ثمانية أعوام حتى استرجع للدولة كل ما كان لها قبل واقعة أنقرة . فكان ذلك من أمجد ما وعاه التاريخ للدولة العثمانية

مراد الثاني

ومات السلطان « محمد الأول » سنة ٨٢٤ هـ ( ١٤٢١ م ) في الثالثة والثلاثين من عمره ، فخلفه « مراد الثاني » ( ٨٢٤ — ٨٥٥ هـ : ١٤٢١ — ١٤٥١ م ) ، فعمل على مواصلة الفتوح التي وقفتها غارة تيمورلنك . وكان إمبراطور دولة الروم الشرقية قد مالأ أحد المطالبين بالملك من أبناء مراد ، فقابل ذلك مراد بمحاصرة القسطنطينية ، وقد كاد يفتحها لولا أنه اضطر الى فض الحصار عنها لإخماد ثورة أثارها عليه في آسيا أحد اخوته

غارة هونياد

ثم قامت بأوربا نهضة جديدة لإخراج العثمانيين من هذه القارة . فخرج لذلك جيش جرار : جُمعت كتائبه من ممالك أوربية عديدة ، يقوده « هُونْيَاد » القائد المجري العظيم ، الذي لم يرَ الترك قبل ذلك أحـداً من المسيحيين في بأسه وبطشه . فاكتسح الجيش كل شيء أمامه حتى اجتاز جبال البلقان ، فاضطر السلطان مراد الى عقد مهادنة مع المسيحيين لمدة عشر سنوات ، على أن ينزل عن الصرب ويعطى بلاد « الأفلاق » للمجر ( معاهدة إزّجِدِن سنة ٨٤٨ هـ : ١٤٤٤ م )



هونياد المجري

( عدو الترك العنيد )

ثم رأى مراد أن يستريح من عناء الملك ، فنزل عن العرش لابنه « محمد الثاني »

واقعة ورنة

( وكان حديث السن ) ، وأقام بآسيا يطلب الراحة . فلما رأى المسيحيون ذلك طمعوا فى الدولة ، فنقضوا عهدهم ، وزحفت جيوشهم بقيادة «هونياد» على الأراضى العثمانية ، واستولت على كثير من حصون بلغاريا . فلما علم مراد بذلك رجع الى الملك وسار بجيش اليهم . وكانوا قد استولوا على « وَرْنَة » ، فالتقى بهم خارج المدينة فى معركة فاصلة ، انتهت بانهزام المسيحيين هزيمة شنيعة ، وقُتل فيهـا بعض ملوكهم وأمرائهم سنة ٨٤٨ هـ ( نوفبر سنة ١٤٤٤ م ) . وكان العثمانيون أثناء الموقعة يحملون فى جملة أعلامهم لواء معلقاً عليه صورة من المعاهدة تذْكِرَةً للأعداء بغدرهم ونقضهم للعهود والمواثيق . ثم أتم مراد إخضاع البوسنة والصرب، ومات عام ٨٥٥ هـ (١٤٥١م) فترك لابنه محمد الثانى ملكاً واسعاً ثابت الأركان

تولى «محمد الثانى» الشهير بمحمد الفاتح ( ٨٥٥ — ٨٨٦ هـ : ١٤٥١ — ١٤٨١ م ) وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، فبادر بالتأهب لفتح القسطنطينية ، وأعدّ لذلك المعدّات العظيمة ، وفى سنة ٨٥٧ هـ ( ١٤٥٣ م ) تمّ له فتحها بعد أن أعيا كثيراً من ملوك المسلمين قبله ، فقضى بذلك على دولة الروم الشرقية القضاء الأخير . ويُعدُّ فتح القسطنطينية من أهم الحوادث التاريخية، كما يعتبر عام فتحها (٨٥٧هـ : ١٤٥٣م ) مبدأ التاريخ الحديث

## ٢ — ﴿ اضمحلال الدولة البوزنطية* ﴾

### وسقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين

ذكرنا فى كتاب « تاريخ مصر الى الفتح العثمانى » أن قسطنطين الأكبر نقل عاصمة الدولة الرومانية الى مدينة « بوزنطة » على شواطئ البوسفور سنة ٣٣٠ م ،

* اى الدولة الرومانية الشرقية . سميت البوزنطية نسبة الى بوزنطة الاسم القديم لمدينة القسطنطينية . وتعرف أيضا بالدولة « الاغريقية » لانطباع المسحة الاغريقية فيها قبل نقل العاصمة اليها بمدة طويلة

وأنها سُمّيت من ذلك الحين بالقسطنطينية منسوبة اليه . وفى سنة ٣٩٥ م تم تقسيم الدولة الى قسمين : الدولة الغربية وعاصمتهـا رومية ؛ والدولة الشرقية ، وعاصمتها القسطنطينية

فلم تعمّر الدولة الغربية طويلاً لكثرة غارات الأمم المتبربرة عليها ، اذ استولى عليها القوط سنة ٤٧٦ م

أما الدولة الشرقية فلبثت نحو ١٠٠٠ سنة تمكنت فيها بفضل مناعة موقعها من رد غارات الأمم المتبربرة الأوربية من القوط والسّلاف وغيرهم ، كما صدت غارات الفرس والعرب عن حاضرتها نفسها وعن معظم أوربا . ولكنها لم تستطع الدفاع عن اكثر أملاكها خارج أوربا : فقد رأينا كيف نزع العرب من يدها شرقى آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وبرقة وافريقية وجزائر البحر الأبيض الشرقية

أسباب الاضمحلال الاخير

أنهكت كل هذه المكافحات قوى الدولة وفتت فى عضدها ، الى أن دخلت عليها عوامل فناء أخرى شديدة كان فيها القضاء على البقية الباقية منها . وهذه العوامل الجديدة ترجع الى ثلاثة حوادث عظيمة وهى : —

(١) غارة الصليبيين على القسطنطينية فى احدى حروبهم الصليبية التى شنوها على المسلمين ، وتأسيسهم دولة لاتينية بها استمرت نحو ٦٠ عاماً ( ٦٠٠-٦٦٠ هـ : ١٢٠٤ - ١٢٦١ م )

(٢) مهاجمة الترك لأملاكها من كل جانب

(٣) انتشار الوباء العظيم المعروف بالموت الأسود

١. غارة اللاتين

أما غارة الصليبيين على القسطنطينية فبيانها أن حملة صليبية كبيرة خرجت من غربى أوربا سنة ٦٠٠ هـ ( ١٢٠٤م ) للاغارة على مصر ( قلب الدولة الاسلامية فى ذلك الحين ) ومرت الحملة فى طريقها على القسطنطينية ، فطمعت فى ثروتها العظيمة وأملاكها الشاسعة ، ورأى رجالها من ضعف الدولة الرومانية ما شجّعهم على ذلك . فنسوا غرضهم الأصلى ، واستولوا على القسطنطينية ، وأسسوا بها دولة تُعرف بالدولة

اللاتينية نسبةً الى لغتهم . وبقُوا بها نحو ستين عاماً خرّبوا فيها كثيراً من البلاد ، ونهبوا معظم نفائسها القديمة ونقلوها الى بلادهم . ولم يُحدثوا فى البلاد أى اصلاح أثناء اقامتهم بها ، لجهلهم نظام الملك وادارة شؤون حكومة منتظمة مشيَّدة على أساس مكين مثل حكومة الدولة الرومانية . وكانت البلاد فى أيامهم ( لاختلافهم فى الرأى وتنافسهم فيما بينهم ) ميداناً للفتن والقلاقل الدائمة . أما إمبراطور الروم فانهُ انحازالى آسيا الصغرى ، وجعل مقر ملْــكه فى « نيقية » التى ما زالت حاضرة للروم حتى انتهزوا فرصة ضعف الصليبيين فى سنة ٦٦٠ ﻫ ( ١٢٦١ م ) واستردوا القسطنطينية وأعادوا اليها مقر ملْــكهم

(أ) نقص ينابيع الثروة

على أن الدولة لم تتخلص من كل ما لحقها من أذى هذه الحادثة ، فإن تشتُّت شملها أثناء حكم اللاتين كان قد ذهب برجالها الملمّين بالقوانين وانظمة الحكومة ، فلاقت صعوبة كبيرة فى تشييد ما هدمه الصليبيون من جديد . وان انتشار الفتن فى البلاد هذه المدة حمل الكثيرين على المهاجرة من الأرض فباتت خراباً بلاقع بعد أن كانتْ من أخصب بقاع الدنيا ، واضطر ايضاً أصحاب المتاجر التى كانت تمر بين الشرق والغرب عن طريق البسفور الى تحويل متاجرهم الى جهات أخرى اكثر مأمناً وأقلَّ اضطراباً

(ب) الفتن الدينية

ثم لما رجع مقر الدولة الى القسطنطينية ، وحاول قياصرتها اصلاح ما فسد منها وجدوا من المنازعات الدينية والاضطرابات الداخلية بين أهل الدولة اكبر عقبة فى تحقيق أمنيتهم . فانهم لما علموا أن الصليبيين عازمون على اعادة الكرّة عليهم لجئوا الى التودد الى « البابا » ليدفعهم عنهم ، فوعدهم هذا بمد يد المساعدة فى ذلك ، وفى رد غارات الترك عن دولتهم ، اذا عملوا همْ على توحيد الكنيستين : الشرقية بالقسطنطينية، والغربية برومية، واعتراف الأولى للبابا بالسيادة . فجدَّ القياصرة فى ذلك ما استطاعوا وعزلوا من خالفهم فيه من البطارقة ، فكان ذلك سبباً فى ظهور أحزاب متضادة : بعضها يؤيد البطريق وبعضها يعاضد الامبراطور . وما زال الأمركذلك

حتى تم توحيد الكنيستين فى سنة ٨٤٣ هـ ( ١٤٣٩ م ) عقب انعقاد مجلس ملى بايطاليا دعا البابا اليه القيصر وممثلى بطريقية الاستانة . فثار غضب أهل القسطنطينية لذلك ، ولما رآه بعضهم بنفسه عند انعقاد المجلس من قلة نفوذ البابا بين دول أوربا الغربية وعدم مقدرته على مساعدة دولتهم بشىء، وازداد حنقهم عند اعلان توحيد الكنيستين. ومن ذلك العهد استفحل خطب الفتن الدينية

(ج) التنازع على الملك

على أن الفتن الداخلية فى الدولة لم تكن مقصورة على الأمور الدينية ، بل كان عرش الملك نفسه منشأ فتن مستمرة منذ عاد مقر الدولة الى القسطنطينية . فانّ أول أمبراطور انتزع هذه العاصمة من اللاتين ( وهو ميخائيل الثامن ) كان نفسه مغتصباً للملك: اغتصبه من طفل كان وصياً عليه ، فأشعل الشرارة الأولى من نار المنازعة فى شأن العرش ، وبقيت هذه النار مستمرة حتى آخر أيام الدولة

(د) غارات شعوب البلقان

وقد كان لغارة اللاتين على القسطنطينية ضرر آخر لا يقل عن جميع ما تقدم ، وذلك أن الشعوب القاطنة فى البلقان بعد أن كانت خاضعة للدولة الرومانية ، وملتماً بعضها ببعض ، لعظم سلطانها وشدة بأسها ، وجدتْ من ضعف الدولة اللاتينية باعثاً على استقلال كل منها بنفسها دون مراعاة لما يعود عليها من النفع من اتحادها . ثم استطار الشرّ بينها وصار بعضها يستعين بالاتراك وغيرهم على اقتناص ما تصل اليه يده من أملاك الدولة . وبذلك كثرت غارات البلغار والصرب والمجر والتتار على أملاكها ، حتى صارت من اكبر العوامل على فنائها

٢ . هجوم الترك

وأما ثانى الأمور الأساسية التى أدّت الى سقوط الدولة الرومانيـــة الشرقية فهو مواجهة الترك لها من كل جانب بلا انقطاع : مقتلين الكثير من سكان تلك الجهات ، ومشرّدين الباقين أمامهم الى الفلوات والأطراف القاصية : مما خرب البلاد وذهب بغالب أهليها

وزاد هذا النقص وباء عظيم انتشر فى أوربا نحو قرن من الزمان حتى أفنى ألوف الألوف من أهلها : ذلك هو الوباء الهائل المعروف فى التاريخ « بالموت الأسود » .

٣ . الموت الاسود

ظهر في شرق أوربا عام ٧٤٧ هـ ( ١٣٤٧ م ) ، ثم اطّرد الى باقي أنحاء القارة ، فكان أنّى انتقل يفتك بالناس فتكاً ذريعاً ، حتى زادت نسبة من ماتوا به في بعض الممالك على النصف[1] . وقد وجد هذا الوباء منبتاً خصباً له في مدن الدولة الرومانية الغاصة بالسكان ، والتي لم تلقَ من حكومتها المشتغلة بالفتن الدينية والقلاقل السياسية العنايةَ اللازمة لاتخاذ التدابير الصحية التي تكفي لمقاومته أو لنقص فتكه ، حتى أصبح عدد سكان البلاد لا يكفي لجمع الجيوش التي تقوم بالدفاع عن الدولة[2]

## ٣ — ﴿ الدولة العثمانية في أوج عظمتها ﴾

( ٨٥٧ — ٩٧٤ هـ : ١٤٥٣ — ١٥٦٦ م )

الاستعداد لفتح القسطنطينية

هكذا كانت حال الدولة الرومانية عند ما جلس محمد الثاني على عرش آل عثمان ، فعمل في الحال على تحقيق أمنيّة بيته ، وهي فتح القسطنطينية وجعلها مقراً له . فأعد لذلك جيشاً عظيماً سار به لفتح المدينة في ربيع عام ٨٥٧ هـ ( ١٤٥٣ م )

شكل المدينة

أما شكل المدينة فسهل التصوُّر : إذ هي أشبه بمثلث متساوي الساقين محاط بالأسوار من كل جانب ، رأسه بارز شرقاً في مياه البسفور ، والضلع الشمالية يحدها الميناء المسمى « القرن الذهبي » ، والضلع الجنوبية يحدها بحر مرمرة . أما قاعدة هذا المثلث فهي الأسوار الغربية التي تفصل المدينة عن باقي القارة الأوربية

مهاجمة المدينة

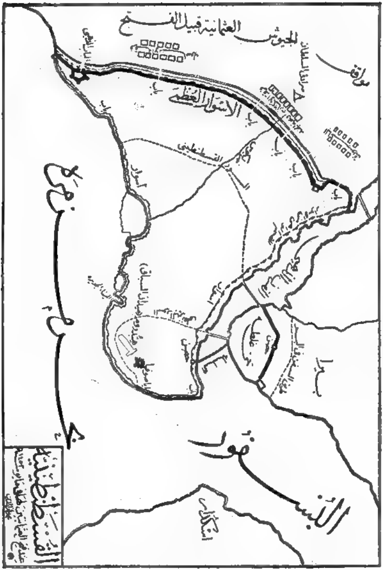
فبدأ السلطان بمهاجمة الأسوار الغربية ، وكانت تمتد من القرن الذهبي الى بحر مرمرة . ثم رأى على ضخامة مدافعه[3] أنه لا يستطيع التغلّب عليها لمناعتها وعظم سَمكها . فعوّل على مهاجمة المدينة من أضعف جهاتها وهي الجهة المشرفة على القرن

---

(١) كان عدد سكان انجلترة في ذلك الحين بين ٣٠٠٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠٠٠ ، فمات به اكثر من نصفهم

(٢) لم يفتك الوباء بالترك فتكا ذريعا ، ولعل السبب الاول في ذلك راجع الى اقامتهم في الخلوات

(٣) قيل انها كانت أضخم مدافع عرفت الى ذلك العهد ، وكانت تقذف نحو ١٢ قنطاراً من الحجر على مسافة ميل



الذهبي . وكان الروم قد احتاطوا لذلك ومدُّوا سلسلة عظيمــة على مدخل القرن الذهبي، حتى لا تدخله سفن الأعداء لتهاجم الأسوار من تلك الجهة. فلم يثن ذلك من عزم العثمانيين، واحتالوا على نقل سفنهم الى القرن الذهبي بطريقة صعبة لا تزال

من أعجب ما حدث في التاريخ : وذلك أنهم مهّدوا طريقاً برية بين البسفور والقرن الذهبي يبلغ طولها نحو الفرسخين ، ووضعوا عليها عوارض ضخمة من الخشب تدحرج عليها اسطوانات طويلة من الخشب أيضاً ( بكَر ) ، وسيّروا فوقها ٨٠ سفينة صغيرة من أسطولهم الذي كان بالبسفور . فجرت عليها السفن والريح تدفع في شراعها كأنها تجري على الماء ، حتى بلغت القرن الذهبي ، فنزلت فيه بلاعناء . وكان السلطان محمد أثناء نقل هذا الأسطول يضالّ حامية المدينة بالإلحاح على ضربها بالمدافع من باقي الجهات الأخرى . وعندئذٍ اشتركت السفن والجيش البرّي في ضرب الأسوار ، فلم تقوَ على احتمال هذه النيران . وحمل العثمانيون على المدينة حملةً صادقة ، فدخلوها بعد قتال عنيف قُتل فيه امبراطور الروم « قسطنطين باليُولوغُوس » . وكان ذلك في أواخر عام ٨٥٧ هـ ( ١٤٥٣ م ) ، وبه سقطت دولة الروم الشرقية

فتح المدينة

ودخل السلطان محمد عاصمته الجديدة في موكب حافل ، وسار توًّا الى كنيسة «أيا صوفيا» ، فصلّى فيها ظهر ذلك اليوم ، وبقيت مسجداً إسلامياً الى الآن . وهذا البناء من أجل آثار دولة الروم الشرقية ، ومن احسن النماذج لفن المباني البوزنطية

فتوح محمد الثاني الاخرى

استولى السلطان محمد الفاتح على عاصمة الروم وهو لايتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، فلم تقف فتوحه عند ذلك ، ولم يلبث أن تمَّ له إخضاع معظم « المورَة » و« الصرب »و« البوسنة » . واراد الإغارة على ايطاليا وألمانيا ، فحال دونها وقوف « اسكندر بك الألباني » و « هُونْياد المجري » في طريقه اليهما

اسكندر بك

وذلك أن أولهما كان أول أمره في خدمة مراد الثاني ، ثم نصبّه والياً على ألبانيا (موطنه الأصلي) ، فخرج على الدولة وأراد أن يستقل بألبانيا . وساعدته طبيعة تلك البلاد الجبلية على صد الجند العثمانية سنة بعد أخرى ، فلم يتم للسلطان إخضاع ألبانيا الاّ بعد عشرين عاماً ، أي بعد وفاة اسكندر بك في عام ٨٧١ هـ (١٤٦٧م) . ولم يعش محمد الثاني لتحقيق أُمنيته في ايطاليا

أما « هونياد » فانه وقف للسلطان في « بلْغراد » عام ٨٦٠ هـ ( ١٤٥٦ م )



جامع أيا صوفيا

عند ما أراد الإغارة على المجر وألمانيا ، وهزمه هزيمة كبيرة اضطرته الى الرجوع عن تلك المدينة بعد أن خسر من جيوشه نحو ٢٥،٠٠٠ مقاتل . فانصرف عن تلك البلاد الشمالية

هونياد



محمد الفاتح

( رسم على افندى يوسف )

على أن صدّ جيوشه فى هذين الموضعين لم يمنعه من مواصلة فتوحه فى الجهات الأخرى . فاستولى فى آسيا على «طَرَبزُون» ( أطْرابزُنْدَة ) من بقية أملاك الروم ، وأخضع إمارة « القَرَمان » التركية إخضاعاً نهائياً . وفى سنة ٨٧٩ ﻫ ( ١٤٧٥ م ) دانت له بلاد « القرِم » فبقيت خاضعة الدولة نحو ثلاثة قرون من الزمان . ثم كان

عاقبة تغلبه على ألبانيا أن أزال أكبر عقبة فى سبيل توسيع أملاكه من الغرب ، فتوغل فى أملاك البندقية توغلاً فزع منه البنادقة ، ولم يسعهم الاّ أن عقدوا معه محالفة لتسلّم لهم مدينتهم ، سنة ٨٨٢ هـ ( ١٤٧٧ م )

محاولة فتح ايطاليا

أما ايطاليا فلم يبرح أمرها قط من ذهن محمد الثانى ، وكان جل أمانيه فتحها ورفع لواء الاسلام على رومية فى الغرب ، كما رفعه على القسطنطينية فى الشرق

فرسان القديس يوحنا

ورأى أن يمهد الطريق لذلك بانتزاع جزيرة « رودس » من أيدى « فرسان القديس يوحنا » . فسير عليهم أسطولاً عظيماً ، وضيق الحصار على جزيرتهم ثلاثة أشهر ، ولكنه لم يقو عليهم ، وفترت همة جنود الانكشارية لمّا علموا أن السلطان منع استيلاءهم على شىء من غنائم الجزيرة . فاضطر محمد الى فض الحصار ، وأبرم مع الفرسان صلحاً عام ٨٨٥ هـ ( ١٤٨٠ م )

ثم عاد فوجّه همه لفتح إيطاليا ، فأرسل جيشاً استولى على مدينـة « أُترَنْتُو » سنة ٨٨٥ هـ ( ١٤٨٠ م )

وكان فى العام التالى يشتغل بإعداد حملة عظيمة لإتمام فتح تلك البلاد ، فمات فُجاءة عام ٨٨٦ هـ ( ١٤٨١م ) ، وبموته انصرف العثمانيون عن هذه الجهة . وفى أيام خلفه أخلى العثمانيون «أترنتو» ذاتها ، ولم يحتلوا بعدها شيئاً من الأراضى الإيطالية

بايزيد الثانى

ثم خلفه ابنه « بايزيد الثانى » ( ٨٨٦ – ٩١٨ هـ : ١٤٨١ – ١٥١٢ م ) ، فكان أضعف سلاطين آل عثمان الى ذلك الوقت . ولم يكد يجلس على العرش حتى خرج عليه أخوه الأصغر «جَمّ» مُطالباً بالمُلْك ، وكان قوى البأس ، فلاقى بايزيد صعوبة كبيرة فى مكافحته ، الى أن اضطره الى الفرار الى مصر . وكان بايزيد محباً للسلم ، لا يدخل الحروب إلاّ مدافعاً ، ولم يزد فى أملاك الدولة إلاّ بضعَ مدن فى مورة . وقد علمنا ما كان من أمره مع مماليك مصر وانتصارهم على جيوشه فى الشام. على أن قوة الأسطول عظمت فى عهده ، وصارت من ذلك الحين موضع خطر على الممالك الأوربية ، فلم يلبث أن اشتبك مع أسطول البنادقة فى موقعة هائلة

هى فاتحة الانتصارات البحرية العثمانية على ممالك البحر الأبيض. وكانت جنود الانكشارية لايعجبهم انكماش بايزيد وضعفه، فالتفوا حول أصغر أولاده «سليم»، وأرغموا بايزيد على النزول عن العرش سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م)

سليم الاول

فتولى السلطان «سليم الأول» (٩١٨ – ٩٢٦ هـ : ١٥١٢ – ١٥٢٠ م) فكان من أعظم سلاطين العثمانيين واكثرهم انتصاراً وفتحاً. وكان مجيداً لقيادة الجيوش والسياسة، كثير الاطلاع، ولوعاً بالأدب، إلاّ أن شيئاً يخالطه من القسوة والميل الى سفك الدماء، وقد قيل إنهُ قتل من اقاربه وعمّاله ما لم يقتلهُ أحدٌ قبلَه ولابعدَه من ملوك آل عثمان. ورأى السلطان سليم أن يقف فتوحَ الدولة فى أوربا فترة، وأن يستعيض بذلك الاستيلاء على شئ من ممالك الشرق النفيسة

غزو فارس

فبدأ بدولة فارس. وكان على عرشها حينئذٍ الشاه اسماعيل الصفَوى، وكان قد ذاع صيته بفتوحه العظيمة فى المشرق ، وأصبح لايبالى بنشر مذهب الشيعة (الذى يمقتهُ العثمانيون) فى آسيا الصغرى، ويحرّض أمراء تلك الجهة على الخروج على العثمانيين. فعزم السلطان سليم على غزو فارس، وعجّلَ ذلك إيواء الشاه اسماعيل لابن اخي سليم، الفارّ من وجهه

ففى سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) خرج السلطان سليم بجيش عظيم يريد غزو الفرس ماراً فى طريقه على «ديار بكر» و«كردِستَان»، فتراجع الفرس الى داخل بلادهم وخرّبوا كل ما فى طريق الترك من المرافق، كى تضمحل جيوشُهم جُوعاً وتعباً. ولما التقى الفريقان فى وادى «جَلْدِيران» قرب «تِبْرِيز» كانت الجنود العثمانية فى شدة التعب، إلاّ أن الفرس لم يقْوَوا على مقاومة قوة الانكشارية والمدافع العثمانية، فانهزموا شر هزيمة. فدخل السلطان سليم «تبريز» (حاضرة الفرس فى ذلك الوقت) وأمر بإرسال ألفٍ من أمهر صناعها الى القسطنطينية. ثم اضطر بعد أيام الى الانصراف الى بلاده، لتمرد جنود الانكشارية عليه. وكانت نتيجة تلك الحروب استيلاء العثمانيين على «ديار بكر» و«كردستان»

فتح مصر وتأثيره فى الدولة

وبعد عامين (٩٢٢ هـ : ١٥١٦ م) خرج السلطان سليم لفتح مصر ، ففتحها كما أوضحنا فى غير هذا المكان . وجنى بيت آل عثمان من فتح مصر فائدة لم يجنها من فتح غيرها من البلدان ، إذ أنهُ بنزول الخليفة العباسى بمصر عن الخلافة للسلطان سليم الأول سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م ) صار له ولسلاطين آل عثمان من بعده زعامة على العالم الإسلامى لم تكن لهم من قبل ، وكان السلطان سليم يتأهب بعد ذلك لفتح « رودس » ، فمات قبل أن يتمّ عمله ، بعد ثمانية أعوام من حكمه

سليمان القانونى

فتولى ابنه السلطان «سُليمان القانونى » (٩٢٦-٩٧٤ هـ : ١٥٢٠-١٥٦٦م) ، وهو أعظم سلاطين آل عثمان ، وعصرهُ زهرُ عصرٍ فى تاريخهم ، إذ كانت الدولة فى أيامهِ مكانةٌ لم تحزها قبله أو بعده . صادفت أيامه تلك النهضة العلمية العظيمة التى انتشرت فى انحاء أوربا فى القرن السادس عشر من الميلاد المسيحى وحَدتْ بالغربيين الى تلك الاستكشافات العلمية والجغرافية ( التى أُسستْ عليها المدنية الحديثة والتى كانت سائرة حينئذٍ بسرعة لم يسبق لهـا مثيل ) ، فلم يقتصر العثمانيون على السير بجانبهم فى ذلك المضمار ، بل فاقوهم فيه فى عدة أمور ولاسيما الفنون الحربية . ولم يكن بين ملوك أوربا فى عصر سليمان من يفوقهُ غَزْواً أو سياسةً أو إدارة

زهاء عصره

أما فتوح سليمان فلم تكن بأقل من فتوح سليم أو محمد الفاتح ، إذ تمَّ له فى العامين الأولين من حكمه ما استعصى عليهما قبله : فى سنة ٩٢٧ هـ ( ١٥٢١ م ) استولى على « بلغراد » ، وفى قابل فتَحَ « رودس » انتزعهـا من فرسان القديس يوحنا بعد حصار أظهر فيه من الكفاءة والدراية بالعلوم الحربية ما عظم به شأن الدولة فى أعين الأوربيين

فتح بلغراد

على أن معظم غزوات سليمان كانت موجّهة الى الغرب للتغلب على النمسا والمجر، ولاسيما الأخيرة التى طالما وقفت فى وجه العثمانيين ومنعتهم من الزحف فى أوربا الى ما وراء الصرب والبوسنة . ففى سنة ٩٣٢ هـ ( ١٥٢٦ م ) غزا بلاد المجر . فلما التقى بجيوشهم فى موقعة « مُوهَكْز » الفاصلة لم يثبت جيش المجر اكثر من ساعة واحدة

قُتل فيها ملكهم « لويس الثانى » وكثير من الأمراء ، وفتح السلطان معظم المدن والقلاع التى بالأقاليم الجنوبية . ثم ولّى على البلاد ملكاً من أهلها وهو «جان زابولى» ، وغادرها ومعهُ أكثر من مائة ألف أسير .

وبعد خروجهِ من البلاد أغار عليها « فرْدِنَنْد » ملك النمسا ، واستولى على مدينة « بُودا » ، وخلع الأمير الذى نصبه سليمان . فاستغاث الأمير بالسلطان ، فخرج فى جيش عظيم مؤلف من ٢٥٠,٠٠٠ مقاتل و ٣٠٠ مدفع ، فاسترد « بودا » وأعاد « زابولى » الى عرشه . ثم اتخذ عمل « فردنند » ذريعة للإغارة على النمسا ، فسار نحو « ويانة » ( فينّا ) . وكان فصل الشتاء قد أقبل وكثر المطرُ ، فاضطر العثمانيون لترك مدافعهم الضخمة بالمجر . فلما وصل سليمان الى « ويانة » ألقى عليها الحصار عشرين يوماً سنة ٩٣٥ ﻫ ( ١٥٢٩م ) ، ثم وجد أن الجوّ وقلة المدافع يحولان دون الاستيلاء على المدينة ، فرجع عنها . وكان هذا أول نزال فَشِل فيه ، فلم ينسهُ طول حياته

غزو النمسا

وبقى الحرب الى سنة ٩٤٠ ﻫ ( ١٥٣٣ م ) ، فتمّ الصلح على تقسيم بلاد المجر بين زابولى وفردنند . ولما مات الأول عام ٩٤٦ ﻫ ( ١٥٣٩ م ) أغار فردنند على البلاد جميعها ، فغزا السلطان سليمان بلاد المجر كرّة أخرى ، وكان هذه المرة يترك حاميةً فى كل مدينة يفتتحها ، لجعلها من الأملاك العثمانية . ثم تمّ الصلح بين الفريقين فاعترف فردنند للسلطان بسيادته على المجر وترَنْسِلْوانيا ، وتعهد أن يدفع له جزية سنوية . وربما كان خذلانه اكبر لو لم يُشغل سليمان عن تلك الجهات بحروبه مع فارس وغيرها من بلاد المشرق . ومما فتحه السلطان فى المشرق جزء كبير من أرمينية وأرض الجزيرة والعراق وفيه مدينة بغداد العظيمة

فتح بغداد

وفى عصر هذا السلطان تقدمت البحرية العثمانية تقدماً عظيماً حتى صارت تهابها الأمم فى جميع البحار ، من البحر الأبيض فالبحر الأحمر ، الى المحيط الهندى . وظهر فى الدولة إذ ذاك من مهرة الملاّحين وأمراء البحر مَنْ تفتخر بهم أعظمُ دولةٍ بحرية . وفى مقدمتهم « أسرة بَرْبَرُوس » الشهيرة ، ورأسها «خير الدين بر بروس »

القوة البحرية

أكبر قُوَّاد أوربا البحرية فى عصره . وُلد فى جزيرة « لِسْبُوس » ، ثم اتخذ هو

قطع الطريق فى البحر الأبيض

وأخوه قَطْعَ طريق البحر مهنةً لهما ، وكانت منتشرة وقتئذٍ فى البحر الأبيض المتوسط ثم عظم شأنه فى هذه المهنة وصارت له سطوةٌ عظيمة ، واستولى على كثير من ثغور شمالى افريقية ، الى أن صار صاحب الكلمة العليا فى بلاد الجزائر . وعند ذلك

خير الدين بربروس

قدّم ولاءه للباب العالى ، فنصَّبه السلطان سليم الأول حاكماً عاماً للجزائر سنة ٩٢٦ هـ (١٥١٩م) ، وأجزل له العطاء ، وأمدَّه بألفى جندى من الانكشارية . وفى سنة ٩٤١هـ (١٥٣٣م) اختاره السلطان سليمان قائداً للأسطول العثمانى الذى سيَّره لمحاربة أساطيل « شارل الخامس » ( شَرْلَكان ) ملك اسبانيا ، وكانت بقيادة « أندرِيادُوريا »

الحرب فى تونس

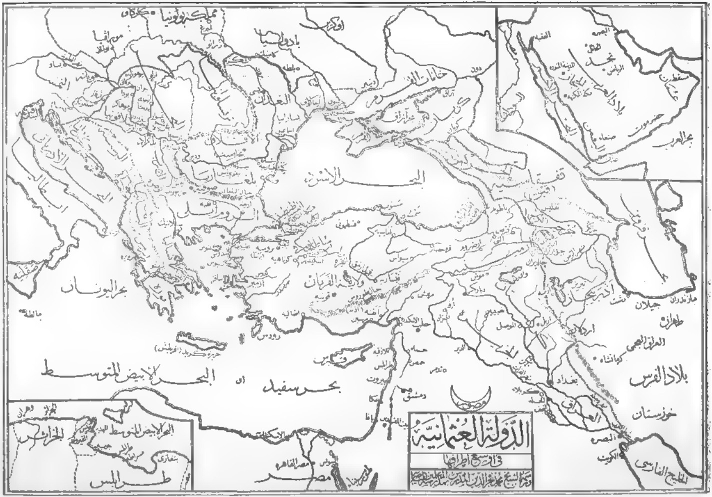
الجِنْوِى ، فقهره « بربروس » ، وانقضّ على سواحل إيطاليا ، فسلب ونهب منها شيئاً كثيراً . ثم ولى وجهته شطر تونس يريد الاستيلاء عليها . وكان يحكمها وقتئذٍ أحد ملوك الدولة الحَفْصِيّة من بقايا الموحدين ، فلجأ الى شارل الخامس المذكور ، فذهب شارل بنفسه الى إفريقية فى جيش عظيم ، فلم يقدر بربروس على مقاومته ،

الحرب بين الدولة والبندقية

وانجلى عن المدينة . ثم وقع خصام بين الدولة والبندقية لاعتداء بعض لصوص البحر من البنادقة على سفير الدولة فى وقت السلم ، فخرج « بربروس » الى البحر الأدرياتى للانتقام من البندقية ، فاستغاثت بالبابا وشارل الخامس . فساعداها بأسطوليهما ، ولكن بربروس هزم الأساطيل الثلاثة فى موقعة « برِويزة » سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨م) وقد حط ذلك كثيراً من شأن البنادقة

الحرب فى الجزائر

وفى عام ٩٤٨ هـ ( ١٥٤١ م ) أغار « شارلكان » على بلاد الجزائر ، فصدّه بربروس ، وساعده الحظ بأن عصفت الرياح على سفن شارلكان فحطّمتها . وبقى بربروس مصدرَ الرعب والفزع فى البحر الأبيض ، الى أن أرسله سليمان القانونى عام ٩٥٠ هـ (١٥٤٣م) لمساعدة حليفه ملك فرنسا فى الإغارة على الأملاك الاسبانية فاستولى بربروس على « نِيس » وبقى بفرنسا الى أن خشى بأسه الفرنسيون أنفسهم، وأجزلوا له العطايا والهدايا ، حتى جلا عن بلادهم وذهب الى الاستانة حيث قضى بقية أيامه فى هدو متقلداً منصب قبودان باشا


الدولة العثمانية
في أوسع أطرافها
البحر الأسود
البحر الأبيض المتوسط
بحر سفيد
بحر اليونان
بلاد الفرس
خوزستان
طهران
جيلان
العراق العجمي
كرمانشاه
بغداد
البصرة
الكويت
الخليج الفارسي
مصر
مصر القاهرة
طرابلس
بنغازي
الجزائر
بحر العرب
حضرموت
صنعاء
نجد
بلاد العرب
الروملي
ولاية القرمان
أذربيجان
قفقاسية
رودس
دمشق
حلب
الموصل
قونية
صوفية
الأفلاق
البغدان
اوكرانيا
مالطة
صقلية



سليمان القانونى

( رسم على افندى يوسف )

بيرى ريس وسيدى على

ومن أعظم أفراد هذا العصر أيضاً « بيرى ريّس »و« وسيّدى على » ، وكانت لهما اليد الطولى فى بسط نفوذ الدولة على شواطىء بلاد العرب وفارس والهند

بيالة باشا

ومنهم « بيالة باشا » ، فإنه حارب القائد الجنوى « دوريا » وانتصر على أساطيله انتصاراً مُبيناً عند جزيرة « جِربَة » من أعمال تونس عام ٩٦٧ ﻫ ( ١٥٦٠ م )

طرغود

ومن أشد رجال هذا العصر بأساً «دِراغوت» (طَرْغود) : كان مثل بربروس فى أول أمره مشتغلاً بقطع الطريق فى البحر ، ولما علم بربروس بما لَهُ من الصيت

الهائل فى ذلك ضمّهُ اليه ونصّبهُ وكيلاً لهُ . ومن ذلك العهد أخذ يبدى من المهارة البحرية ما جعله أكبر قواد عصره ، وانتصر على «دوريا» فى عدة مواقع . ومن أهم أعماله أنهُ فتح مدينة « المهدية » عاصمة بلاد تونس فى ذلك الوقت

فرسان القديس يوحنا وحصار مالطة

على أن الأساطيل العثمانية على قوتها وشدة بأسها لم تقدر على التغلب على «فرسان القديس يوحنا» أصحاب جزيرة مالطة . وكانت هذه الجزيرة قد أعطاها لهم الامبراطور شارل الخامس عند ما طردهم العثمانيون من جزيرة « رودس » سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢م) ، فبقوا محافظين على مالطة من ذلك العهد ، وصدّوا عنها العثمانيين مراراً . وفى أواخر أيام سليمان أرسلت الدولة اليها أسطولاً عظيماً سنة ٩٧٣ هـ (١٥٦٥ م) بقيادة مصطفى باشا بيالة ودراغوت ، فحاصروها أربعة أشهر ثم اضطروا للجلاء عنها بعد قتال عنيف ، وذلك لما أبداه فرسان القديس يوحنا من الشجاعة والصبر . ولم يبق من حاميتها بعد هذا الحصار إلاّ ستمائة فارس ، بعد ان كان بها تسعة آلاف

ومات السلطان سليمان عام ٩٧٤ هـ ( ١٥٦٦ م ) أثناء غارته الأخيرة على المجر وكانت سنهُ إذ ذاك ستّاً وسبعين سنة

## ٤ — ﴿ ابتداء اضمحلال الدولة العثمانية ﴾

( ٩٧٤ — ١٠٤٩ هـ : ١٥٦٦ — ١٦٤٠ م )

أقصى أطراف الدولة

أجمع المؤرخون على ان عصر سليمان الاكبر هو العصر الذى بلغت فيه الدولة العثمانية أقصى مجدها وعظمتها : فنى مدة ثلاثة قرون تسنّى لقبيلة آل عثمان الصغيرة أن تبسط سلطانها ونفوذها على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر، وتمدّ فتوحها من مكة المكرّمة الى بودا من جهة ، ومن بغداد الى الجزائر من جهة أخرى . فكان كل من الشاطئين الشمالى والجنوبى للبحر الأسود فى قبضة يدهم ، وجزء عظيم من مملكة النمسا والمجر الحالية يعترف بسلطانهم . وقد دان لسلطانهم أيضاً

شمالى إفريقية ، من أطراف بلاد الشام إلى حدود بلاد مَرّاكُش

أسباب انحطاط الدولة

وبعد موت سليمان ابتدأت الدولة فى الانحطاط المستمر ، اللهم الآ فترات كانت تنتعش فيها وتظهر بعض مجدهـا العسكرى القديم . وترجع أسباب الانحطاط الى عوامل خارجية وأخرى داخلية : فانّ نموّ الأمة الروسية وظهور طائفة من أكابر القوّاد فى المجر وبولندة والنمسا لمن أهم الأسباب الخارجية التى افضت الى اضمحلال الدولة التركية ، وأدت الى انتقاصها الى مساحتها الحالية

الاسباب الخارجية

ثم كانت ثمّة جراثيم داخلية تفتّ فى عظام الدولة ، وتثلّ عرش مجدها وعظَمَتها الأثيلَين. اذ أن حكم ولايات الدولة العثمانية المختلفة الأديان والمذاهب والأجناس ، وحفظَ نفوذها فيها ، يحتاجان الى نشاط وحكمة يفوقان مثلهما فى إدارة شؤون الدول الأخرى المؤلفة غالبًا من عنصر واحد ودين واحد ، لأن نفوذ الأتراك المستمد من القوة العسكرية ، والذين يتحكمون به فى رقاب كثير من الشعوب الأجنبية المختلفة فى كل شيء لم يكن ليدوم طويلاً الاّ بعناية خاصة : بإعداد الجيش لكل طارئ فجائى من جهة ، وبإرضاء تلك الشعوب المختلفة والتوفيق بينها واكتساب احترامها للدولة، من جهة أخرى

الاسباب الداخلية

( ا ) اختلاف الاديان والاجناس

وذلك ما لم يتهيأ للحكومة العثمانية بعد سليمان، لأنها لم تُعِرْ كل هذه الأمور شيئًا من الالتفات ، اذ بعد أن نهض الملوك السالفون من آل عثمان بالدولة الى ذروة مجدها بما أُوتوه من الذكاء والحذق ، خَلَفَ من بعدهم خَلفٌ اضاع تلك الأملاك الشاسعة التى نالها أجداده بحدّ السيف وحافظوا على كيانها بحسن ادارتهم . ولم يكن لهؤلاء السلاطين الضعفاء همّ الاّ الانغماس فى اللذات ، غير مكترثين بتضعضع ملكهم

( ب ) ضعف السلاطين

فلما أصبح الجنود بلا سلطان شجاع يقودهم الى ساحة الوغى ، وسقطت هيبة السلاطين من أعينهم ، أخذوا يشعرون بما لهم من الحول والقوة ، وابتدءوا يعزلون ويُوَلّون منَ السلاطين من يشاءون ، مُبتَزّين الأموال الكثيرة والأعْطِيةَ الجزيلة من كل سلطان يقيمونهُ على العرش . فأدّى استئثارهم بالسلطة الواسعة التى كانوا يستعملونها

( ج ) فساد الجيش

على حسب أهوائهم الى الانغماس فى الترف والفساد ، ففقد جنود الانكشارية منهم بالتدريج ما كان لهم من الصفات الحربية القديمة ، وأصبحوا لا يوثق بهم فى ساحة القتال . فكان مايُبذل لهم من العطايا عند تولّى كل سلطان ، تفوق قيمته فى اعينهم أعظم انتصار لهم فى ساحة القتال

(د) عدم ادخال الاصلاحات الحديثة

هذا الى أن الجيش لم يدخل فيه من الاصلاحات ما يجارى به جيوش الممالك الأوربية الأخرى من استخدام آلات القتال الجديدة والتفنن فى الطرق الحربيــة التى كانت آخذة فى التحسن عندهم

(هـ) الرشوة

على أن أعظم نقص ظهر فى الجيش كان فى قواده وضباطــه : فلم تكن ترقية القواد بحسب الكفاءة الشخصية ، بل بحسب ما يبذلونه من الرّشوة لولاة الأمور وبطانة السلطان

وليس غرضنا هنا أن نذكر بالتفصيل حوادث انحطاط الدولة وتدهورها التى هى فى الجملة عبارة عن سلسلة هزائم يتخللها بعض انتصارات وعدّة معاهدات صلح تخسر الدولة فى كل منها شيئاً من أملاكها ، ثم سِير ملوكٍ وحكامٍ ضعفاء منهمكين فى الشهوات ، عُمْى البصيرة ، إلاّ نفراً قليلاً نهضوا بالدولة فترات يسيرة . وانما غاية ما نستطيعه هنا هو أن نذكر بالإيجاز أهم الحوادث التى من أجلها تضاءلت الدولة التركية وأصبحت فى حجمها الحالى :

سليم الثانى

بعد سليمان الأكبر تولى الملك ابنه « سليم الثانى » (٩٧٤ – ٩٨٢ هـ : ١٥٦٦–١٥٧٤ م ) وكان ضعيفاً لاهياً سِكّيراً ، ولذلك لُقّب بالمجنون

الانحطاط تدريجى

ولكن النظام الباهر الذى وضع أساسه سليمان ورجال دولته لم يتلاش دَفعةً واحدة على يد خلفهِ ، إذ كان كثير من عمّال سليمان لا يزالون بعدُ أحياء : يدِبّ فى نفوسهم ذلك الروح العظيم الذى بثّهُ فيها مولاهم . ونخصُّ بالذكر منهم وزيرَه «صُقُلِّى محمود» الذى لم يأْل جهداً فى حكم البلاد على طريقة سيده ، فكان من أعماله أنه أمر « سِنان باشا » فأخضع بلاد العرب عام ٩٧٨ هـ ( ١٥٧٠ م )

انتزاع قبرس من البنادقة

وبعد ذلك ابتدأ فتح جزيرة « قبرُس » وانتزاعها من يد البنادقة، وقام بأمر هذه الحملة « لالا مصطفى » أحد نظراء « صقلى » . وقد كلف فتح هذه الجزيرة الدولة خمسين ألف مقاتل ، أخفقَتْ مصارعَهم قائدَهم مصطفى . فلم يشتف لهم فى ساعة النصر الاّ بالانتقام من قائد حامية الجزيرة شر انتقام ، إذ سلخ جلده حيّاً

وبهذا الفتح قويت شوكة العثمانيين فى البحر، إلاّ أن ذلك لم يدم طويلاً، حتى اتحدت عليهم اسبانيا والبابا والبندقية وغيرها ( واشترك معهم فرسان القديس يوحنا ) فى مايو سنة ٩٧٩ هـ ( ١٥٧١ م ) . وكان غرض البندقية من هذا الاتحاد استرداد جزيرة قبرس فقط ، غير أن « فليب » ملك اسبانيا أبى إلاّ أن يجعله تحالفاً عاماً ، فتم الاتفاق على أن تكون اسبانيا والبابا والبندقية متحدة جميعاً على مهاجمة تونس وطرابلس والجزائر والترك ، وأن تحمى كل منها أملاك الأخرى ، وألاّ تعقد احداهن صلحاً على انفراد ، وأن تعين كل من دول التحالف قائداً لأسطولها ، وأن توكل القيادة العامة الى « دون جون » النمسوى

الاتحاد على الدولة

واقعة ليبنتو

ظهر أسطول الحلفاء فى ١٦ سبتمبر سنة ١٥٧١ فى مياه « مِسّينى » ، ولما وصل الى « كُرْفو » بلغه أن الأسطول العثمانى فى خليج « ليبَنْتُو » . وفى سابع اكتوبر كان الأسطولان على مقربة بعضهما من بعض فى هذا الخليج . وكان أسطول الحلفاء يشمل ٢٦٤ سفينة ذات حجوم مختلفة بعضها مسلح بأضخم المدافع ، تحمل ٢٦٫٠٠٠ جندى و ٥٠٫٠٠٠ مُجَذِّف وبحرى ، أما الأسطول التركى فكان يحتوى على ٣٠٠ سفينة ، وما لا يقل عن ١٢٠٫٠٠٠ جندى ومجذف . وكان غرض أمير البحر التركى ( بيالة باشا ) فى الموقعة التى نشبت أن يشتّت جناحى أسطول خصمه، غير أن هذه الحركة لم تُفلح ، لأن « بَرْبَرِيجو » قائد سفن البندقية فى الجناح الأيسر و«أندريا دوريا» فى الجناح الأيمن احتميا بالشاطئ، وبعد ذلك نشبت معركة عنيفة خسر فيها الحلفاء خسارة عظيمة . غير أن البنادقة تمكنوا أخيراً من صد عدوهم بعد جرح قائدهم « بربريجو » جرحاً مميتاً ، وقُتِل القائد التركى محمود «سيركو» (شلوك)

الذى كان يهاجمه . وفى غضون ذلك كان قلب الأسطول بقيادة « دون جون » منتصراً بعد كفاح شديد أشبه بالحرب البرية منه بالحرب البحرية . قُتل فيه القائد التركى « بيالة باشا » وسلّم معظم المراكب التركية أو حُطّم . أما « على الألوج » ( داى الجزائر ) الذى كان متغلباً على ما أمامه من سفن «جنوة» فانه لما رأى ما حلّ بالترك ولّى هارباً ، فتم بذلك النصر للمسيحيين

تأثير الموقعة

ويمكن معرفة ما لهذه الموقعة التى لم تستغرق اكثر من أربع ساعات من الأهمية اذا علمنا أن الترك لم تكن هُزمت فى البحار الى ذلك اليوم . أما الخسائر فلا يمكن تقديرها بالتحقيق ، غير أنهُ من المؤكد ان خسائر الترك كانت ضعفى خسائر الحلفاء، وان ما نجا من سفنهم لم يتجاوز الخمسين

وكان المنتظر بعد هذه الهزيمة المنكرة أن تفقد الدولة سيادتها على البحار . الآ أن ذلك لم يكن ، وغاية ما أثرت أنها برهنت لدول أوربا أنهُ يمكن التغلّبُ على الترك . أما تأثيرها فى سيادة الترك فى البحر الأبيض خاصة فكان ضئيلاً جداً ، اذ أنهم بعد الهزيمة بمدة وجيزة أنشئوا لهم أسطولاً بلغ عدد سفنه ٢٥٠. ومما يبرهن على قلة تأثيرها أيضاً ان البندقية نقضت عهودها مع حليفتيها ، وطلبت الى الباب العالى أن يعقد معها صلحاً على انفراد ، وقبلت أن تبقى قبرس فى قبضة الباب العالى، وأن تدفع له المبلغ الذى بذله فى فتحها

مسالمة البندقية

بقيت بعد ذلك الدولة ربع قرن فى مسالمة مع البندقية ، وذلك لا يرجع الى تأثير المعاهدة فقط ، بل الى تأثير نفوذ بعض أزواج السلطان . اذ لما تولى مراد الثالث ( ٩٨٢ – ١٠٠٣ : ١٥٧٤ – ١٥٩٥ م ) الملك بعــد موت أبيه سليم الثانى ( وكان ضعيفاً ) ترك مناصب الدولة تُباع لمن يدفع فيها اكبر قيمة . وكان طوع ارادة نسائه وخاصةً حظيّته « صفية » ، وأصلها من سَبْى البندقية ، فتسلطت عليه فى مصلحة وطنها

ولما مات هذا السلطان خلفه ابنها محمد الثالث (١٠٠٣ - ١٠١٢هـ : ١٥٩٥ - ١٦٠٣م ) ،

وهو واحد من أبناء مراد الثالث البالغ عددهم ١٠٢ . وقد قتل منهم محمد هذا ثمانية عشر عند توليته عرش الخلافة . ولم تضعف فى أيامه سلطة « صفية » ، وبقيت هى صاحبة النفوذ والسلطان

سيكالا

وكان أكبر مساعد لها فى هذه المدة « سيكالا » ، وهو من عنصر جنوى: تزوج باحدى حفيدات سليمان الأكبر ، وارتقى فى الجيش العثمانى بما كان له من الذكاء والحظوة . ولقد أدى خدمة عظيمة للترك فى عام ١٠٠٤ ﻫ ( ١٥٩٦ م ) ، وذلك أنه بعد أن حارب الترك جنود النمسا وترنسلوانيا واستولوا على « إرلو » : قضوا فى مكامنهم فى سهل « كِرِزْت » ثلاثة أيام بانت الهزيمة بعدها فى الترك ، وفكر السلطان مرتين فى الهرب ، فحمل سيكالا على جيوش الأعداء ، وشتت شملها وأفنى من رجالها خمسين ألفاً

ابتداء ظهور النمسا على الدولة

على أن هذا النصر لم يخلّص الدولة من الثورات العسكرية والحروب الخارجية ، وما كانت تشعر بهِ البلاد من الاستياء العام . وأوضح دليل على وهن نفوذها أن النمسا حينما عقدت معها صلحاً فى عهد السلطان احمد الأول ( ١٠١٢ – ١٠٢٦ ﻫ : ١٦٠٣ – ١٦١٧م ) وكان يناهز الرابعة عشرة من عمره ، لم تعاملها الا معاملة النظير للنظير ، لا الضعيف للقوى ، ومنعت ما كان مفروضاً عليها من الجزية السنوية

ثم سادت السكينة فى الأصقاع التركية الشمالية ؛ لأن يدى امبراطور النمسا كانتا مغلولتين فى حرب الثلاثين سنة* ، وكان من مصلحته أن يكون على وفاق تام مع الترك ، على حين أن الدولة نفسها لم ترَ فائدة من مهاجمته لأنها كانت اذ ذاك قد استرجعت كل فتوحها

مراد الرابع

وفى سنة ١٠٣٢ ﻫ تولى السلطان « مراد الرابع » أريكة الملك ( ١٠٣٢ – ١٠٤٩ ﻫ : ١٦٢٣ – ١٦٤٠ م ) ، وكان شديد البأس ، ولوعاً بالحرب . إلا أنه رأى أن يُبرم عقد صلح من جديد مع امبراطور النمسا ليضمن بهِ بقاء السكينة والهدو

* حرب دارت بين كثير من دول أوروبا من سنة ١٦١٨ الى ١٦٤٨ م . وأصلها أسباب دينية

فى أجزاء الدولة الشمالية مدة النصف الأول من القرن السابع عشر، حتى يتمكن من توجيه كل قواه الى الفرس

الحرب مع الفرس

كان مراد الرابع آخر ملوك آل عثمان الحربيين. وأول حرب أثارها كانت على مملكة فارس، وسببها أنه فى مدة مراد الثالث قامت حرب مع الشاه كان النصر فيها حليف الترك، وعقد الصلح فى عام ٩٩٨ ﻫ (١٥٩٠م)، فضمت الترك الى أملاكها بلادَ «جُرْجيا» و«تبريز» وبعض الأقاليم المتاخمة لجنوبى بحر قزوين. إلاّ أن الفرس ما زالت تنازع الترك هذه الأقاليم حتى استرجعتها فى عام ١٠٢٨ ﻫ (١٦١٩ م)، وأرجعت حدود الدولة من هذه الناحية الى ما كانت عليه فى عهد «سليم الأول». فعزم مراد على فتح هذه الأصقاع ثانية، فلاقى فى سبيل ذلك أهوالاً عظيمة

اخماد الفتن الداخلية

فانه لما تولى عرش الخلافة وهو فى الحادية عشرة من عمره كانت البلاد فى حاجة الى رجل يقبض على زمامها بيد من حديد، لتوالى المصائب عليها وهبوب عواصف الفتن والثورات فيها: فكانت الفرس منتصرة، وآسيا الصغرى فى ثورة، وولاة الأقاليم متمردين، وأصبحت بلاد المغرب مستقلة، والخزينة خالية، والجيش ثائراً

إلاّ أنه رغم كل هذه الصعوبات العظيمة تمكّن بمساعدة أُمّه من حفظ كيان الدولة بعد انهزامات مؤلمة، ففى التاسعة من حكمه ثارت الانكشارية وطلبوا رأس وزيره الأول «حافظ باشا»، فسلم هذا نفسه اليهم فداء لمليكه. إلاّ أن السلطان انتقم له بعدُ من هذه الفئة الضالة شر انتقام، اذ تمكن من قتل الثوّار فى كل اقليم وخصوصاً الانكشارية حتى تكدست رءوسهم على ضفاف البسفور. وقد قيل ان من قُتلوا فى هذا الحادث يبلغون مائة ألف أو يزيدون

ومن ذلك العهد قبض السلطان مراد الرابع على زمام الأمور بكل يقظة، فانتشر العدل وساد النظام فى كل مكان بحالة لم يُرَ مثلها منذ أيام سليمان الاكبر

ولما استتب الأمن فى نصابه سار مراد الرابع قاصداً حدود الدولة الأسيوية ينشر

فيها السكينة . فني عام ١٠٤٥ هـ (١٦٣٥م) أعاد فتح « اريوان » وعاقب ولاة آسيا الصغرى على تمردهم . وفى عام ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م) قصد « بغداد » ليسترجعها من يد الفرس . فأخذها عنوة بعد أن أظهر فى فتحها ضروب الشجاعة وبعد أن فنيت



مراد الرابع

( رسم على افندى يوسف )

كل حاميتها إلاّ ثلاثة آلاف . وتمّ بعدها عقـد الصلح مع الشاه ، وكانت نتيجته أن استردّت الفرس بلاد « اريوان » ، أما بغداد فبقيت من هذا الوقت فى يد الأتراك ودخل « مراد » القسطنطينية دخول المنتصر الظافر

وفى العام التالى وافته منيته وهو فى الثامنة والعشرين من عمره . وبموته مات آخر سلطان حربى من ملوك آل عثمان

## ٥ — ﴿ عهد سلطة الوزراء — أسرة كُبْريلى ﴾

( ١٠٤٩ - ١١٠٣ هـ : ١٦٤٠ - ١٦٩١ م )

تولى شؤون الملك بعد مراد الرابع السلطان « ابراهيم الأول » ( ١٠٤٩ - ١٠٥٨ هـ : ١٦٤٠-١٦٤٨م ) ، فلم يكن قوى العزيمة كسابقه . فدبّ فى أيامه روح الفساد وسوء الإدارة فى داخلية البلاد ، ولذلك لم يفلح فى فتح جزيرة «إقريطش» ( كريت ) بعد أن جهز لها أسطولاً فى عام ١٠٥٥ هـ ( ١٦٤٥ م ) . ولم يمكث طويلاً حتى عُزل وقُتل

اضطراب الدولة

وتولى بعده « محمد الرابع » ( ١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ : ١٦٤٨ - ١٦٨٨ م ) . ففى العام الثانى من حكمه هُزم الأسطول التركى فى بحر الأرخبيل ، وقامت الثورات الداخلية فى آسيا الصغرى ، وأصبحت الحال فى العاصمة أسوأ حال . إذ كان الوزراء يُولَّوْن ويُعزلون تباعاً حسب إرادة نساء القصر ، وطبقاً لرغبات الجنود ، واحتل الدردنيلَ عام ١٠٦٦هـ ( ١٦٥٦م ) اسطولٌ للبنادقة هدد القسطنطينية نفسها . وقصارى القول ان الدولة فى هذه الآونة كادت تتمزق شذر مذر ، لعدم وجود رجل قوى الشكيمة يدير شؤونها ، حتى قيَّضت لها المقادير رجلاً شديد البأس حفظ كيانها هو وأفراد أسرته من بعده : ذلك الرجل هو « محمد كُبْريلى » رئيس أسرة كبريلى الشهيرة

محمد كبريلى

وهى من عنصر ألبانى استوطن القسطنطينية من زمن . وكان محمد هذا وقت ظهوره قد ناهز السبعين من عمره ، وكان محترماً من الصغير والكبير ، لقوة عقله وحسن أخلاقه . ولهذه الصفات اختارته أم السلطان «محمد الرابع» ( الذى كان لا يزال فتى ) صدراً أعظم ، فقبل ذلك بشرط أن يُطلق له العنان فى ادارة شؤون البلاد ، فكانت نتيجة ذلك انهُ أظهر شدة بأس ، مقرونة بعدل ، فأعاد النظام فى كل أصقاع الدولة

وقضى فى ذلك خمسة أعوام على أشد مايكون وزير يقظة لكيد الكائدين ، وضرباً على أيدى المفسدين ، فلم تر الدولة فى كل عصورها رجلاً مطاعاً مثله . ذلك على شدة فيه ، وقد قُتل فى أيام وزارته بأمره ٣٦٠٠٠ شخص فى سبيل توطيد السكينة

وكان هو ومن خلفه من أفراد أسرته هم القابضون على زمام الأمور فى البلاد العثمانية ، ولهم يرجع كل الفضل فى انتعاش الدولة فى النصف الأخير من القرن السابع عشر ؛ فكان همهم الأكبر أن يعيدوا للدولة مجدها القديم وأن يحيوا فى سبيل حكمها السنّة التى سار عليها محمد الفاتح ومن قبله من السلاطين . وقد ظهرت ثمرة حكم محمد كبريلى فى مدة وجيزة جداً ، إذ انمحت آثار الفوضى وعاد النظام الى نصابه . وفى العام الثانى من توليته طرَد أسطول البندقية عن الدردنيل بعد قتل قائده «موسنيجو» ، واسترجعت الدولة جزيرة « لِمنُوس »و« تَنْدُوس » . ثم ضيق الحصار على جزيرة « اقريطش » ، وأعد المعدات لتجديد الفتوح العثمانيــة فى أوربا . ولما مات « محمد كبريلى » فى عام ١٠٧٢ هـ ( ١٦٦١ م ) كانت كل أجزاء الدولة متحدة الكلمة منبثاً فيها روح النشاط ، متوجهة بكل قواها لمنازلة عدوها العنيد امبراطور النمسا

احمد كبريلى

لبس احمد كبريلى حلة أبيهِ وقبض على زمام الأمور بعده ، فكان مثله فى الحزم ، وحذا حذوه فى سياسة البلاد . وكان مبدأ توليته شؤون الدولة هو أجَل انفراط عقد المحالفة مع النمسا ، فسار على رأس جيش يبلغ ٢٠٠٠٠٠ جندى وانقض به على بلاد النمسا والمجر عام ١٠٧٤هـ (١٦٦٣م) ؛ فعبر نهر الطونة عند «جران» واستولى على قلعة «نيُوهوْزِل» وخرّب من «مرافيا» حتى أسوار مدينة «أُولْمتز» . إلاّ أن

الحرب مع النمسا

« لويس الرابع عشر » ملك فرنسا مدّ الى الامبراطور يد المساعدة نكاية بالترك الذين أهانوا سفيره فى بلادهم . فأعد جيشاً يبلغ ٣٠٠٠٠ مقاتل ، ولما وصل هذا الجيش الى «مُنْتِكُوكُولى» قائد الجيوش النمساوية أحسّ أنهُ يمكنه تهديد جناح الجيش التركى اذا زحف عليــه من جهة « فينا » . إلاّ أن احمد تقهقر الى الجنوب نحو « بودا » فتقابل الجيشان عند «سَنْغوتار» على نهر الراب سنة ١٠٧٥ هـ (١٦٦٤م) ، فلم يقو

احمد على عدوه وانهزم أمامه . ورأى الامبراطور أن يعقد صلحاً حتى يتلخص من تدخُّل فرنسا فى شؤونه ، فتم ذلك بمعاهدة «فزْفار» فى أغسطس سنة ١٦٦٤م ، وقد اعترف فيها بسيادة السلطان على « ترنسلوانيا » . وبعدئذٍ وجه الصدر عنايته الى محاربة البنادقة ، واشترك هو بنفسه فى حصار « اقريطش » ( كريت ) ، وهى من لخيرة أملاكهم ، فسقطت فى يد الأتراك بعد حرب عوان فى ١٧ سبتمبر سنة ١٦٦٩ ( ١٠٨٠ هـ )

معاهدة فزفار

فتح اقريطش

وعقب فراغه من حرب البنادقة دخل مع بولَندة فى حرب طاحنة . وسبب ذلك يرجع الى عسف البولنديين وظلمهم لقبائل «القوزاق» القاطنين مقاطعة «اوكْرين» وكان البولنديون يعتبرونهم من رعاياهم ، ثم زاد غضب القوزاق وسخطهم على البولنديين حينما تولى «ميخائيل» مُلك بولندة ، إذ كانوا يرون فى توليته ابتداء عصر لاضطهادهم لأنه هو ابن اكبر ملك أجحف بحقوقهم وسامهم الخسف وسوء العذاب . فثاروا فى عام ١٠٨١ هـ ( ١٦٧٠م ) وآذانوا بالحرب ذلك الملك الطاغى . إلاّ أنهم هُزموا على يد قائده الشهير « جون سُوبِيسْكى »

الحرب مع بولندة

فلما ضاقت بهم الحال ، وأيقنوا ان لا مناص من الخسف والظلم ، طلبوا الى الباب العالى أن يكونوا تحت سيادته ليحميهم من هــذا الملك الغشوم ، فاغتنم «احمد كبريلى» هذه الفرصة وأعلن الحرب على بولندة بحجة حماية رعاياها المظلومين

فنى عام ١٠٨٣ هـ ( ١٦٧٢ م ) ظهر السلطان بنفسه ومعه « احمد كبريلى » امام حصن «كامِنيك» المنيع وهو مفتاح مقاطعة « بادوليا » ( فى بولندة ) ، فسقط الحصن فى يد الترك فى أقل من شهر . فجَبُن عند ذلك ميخائيل ملك بولندة ، وعقد صلحاً مع الترك كان أهم شروطه ان ينزل لهم عن « بادوليا » و«أوكرين» ويدفع جزية سنوية للباب العالى

سقوط كامنيك

إلاّ أن مجلس الأعيان البولندى رأى من العار قبول هذه المعاهدة ، وجمع كل من يستطاع تجنيدهم من الجند بقيادة « جون سوبيسكى » ليقاوم بهم عدوهم حتى

جون سوبيسكى

النهاية . وبالرغم من عدم مساعدة الدول الأخرى له ، والدسائس التى كانت تُدبّر له فى بلاده، وتمرد الجنود عليه، تمكن بحذقه ومهارته الحربية وقوة شكيمته من استدامة الحرب بينه وبين الترك أربعة أعوام ، فوقف تقدمهم فى « بادوليا » و « غليسيا » وانتصر على أعظم قوادهم انتصارات باهرة فى موقعتى « شُكْزِم » سنة ١٠٨٤ هـ ( ١٦٧٣ م ) و « لِمبُرغ » سنة ١٠٨٦ هـ ( ١٦٧٥ م ) ، وشتت شمل الجيوش التركية الى أن اجتاز نهر « الطونة »



جون سوبيسكى
( عدو الترك اللدود )

وفى عام ١٠٨٥ هـ ( ١٦٧٤ م ) ( وحينما كانت الحرب فى منتهاها من الشدة ) مات الملك ميخائيل فانتخب البولنديون بطلهم « جون سوبيسكى » مليكاً عليهم ولكنهم خذلوه مع حبهم له، فبعد توليته بيومين وجد نفسه وجيشه محاطين بالترك عند « زُرَانو » على نهر الدِنيستَر ، ولم ينجده البولنديون. ومع ذلك كانت هيبته وشهرة اسمه سبباً فى خلاصه من هذه الورطة ، إذ فضّل القائد التركى ابراهيم أن يعقد معهُ صلحاً رابحاً على أن ينازل الأسد فى عرينه . وفعلاً تم عقد صلح « زرانو » سنة ١٠٨٧ هـ ( اكتوبر سنة ١٦٧٦ م ) ، وأهم شروطه أن تنزل بولندة عن « كامنيك » و « بادوليا » وجزء من « أوكرين » . وبعد مضى سبعة أيام من تاريخ معاهدة « زُرانو » مات احمد كبريلى ، إلاّ أن سياسته لم تُقبَر معهُ خلف احمد كبريلى فى منصب الصدارة العظمى صهره « قَرَه مصطفى » ، وكانت

قره مصطفى

أمانيه وأطماعه لا تقل عن سلفه، ولكنهُ لم يُعطَ نصيباً وافراً من المقدرة وحسن التدبير ، فهدم ما بناه محمد واحمد كبريلى بجدهما ونشاطهما بكبريائه وانغماسه فى الشهوات وافتخاره الكاذب. وكان فى بادئ أمره يشعر بحسن المستقبل ، فعزم عزماً أكيداً على أن يخترق قلب البلاد الأوربية ويقضى عليها القضاء المبرم بفتح « ويانة »

نجاحه فى أول أمره

فابتدأ يتأهب سراً بما لم يُسمع بمثله من قبل ، وجدد علائقه الودية مع فرنسا ، وعقد صلحاً مع «الروسيا» ، ووثق صلته ببولندة . وكان غرضه من ذلك أن يترك الامبراطور وحيداً ، وأوشك أن يتم له فعلاً ما أراد ، اذ كان المجر أيضاً ناقمين منذ سنتين على الامبراطور « ليبولد » لتضييقه عليهم فى معتقداتهم الدينية والسياسية ، فثاروا عليه سنة ١٠٨٥ هـ (١٦٧٤م) بقيادة « توكولى » ، ثم انضم اليهم بعدُ أمير « ترنسلوانيا » ، فتمكنوا فى عام ١٠٩٢هـ (١٦٨١م ) من إجبار الامبراطور أن يعيد اليهم ما سلبهم من الحقوق السياسية ، ويمنحهم الحرية الدينية

الحرب مع النمسا

إلاَّ أن «توكولى» لم يكتف بذلك ، بل رغب فى أن يكون هو والياً على المجر ، ولذلك صفا الى «قره مصطفى» الذى مناهُ بولاية المجر اذا انضم اليه على الامبراطور وبذلك تم كل شىء « لقره مصطفى » بعد أن وثق من عدم مساعدة « لويس الرابع عشر » للامبراطور ومن منعه ألمانيا أيضاً من مؤازرة النمسا

أماط « قرة مصطفى » اللثام عن أغراضه سنة ١٠٩٣ هـ ( ١٦٨٢م ) وأعلن فى ربيع ١٠٩٤ هـ (١٦٨٣ م) ان المجر ولاية عثمانية ، وعبر نهر الطونة على رأس جيش يبلغ ١٥٠،٠٠٠ جندى . فلما رأى الامبراطور حرج موقفه وأن فرنسا تقف سداً أمامه فى كل باب يطلب منه المساعدة يئس من مقاومة الترك

مساعدة سوبيسكى لامبراطور النمسا

الاَّ أن «جون سوبيسكى» نكث العهد وأقنع أمته بضرورة مساعدة الامبراطور ، وفى ٣١ مارس أُبرمت محالفة بين الدولتين تعهدت فيها بولندة بتجريد ٤٠،٠٠٠ مقاتل للدفاع عن النمسا

وكانت الجيوش التركية فى هذه الأثناء متابعة الزحف نحو « فينا » حتى اضطر

الامبراطور « ليبولد » الى الانتقال بحاشيته الى « بسَّاو » . وفى ٩ يوليه خفقت الأعلام التركية على مقربة من أسوار فينا ، وفى ١٤ منه حوصرت المدينة وحُفرت خنادق الحصار

حصار فينا

وكانت حالة المدينة سيئة جداً غير متأهبة للحصار ، وكان عدد حاميتها ١٤,٠٠٠ مقاتل فقط ، وهى غاصة بالقرويين اللاجئين اليها من الأرياف . وكانت أسوارها قديمة متداعية الى السقوط . على حين أن المهندسين من الترك ورجال مدفعيتهم كانوا من أمهر رجال أوربا فى ذاك العصر

ومع كل هذا لم ينتفع قره مصطفى بهذه الفرصة ، وأضاعها بتلكُّئه وتوانيه ، فانه بعد أن شتّت شمل رجال الامبراطور وأنزلهم من معاقلهم ، وأصبحت المدينة ممكنة الفتح مُعورة من كل جهاتها ، لم يُقْدِم على مهاجمتها ، بل تردد ، وكان غرضه أن تسلِّم المدينة بلا حرب ويأخذ ما فيها من الخيرات لقمةً سائغة لنفسه

فشل الترك

وكان جون سوبيسكى فى هذه الأثناء يجمع جوعه بكل سرعة عند « كراكاو » لإنقاذ المدينة . وكان « ذوق لورين » قائد قوات الامبراطور قد بعُد عن المجر وعسكرَ شرق « فينا » على مسافة منها ، ووكل أمر الدفاع عنها الى الكونت استهْرِمبرج قائد الحامية ، ولم يجرؤ على الزحف لتخليص المدينة حتى أتاه « جون سوبيسكى » فى ٢ سبتمبر سنة ١٦٨٣ م وتسلم قيادة جميع الجيش . ثم زحف نحو المدينة وصار على مقربة من معسكر الجيش التركى ، حين كانت الحاجة ماسة اليه جداً ، اذ كانت الأتراك قد نقبوا أسوار المدينة ، وتفشى المرض فى أهليها . فلما رأت الحامية طلائع النجدات دبّ فى نفوسهم روح الأمل ، وأيقنوا أن النصر أصبح منهم قاب قوسين أو أدنى . وتمت لهم أمانيهم بهجوم « جون سوبيسكى » على مقدمة الجيش التركى ، ثم باشتباكه معه فى معركة عنيفة شتّت فيها شمل الأتراك وأنقذ المدينة . وقد نجا « قره مصطفى » بحياته بعد أن يئس من الخلاص . وجمع شتات جيشه المنهزم عند « بلغراد »

ومن هذا الحين ابتدأ نجم الأتراك يأفل فى أوربا . أما « قره مصطفى » فان الترك باعوه ذلك النصر المضيّع بضرب عنقه . على أن خلفه ابراهيم كان نصيبه القتل والهزيمة أيضاً ، اذ اندحرت الترك فى نفس العام فى شهر اكتوبر عند « بَرْكَانى » على يد « جون سوبيسكى » ، فأجلاهم عن كل بلاد المجر*

واقعة بركانى

وفى العام التالى ( ١٠٩٥ هـ : ١٦٨٤ م ) انضمت جيوش البندقية الى جيوش « جون سوبيسكى » لاقتفاء جيوش الترك المنهزمة . وفى هذا العام عقد « الحلف المقدس » بين الإمبراطور وبولندة والبندقية على الترك ، ولم تمض الاّ فترة يسيرة حتى ظهرت ثمرته ، لأنه بالرغم من اعتزال « جون سوبيسكى » قيادة الجيش فى ١٠٩٧ هـ (١٦٨٥م ) لاعتلال صحته وشيخوخته ، بقيت فتوح الحلف المقدس تمتد على نهر الطونة برًّا ، وفى البحر الأبيض المتوسط بحراً

الحلف المقدس

ولم تمضِ هذه السنة حتى استرد « دوق لورين » جميع المجر التركية عدا « بودا » ، واستولى الأسطول البندقى على عدة بلاد على ساحل « ألبانيا » . وفى العام المقبل سقطت « بودا » فى يد « لورين » وأخضع لورين جميع المجر . وفى عام ١٠٩٩ هـ ( ١٦٨٧ م ) دُحر الصدر الأعظم عند مدينة «موهَكز» التاريخية ، واسترجع القائد لورين « كُرُوَاتيا » و « سلافونيا » وأخضع « ترنسلوانيا » ، ثم عبر نهر « الطونة » وأخذ « بلغراد » عنوة ، واستمر فى الزحف حتى وصل الى « نيش » عام ١١٠٠ هـ ( ١٦٨٨ م )

خسائر الترك

وكان مُرُوسينى أمير البحر البندقى فى الوقت نفسه يظهر نشاطاً عظيماً فى البحر الأبيض المتوسط ، إذ أخضع فى عام ١٠٩٨ هـ (١٦٨٦ م) أهم بلاد المورة ولم يأت عام ١١٠٦ هـ ( ١٦٩٤ م ) حتى خسرت الترك كل أملاكها فى بلاد « اليونان » وعلى الساحل « الأدرياتى »

وكانت قد قامت ثورة فى عام ١٦٨٨م فى القصر السلطانى كانت نتيجتها عزل محمد

---

* من غريب الصدف ان الترك كانوا قد فازوا على عدوهم فى هذا المكان عينه قبل تلك الواقعة ببضعة أيام

الرابع وتولية ابنه سليمان الثانى ( ١٠٩٨ – ١١٠٢ هـ : ١٦٨٧ – ١٦٩١م ) ، فعهد هذا أمر الصدارة العظمى الى «مصطفى كبر يلى» أخى احمد كبر يلى ، فأظهر ما هو مشهور عن رجال هذه الاسرة من شدة البأس وسعة الخلق . فاتبع سياسة التسامح الدينى فى كل انحاء الدولة ، وأعاد النظام فى الجيش ، فلم يمض عامان من توليته زمام الأمور حتى أصبح النصر حليف الترك . ففى عام ١١٠٢ هـ ( ١٦٩٠ م ) استرجع مصطفى كبر يلى « نيش » « وبلغراد » وغزا « المجر » ؛ ولكنهُ هُزِم وقُتِل فى سنة ١١٠٣ هـ ( ١٦٩١ م ) فى واقعة ( سِلانْــكَمِن ) على يد حاكم « بادِن »

مصطفى كبر يلى

موته فى موقعة سلانكمن

وبموت هذا الرجل قُضى على آمال الترك المرجوّة . واستمرت الحرب بعدُ مدة ثمانية أعوام كان النصر فيها سجالاً، إلاّ أن جيوش الامبراطور وجيوش البندقية بقيت محافظة على «المجر »و«ترنسلوانيا» وبلاد «المورة»، وفى عام ١١٠٨ هـ (١٦٩٦ م) انتصرت الجيوش النمسوية بقيــادة الأمير « بوجين » نصراً مبيناً على السلطان « مصطفى الثانى » ( ١١٠٦ – ١١١٥ هـ : ١٦٩٥ – ١٧٠٣ م ) الذى كان يقود الجيش بنفسه عند « زَنْتا »

واقعة زنتا

وابتدأ يظهر شأن بطرس الأكبر ، قيصر الروس العظيم ، فدخل فى هذه الآونة الحرب ، وأخذ من العثمانيين بلدة « آزاق » . فلما رأى السلطان حرج موقفه ، وأن لا فائدة من امتداد أمد الحرب ( إذ أيقن أنهُ بانقراض اسرة كبر يلى قد انقضى عصر الفتوح ) عقــد صلح « كَرْلُوِتْز » سنة ١١١٠ هـ ( ١٦٩٩ م ) . وكان أهم شروطه أن يسترجع الامبراطور كل بلاد «المجر » (ما عدا تَمَشْوَار) والجزء الأعظم من كُرْوَاتيا و « سلافونيا »، وأن تكون له السيادة على« ترنسلوانيا » . أما بولندة فانها استرجعت « بادوليا » وفيها « كامينك ». ونزلت الدولة أيضاً عن آزاق « للروسيا » . وأما البندقية فانها بقيت فى بلاد المورة . ومنذ هذه المعاهدة سقطت هيبة الدولة من أعين دول أوربا

معاهدة كرلوتز

## ٦ — ﴿ الدولة العثمانية وحروبها مع الروسيا والنمسا ﴾

### فى القرن الثامن عشر

مقدمة

أخذت الدولة العلية تضعف شيئاً فشيئاً خلال القرن الثامن عشر ، وذلك يرجع الى سببين عظيمين : الأول نهوض الأمة الروسية وتحالفها مع النمسا على الأتراك لبسط سلطانها وطرد الأتراك من أوربا . والثانى اختلال النظام وسوء الإدارة فى البلاد العثمانية وثوران من فيها من الشعوب المختلفة فى وجه الدولة

المسألة الشرقية

ولما ظهرت علامات الضعف والاضمحلال فى الدولة أخذت دول أوربا تنظر فيما سيؤول اليـه أمرها ، ومن يكون الوارث لأملاكها . وتُعرف هذه المسألة عندهم «بالمسألة الشرقية» . ويرجع تاريخها الى عام ١١٠٨ هـ ( ١٦٩٦ م ) عند ما استولى الروس على مدينة «آزاق» التى نزلت عنها الدولة للروسيا رسمياً فى معاهدة «كرلوتز» كما نزلت أيضاً عن بعض ممتلكاتها الى النمسا ، وبذلك دخلت سياسة الشرق الأدنى فى طور جديد

وبعد هذه المعاهدة وقف تيار تقدم الروس فى الجنوب فترة ، وذلك لمـاَ نزلوا للترك عنهُ فى معاهدة «بروث» الآتى ذكرها سنة ١١٢٣ هـ ( ١٧١١ م ) بعد أن انهزمت الروسيا هزيمة منكرة . ولكن مالبثت هذه الفترة أن انقضت وعادت الروسيا الى مناوأة الترك طول القرن الثامن عشر بلا انقطاع

وكان ضعف الدولة المستمر فى خلال هذا القرن سبباً لمشا كل جديدة وارتباكات شديدة بين دول أوربا . فبينما كانت الروسيا تبذل جهدها لبسط سلطانها على البحر الاسود كانت النمسا من جهة أخرى تعمل طاقتها لمد أملاكها على نهر الطونة . إلاَّ أن عمل كل من الروسيا والنمسا كان داعياً لقلق فرنسا وتدخُّلها. وفى سنة ١١٨٨ هـ ( ١٧٧٤ م ) ابتدأت مقاصد الروسيا تظهر جلياً بعـد معاهدة « كجوك قينارجة » ( كُتْشُك كينارجى ) التى سيأتى ذكرها . فطنت انجلترة للأمر ، وأخذت تخاف

انحلال عرا الدولة العثمانية ، كما أخذت أوربا من ذلك الحين تهتم أيضاً بالمسألة الشرقية وتنظر إن كان بقاء الدولة وحفظ كيانها فى أوربا خيراً من ضمها الى الروسيا أم لا

نهضة الروسيا وبطرس الاكبر

وأول من عمل على توسيع نطاق الدولة الروسية وجعلها فى مصاف دول أوربا العظمى هو قيصرها بطرس الأكبر ( ١١٠٠ – ١١٣٧ هـ : ١٦٨٩ – ١٧٢٥ م ) ، وكانت قبل عهده بعيدة عن الحضارة الأوربية ، منزوية عن العالم المتمدين . فلما تولى هذا القيصر الملك عام ١١٠٠ هـ (١٦٨٩م) خطا بها خطوات واسعة فى سبيل العمران ؛ إذ غيّر أنظمتها وسياستها الداخلية دفعة واحدة ، فاتخذ «بطرسبُرج» مقراً لملكه بعد ان كان مدينة ( مُسكو ) ، وأدخل العادات ووسائل المعيشة الغربية فى بلاده ، وضرب بيد من حديد على سلطة الأشراف ، ووضع الكنيسة والجيش ( الذى دربه على الأنظمة الأوربية ) تحت مراقبته نفسه . أما سياسته الخارجية فلم تقل حزماً وبعد نظر عن سياسته الداخلية ؛ إذ رأى أنه لا يتسنى للروسيا ان تكون مملكة تجارية الا اذا أرسخ قدمها على البحرين البلطى والأسود ، وكان الأول فى قبضة السويد والثانى فى يد الترك . فجعل همه ابتداء مناوأة السويد ، وبعد حروب طويلة تم له مقصده فى معاهدة «نيستاد» سنة ١٧٢١م ، إذ نزلت السويد للروسيا عن ليفونيا ، وإيثونيا ، وإنجيريا ، وكريليا ، وغيرها

أما الترك فأخذ منها آزاق فى معاهدة «كرلوتز» كما سبق . الا أن العثمانيين استردوها ثانيةً فى عهد احمد الثالث (١١١٥ – ١١٤٣ هـ : – ١٧٠٣ – ١٧٣٠م)

واقعة بروث

وذلك ان الروس لما هزموا «شارل الثانى عشر» ملك السويد فى موقعة «بلْطاوا» لجأ شارل الى الترك وطلب منهم المساعدة . فلبت الترك دعوته إذ وجدت فى ذلك فرصة لاسترداد ما خسرته ، فشنّت الحرب على الروسيا ، وبعد مواقع عنيفة تمكن القائد التركى ( بَلْطَجى باشا ) من حصر الجيش الروسى ووشك القبض على قيصر الروس عند نهر «بروث» ، ولكنه نجا من الأسر بما قدمته زوجته «كترين» من الرشوة الى الخائن «بَلطجى باشا» . فأفلتَ بطرس وجيشه ( بل روسيا الجديدة

كلها ) من براثن الفناء ، واضطرت الدولة بعد هذه الغلطة الشنيعة الى عقد صلح « بروث » عام ١٧١١ م الذى استرجعت به من الروسيا ميناء « آزاق » . ويعتبر عقد الروس لهذه المعاهدة على مانالهم فيها من الخسائر الطفيفة من اكبر سعودهم، إذ لو لم تتقيد بها الترك وواصلت عليهم الحرب لقضت لامحالة على دولتهم وهى فى إبَّان نهضتها



بطرس الأكبر

وبعد مضى خمسة عشر عاماً على معاهدة « كرلوتز » أراد «قومُورجى على» الصدر الأعظم أن يمحو العار الذى لحق الدولة فى هذه المعاهدة باسترداد بلاد المجر والمورة . وكانت الفرصة سانحة له ، إذ كانت الدولة قد انتصرت على بطرس الأكبر ( كما أسلفنا ) ، وكانت « الامبراطورية » ( النمسا ) قد أنهكتها الحروب الأوربية ، ولم يكن للبنادقة من القواد مثل «مروسينى» وأمثاله حتى يقودها الى الظفر ، فضلاً عن أن بلاد المورة نفسها عند ماغُزيت لم تُظهر أى مقاومة جدّية ، فكانت النتيجة أن تمكن قومرجى بزحف واحد من استرجاع بلاد المورة سنة ١١٢٧هـ (١٧١٥ م)

على أنه لم يتم له فى المجر ما أراد ، فإنه هُزم عند « بيترْوَردِن » هزيمة منكرة على يد الأمير «يوجين» فى أغسطس سنة ١١٢٨ هـ (١٧١٦ م) وقُتل الصدر الأعظم فى هذه الموقعة ، فاضطر الباب العالى الى عقد صلح «بَسَّارُوِتز» عام١١٣٠هـ (١٧١٨ م) ، وكان أهم شروط هذا الصلح ان ابقت الدولة للنمسا مقاطعة تمسوار وبلغراد ، وبقى معها المورة

معاهدة بساروتز

الحرب مع الفرس

وبعد معاهدة « بسَّارُوِتْز » لم تفكر الترك فى منازلة الروس ، بل وجهوا همهم نحو « فارس » اذ كانت نار الثورة متأججة فيها . ففى عام ١١٣٥ هـ (١٧٢٢-١٧٢٣م) لجأ « الشاه طهْماسب » الى الروسيا والدولة ليساعداه على منازع له فى الملك ، فانتهز الباب العالى هذه الفرصة واستولى على بعض جهات فارس ، وساعده على ذلك خروج الأرمن على الفرس

وفى عام ١١٣٦ هـ ( ١٧٢٤ م ) عُقدت معاهدة بين الترك والروس على أن تستولى الروسيا على الأقاليم المحيطة ببحر قزوين وتستولى الترك على إقليمى « جورجيا » و « أذرْبيجان » ، الاّ أن هذا الأمر لم يدم طويلاً ، اذ ظهر فى فارس عام ١١٤١ هـ ( ١٧٢٩ م ) زعيمٌ قوى يدعى « نادرشاه » عمل على تخليص بلاده من نير الأجانب ، وما زال بالترك حتى أجلاهم عن البلاد الفارسية عام ١١٤٨ هـ ( ١٧٣٥ م ) بعد حروب طويلة

وكانت الروسيا تريد امتداد الحرب بين الترك والفرس حتى تحقق غرضها فى مسألة الوراثة البولندية ( وهى تنصيب أمير من قبلها على هذه البلاد ) . لذلك نزلت للفرس عما أخذته فى عام ١١٣٦ هـ ( ١٧٢٤ م ) وأمدتهم بالذخائر ، وبهذه الحروب الفارسية ضيّعت الدولة فرصة عظيمة بعدم مهاجمتها للروسيا أثناء حرب الوراثة البولندية . والسبب فى ضياعها يرجع الى السلطان « احمد الثالث » ووزيره « ابراهيم » اذ كانا لا يميلان الى مناوأة الروسيا والنمسا ، على حين كانت الروسيا تسعى جهدها دائمًا فى مناوأة الدولة

اتفاق الروسيا والنمسا على الدولة

وفى عام ١١٣٨ هـ (١٧٢٦م) عقدت روسيا محالفة مع النمسا نعلم منها سر سياسة كلتا الدولتين فى القرن الثامن عشر . وأهم شروطها أن تتعهد كل للأخرى أن تمدها بنحو ٣٠،٠٠٠ مقاتل اذا هاجمها غير الترك ، أما اذا كانت الدولة العثمانية هى المهاجمة فيجب على كلتا الدولتين أن تحارباها معًا بكل ما لديهما من القوة

وبعد أن نجحت النمسا والروسيا فى تنصيب أمير على « بولندة » من قبلهما لم

يكن أمامهما عائق من مهاجمة الدولة والسعى فى تقسيمها بينهما . وقد كانت الفرصة سانحة للروسيا فى هذه الآونة لمحو أثر معاهدة « بروث » ، إذ أن بولندة التى كان يطمح بطرس الأكبر أن يجعلها الطريق الموصل الى بلاد الترك قد خضعت لنفوذ الروسيا ، والترك مغلولو الأيدى فى حربهم مع نادرشاه ، والنمسا أيضاً كانت تطمح الى الزحف على نهر الطونة لتعويض ما فقدته من الممتلكات فى جهات أخرى من أوربا . هذا الى أن نادرشاه كان أكّد للروسيا قبل صلحه مع الدولة أن لا يمسها بمكروه اذا دارت رحى الحرب بينها وبين الترك ، والى أن الروسيا فوق ذلك كان لها أعوان وجراثيم فتن فى قلب المملكة العثمانية من الشعوب المسيحية التى كانت شديدة الميل الى الروسيا ، حتى أنه لما أشيع خبر نشوب الحرب فى عام ١١٤٨ هـ ( ١٧٣٥ م ) ثارت كل الرعايا المسيحيين العثمانيين آملين الخلاص من حكم الدولة . ومن هذا الوقت أخذت الروسيا تستعمل اطماع هؤلاء الرعايا الدينية والوطنية فى تمزيق أحشاء الدولة العثمانية وتبديدها

تأهب الروسيا للحرب

نشوب الحرب

كل هذه الأمور تدل على أن الروسيا كانت تتأهب لمحاربة الدولة وتنتظر حدوث أى شىء تتمسك به لشهر الحرب عليها . وفى عام ١١٤٨ هـ ( ١٧٣٥ م ) وجدت لذلك فرصة مناسبة وهى زحف جيوش من التتار على بلاد «القوقاس» (القبجاق) وأرمينية . وكان هؤلاء التتار خاضعين للدولة العثمانيـة ، فخرجت الجيوش الروسية لصدهم وغزوهم فى ديارهم ، ثم أخذت تتأهب لملاقاة الترك ، فعهدت بالقيادة العامة الى « ميونِخ » ، وضم هذا اليه غيره من الضباط الأجانب المستأجرين

القائد ميونخ

وكان « ميونخ » هذا من أكبر قوّاد القرن الثامن عشر . وُلد فى ألمانيا وحارب فى الجيوش النمسوية والبولندية والروسية ، وبهر بطرس الأكبر بما له من الصفات الحربية العظيمة ، فسعى فى استخدامه

الحرب فى القرم

وأول ما عزم عليه فى هذه الحرب استرجاع « آزاق » ، فأخذ يستعد فى شتاء ١٧٣٥ — ١٧٣٦ م . وفى ربيع ١١٤٨ هـ ( ١٧٣٦ م ) انقض على « القرِم »

وناط حصار « آزاق » بالقائد « لاسى » الأرلندى . وفى شهر مايو وصلت أخبار الحملة الروسية الى القسطنطينية ، فأعلنت الدولة الحرب على الروسيا فى ٢٨ منه . وكان ميونخ وقواده قد توغلوا فى شبه جزيرة القرم واحتلوا كثيراً منها، الا أنهم تكبدوا فى ذلك خسائر فادحة واضطروا للجلاء عنها والتراجع الى «أوكرين» فى ٢٥ أغسطس سنة ١٧٣٦ بعد أن ارتكبوا فى القرم من الفظائع والمنكرات ما لا يوصف

دخول النمسا فى الحرب

ثم دخلت الحرب فى طور جديد لتجديد تحالف الروسيا مع النمسا فى سنة ١١٤٩ هـ (١٧٣٧ م) تأكيداً لمعاهدة ١٧٢٦ م ، فأثارت النمسا الحرب أيضاً على الدولة العثمانية التى قابلتهما بمقاومة أدهشت أوربا بأسرها: فاضطرت ميونخ الى التقهقر عن أوكرين ، وردّت النمسويين مقهورين حتى اقليم «بنات» ، فأحجموا عن الحرب

مهادنتها الدولة على انفراد

وأخذوا يفاوضون الدولة سرًّا فى عقد الصلح معهم على انفراد. فغاظ ذلك ميونخ غيظاً شديداً . وكانت له آمال كبيرة فى القضاء على الترك : من ذلك أنهُ عرض على قيصرة

المشروع الشرقى

الروسيا فى ذلك العهد أساس ذلك المشروع الخطير الذى يسمى «المشروع الشرقى» وفحواه ان الروسيا ترى ان لها الحق الطبيعى فى الزعامة على المسيحيين من رعايا الدولة، فيجب عليها أن تعمل على نشر الدولة « البوزنطية» بالقسطنطينية . ولذلك كان جل أمانى « ميونخ » مواصلة الحرب ، وبالفعل أغار على« ملدافيا » ( البغدان ) وهزم جيوش الدولة فى«شكزِم» سنة ١١٥٢ هـ (١٨ أغسطس سنة ١٧٣٩ م) . إلا ان توالى هزائم النمسويين وعقدهم وحدهم الصلح مع الدولة قضى على أمانيه، وخاصة بعد أن علم بعزم السويد على محاربة الروسيا وبقيام بعض الفتن فى داخلية بلاده ، ولذلك

معاهدة بلغراد

رضيت الروسيا بعقد الصلح وأبرمت مع الدولة «معاهدة بلغراد» الشهيرة فى سبتمبر سنة ١٧٣٩ م : ففى المعاهدة التى عقدت مع النمسا على انفراد أخذت الدولة العلية بلغراد و « أرسوفا » وجميع بلاد الصرب والبوسنة و بلاد الأفلاق والبغدان

أما الروسيا فانها لم تأخذ مما فتحتهُ سوى آزاق بعد هدم قلاعها ، واشترطت عليها الدولة ألا تدخل أساطيلها فى البحر الأسود ، بأن يكون بحيرة عثمانية بحتة

وهذه هي آخر معاهدة رابحة عقدتها الترك مع الدول الأوروبية . ولقد لقيت الدولة في ابرامها مساعدة عظمى من فرنسا ، لأنها كانت تخشى اتساع سطوة الدولتين : الروسية والنمسوية

بعد ذلك ساد السلام بين الروسيا والدولة مدة طويلة مات في أثنائها السلطان « محمود الأول » ( ١١٤٣ – ١١٦٨ هـ : ١٧٣٠ – ١٧٥٤ م ) ، وخلفه السلطان « عثمان الثالث » ( ١١٦٨ – ١١٧١ هـ : ١٧٥٤ – ١٧٥٧ م ) ، ولم يحصل في عصره شيء جدير بالذكر . ثم تولى بعده السلطان « مصطفى الثالث » ( ١١٧١ – ١١٨٧ هـ : ١٧٥٧ – ١٧٧٣ م ) ، وكان ولوعاً بالحروب ، فلما رأى ان ازدياد نفوذ الروس في بولندة يتعاظم بهمة قيصرتهم العظيمة « كترين الثانية » التي تولت الملك سنة ١١٧٦ هـ ( ١٧٦٣ م ) خشي على بلاده . ورأت ذلك أيضاً الحكومة الفرنسية بالنسبة لبلادها فوافقتـه على رأيه ، ولذلك عزم الباب العالى على منازلة الروس . وقوّى عنده هذا العزم ان الروس كانوا منذ ١١٧٩ هـ ( ١٧٦٥ م ) يحرضون اليونان و «الجبليين» و «البوسنيين» على الخروج على الدولة . وفي سنة ١١٨٢هـ (١٧٦٨م) اشتد حنق الباب العالى إذ دخلت الجنود الروسية أملاك الدولة أثناء مطاردتهم لبعض البولندية الفارّين من وجوههم وأحرقوا «بلطة» التابعة لخان القرم أحد ولاة الدولة فأعلن الباب العالى الحرب على الروسيا في ٦ اكتوبر سنه ١٧٦٨ لذلك وبحجة الدفاع عن حرية البولنديين

تجدد الحرب

ابتدأت الحرب بين الدولتين ، فلازم سوء الطالع الدولة من أول نشوبها ، فلم تلبث ان انهزمت أمام الروس على نهر دنيستر واحتلت الروسيا «ملدافيا»(البغدان) وبلاد « الأفلاق » و « بسّارَبيا » و « القرم » . وفي خلال هـذه المدة كان الأسطول الروسي ظافراً في البحر ، فانتصر على أسطول الدولة عند ثغر «جَشْمَة» ( شِزْمِى ) في يوليه سنة ١٧٧٠ ، ولولا ما أبداه القبودان حسن باشا الجزائرلى من الشجاعة لأحدق الخطر بالقسطنطينية . وما زالت الجيوش الروسية تجدّ في فتح بلاد

خسائر الدولة

الدولة بقيادة القائدين العظيمين « رومانوف » و« سوفاروف » وغيرهما حتى خشيت الدولة العلية العاقبة وطلبت الصلح فى سنة ١٧٧٤ م . وكانت « كترين » مشغولة أيضاً بحرب بولندة وبثورةٍ داخلية أثارها قوزاقٍ نهر الدون . وكانت انجلترة أيضاً قد استرجعت قوّادها من الجيوش الروسية لما رأته من توالى هزائم الترك ، فلم ترَ « كترين » بدًّا من وقف الحرب مع الدولة مع كثرة انتصاراتها فيها ، وابرمت معها معاهدة «كجوك قينارجة» ( كنشك كينارجى ) سنة ١١٨٨ ﻫ ( ١٧٧٤م ) . وهى أهم معاهدة عقدت بين الدولة والروسيا



كترين الثانية

معاهدة كجوك قينارجة

وأول طور جدى فى المسألة الشرقية . على أن الروسيا لم تنل بهذه المعاهدة أملاكاً شاسعة ، إذ كان ما أخذته قاصراً على « كِنْبُورن » و « كِرْتش » و « آزاق » والأقاليم المجاورة لها مما ثبّت قدمها على شمالى البحر الأسود . ولكنها نالت بها حقوقاً سياسية كبيرة كان لها شأن عظيم فى المستقبل ، لأن الدولة قبلت فى هذه المعاهدة أن تضمن للروسيا حكومة عادلة وحرية دينية للرعايا المسيحيين ، وجعلت للروسيا الحق فى المطالبة بحقوقهم كلما رأت حاجة الى ذلك . وهذا حق كبير لا يستهان به ، إذ أخذته الروسيا بعدُ ذريعة للتدخل فى شؤون الدولة كلما رأت ذلك من مصلحتها . وقد كان ذلك أكبر مكدر لصفو الدول الأوربية على الدوام

نبذ الروسيا العهد

سادت السكينة بعد ذلك فترة بين الدولة والروسيا ، ولكن « كترين » كانت لا تزال متشبثة ( بالمشروع الشرقى ) وتمنّى نفسها بإنفاذه متى سنحت الفرصة . وفى عام ١١٩٧ ﻫ ( ١٧٨٣ م ) نقضت العهد وضمت القرم اليها بالرغم من تهادنها مع

معاهدة القسطنطينية

الدولة ، فخشيت فرنسا وانجلترة توغل كترين فى الأملاك العثمانية ونصحتا للباب العالى بالنزول عن « القرم » و « كوبان » ، فتم ذلك بمقتضى معاهدة القسطنطينية سنة ١١٩٨ هـ ( يناير سنة ١٧٨٤ م )

على أن الروسيا لم تقف عند هذا الحد ، ودأبت على انفاذ مشروعها الشرقى وتوسيع نطاق أملاكها من الأملاك العثمانيـة ، فأخذت تعمل منذ عام ١٢٠٠ هـ ( ١٧٨٦ م ) على دس الدسائس فى كل ولايات الدولة ، ونجحت دسائسها فعلاً فى مصر وفى اليونان والبغدان . فشرعت الدولة تستعد للحرب الى أن أرغمتها روسيا على خوض غمارها بتعدّد إهاناتها

تجدد الحرب

وآخر ما حدث من ذلك ان « كترين » خرجت الى القرم فى موكب حافل، ولما وصلت فى طريقها الى « خِرسون » كتبت على أحد أبوابها : « الطريق الى بوزنطة » ، إشارة الى أنها عما قريب ستفتح القسطنطينية . عند ذلك ثارت خواطر مسلمى الدولة ، واضطر الباب العالى الى اعلان الحرب على الروسيا سنة ١٢٠١ هـ ( ١٧٨٧ م ) فأسرع القائد حسن باشا الى مهاجمة « كِنبورن » ، ولكنه ردّ عنها بعد أن تكبد خسائر فادحة لوقوف القائد العظيم « سوفاروف » فى وجهه . وكانت الروسيا قد عقدت معاهدة جديدة مع النمسا على الدولة العثمانية ، ولكن النمسا لم تقدر على القيام بمساعدة تذكر فى هذه الحرب لاشتغالها بالاضطرابات القائمة فى الأراضى المنخفضة ( وكانت من أملاكها ) ثم اضطرّت الى ابرام معاهدة « سِستوفا » مع الدولة سنة ١٢٠٦ هـ ( أغسطس سنة ١٧٩١ م ) وبذا انسحبت من الحرب . أما الروسيا فانها بقيت قادرة على مواصلة الحرب بفضل مهارة « سوفاروف » ، فاستولى على جهتى « أوخاكوف » و « اسماعيل » سنة ١٢٠٥ هـ ( ١٧٩٠ م ) ، وانضم الى ذلك انتصارات الجيوش الروسية فى « القوقاس » و « كوبان » . وأخيراً انتبهت أوربا الى اطماع « كترين » ، ورأت أن لا بدّ من وقوفها عند حد ، فتدخلت انجلترا وبروسيا وهولندة فى الأمر ، ولم تبدِ الروسيا معارضة لأنها أخذت توجّه أنظارها نحو

معاهدة ياسى

فرنسا التى كانت نار الثورة تتأجج فيها وينتظر اشتباك النمسا و بروسيا معها فى حرب وبذلك يخلو الجو للروسيا فى بولندة. لذلك رضيت كترين بمهادنة الدولة وأبرمت معها معاهدة « ياسى » سنة ١٢٠٦ هـ ( يناير سنة ١٧٩٢ م ). وأهم شروطها أن اعترف الباب العالى بكل مواد معاهدة « كينارجى » وترك للروسيا أيضاً القرم وباقى الأراضى العثمانية الى نهر الدنيستر. وبذا صارت الروسيا صاحبة السيادة المطلقة على شمالى البحر الأسود

هذا ما وصلت اليه الدولة فى أواخر القرن الثامن عشر من جراء السياسة الروسية. وقد خسرت أملاكاً أخرى فى القرن التاسع عشر، ولكن دول أوربا العظمى لم تسمح للروسيا الى الآن بتنفيذ ما يرمى اليه المشروع الشرقى الذى كان تحقيقه جل أمانيها، وإن تكن سمحت لغيرها بالتصرف فى كثير من أملاكها

# الفصل الثالث

## حكم العثمانيين فى مصر

( ٩٢٣ - ١٢١٣ هـ : ١٥١٧ - ١٧٩٨ م )

طور جديد فى تاريخ مصر

باستيلاء السلطان سليم على مصر فى سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) أصبحت مصر جزءاً من أملاك الدولة العثمانية، ودخلت فى طور طويل دام نحو ثلاثة قرون (٩٢٣-١٢١٣ هـ : ١٥١٧ - ١٧٩٨م ) لم يكن لها فيه شأن سياسى يذكر فى التاريخ. وقد كانت مصر فى معظم ذلك العصر مشهداً للفتن والمشاحنات: إما بين سلائل المماليك أنفسهم، واما بينهم وبين الولاة العثمانيين، واما بين هؤلاء وجنود الحامية العثمانية. وكل هذه الحوادث متشابهة، ولم يكن لها أثر دائم فى تاريخ مصر. لذلك نعدل عن تتبع أخبار فتن ذلك العصر، ونكتفى بالكلام على حالة البلاد فيه بوجه عام، فنقول:

## ١ — ﴿ نظام الحكومة ﴾

الحكومة فى ثلاث سلطات

بعد أن تمَّ للسلطان سليم فتح مصر وضع لإدارتها نظاماً يكفُل بقاء خضوعها وعدم استقلال أحد فيها بأمرها ، فأودع مقاليدَ حكمها ثلاثَ سُلطات ، له من تنافس رجالها أكبرُ كفيل ببغيته :

١ . الوالى

السلطة الأولى — الوالى ، وأهم أعماله إبلاغُ الأوامر التى تَرِد عليه من السلطان الى عُمّال الحكومة ومراقبةُ تنفيذها

٢ . الجيش

والسلطة الثانية — جيش الحامية ، وقد كوَّنهُ السلطان سليم من ست فِرَق (وجاقات) ، ونصَّب عليهم قائداً يقيم بالقلعة ، وجعل على كل فرقة ستة من الضباط ، وشكَّل من هؤلاء الضباط مجلساً ( ديواناً ) يساعد الوالى فى إدارة شؤون البلاد ، وجعل لهذا الديوان الحقَّ فى رفض مشروعات الوالى اذا لم يرَ فيها مصلحة

٣ . المماليك

والسلطة الثالثة — المماليك : نصَّب كل واحد منهم على سنجق ( مديرية ) من الأربع والعشرين مديرية التى تتكوَّن منها البلاد . وكان هؤلاء الرؤساء من المماليك يُعرفون « بالبيكوات » وتُسمى مديرياتهم « سناجق »

تعديل سليمان

ولما انقضى حكم السلطان سليم فى سنة ٩٢٦ هـ ( ١٥٢٠ م ) وخلفه السلطان سليمان القانونى أنشأ مجلسين آخرين يُعرفان بالديوان « الأكبر » و « الأصغر » ، يجتمع أولهما عند التحدث فى الشؤون الخطيرة ، ويجتمع الثانى كل يوم ، وأعضاء الأول من رجال الجيش والعلماء معاً ، وليس بالثانى احد من العلماء ونحوهم . وأضاف سليمان أيضاً فرقة سابعة الى الجيش ضم اليها عتق المماليك . فبلغ بذلك جيش الحامية نحو ٢٠,٠٠٠ *

---

* وقد أدخل الترك كثيراً من الالقاب فى مصر لا يزال كثير منها مستعملاً الى الآن منها : لقب « باشا » الذى كان يطلق على الولاة المرسلين من القسطنطينية ، ولقب « أغا » وكان يطلق على قائد الجيش أو الفرقة الواحدة ، ولقب « كتخدا » أو « كخية » وهو وكيل الباشا وكان يطلق أيضا على موظف خاص فى كل فرقة بالجيش . أما لقب « البك » و « الافندى » فكان لكل منهما معنى خاص فى مبدأ الامر فقد بالتدريج حتى صارا يستعملان فى معنيهما الحاليين

ذلك هو النظام الذى وضعهُ العثمانيون لإدارة مصر ، ولا غاية لهم منهُ سوى المحافظة على بقاء البلاد خاضعة للدولة، سواء أكان ذلك فى صالحها أم لم يكن . وقد بقيت هذه السياسة ناجحة نحو قرنين من الزمان ، الى أن أخذت الدولة فى أسباب التقهقر ، وزحفت النمسا والروسيا على حدودها الشمالية ، فضعف نفوذها فى مصر ، وانتقلت السلطة الحقيقية الى أيدى المماليك

## ٢ — الضرائب

المال الاميرى وميزات الملتزمين

لما فتح العثمانيون مصر فى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) فرضوا عليها خراجاً سنوياً يرسل للسلطان ، يجمع من ضرائب الأملاك وخاصة الأراضى . وكانت هذه الضرائب تسمى « الميرى » أى ( الأموال الأميرية ) ، وكان لكل جهة ملتزم يتعهد بتوريد مايخصها من الخراج ، ومن أجل ذلك تُعفى أرضه من الضريبة ، ويكلف الفلاحون زرعها له بالمجان ، علاوة على ضريبة أخرى يجبيها لنفسه منهم . وكانت حقوق هؤلاء الملتزمين ومناصبهم وراثية

الاوقاف

وكان جانب عظيم من الأرض موقوفاً على المساجد والمدارس والرباطات وغيرها من الأمور الخيرية ، وهو معفى أيضاً من الضريبة ويُزرع بعضه ( إن لم يكن كله ) بالتسخير *

قلم الافندية

وانشأ السلطان سليم بالقاهرة قلماً يعرف بقلم «الأفندية» لتقرير الضرائب ومراقبة جمعها وتسلُّمها من الملتزمين ، وجعل فيه دفاتر لحصر حساب الحكومة وأخرى لتدوين انتقال الملكية

كثرة الضرائب

فيُعلم مما تقدم ان كاهل الفلاح كان مُثقَلاً بالضرائب وأعمال السخرة . وليت مصابهُ وقف عند ذلك الحدّ ، فإنّ ما كان يبتزُّ منهُ بيكوات المماليك أنفسهم كان

---

* روى ان السلطان سليم لما هم بمغادرة الديار المصرية شاوره « خير بك » فى ابقاء أوقاف المماليك أو حلها (وكانت نحو عشرة قراريط من أرض مصر ، جميعها معفى من الضرائب) ، فأمر السلطان سليم بابقائها . فاعترض عليه وزيره ، فضرب عنقه

أدهى وأمرّ ، فان كل بيك من حكام المديريات كان يفرض على محصول الأراضى ضريبة لإدارة المديرية تسمى «كشوفية» ، وكثيراً ما يفرض على السكان ضرائب أخرى اضافية كلما احتاج الى المال لمحاربة نظرائه من المماليك أو مكافحة الباشا أو السلطان

بهذه الضرائب المضاعفة ، التى لم يكن لها حد معلوم ، تسرّب الفقر الى أهل البلاد حتى وصلوا فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى الى درجة من الفاقة لم يسبق لها مثيل

## ٣ — ﴿ المبـــانى ﴾

فقر البلاد

لم تعُدْ مصر بعد أن فتحها العثمانيون دولة ذات أملاك عظيمة كما كانت من قبل ، بل صارت ولاية لا ثروة لها إلّا من داخلها ، وهذه الثروة ذاتها أخذت فى الاضمحلال بتسرب الإهمال فى مرافق الزراعة والصناعة ، ثم إن اهتداء البرتقال الى طريق الهند حول جنوبى افريقية حوّل التجارة المارة بين أوربا والهند من طريق مصر الى المحيط الاتلنتى (كما سيأتى ذكره) . كل ذلك أضعف كثيراً من ثروة البلاد فصارت لا تقوى على انشاء الآثار العظيمة التى كانت تقام من قبل

عدم اهمال المبانى

على انه لم ينشأ عن هذه الحالة اهمال المبانى جملةً . فالقاهرة مملوءة بالجوامع التركية، وبها من السبُل والرباطات (التكايا) والوكائل والربوع التى شيدت فى هذا العصر شىء كثير ، وانما نشأ عنها توخى الاقتصاد فى اقامة المبانى وزخرفتها ، فلم تعد الجوامع تبنى بتلك السعة العظيمة التى نشاهدهـا فى أبنية القرون السالفة ، ولم يُصرف على زخرفتها من المال شىء يذكر بجانب ما كان يُنفق على مثلها فى تلك الأزمان . ومن نتائج الاقتصاد فى مبانى هذا العصر أيضاً ان صارت السُّبل والمكاتب تبنى لها أبنية قائمة بذاتها بعد ان كانت من ملحقات الجوامع

توخى الاقتصاد

قلة الدقة فى البناء والزخرفة

كذلك قلّت الدقة فى البناء ، لقلة الثروة من جهة ، وانقهقر الصناعات من أخرى، وليس من آثار هذا العصر ما يلاحظ عليه آثار الدقة إلاّ القليل ، ومثل ذلك شيد فى أوائل عهد العثمانيين فى مصر . ومن أهم هذا النوع سبيل «خسرو باشا» بالنحاسين

المشيّد سنة ٩٤٥ هـ ( ١٥٣٨ م ) وهو المجاور لقبة الصالح أيوب بالنحاسين

وقصارى القول ان آثار العصر التركى فى مصر ، وان كانت جميلة فى بابها ، هى أقل رونقاً ودقة من آثار المماليك . وسواء فى ذلك المبانى أو الترميمات ، فانّ هذه الترميمات لم تتناسب فى أى أثر رُمم فى هذا العصر مع جمال البناء الأصلى ، وكثيراً ما تكون أشبه بالرقع الخلقة فى الثوب الجميل

مستحدثات العثمانيين فى المبانى المصرية

واستحدث العثمانيون فى بناء الجوامع بمصر الشكل التركى ،وهو متخذ من شكل كنائس « بوزنطية » القديمة . وأهم شيء فى أوضاعه اتخاذ القباب بدلاً من السُّقُف المستوية ، فصارت القبة فى كل جامع هى المركز الذى يدور عليه البناء بعد ان كانت إشارة الى الأضرحة والترَب فى الزمن السابق . ومن مميزات هذه المبانى أيضاً اتخاذ «القاشانى»* المحلى بالأشكال الفرنجية دون العربية . وبناء المنائر الاسطوانية الشكل أو المنشورية الكثيرة الأضلاع جداً حتى تقرب من الأسطوانية، وتنتهى غالباً بمخروط أو هرم كثير الأضلاع يتخذ من الخشب

فأول جامع بُنى فى مصر على هذه الأشكال البوزنطية هو جامع سليمان باشا الشهير الآن بسارية الجبل الذى شيد داخل القلعة سنة ٩٣٥ هـ ( ١٥٢٨ م ) . ويليه جامع سنان باشا ببولاق المشيّد سنة ٩٧٩ هـ ( ١٥٧١ م ) ، ثم جامع الملكة صفية بالداودية المبنى سنة ١٠١٩ هـ ( ١٦١٠ م )

سبيل عبد الرحمن كتخدا

وقد حوكيت الأوضاع العربية فى بعض مبانى هذا العصر ، إلاَّ أن هذه المحاكاة قلما كانت تامة ، حتى فى أقرب المبانى الى الوضع العربى مثل سبيل عبد الرحمن كَتْخُدَا المبنى سنة ١١٥٧هـ ( ١٧٤٤م ) ، وهو فى ملتقى شارعى النحاسين والجمالية ويكفى للدلالة على أنه ليس عربى الشكل من كل وجه شكل شبابيكه ومصبَّعاتها النحاسية . ( قارن هذه بشبابيك سبيل خسرو باشا العربية الشكل )

ولم يكن الولاة وحدهم هم المشيدين لهذه الآثار ، بل ان معظمها كان من عمل أمراء

---

* القاشانى قطع من الخزف المطلى بالميناء عليها أشكال هندسية أو نباتية ملونة

المماليك أنفسهم . وشيخُ المشيدين والمرممين فى ذلك العصر هو « عبد الرحمن

كتخدا
شيخ المشيدين

كَتْخُدا » من كبار المماليك الذين استحوذوا على جانب عظيم من السلطة فى أواسط القرن الثامن عشر بعد الميلاد ، فان بالقاهرة من آثاره ١٨ جامعاً ما بين مُنشأ ومجدَّد وذلك عدا الكثير من الزوايا والأضرحة الصغيرة التى رممها ، وعدا السبل الكثيرة التى أنشأها ، وله أيضاً قناطر ( كبارى ) وأعمال أخرى هندسية . ومن أجمل آثاره سبيله الصغير ، السالف الذكر ، وان كان فى الحقيقة أصغر أعماله . ومن مبانيه جامع خارج باب الفتوح وآخر بالقرب من باب الغُرَيِّب ملحقٌ به صهريج وسبيل ومدرسة وبنى صهريجاً آخر للسقائين بالقرب من جبانة الأزبكية ، وجدد ضريح السيدة زينب وضريح السيدة سكينة ، وشيد غيرهما بالقرب من باب القرافة وبجهة عابدين وغيرها ومن أهم آثاره تجديداته بالأزهر ، فإن معظم ما جُدِّد أو زيد فى هذا الجامع حتى جعله فى شكله الحالى : من عمل عبد الرحمن كتخدا . ذلك الى ما أنشأه فيه من دور الكتب والمطابخ وغيرها تشجيعاً لطلاب العلم

وآخر ما أقيم بمصر من الآثار التركية الجميلة المكتب والسبيل اللذان بناهما السلطان مصطفى الثالث ( ١١٧٣ هـ : ١٧٥٩ م ) تجاه مسجد السيدة زينب عند مدخل شارع الكومى الموصل للمدرسة السنية ، والمدرسة والسبيل والمكتب التى بناها السلطان محمود الأول ( ١١٦٤ هـ : ١٧٥٠ م ) فى شارع درب الجماميز فى مدخل حارة الحبانية أمام قنطرة سنقر . والبناءان فى قِمَّة ما وصل اليه فن العمارة التركية البحتة من الاتقان

متى اهملت
المبانى العربية

يُعلم مما تقدَّم أن الآثار العربية لم تهمل اثناء العصر العثمانى فى مصر ، بل عُنى بصيانتها وزِيد عليها بقدر ما تسمح به ثروة البلاد فى ذلك الحين . وإن ما أصاب الآثار العربية من الإهمال ( بل الإبادة ) لم يبتدئ إلاّ منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ( التاسع عشر م ) عند ما استولت الحكومة على ريع الأوقاف التى كان يصرف منها على صيانتها ، وزاد الطين بلة ما ابتدأ به ذلك العهدُ من اصلاح البلاد



سبيل ومكتب خسرو باشا



سبيل ومكتب عبد الرحمن كتخدا

( رسم علي افندي يوسف )

على النمط الأوربى ، إذ اقتضى ذلك انشاء شوارع مستقيمة بالقاهرة ، وغالى القائمون بهذا الإصلاح ، فهدّموا كثيراً من الآثار النفيسة لإيجاد فضاء الشوارع أو الميادين المراد انشاؤها . وأوضحُ مثال لذلك « شارع محمدعلى » فانهُ لم يتم انشاؤه إلاَّ بعد أن هُدّم لأجله الكثير من المبانى الأثرية الفاخرة : من ذلك جامع بديع كان بميدان «باب الخَرْق» تلهج كتب التاريخ بفخامته* وجامع «قوصون» (قَيسون) ، وجامع أزبك موضع العتبة الخضراء ، وكان الأخيران من الجوامع الفخمة العظيمة

لجنة حفظ الآثار العربية

وربما كان الخطب أعظم لو لم تؤلف «لجنة حفظ الآثار العربية» ، ألّفها الخديوى توفيق باشا سنة ١٨٨١ م لمنع العبث بهذه الآثار والمحافظة عليها ، فكان لأعمالها اعظم ثمرة فى ذلك

## ٤ — ﴿ المماليك وأهل البلاد ﴾

عزلة المماليك عن المصريين

مماليك هذا العصر ( كمن سبقهم من المماليك) لم يمتزجوا بالسكان الأصليين بل عاشوا مُترَفّعين فى مَعزل عنهم . وقليل منهم من تزوّج وكوّن له أُسرة ، إذ كان دَيدَنهم الحروب والفروسية ، فلا يرضون بشىء يشغلهم عنها . ومعظمهم كان يموت فى ساحة الوغى وسنّه لا تتجاوز الخامسة والثلاثين . ومن عاش منهم عيشة هادئة ورضى بالزواج ( وهو النزر اليسير ) كان نسله يندمج على مدى الأيام فى المصريين

ترف المماليك

وقد غالى المماليك فى أواخر العصر العثمانى فى ابتزاز الأموال من الأهلين ، وانغمسوا فى الترف فى مسكنهم وملبسهم ومعيشتهم ، على غير عادتهم الأولى المبنية على الخشونة والسذاجة فى كل شىء ، وصارت حُلّة البيك منهم لا يقل ثمنها عمّا يعادل ٦٠٠ جنيه الآن ( مع عظم قيمة النقود فى تلك الأيام ) ، ولا يمتطون إلاَّ خيول « نجد » العربية الأصيلة التى يبلغ ثمن أحدها نحو ٣٠٠ جنيه

ولم يكن ذلك قاصراً على البيكوات أنفسهم ، بل ان مماليكهم الذين لم يرتقوا بعد

* هو جامع اسكندر باشا المتولى على مصر سنة ٩٦٣ هـ ، وهو غير اسكندر باشا الفقيه الجركسى الذى انابه سنان باشا عند خروجه الى اليمن ، وسيأتى ذكره بعد

الى مراتب الرياسة كانت ركائبهم مزينة بأفخر الحرائر ، ومُرَقّشة من كل جانب بالذهب والفضة ، على حين أن المصريين الأصليين لم يسمح لهم إلاّ بركوب البغال والحمير



شكل مملوك

( عن كتاب وصف مصر )

وصار أهل البلاد هم العبيد الحقيقيين ، و « المماليك » هم السادة . اذ استولى المماليك على جميع الأملاك الاّ ما كان منها موقوفاً على الأعمال الخيرية في وصاية

فقر الاهلين

العلماء . وتشمشت حال الفلاّح حتى صار رثّاً فى ملبسه ومسكنه ومأكله : لا يكاد يفيق من دفع ضريبة شرعية أو غير شرعية حتى يطالَب بدفع أخرى ، واذا امتنع عن الدفع ( فقراً أو ادّعاء ) ضُرب وعُذّب حتى يدفع ، وربما قُتل من أجل ذلك

اهمال الزراعة والصناعة

واختل الأمن فى تلك الأيام، وكثرت مناسر اللصوص وقطّاع الطرق، فتأخرت التجارة ، وأُهملت مرافق الزراعة ، وانقرض معظم الصناعات ، وكانت قد دخلت فى طور تقهقر بعد أن نقل السلطان سليم أمهر الصنّاع الى القسطنطينية ، فقضى الفقرُ واختلال الأمن على البقية الباقية منها

وفى أواخر القرن الثانى عشر ﻫ ( الثامن عشر م ) كان تكرير السكر لا يزال جارياً فى بعض أنحاء البلاد ، وكذلك بقى أثر من صناعة الحرير والكَتان التى كانت لمصر فيها شهرة فائقة من قبل ، كما بقيت نماذج من صناعة الزجاج

كرم المماليك

على أن الذى لطّف هذه الحالة أنّ ما كان يُجبَى من البلاد كان يصرف فى نفس البلاد : فالثروة التى كانت ترِد متجزئة الى خزائن الأمراء وتتجمع فيها ، تُنفق بعدُ متجزئةً الى التجار من الأهلين بعد دفع الخراج ، الذى لم يكن كبيراً . ولم يكن ظلم المماليك وعسفهم ليمنعهم من الكرم وبذل الصدقات ، فكان كبار القوم يعيشون فى رخاء وسعة ، وكانت بيوتهم مفتّحة للقادمين فى الغداء والعشاء . وكانوا فى الأعياد يوزّعون كثيراً من الأرز والعسل واللبن على الفقراء والمساكين ، كما يوزعون عليهم الحلوى أيضاً فى أيام الجمعة والمواسم

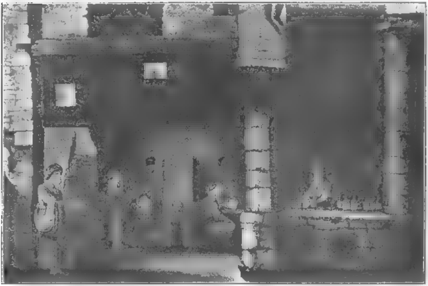
بعض الثراة من الاهلين

ولم يكن أمراء المماليك وحدهم هم أصحاب القصور الفاخرة ، بل شاركهم فى ذلك كثير من التجار ، وكان من بين المنازل الكبيرة المطلة على بِركة الأزبكية ( حديقة الأزبكية الآن ) منزل لتاجر شهير يدعى «احمد الشرايبى» غاية فى الحسن. وكانت لهذه الاسرة ثروة طائلة ، وبيتهم يؤمه العلماء من كل جانب لاشتماله على كل ما يرغبه الطالب من الكتب ، التى كانوا يُعنَوْن بجمعها من كل سوق ، ولا يضنون على أحد باعارتها

## بقايا الصناعات المصرية (عن كتاب وصف مصر)



مصنع نسيج



مصنع زجاج

درجة تقدم العلم فى ذلك العهد

وان اهتمام هذه الأسرة وأمثالها بجمع الكتب وتسهيل اعارتها يدلنا بعض الدلالة على مقدار إقبال الناس على العلم فى هذه الأيام. ويؤيد لنا ميل الناس الى الانقطاع الى طلب العلم ذكرُ ذلك العدد الكبير من أهل العلم والتأليف الذين عُنى «الجبرتى» بكتابة تراجمهم : من مشايخ الأساتذة والعلماء، والمؤرخين والشعراء، وغيرهم ممن ليس لهم نظير فى زماننا. غير ان اشتغالهم كان قاصراً على مدارسة قواعد العلوم اللسانية والشرعية والرياضة النظرية. فلا هم تأثروا بالنهضة العلمية بأوربا، ولا هم رجعوا الى النهضة العربية القديمة التى جعلت عصر الرشيد والأمين والمأمون من أزهر عصور العلوم العملية

## ٥ — ﴿ تجارة مصر وشواطئ البحر الأبيض ﴾
### وتأثرها بالاستكشافات البرتغالية فى افريقية

التجارة مصدر ثروة عظيمة للمماليك

كان سلاطين دولتى المماليك البحرية والبرجية فى سعة عظيمة من المال، تدل عليها مبانيهم الشاهقة وآثارهم النفيسة. لأن موارد ثروتهم لم تكن بالطبع قاصرة على الزراعة التى هى أساس ثروة مصر الآن، بل ان كثيراً منها كان من الضرائب المفروضة على التجارة الهندية العظيمة عند مرورها الى أوربا. وذلك انهُ قبل الاهتداء الى الطريق المؤدية من أوربا الى الهند حولَ جنوبى إفريقية لم يكن للتجارة الهندية مع أوربا الا طريق البحر الأبيض المتوسط : تُنقل البضائع برًّا من الخليج الفارسى أو البحر الأحمر الى اسكندرونة أو الاسكندرية على شاطئ البحر الأبيض، ومنهما تنقل بطريق هذا البحر الى مدينة «البندقية» حيث توزّع فى أوربا. وسواء أنقلت البضائع بطريق الخليج الفارسى أم بطريق البحر الأحمر (وهو الأغلب لموافقته) تمرّ لا محالة من أراضى المماليك، إذ هم المالكون فى ذلك الوقت لمصر والشام معاً. فانتفع المماليك بهــذه المزية أيّما انتفاع، وضربوا مكوساً كبيرة على التجارة عند دخولها فى أملاكهم وعند خروجها منها، فكان ذلك يأتيهم بدَخْل لا يُستهان به

جنوة والبندقية

وقد كان لمرور التجارة الهندية من هاتين الطريقين أكبر أثر فى ترويج تجارة البحر الأبيض المتوسط ، وعظمت بسببها ثروة الدولتين اللتين اشتهرتا بالملاحة فيه : وهما « جِنْوَة » و « البندقية » ، ولاسيما الأخيرة ، فان تجارها نالوا لدى المماليك حُظوة كبيرة وصلت بهم فى آخر الأمر الى احتكار نقل هذه التجارة العظيمة

مقدار المكوس

ولم يتفق المؤرخون على تفاصيل مقدار المكوس التى كان يجبيها المماليك من هذه التجارة ، ولكن المفهوم من تقدير معظمهم أنها لم تقلّ عن سدس ما تساويه البضاعة وقت وصولها الى حدود الأملاك المصرية ، وسدس ما تساويه أيضاً عند خروجها من موانيها . فاذا فرضنا أن أحد تجار العرب اشترى من الهند بضاعة بما يعادل ١٠،٠٠٠ جنيه مثلاً ، وسلك طريق البحر الأحمر حتى رسا بها فى السويس ، أصبحت قيمتها بالطبع أعظم كثيراً مما اشتريت به من الموانى الهندية ، ولنفرض أنها صارت تساوى ١٨،٠٠٠ جنيه مثلاً . فيكون ما يدفع عنها من المكوس حينئذٍ يعادل ١٨،٠٠٠ × $\frac{1}{6}$ = ٣،٠٠٠ جنيه . ثم يشتريها تاجر آخر فينقلها الى الاسكندرية ليبيعها الى أحد تجار البندقية ، فتزيد قيمتها بالطبع بقدر ما دُفع عليها من المكس وأجر النقل وبقدر الربح الذى يريده التاجر الثانى ، ولنفرض أنها صارت تساوى ٣٠،٠٠٠ جنيه . فتكون مكوسها بالاسكندرية تعادل ٣٠،٠٠٠ × $\frac{1}{6}$ = ٥،٠٠٠ جنيه . أى أن مجموع ما دُفع عليها من المكوس يبلغ ٣،٠٠٠ + ٥،٠٠٠ = ٨،٠٠٠ جنيه ؛ وذلك عدا ما يكون قد دُفع عنها لعمال الحكومة على سبيل الهدايا أو الرشوة : مما يقدّر بألف جنيه أو ألفين ، أى أن مجموع ما دخل الأراضى المصرية من المال بسبب مرور هذه البضاعة فيها ( ١٠،٠٠٠ جنيه تقريباً ) يقرب من الثمن الأصلى الذى دُفع عنها فى الهند . زد على ذلك أن تجار العرب كانوا تحت رحمة المماليك ، يصادرونهم أحياناً ، ويقترضون منهم قهراً كلما احتاجوا الى المال . ومن ذلك تعلم السر فى بقاء دولتى المماليك البحرية والجراكسة على تلك الدرجة العظيمة من الثروة التى مكّنتهم من حفظ أبّهة المُلك وتشييد القصور الشاهقة والمبانى الفاخرة جيلاً بعد جيل

غيرة أوربا من البنادقة والمصريين

ولايخفى أن البضاعة التى اشتراها تاجر البندقية من مصر بمقدار ٣٥٠٠٠ جنيه كانت تباع فى أوربا بأبهظ الأسعار ، وربما بلغ ثمنها هنالك ٧٠٠٠٠ جنيه . فاشتعل الحسد فى الممالك الأوربية الأخرى من هذه الأرباح العظيمة التى لاينقطع تدفقها فى جيوب البنادقة والمصريين بسبب احتكار التجارة الهندية ، فدفعهم ذلك الى التفكير فى الاهتداء الى طريق أخرى توصل الى الهند ، حتى ينالهم شطرٌ من أرباح تلك التجارة العظيمة . وساعد على اثارة هذه الهمة قيامُ النهضة العلمية العامة التى ابتدأت فى أوربا بعد فتح القسطنطينية وولّدت فى تلك البلاد روح الاستطلاع والاستكشاف

النهضة العلمية بأوربا

البرتقال ونهضتهم فى الاستكشاف

وأول من فكّر من الأوربيين فى البحث عن طريق أخرى الى الهند هم « البرتقال » وهم أمة تسكن الجزء الغربى من شبه جزيرة الأندلس : كانوا احدى الإمارات التى استولت عليهــا العرب فى الأندلس ، وانسلخوا عن حكمهم قبل إجلاء العرب من تلك البلاد ( فى سنة ٨٩٧ هـ : ١٤٩٢م ) بقرنين تقريباً . ومن ذلك الحين أخذوا يدافعون عن استقلالهم من غارات مملكة « قَشْتالة » ( كستيل ) المجاورة لهم ، حتى أمنوا شرها بانتصارهم عليها فى واقعة « الجبَرُوتا » سنة ٧٨٧ هـ ( ١٣٨٥ م ) .

هنرى الملاح ومناصرته الملاحة

وأول من فتح للأوربيين باب الاستكشاف المطّرد الأمير « هنرى » البرتقالى أحد ابناء الملك يوحنا الأول الذى أجلى العرب عن البرتقال وأكمل استقلال تلك المملكة . وقد سُمّى « هنرى الملاّح » لأنه عميد المشجعين على الملاحة بين الأوربيين وأوّل حاضّ على التجويل فى البحار الذى أدّى الى كشف الطريق الى الهند حول إفريقية بل الى كشف العالم الجديد . ومع ما كان لأعماله من النتائج كان جُلّ مأربه العمل على إضعاف المسلمين وانتزاع تجارة بلاد غانة من يد العرب . ولمّا كان بلوغ ذلك لايتأتى من طريق البر لوجود أواسط افريقية بأسرها فى حوزة العرب عوّل هنرى على انجازه بطريق البحر . ومن ثمّ ابتدأت بعوثهُ البحرية التى أخذ يرسلها سنة بعد أخرى لكشف الشاطئ الافريقى والوصول أخيراً الى بلاد غانة

شرع هنرى فى إرسال بعوثه عام ٨٢١ هـ ( ١٤١٨ م ) فكان تقدم ملاّحيه بطيئاً

جداً فى أول الأمر لاستيلاء الرعب عليهم مما علق بأذهانهم من أهوال بحر الظلمات ( المحيط الأطلنطى ) وجنّته ووحوشه ، وأخيراً وصلوا الى ما وراء رأس « بوجادور » عام ١٤٣٤م ، فأخذت تلك الخرافات تتلاشى من ذلك الحين وصارت الكشفات على الشاطئ الافريقى يتلو بعضها بعضاً . فكُشف « الرأس الأبيض » (رأس بلنكو) سنة ١٤٤١م، ومصب نهر السنغال عام ١٤٤٦م ، والرأس الأخضر عام ١٤٤٧؛ فتم لهنرى بذلك الاهتداء الى بلاد غانة

بلوغ الرأس الاخضر

ولم يحدث فى عهد هنرى بعد ذلك كشوف هامة جديدة الا كشف جزائر الرأس الأخضر عام ١٤٦٠ م

ولم تقف حركة الاستكشاف بعد موت هنرى الملاّح ، فان تجارة غانة كانت قد أصبحت من أكبر موارد الحكومة البرتقالية ، فسهرت الحكومة على تنشيطها وعلى الاستمرار فى كشف الشاطئ الافريقى جنوباً. والظاهر أن فكرة البحث عن طريق الى الهند حول افريقية كانت قد تولّدت ، فبقيت الاستكشافات يتبع بعضها بعضاً حتى بلغ « بَرْتُلُوميُودِياز» الملاّح البرتقالى الشهير الى طرف إفريقية الجنوبى ،وسار حوله حتى وصل الى خليج «أَلْجُوَا» سنة ٨٩١ ﻫ (١٤٨٦ م) . وسمّى هذا الطرف «رأس الزوابع» ( لهول ما لاقاه فى السير حوله ) ، ولكن ملك البرتقال أدرك قيمة هذا الكشف العظيم ، ورأى أنه فاتحة خير لتحقيق أمنية دولته وهى الاهتداء الى طريق الهند ، وعمل على مواصلة هذه الاستكشافات

بلوغ دياز جنوبى افريقية

وفى هذه الأثناء كان المستكشف العظيم «خِرِسْتُوف كُلُمب» قد خرج فى بعث بحرى أمدّه بهِ ملك الاسبان ، وسار به غرباً يأمل الوصول الى الهند من هذه الطريق الغربية اعتقاداً منهُ بكروية الأرض، فوصل الى احدى جزائر الهند الغربية سنة ٨٩٧ﻫ ( ١٤٩٢ م ) . فظن الناس أن هـذه جزء من بلاد الهند ، وأن « كلب » قد كشف للاسبان طريقاً الى تلك البلاد أقصر وأسهل من الطريق الطويل الذى يعانى البرتقال كشفه . فوقفت الاستكشافات البرتقالية فترة من الزمن، الى أن اتضح أن كلب لم يهتد الى طريق الهند ذاتها ، وأن طريقه إن أدى اليها يكون أطول

كشف الدنيا الجديدة

استئناف الاستكشاف بقيادة فاسكو دى جاما

من الطريق حول افريقية . فرجع البرتغال الى مواصلة استكشافاتهم ، وفى سنة ٩٠١ﻫ ( ١٤٩٦ م ) أرسل ملكهم « إمانويل » بعثًا لهذا الغرض برياسة الملاّح المظيم «فاسكودى جاما» ، فوصل الى رأس الزوابع الذى سماه تفاؤلاً «رأس الرجاء الصالح» وبعد ان كابد مصاعب جمة فى المسير حوله ، لشدة الرياح الجنوبية الشرقية ، سار ازاء شاطئ افريقية الشرق

ومن ثَمّ شرع يسأل من الثغور التى يمر عليها عن الطريق المؤدية الى الهند ، فكان كلما حلّ بثغر وجده مسكونًا بالعرب ، فكانوا يمتنعون عن ارشاده ، مخافة أن يجرّ عليهم ذلك منافسة تجارية لا طاقة لهم بها ، و بعد أن أخفق سعيه فى «مُزَنْبيق» و« كِلْوة »و« مَنْبَسة فاز فى« ملِنْدة» ، حيث أخذ ما يلزمه من الزاد ، واصطحب

وصوله الى قاليقوط

معهُ أحدَ الهنود العالمين حق العلم بالطريق الى «قاليقوط» ( على الشاطئ الغربى للهند ) . فبلغها « جاما » بهداية هذا الدليل فى ثلاثة وعشرين يومًا



فاسكودى جاما فى حضرة الزامرين

ولم يرحّب به فى بادئ الأمر ملكها الملقب «زامُرين»او «سامرى»(سيّد البحار)، بل زاد فى تنفيره منهُ تجار العرب فى تلك الجهات ، إذ أفهموه أن البرتغال ليسوا إلاّ

جاما والزامرين

لصوص بحر لا عمل لهم إلا النهب والسلب فى البحار . ولكن «جاما» ( أول مستعمر أوروبى فى الشرق ) استعمل الملق والثبات ، وما زال بالزامرين يتملقه ويشرح له غرضه حتى استماله ورغبه فى تبادل التجارة مع البرتقاليين ، وعقد معه معاهدة تجارية كانت بعد ذلك سبباً فى زوال ملكه

تأثير كشف الطريق الجديدة

بذلك تمّ للبرتقال كشف طريق جديدة للهند ، فكانت فاتحة لانقلاب عظيم فى تجارة العالم بأسره ، اذ أن نقل البضائع صار يُنفق عليه بهذه الطريق ثلث ما كان ينفق بالطريقة القديمة ، فوق متاعبها ومضايقها . فكانت النتيجة أن تحوّل مجرى هذه التجارة العظيمة من مصر والشام والبحر الأبيض المتوسط الى المحيط الاطلنطى حول شواطئ افريقية

اتحاد الغورى والبنادقة والزامرين على البرتقال

وقد وقع خبر كشف الطريق الجديدة وقوع الصواعق على مصر والأمم التجارية بالبحر الأبيض ، ولاسيما البنادقة ، لعلمهم ان فيه الضربة القاضية على أهم منابع ثروتهم . وكان البرتقال قد أخذوا فى توسيع نفوذهم فى بلاد الهند ، غير مكتفين بالعلائق التجارية بل استولوا بالسيف والمدافع على إمارة « قاليقوط » وجعلوها فى عداد مستعمراتهم

وذلك أن السلطان الغورى اتحد سراً مع البنادقة ومع ملك « قاليقوط » (الذى اتضح له سوء نية البرتقال ) على أن يعملوا معاً على نزع سيادة البرتقال من الشرق . فأنشأ الغورى أسطولاً عظيماً ، وساعده البنادقة بجلب الأخشاب اللازمة لبنائه ، فظهر الأسطول فى البحار الهندية والتقى بسفن البرتقال بالقرب من شواطئ بمباى ، فكانت الغلبة للمصريين ، وقتل ولد الوالى البرتقالى (ألميدا) بالهند فى تلك الموقعة . ولكن لم يلبث البرتقال أن جمعوا أسطولاً آخر ، وحاربوا المصريين فى موقعة

واقعة ديو

بحرية عظيمة بالقرب من جزيرة « ديُو » أمام بمباى سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م ) انتصروا فيها على المصريين فى موقعة كانت هى الفاصلة فى أمر التجارة الهندية

فإنه لما خضعت مصر بعدُ للدولة العثمانية لم يصبح لها من الأمر شئ فى مكافحة البرتقال . ولما اشتدّ عبث البرتقال بسفن غيرهم ممن حاولوا الاتجار فى تلك البحار ،

بعث السلطان سليمان القانونى أحدَ ولاة مصر بأسطول لردعهم، فلم يفلح . والحق ان العثمانيين لم ينتهزوا الفرص المناسبة لمنازلة البرتقال والاستيلاء على الثروة الطائلة التى كان يجنيها المماليك من مرور تجارة الهند من مصر والشام . فكان الواجب عليهم أن يتحدوا مع البنادقة ( شركائهم فى هذه الخسارة ) ، ويستعينوا بهم فى القضاء على أساطيل البرتقال ، ولكنهم غفلوا عن ذلك ، بل كانوا هم القاضين على قوة البنادقة بحروبهم التى شنوها عليهم واستيلائهم على كثير من أملاكهم .

تهاون العثمانيين

ومن ذلك الحين كثر التلصص فى البحر الأبيض ، فقضى على البقية الباقية من التجارة التى كانت تمر من هذا البحر

## ٦ — ﴿ أشهر الولاة وأهم الحوادث ﴾

خير بك

أول من ولّى العثمانيون على مصر من الولاة «خير بك» : ولاّه السلطان سليم مكافأة له على مساعدته فى فتح مصر والشام . وبقى فى منصب الولاية أكثر من خمس سنوات كان فيها مكروهاً من جميع الرعايا المسلمين . فقرّب منه اليهود والنصارى وأخذ بناصرهم ، فلم يغنِ ذلك عنه شيئاً . ولما ازداد كَرْبُهُ من الحياة أفرج عن كثير من مسجونى القاهرة ، ووزّع كثيراً من المال والخيرات على المساكين وخدم المعاهد الدينية . وقد أبدى أسفه الشديد وهو فى سياق الموت على ما فرط منه . ودُفن بمسجده الذى بناه بالتبانة بالقرب من باب الوزير بجهة الخير بكية المسماة بهذا الاسم نسبة اليه

مصطفى باشا

وخلفه « مصطفى باشا » زوج أخت السلطان سليمان القانونى . وهو أول من لقب بلقب باشا من ولاة مصر . وكان لايعرف العربية ، ولا يُظهر شيئاً من الحفاوة للوافدين عليه والمهنئين له من أهل البلاد

احمد باشا ومحاولته الاستقلال بمصر

ولم يمضِ عهد طويل بعد الفتح حتى ظهر فضل احتياط السلطان سليم لتقييد سلطة الوالى ، فان الوالى الثالث « احمد باشا » همّ بعمل ما كان يخشى منه ، إذ

أراد الاستقلال بملك مصر ، فأمر بضرب السكة باسمه ، والدعاء له فى الخطبة . ولكنه لم يلبث أن قُبض عليه وأرسل رأسه الى القسطنطينية بعد أن عُلّق على باب زويلة

على أن تاريخ مصر فى القرنين الأولين من الفتح العثمانى ليس به شىء من الأخبار الممتعة ، ولا يشتمل غالباً على غير سلسلة من الولاة لايكاد الواحد منهم يعيّن حتى يُعزَل ، منهم نفر قاموا بتشييد بعض المساجد والمدارس ، ومنهم من لم يشتغل بشىء سوى التزوّد من المال قبل أن تنقضى مدة ولايته . ومع ذلك كان ولاة القرن الأول واكثر الثانى فى العدل وضبط الأمور خيراً ممن أتى بعدهم

سليمان باشا وإصلاحاته

ومن أعظم الولاة العاملين فى ذلك العصر « سليمان باشا » : نُصّب على مصر سنة ٩٣١ هـ ( ١٥٢٥ م ) . فاهتم بالنظر فى أحوال البلاد وإصلاح ما فسد منها ، فعيّن مأموراً لمسح الأراضى ، ورتب الضرائب على أحسن نظام ، واستحدث دفاتر جديدة لأعمال الحكومة ، وشيّد كثيراً من المبانى النافعة . وفى مدة ولايته كثر تعدّى سفن البرتقال على بلاد البحر الأحمر وسواحل الهند حتى قُطعت المواصلات التجارية بين مصر وتلك الجهات . فاستغاث « درشاه » حاكم « كجرات » بالسلطان سليمان

خروجه لمحاربة البرتقال

القانونى. فأصدر السلطان أمراً الى سليمان باشا بانشاء أسطول بالديار المصرية والخروج به الى البحر الأحمر لكسر شوكة البرتقال ، فجهز سليمان باشا الأسطول وشحنه بالجيوش وأقلع به من السويس سنة ٩٤٤ هـ ( ١٥٣٨م ) . فاستولى على « عدن » ، ثم توجه الى بلاد الهند ، فالتحم مع البرتقال فى المياه الهندية فى موقعة عظيمة كان النصر فيها للبرتقال بالرغم مما بذله سليمان باشا من الجهد العظيم

انابة خسرو باشا

وكانت ولاية مصر قد أُسندت أثناء اشتغال سليمان باشا بأمر حملة الهند الى « خُسْرُو باشا » سنة ٩٤١ هـ ( ١٥٣٥م ) ، فأتمّ الإصلاحات التى بدأها سليمان باشا ثم زاد فى مقدار الجزية التى تُرسل للدولة ، فاستُدعى الى الاستانة مخافة أن يكون قد أحدث ضرائب جديدة تضر بالبلاد . ولما عاد سليمان باشا الى مصر تسلم مقاليد الأمور ثانية وبقى والياً عليها الى أن استدعى الى الاستانة وأُسند اليه مسند الصدارة العظمى بها

سنان باشا

ثم تتالت الولاة على مصر حتى وليها « سنان باشا » سنة ٩٧٥ هـ ( ١٥٦٧ م ) ، فأخذ يتصرف فى شؤون البلاد بحكمة وتدبر ، وبعد تسعة أشهر وردت عليه الأوامر السلطانية بأن يستعد لفتح بلاد اليمن واستخلاصها من « الزيديين[1] » فجهّز جيشاً ، وخرج به من مصر سنة ٩٧٦ هـ ( ١٥٦٨ م ) بعد أن أناب عنه فى الولاية « اسكندر باشا[2] » . ولما عاد من فتح اليمن سنة ٩٧٩ هـ ( ١٥٧١ م ) تسلم ولاية مصر ثانية وأخذ يشيّد المبانى ، فأنشأ فى بولاق ( سنة ٩٧٩ هـ : ١٥٧١ م ) رباطاً ( تكية ) ومسجداً كبيراً لا يزال الى الآن من أعظم الآثار العثمانية بمصر ، وهو ثانى مسجد بُنى بها على الأشكال البوزنطية . وبقى سنان باشا بمصر سنتين كان أثناءهما موضع محبة الأهلين ، لكثرة اصلاحاته وعظم مبرّاته

خروجه لفتح اليمن

مسيح باشا

ومن أفضل الولاة الذين وُلّوا مصر بعده « مسيح باشا » ( ٩٨٢ — ٩٨٨ هـ : ١٥٧٤ — ١٥٨٠ م ) ، وكان من أكثر الحكام عفة واستقامة ، وأشدهم حرصاً على نشر الأمن وإقامة العدل . الاّ أنه تشدد فى معاقبة المفسدين ، فقتل منهم نحو عشرة آلاف . وشيَّد مدرسة وتربة له خارج القرافة بشارع نور الدين بعرب اليسار ، ووقف عليهما أوقافاً باسم الشيخ نور الدين القرافى

اضمحلال نفوذ الولاة

ثم أخذ نفوذ الولاة فى الاضمحلال ، لعجز الكثير منهم ، وقوة شوكة الجنود بالبلاد وتدخُّلهم فى كل شؤونها ، حتى صاروا هم الآمرين الناهين للولاة . فلما ولى « أُويس باشا » على مصر ( ٩٩٥ — ٩٩٩ هـ : ١٥٨٧ — ١٥٩١ م ) ، وأراد أن ينظم أولاد العرب من المصريين فى سلك الجيش ، اشتعل لهيب الفتنة بين الجنود ، ولم يقبلوا أن يتشبَّه بهم غيرُهم فى لباسهم ، وهجموا على أويس باشا وأهانوه ( ٩٩٧ هـ : ١٥٨٩ م ) ، فاضطر الى الإذعان لمطالبهم . ومما يجدر ذكره بمناسبة ولاية أويس باشا

ازدياد نفوذ الجند

(١) وهم قوم من شيعة زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على كرم الله وجهه ، وهم جلة فرق جمهرتهم الآن باليمن ولهم فيها امام لا يزال خارجاً على الخلفاء من العرب أو الترك

(٢) اسمه اسكندر باشا الفقيه الجركسى ، وهو مسلم طبعاً

زلزال — أنهُ حدث فى عهده زلزال عظيم سقط بهِ عدة منارات وبيوت ، وتفلّق جبل المقطم قرب اطفيح الى ثلاث فلَق تفجر منها الماء

قره مصطفى يوطد السكينة — وما زال روح الفتنة ينتشر فى الجنود عاماً بعد عام ، ويشتد تطاولهم على الولاة ، حتى وُلّى « قره مصطفى باشا » سنة ١٠٣٢ هـ ( ١٦٢٢ م ) : وكان قوى البأس ساهراً على توطيد السكينة ، فأخذ يتجول بنفسه فى الأسواق ، وينظر فى الشكاوى والأسعار ، ويحكم فى الجنايات بنفسه ، فهابه الجند . وكان لأعماله وقع حسن فى القلوب ، وعظُم فى أعين الناس . ولما جلس السلطان مراد الرابع على عرش آل عثمان سنة ١٠٣٢ هـ ( ١٦٢٣ م ) عزل هذا الوالى من مصر ونصّب مكانه « على باشا الجِشْنَجى » . فطلبت منهُ الأجناد الأعطية المعتاد توزيعها عند تولية الوالى الجديد ،

رفض الجند بديله — فلما لم يجب طلبتهم لم يعترفوا بعزل قره مصطفى باشا ، واضطروا على باشا الى العودة من حيث أتى . وعند ماركب البحر أطلقوا على سفينته بعض القذائف من قلعة منار الاسكندرية * ، فلم ينج إلا بصعوبة . ثم أرسل الجنود مندوباً منهم الى الاستانة ، فنال لهم أمراً سلطانياً ببقاء قره مصطفى باشا فى الولاية ، فعاد الباشا الى مصر سنة

وباء — ١٠٣٥ هـ ( ١٦٢٥ م ) . وفى عهده ظهر بالبلاد وباء شديد ، فصار يغتصب أموال المتوفَّين لنفسه كأنهُ الوارث للناس . فرُفعت فى حقه الظلامات لدار الخلافة ، فعزله السلطان ثم قُتل بعدُ بالقسطنطينية . ولقره مصطفى باشا من العمارات والمدارس التى شيَّدها بمصر شىء كثير

بعض أوبئة هذا العصر — ولم يكن الوباء الآنف الذكر الوحيدَ من نوعه فى هذا العصر ، بل حدث غيره طواعين كثيرة ، وكانت تصحبها غالباً المجاعات ( وتلك سُنّة معتادة فى التاريخ ) . ومن أوبئة هذه المدة طاعون حدث سنه ١٠١٢ هـ ( ١٦٠٣ م ) فتك بكثير من القرى والأمصار ، وآخر تفشى بالبلاد سنة ١٠٢٨ هـ ( ١٦١٩ م ) فاشتد بطشه حتى أُقفلت الأسواق وتعطلت الأعمال . وفى سنة ١٠٣٠ هـ ( ١٦٢١ م ) حدث غلاء

* المسمى الان حصن قايتباى



(١) من الخارج



(٢) من الداخل

جامع سنان باشا

(رسم علي افندي يوسف)

عظيم أعقبه وباء آخر بقى يفتك بالبلاد نحو ثلاثة أشهر . ولم يكد يُنسى هذا حتى حدث سنة ١٠٣٥ ه ( ١٦٢٥ م ) وباء أنكى من السالف . وأعظم من هذا كله وباء حدث سنة ١٠٥٢ ه ( ١٦٤٢ م ) لم يسمع بمثله من قبل ، كثرت فيه المُوتان حتى صارت الموتى تدفن بلا صلاة ، وخربت به ٢٣٠ قرية . وأعقبه قحط وغلاء

تضاعف نفوذ الجند

وفى هذه الأثناء كانت الجنود العثمانية بمصر دائبة على جمع السلطة فى قبضتهم ، حتى جعلوا الولاة ألعُوبة فى أيديهم ، فعجزوا عن ردعهم وتأمين الرعايا شرَّ مفاسدهم . وصارت كل طائفة من الجند تأخذ فى حمايتها جملة من التجار أو المزارعين او الملاّحين فيقتسمون معهم الأرباح ، وفى نظير ذلك يحمونهم من أداء حقوق الحكومة . وما زالوا فى شغب على الولاة ، وهم معهم في مكافحات ، حتى عظمت قوة البيكوات المماليك ، فقضوا على نفوذ الطائفتين

## ﴿ عودة النفوذ الى المماليك البيكوات ﴾

اسباب عودة النفوذ الى المماليك

أدّت كثرة تنقل ولاة العثمانيين الى عدم تأييد نفوذهم فى مصر ، والى استرجاع المماليك ( الراسخة قدمهم بالبلاد ) لكثير من قوتهم الأولى ، وساعد على نمو هذه القوة طول أمد النزاع بين الولاة والجند ، حتى اشتغل الطائفتان بمشاحناتهم عن كل ما سواها

شيخ البلد

ومما ساعد المماليك على القبض على السلطة تمهيدهم الطريق لاتحادهم ، باختيارهم زعيماً من بينهم وهو حاكم القاهرة ، المسمى إذ ذاك « شيخ البلد » . وكان المماليك قد تعودوا من قديم الزمان جلب مماليك أحداث وتدريبهم ليكونوا لهم حاشية وانصاراً . فسمحت لهم الدولة بالسير على هذا النظام ، فأصبح لزعمائهم من ذلك قوة لم يعُد للوُلاة قِبلٌ بدفعها . وذلك ان المماليك الأحداث الذين يُشترَوْن بالمال كانوا يحرَّرون عادة بعد بضعة أعوام ، فيُبقون الحرمة لأسيادهم ، حتى اذا ولجوا أبواب الرق ، وصاروا أنفسهم بيكوات ، لايألون جهداً فى تلبية دعوة مواليهم الأولين متى

استمدوا منهم المعونة. فكان يكون لشيخ البلد دائماً عصبيةٌ من مواليه وعتقاء البيكوات يعظم بها شأنه، وصار للماليك قوة لم يكتفوا باستخدامها فى عزل من أرادوا عزله من الولاة ، بل أخذوا يطمحون الى التخلص من السيادة العثمانية جملة، وبخاصة عندما دخلت الدولة فى طور التقهقر وشُغلت بحروبها مع النمسا والروسيا ، كما ذكرنا آنفاً

الولاة يدسون الدسائس بين المماليك القاسمية والفقارية

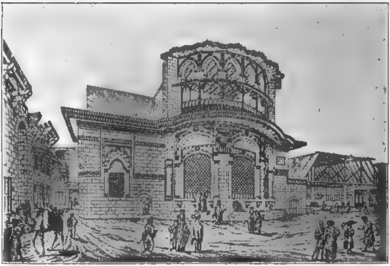
وتنبّه بعض الولاة الى ما يرمى اليه المماليك ، فعملوا على دسّ الدسائس بينهم ، وتفريق كلمتهم . وكان المماليك منقسمين الى أحزاب ( أعظمها « القاسمية » ، و « الفقارية » * ) ولم تَسْلم الطائفتان من عداوة بينهما . فلما عُهد بولاية مصر الى « حسين باشا كتخدا » سعى فى تفريقهما ، وتفاقمت العداوة بينهما حتى وصلت سنة ١١١٩ هـ ( ١٧٠٧م ) الى حد أثار بين الفريقين حرباً استمرت نيرانها ثمانين يوماً . وقيل ان المتخاصمين كانوا أثناء هذه المدة يخرجون من القاهرة نهاراً للمحاربة . ثم يعودون اليها بالليل فيبيتون فيها كغيرهم من السكان

اسماعيل بك الكبير

وأسفرت هذه الفتنة الطويلة عن قتل شيخ البلد « قاسم بك ايواظ » زعيم القاسمية . فخلفهُ ابنه «اسماعيل بك» ، فأصلح ما بين المماليك ووحّد كلمتهم، وصارت لشيخ البلد الكلمة العليا على الوالى . فعمل الوالى سرًّا على تحريض الفقاريين عليه الى أن قتله أحدهم « ذو الفقار »، فوهب له الوالى ثروة اسماعيل بك وأسند منصب شيخ البلد الى « جركس بك » بعد أن فتك بأتباع اسماعيل بك . ويعرف اسماعيل بك هذا باسماعيل بك الكبير، ومن آثاره بمصر سبيل ومكتب بجهة سوق العصر القديم بمدخل الداودية وحوش الشرقاوى كانا من أجمل مبانى ذلك العصر، وبقى منهما الآن جزء خَرِب

ثم استعان ذو الفقار بما آل اليه من الثروة فى شراء المماليك وتدريبهم حتى صارت له قوة كبيرة ، فانتزع السلطة من جركس بك ووضع نفسه فى منصب شيخ البلد . ولكنهُ لم يلبث ان ثار عليه المماليك وقتلوه . فقبض أحد قواده « عثمان بك »

* نسبة الى زعيمين لهما ، قاسم وذى الفقار



سبيل ومكتب اسماعيل بك الكبير ( أيام رونقهما )

على السلطة ، فصار شيخاً للبلد بعد أن انتقم لسيده شر انتقام

عثمان بك

وكان عثمان بك ذا مقدرة وبأس ، فعمل على توطيد السكينة وسهر على حفظ الأمن واقامة العدل ، فحسنت سيرته وأحبه الأهلون ، وبقى ذكره بعده زمناً طويلاً حتى أنهُ لما ثار عليـه أعداؤه واضطروه الى الهروب من مصر صارت الناس تؤرخ حوادثهم بسنة خروجه، فكانوا يقولون : « هذا الأمر حدث بعد خروج عثمان بك بكذا من السنين ، وولد فلان فى سنة كذا من خروج عثمان بك »

ابراهيم بك ورضوان بك

وسبب فراره من مصر أن قوى فى عهده شأن حزبين من المماليك وهما : «الكردغلية» و«الجلفية» ، فاتفق «ابراهيم بك» زعيم الحزب الأول و«رضوان بك» زعيم الثانى على توحيد كلمة حزبيهما ، ونزع السلطة من عثمان بك ، وجعلها فى أيديهما معاً . وبعد نزاع طويل بينهما وبين عثمان بك ، تغلبا عليه ، ففرّ خوفاً منهما الى الشام ثم اقتسما السلطـة بينهما ، واتفقا على أن يشغلا منصبى شيخ البلد وأمير الحج بالتناوب سنة بعد أخرى . ولما رأى الولاة أن السلطة قد سُلبت من أيديهم ، عملوا

على النكاية بابرهيم بك ورضوان بك ، ودبروا لقتلهما مكايد لم يفلحوا فيها ، إلاّ أن البلاد لم تهدأ من الفتن بعدُ ، وبقى أمراء المماليك فى هيج على أنفسهم

هكذا كانت حالة البلاد فى هذا العصر الأخير ، لايكاد يفارقها الخلل والفوضى تارة بثوران الجند ومكافحتهم للولاة ، وطوراً بتنازع المماليك مع الولاة مرة ومع أنفسهم أخرى . وما زالت الحال كذلك حتى قبض على أزمّة الأمور أحد المماليك الأقوياء وهو «على بك الكبير» ، فكان ذلك ابتداء حوادث جديدة ذات شأن آخر

## ﴿ زوال ما كان للسلطان من القوّة والنفوذ فى مصر ﴾

### على يد على بك الكبير

نشأة على بك

كان « على بك الكبير * » فى أول نشأته مملوكاً لابراهيم بك السالف الذكر ، فما زال يتقدم عندهُ لذكائه ومقدرته ، حتى رقّاه الى رتبة «بك». ومن ذلك الحين أخذ « على بك » يعقد الآمال على أن يتقوى شيئاً فشيئاً حتى يصير يوماً ما شيخاً البلد ، فقضى ثمانية أعوام فى شراء المماليك وتدريبهم ، ولم يدخر فى اثنائها وسعاً فى استجلاب مودة البيكوات الآخرين . وأخيراً تنبّه شيخ البلد « خليل بك » الى أفعاله ، ورأى أن يقضى عليه قبل أن يستفحل أمره ، فهجم عليه بجيوشه ، فلم يقوَ عليه على بك فاضطر الى الفرار الى الصعيد . وهنالك التقى بكثير من الساخطين على خليل بك ، فانضموا اليه وزحف الجميع على القاهرة ، فدخلوها بعد أن انتصروا على خليل بك وأتباعه فى عدة مواقع أظهر فيها على بك مقدرة كبيرة . وبذلك تمّ له أمر شياخة البلد سنة ١١٧٧ هـ ( ١٧٦٣ م )

توليه شياخة البلد

وكان سيده ابراهيم بك قد مات قتلاً ، فلما تولى على بك شياخة البلد أمر باعدام قاتله ، فلم يرق ذلك فى أعين بيكوات المماليك ، وتألبوا عليه وألجئوه الى الفرار الى بيت المقدس . ثم وشوا به الى السلطان ، فأمر بطلبه الى الاستانة . فاحتمى بأمير عكاء ، فسعى هذا له لدى البـاب العالى وأظهر براءته . فثبته السلطان فى منصب

تألب المماليك عليه

السلطان يثبته فى منصبه

* سمي « الكبير » لكثرة انتصاراته

شيخ البلد ، فرجع الى القاهرة وتسلّم زمام الأمور بها مرة أخرى

أعماله

ولما استتب له الأمن سهر على اصلاح البلاد وتوطيد السكينة بها . ورأى أن يُكثر من أتباعه كي يأمن غوائل المستقبل . فرقى ثمانية عشر من المماليك الى رتبة البيكوية ، ليكونوا هم وحاشيتهم أنصاراً له اذا احتاج الى مساعدتهم

طمعه في الاستقلال

ثم طمحت نفسه الى الاستقلال بمصر ، فشرع يعمل على ذلك سراً وينتهز له كل فرصة . ولما نشبت الحرب بين الدولة والروسيا فى سنة ١١٨٢ هـ ( ١٧٦٨ م )

محاولة الباب العالى قتله

طلب الباب العالى من مصر أن تمدّه باثنى عشر ألف مقاتل ، فاذعن على بك لمطلب الدولة ، وشرع فى جمع الجيش . ولكن الدولة شكّت فى إخلاصه ، واعتقدت أنه يجمع هذا الجيش لمساعدة الروسيا عليها لتساعده على الاستقلال بمصر ، فأرسلت بكتاب الى الوالى بمصر تأمره فيه بقتل على بك

تنفيره المماليك من الدولة

وكان لعلى بك عيون بالاستانة ، فبادروا بتبليغه الخبر قبل وصول الكتاب الى مصر ، فتربص لحامل الكتاب وقتله قبل أن يصل الى الوالى . ثم أعلن للمماليك أن الدولة أرسلت فى هذا الكتاب أمراً الى الوالى بذبح جميع المماليك . وكان «على بك» خطيباً مؤثراً ، فأثار حميّة المماليك ، ونفّرهم من الباب العالى وذكّرهم بمجد سلاطين المماليك الأقدمين ، وأن الدولة تريد القضاء على هذا المجد ، وعليهم أنفسهم .فأوقد النار فى قلوبهم ، وقرّ قرارهم على خلع الباشا وإخراجه من مصر فى الحال ، والدفاع

اعلانه الاستقلال

عن استقلال البلاد . ثم أعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الجزية للباب العالى سنة ١١٨٣ هـ ( ١٧٦٩ م )

فتحه بلاد العرب

ولاشتغال الدولة بمحاربة الروسيا لم تقدر على الالتفات اليه ، فانتهز على بك هذه الفرصة لتوطيد ملكه بمصر . ثم أرسل جيشاً لفتح بلاد العرب . فاستولى على « جُدَّة » لتكون له مركزاً للتجارة الهندية وموضعاً يراقب منه ملاحة البحر الأحمر ولم يلبث أن أخضع باقى جزيرة العرب . وفى ذلك الحرمان الشريفان

غارته على الشام

ثم وجّه همّتهُ لفتح الشام ، فأنفذ لذلك جيشاً بـ ٣٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة

« محمد بك أبي الذهب » ، فكان النصر حليفه واستولى على كثير من مدن الشام

أبو الذهب واتفاقه مع الدولة عليه

وعند ذلك أكبرَ « أبو الذهب » على سيده هذا الملك العظيم ، فحسده . ورأى أيضاً ان الدولة ربما التفتت لمصر وأرجعتها الى سلطانها فيصبح على بك وأتباعه فى خطر، فخطب ودَّ الباب العالى واتفق معه على أن ينزع الملك من على بك ، ويقبض هو على زمام الأمور بمصر، مع الخضوع للدولة . فقصد مصر بالجيش الذى كان معهُ

فتحه مصر

بالشام ، ولم يلبث ان استولى على البلاد ، وفرَّ على بك الى عكاء واحتمى بها كما

استنجاد على بك الروسيا

مرة أخرى . وهنالك وجد أسطولاً للروسيا ، ففاوضه بشأن تحالفه معها ، فأمدَّه الأسطول بالذخيرة والرجال ، وبذلك استرجع المدن السورية التى كان قد فتحها له أبو الذهب وعادت الى الدولة بعد رجوع أبي الذهب عن الشام

فشله فى حملته على مصر

ثم جاءتهُ الأخبار من مصر ان الناس فى استياء من حكم أبي الذهب ، وأنهم يودون قدومهُ لإنقاذهم منهُ . فخرج الى مصر بقوة صغيرة ، فانتصر أولاً على جيوش أبي الذهب بجهة الصالحية ، ثم دسَّ هذا على رجال على بك من أوقع فى قلوبهم الفتنة ، فانقلبوا على « على بك » وخذلوه . فانهزمت جيوشه وأُخذ هو أسيراً الى القاهرة ، فمات بها بعد بضعة أيام بسبب الجراح التى أصابته وهو يدافع فى الواقعة الأخيرة دفاعاً شديداً . ومن أعماله تجديد قبة الامام الشافعيّ وإنشاء سوق ببولاق

ولاية أبي الذهب

وكافأ الباب العالى «أبا الذهب» على ذلك ، فنحهُ لقب « باشا » وولاَّه حكم مصر سنة ١١٨٦هـ ( ١٧٧٢م ) . فلم يتمتع بذلك ، اذ مات بعدها بعامين ، ودُفن بجامعه الذى شيده أمام الأزهر . وهو آخر جامع كبير أنشئ بمصر فى عهد العثمانيين

ابراهيم بك ومراد بك

عند ذلك قبض على أزمة الأمور اثنان من المماليك وهما : « ابراهيم بك » و« مراد بك » ، واتفقا على أن يتوليا شياخة البلد وإمارة الحج بالتناوب كما حدث بين رضوان بك وابراهيم بك من قبل . فوقع بينهما شيء من الاختلاف فى أول الأمر، ثم صلُح ما بينهما وبقيا قابضين على مقاليد الأمور من ذلك الحين الى أن أغار الفرنسيون على البلاد سنة ١٢١٣ هـ ( ١٧٩٨ م ) ، ما عدا فترة ( من ١٧٨٦ الى ١٧٩٠ م ) عاد النفوذ فيها الى العثمانيين

عودة النفوذ للدولة

وذلك ان الدولة أرسلت حملة لتوطيد السكينة وإطفاء الفتن التى انتشرت فى البلاد فى أوائل حكم ابراهيم بك ومراد بك . فوصلت الحملة فى شهر يونية سنة ١٧٨٦م واستولت على القاهرة بعد قتال لم يقوَ فيه المماليك على مقاومة المدافع التركية ، ففر ابراهيم ومراد الى الصعيد

عودة لابرهيم ومراد

وعهد العثمانيون بشياخة البلد لأحد بيكوات المماليك المدعو « اسماعيل بك » وفى سنة ١٢٠٥ ﻫ (١٧٩٠ م) حدث بالبلاد وباء شديد اكتسح اسرة اسماعيل بك ، فعاد ابراهيم بك ومراد بك من الصعيد واستردا منصبهما ، وأخذا يحكمان البلاد بحزم لابأس به . الاّ أنهما اشتطّا فى ابتزاز أموال الناس ، وخصوصاً التجار ، حتى الفرنج منهم . فكثرت شكاوى



مراد بك

( عن كتاب وصف مصر )

الغارة الفرنسية

هؤلاء الى دولهم ، مما لفت نظر اوربا الى مصر وجعله الفرنسيس ذريعة لإغارتهم عليها عام ١٢١٣ ﻫ ( ١٧٩٨ م )

ملخص بأهم الحوادث التاريخية الواردة فى الباب الأول

| | هـ | م |
|---|---|---|
| ﴿ منشأ الدولة العثمانية ﴾ | ٦٢٧ — ٨٥٧ | ١٢٣٠ — ١٤٥٣ |
| أرطغرل | ٦٢٧ — ٦٨٠ | ١٢٣٠ — ١٢٨٨ |
| + حكم اللاتين بالقسطنطينية | ٦٠٠ — ٦٦٠ | ١٢٠٤ — ١٢٦١ |
| علاء الدين السلجوقى يمنح أرطغرل « اسكى شهر » | | |
| مولد عثمان فى اسكى شهر | ٦٥٦ | ١٢٥٨ |
| عثمان (تحت امرة علاء الدين) | ٦٨٠ — ٦٩٩ | ١٢٨٨ — ١٣٠٠ |
| يفتتح قره حصار وغيرها ـ يمنحه علاء الدين لقب بك | | |
| قضاء المغول على الدولة السلجوقية | ٦٩٩ | ١٣٠٠ |
| عثمان (مستقلاً) | ٦٩٩ — ٧٢٦ | ١٣٠٠ — ١٣٢٦ |
| فتح بروسة على يد ابنه ارخان | | |
| ارخان | ٧٢٦ — ٧٦١ | ١٣٢٦ — ١٣٥٩ |
| افتتاح نيقوميدية وازنيق | | |
| ٢٠ عاماً فى السلم وتثبيت دعائم الملك | | |
| انشاء طائفة الانكشارية | | |
| ظهور الموت الأسود | ٧٤٧ | ١٣٤٧ |
| مبدأ الفتوح العثمانية باوربا (غاليبولى) | ٧٥٨ | ١٣٥٧ |
| مراد الأول | ٧٦١ — ٧٩٢ | ١٣٥٩ — ١٣٨٩ |
| اخضاع معظم الروملى (أدرنة — فلبة) | | |
| تحالف ملوك البوسنة والصرب والمجر عليه وقهره اياهم عند « أدرنة » | ٧٦٥ | ١٣٦٣ |

+ اشارة تدل على ان الحوادث خاصة بالدول المسيحية المعاصرة للدولة

* اشارة تدل على أنها خاصة بمصر

| | هـ | م |
|---|---|---|
| اخضاع بلغاريا | ٧٩١ | ١٣٨٨ |
| انتصاره على امراء أوربا الشرقية فى واقعة قوصوة واخضاع الصرب | ٧٩٢ | ١٣٨٩ |
| ( غدا فتوحه فى آسيا واندراج ٤ أمارات تركية فى سلك الدولة العثمانية ) | | |
| بايزيد الأول | ٧٩٢ — ٨٠٥ | ١٣٨٩—١٤٠٢ |
| اخضاع باقى الامارات التركية فى آسيا وكثير من مدن الروملى — توطيد أركان الدولة فى أوربا | | |
| تحالف المسيحيين على العثمانيين ثانية بقيادة سجسمند ملك المجر | | |
| قهر المسيحيين فى واقعة نيقو بوليس | ٧٩٩ | ١٣٩٦ |
| غزو جزء من اليونان ( تساليا وابيروس ) | | |
| قهر تيمورلنك لبايزيد وأخذه أسيراً فى أنقرة | ٨٠٥ | ١٤٠٢ |
| أربعة أولاد لبايزيد يتنازعون الملك | ٨٠٥ — ٨١٦ | ١٤٠٢—١٤١٣ |
| محمد الاول ( المتغلب عليهم ) | ٨١٦ — ٨٢٤ | ١٤١٣—١٤٢١ |
| لمّ شعث الدولة بعد تمزيقها فى واقعة انقرة | | |
| مراد الثانى | ٨٢٤ — ٨٥٥ | ١٤٢١ — ١٤٥١ |
| يعمل على مواصلة الفتوح العثمانية ـ يحاصر القسطنطينية | | |
| + توحيد الكنيستين ( برومية والقسطنطينية ) | ٨٤٣ | ١٤٣٩ |
| نهضة جديدة لاخراج الاتراك من أوربا | | |
| انتصار المسيحيين بقيادة هونياد ومعاهدة ازجدن | ٨٤٨ | ١٤٤٤ |
| يتنازل عن العرش | | |
| محمد الثانى ـ الاوربيون ينقضون العهد | | |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| ويغيرون على أملاك الدولة بقيادة هونياد | | |
| مراد يرجع الى الملك ويهزمهم فى وارنة | ٨٤٨ | ١٤٤٤ |
| يتم اخضاع البوسنة والصرب | | |
| محمد الثانى | ٨٥٥ — ٨٨٦ | ١٤٥١ — ١٤٨١ |
| يتأهب لفتح القسطنطينية | | |
| ﴿ الدولة العثمانية فى أوج عظمتها ﴾ | ٨٥٧ — ٩٧٤ | ١٤٥٣ — ١٥٦٦ |
| محمد الثانى يفتح القسطنطينية ـ سقوط الدولة البوزنطية — ابتداء التاريخ الحديث | ٨٥٧ | ١٤٥٣ |
| اخضاع معظم المورة والصرب والبوسنة | | |
| وقوف اسكندر بك وهونياد فى سبيل فتح ايطاليا والمجر | | |
| هونياد يهزم السلطان عند بلغراد | ٨٦٠ | ١٤٥٦ |
| اخضاع البانيا | ٨٧١ | ١٤٦٧ |
| فتح طربزون واخضاع القرمان | | |
| اخضاع القرم | ٨٧٩ | ١٤٧٥ |
| قهر البنادقة وعقد محالفة معهم | ٨٨٢ | ١٤٧٧ |
| حصار رودس (لم يفلح لحسن دفاع فرسان القديس يوحنا) | ٨٨٥ | ١٤٨٠ |
| فتح اترنتو | ٨٨٥ | ١٤٨٠ |
| + وصول برتلوميوديياز الى طرف افريقية الجنوبى | ٨٩١ | ١٤٨٦ |
| + وصول خرستوف كلمب الى احدى جزائر الهند الغربية | ٨٩٧ | ١٤٩٢ |
| + وصول فاسكودى جاما الى قاليقوط | ٩٠١ | ١٤٩٦ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| بايزيد الثانى | ٨٨٦ — ٩١٨ | ١٤٨١ — ١٥١٢ |
| أضعف سلطان الى ذلك العهد ــ مكافحات مع أخيه جم | | |
| * انتصار المماليك على جيوشه فى الشام | | |
| زيادة قوة الاسطول العثمانى — انتصاره على البنادقة | | |
| * موقعة ديو | ٩١٥ | ١٥٠٩ |
| الانكشارية ترغمه على التنازل لاصغر أولاده سليم | ٩١٨ | ١٥١٢ |
| سليم الاول | ٩١٨ — ٩٢٦ | ١٥١٢ — ١٥٢٠ |
| تحويل تيار الفتوح الى آسيا | | |
| غزو فارس (الاستيلاء على ديار بكر وكردستان) | ٩٢٠ | ١٥١٤ |
| * فتح مصر (مواقع مرج دابق والريدانية ووردان) | ٩٢٢ — ٩٢٣ | ١٥١٦ — ١٥١٧ |
| تنازل الخليفة العباسى بمصر عن الخلافة للسلطان سليم | ٩٢٣ | ١٥١٧ |
| سليمان القانونى | ٩٢٦ — ٩٧٤ | ١٥٢٠ — ١٥٦٦ |
| ازهر عصر فى تاريخ آل عثمان — تقدم عظيم فى العلوم واتساع كبير فى أملاك الدولة | | |
| فتح بلغراد | ٩٢٧ | ١٥٢١ |
| فتح رودس (من فرسان القديس يوحنا) | ٩٢٨ | ١٥٢٢ |
| * تنصيب « سليمان باشا » والياً على مصر | ٩٣١ | ١٥٢٥ |
| غزو المجر — موقعة موهكز — قتل ملكهم وتولية سليمان « جان زابولى » عليها | ٩٣٢ | ١٥٢٦ |
| غزو المجر ثانية لاغارة ملك النمسا عليها — | | |

| | ه | م |
|---|---|---|
| الاغارة على النمسا وحصار ويانة | ٩٣٥ | ١٥٢٩ |
| عقد صلح مع النمسا على اقتسام المجر بين ملك النمسا وزابولى | ٩٤٠ | ١٥٣٣ |
| * انابة خسرو باشا عن سليمان باشا لاشتغال هذا بحملة بحرية على البرتغال | ٩٤١ | ١٥٣٥ |
| * خروج سليمان باشا بأسطول من مصر لصد البرتغال فى الشرق واستيلائه على عدن | ٩٤٤ | ١٥٣٨ |
| اغارة ملك النمسا ثانية على المجر وعودة السلطان الى غزوها | ٩٤٦ | ١٥٣٩ |
| اعتراف النمسا بسيادة السلطان على المجر وترنسلوانيا وتعهدها بدفع جزية سنوية له | | |
| فتح بغداد | | |
| تقدم القوة البحرية | | |
| استيلاء «خير الدين بربروس» على الجزائر وتنصيبه والياً عليها من قبل الباب العالى | ٩٢٦ | ١٥١٩ |
| قهره أساطيل شرلكان | ٩٤١ | ١٥٣٣ |
| قهره أساطيل شرلكان والبابا والبندقية فى موقعة بروزة | ٩٤٥ | ١٥٣٨ |
| صده شرلكان عن بلاد الجزائر | ٩٤٨ | ١٥٤١ |
| انتصار «بيالة باشا» على «دوريا» عند جزيرة جربة (تونس) | ٩٦٧ | ١٥٦٠ |
| «طرغود» يفتح المهدية عاصمة تونس | | |
| حصار مالطة وعدم مقدرة البحرية العثمانية على التغلب على فرسان القديس يوحنا | ٩٧٣ | ١٥٦٥ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| * ( ابتداء اضمحلال الدولة العثمانية ) | ٩٧٤ — ١٠٤٩ | ١٥٦٦ — ١٦٤٠ |
| سليم الثانى (كان ضعيفاً لاهياً سكيراً) | ٩٧٤ — ٩٨٢ | ١٥٦٦ — ١٥٧٤ |
| * تنصيب سنان باشا على مصر | ٩٧٥ | ١٥٦٧ |
| * فتحه بلاد اليمن | ٩٧٦ — ٩٧٩ | ١٥٦٨ — ١٥٧١ |
| انتزاع الترك جزيرة قبرس من البنادقة | ٩٧٩ | ١٥٧١ |
| اتحاد أوربا على الدولة وقهرهـا فى موقعة | | |
| « ليبنتو » البحرية | ٩٧٩ | ١٥٧١ |
| مراد الثالث | ٩٨٢ — ١٠٠٣ | ١٥٧٤ — ١٥٩٥ |
| مسالمة البندقية | ٩٨٢ | ١٥٧٤ |
| * ولاية مسيح باشا على مصر | ٩٨٢ — ٩٨٨ | ١٥٧٤ — ١٥٨٠ |
| * خروج الجنود العثمانية على أويس باشا | | |
| لتجنيده المصريين | ٩٩٧ | ١٥٨٩ |
| محمد الثالث | ١٠٠٣ — ١٠١٢ | ١٥٩٥ — ١٦٠٣ |
| انتصار العثمانيين بقيادة سيكالا على النمسا | | |
| وترنسلوانيا فى سهل كرزت | ١٠٠٤ | ١٥٩٦ |
| * وباء فى مصر | ١٠١٢ | ١٦٠٣ |
| احمد الاول | ١٠١٢ — ١٠٢٦ | ١٦٠٣ — ١٦١٧ |
| استمرار الثورات العسكرية وابتداء ظهور | | |
| النمسا على الدولة | | |
| * وباء آخر فى مصر | ١٠٢٨ | ١٦١٩ |
| * وباء آخر | ١٠٣٠ | ١٦٢١ |
| مراد الرابع (من أعظم سلاطين العثمانيين) | ١٠٣٢ — ١٠٤٩ | ١٦٢٣ — ١٦٤٠ |
| يوطد العلائق مع النمسا ليوجه قواه الى الفرس | | |
| * تنصيب قره مصطفى على مصر | ١٠٣٢ | ١٦٢٣ |
| * صرفه بعلى باشـا الجشنجى — تمرد | | |
| الجند لذلك | | |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| * اعادة قره مصطفى | ١٠٣٥ | ١٦٢٥ |
| * وباء شديد فى مصر | ١٠٣٥ | ١٦٢٦ |
| أعاد السلطان فتح أريوان | ١٠٤٥ | ١٦٣٥ |
| استرجع بغداد من الفرس | ١٠٤٨ | ١٦٣٨ |
| **﴿ عهد سلطة الوزراء — أسرة كبريلى ﴾** | ١٠٤٩ — ١١٠٣ | ١٦٤٠ — ١٦٩١ |
| ابراهيم الاول | ١٠٤٩ — ١٠٥٨ | ١٦٤٠ — ١٦٤٨ |
| * وباء بمصر وغلاء | ١٠٥٢ | ١٦٤٢ |
| لم يفلح فى فتح جزيرة اقريطش | ١٠٥٥ | ١٦٤٥ |
| عزله وقتله | ١٠٥٨ | ١٦٤٨ |
| محمد الرابع ( ازدياد اضطراب الدولة ) | ١٠٥٨ — ١٠٩٩ | ١٦٤٨ — ١٦٨٨ |
| انهزام الاسطول التركى فى بحر الارخبيل | ١٠٥٩ | ١٦٤٩ |
| اسطول البنادقة يهدد القسطنطينية | ١٠٦٦ | ١٦٥٦ |
| نهوض الدولة على يد محمد كبريلى | ١٠٦٧ — ١٠٧٢ | ١٦٥٧ — ١٦٦١ |
| وزارة احمد كبريلى | ١٠٧٢ — ١٠٨٧ | ١٦٦١ — ١٦٧٦ |
| الاغارة على النمسا والمجر | ١٠٧٤ | ١٦٦٣ |
| انهزام الترك عندسنتوتار وعقد معاهدة فزقار | ١٠٧٥ | ١٦٦٤ |
| استيلاء الترك على اقريطش من البنادقة | ١٠٨٠ | ١٦٦٩ |
| + خروج القوزاق على بولندة وانهزامهم على يد جون سوبيسكى | ١٠٨١ | ١٦٧٠ |
| غزو الترك لبولندة وفتحهم كامنيك وتنازل بولندة لهم عن بادوليا واوكرين | ١٠٨٣ | ١٦٧٢ |
| رفض الشعب البولندى للمعاهدة وقهرهم الترك بقيادة جون سوبيسكى فى شكزيم ولمبرغ | ١٠٨٤ — ١٠٨٦ | ١٦٧٣ — ١٦٧٥ |
| صلح زرانو بين الترك و بولندة | ١٠٨٧ | ١٦٧٦ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| وزارة قره مصطفى | ١٠٨٧—١٠٩٤ | ١٦٧٦—١٦٨٣ |
| تأهبه سراً للاغارة على النمسا بتوثيق صلاته بفرنسا والروسيا و بولندة منذ أول عهده | | |
| + خروج المجر على النمسا | ١٠٨٥—١٠٩٢ | ١٦٧٤—١٦٨١ |
| اغارة قره مصطفى على المجر | ١٠٩٤ | ١٦٨٣ |
| حصاره لمدينة فينا | ١٠٩٤ | ١٦٨٣ |
| فشل الحصار لنقض جون سو بيسكى العهد ومؤازرته لامبراطور النمسا | | |
| قتل قره مصطفى لفشله | | |
| عقد الحلف المقدس بين النمسا و بولندة والبندقية على الترك | ١٠٩٥ | ١٦٨٤ |
| خسائر متوالية للترك براً وبحراً | ١٠٩٧—١١٠٠ | ١٦٨٥—١٦٨٨ |
| سليمان الثانى | ١٠٩٨—١١٠٢ | ١٦٨٧—١٦٩١ |
| نهضة قصيرة على يد مصطفى كبريلى | ١٠٩٨—١١٠٣ | ١٦٨٧—١٦٩١ |
| موته فى موقعة سلانكمن | ١١٠٣ | ١٦٩١ |
| مصطفى الثانى | ١١٠٦—١١١٥ | ١٦٩٥—١٧٠٣ |
| انتصار الجيوش النمساوية على الترك فى واقعة زنتا | ١١٠٨ | ١٦٩٦ |
| معاهدة كارلوتز ( بين الترك والنمسا والروسيا و بولندة ) | ١١١٠ | ١٦٩٩ |
| **﴿ الدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر م ﴾** | | |
| + نهضة الروسيا على يد بطرس الاكبر | ١١٠٠—١١٣٧ | ١٦٨٩—١٧٢٥ |
| استيلاء بطرس على أزاق | ١١٠٨ | ١٦٩٦ |
| احمد الثالث | ١١١٥—١١٤٣ | ١٧٠٣—١٧٣٠ |
| * تفاقم العداوة بين القاسمية والفقارية فى مصر | ١١١٩ | ١٧٠٧ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| انتصار الترك على الروس على نهر بروث | | |
| وعقد معاهدة بروث | ١١٢٣ | ١٧١١ |
| استرجاع قومرجى على بلاد المورة من البنادقة | ١١٢٧ | ١٧١٥ |
| انهزامه فى المجر على يد الامير يوجين عند | | |
| بتروردن | ١١٢٨ | ١٧١٦ |
| معاهدة بساروتز | ١١٣٠ | ١٧١٨ |
| حرب الترك مع الفرس (انتهت بجلاء الترك | | |
| عن فارس) | ١١٣٥ — ١١٤٨ | ١٧٢٢ — ١٧٣٥ |
| * قتل اسماعيل بك شيخ البلد وتولى | | |
| جركس بك شياخة مصر | ١١٣٦ | ١٧٢٣ |
| انتهاز الروسيا فرصة اشتغال الترك بمحاربة | | |
| الفرس وعقدها محالفة مع النمسا على الدولة | ١١٣٨ | ١٧٢٦ |
| * تولى عثمان بك شياخة البلد بمصر | ١١٤٢ | ١٧٣٠ |
| محمود الاول | ١١٤٣ — ١١٦٨ | ١٧٣٠ — ١٧٥٤ |
| اشهار الروس الحرب على الترك | ١١٤٨ | ١٧٣٥ |
| دخول النمسا فى الحرب وهزم الترك لها | | |
| وللروسيا ومهادنة النمسا للترك على انفراد | ١١٤٩ | ١٧٣٧ |
| غيظ ميونخ (قائد الروس) وعمله على تحقيق | | |
| المشروع الشرقى | | |
| هزمه جيوش الترك فى شكزم وعقد معاهدة | | |
| بلغراد بين الترك والروسيا | ١١٥٢ | ١٧٣٩ |
| * اتفاق ابراهيم بك ورضوان بك على | | |
| عثمان بك بمصر وطردهما اياه الى الشام | | |
| واقتسام السلطة بينهما | ١١٥٦ | ١٧٤٣ |
| عثمان الثالث | ١١٦٨ — ١١٧١ | ١٧٥٤ - ١٧٥٧ |
| مصطفى الثالث | ١١٧١ — ١١٨٧ | ١٧٥٧ — ١٧٧٣ |
| + تولى كترين الثانية عرش الروسيا | ١١٧٦ | ١٧٦٣ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| * تولى على بك الكبير شياخة البلد بمصر | ١١٧٧ | ١٧٦٣ |
| اعلان الترك الحرب على الروس لتعديهم على خان القرم | ١١٨٢ | ١٧٦٨ |
| * الباب العالى يستنجد على بك فى حربه مع الروسيا | ١١٨٢ | ١٧٦٨ |
| * اعلان على بك الكبير استقلاله بمصر | ١١٨٣ | ١٧٦٩ |
| انتصار الروس على الترك بحراً عند جشمة | ١١٨٤ | ١٧٧٠ |
| * ارسال على بك الكبير محمداً وأباالذهب للاستيلاء على الشام | ١١٨٥ | ١٧٧١ |
| * اتفاق أبى الذهب مع الدولة وتوليته والياً على مصر من قبلها | ١١٨٦ | ١٧٧٢ |
| * وفاة على بك | ١١٨٧ | ١٧٧٣ |
| عبد الحميد الاول | ١١٨٧—١٢٠٣ | ١٧٧٣—١٧٨٩ |
| معاهدة كجوك قينارجة بين الروسيا والترك | ١١٨٨ | ١٧٧٤ |
| * وفاة أبى الذهب | ١١٨٩ | ١٧٧٥ |
| * اقتسام السلطة بين مراد بك وابراهيم بك | ١١٨٩ — ١٢٠١ | ١٧٧٥ — ١٧٨٦ |
| نقض كترين العهد وضم القرم اليها | ١١٩٧ | ١٧٨٣ |
| معاهدة القسطنطينية بين الروسيا والترك | ١١٩٨ | ١٧٨٤ |
| اعلان الترك الحرب على الروسيا لتعدد اهاناتها لهم | ١٢٠١ | ١٧٨٧ |
| * رجوع السلطة الى الباب العالى فى مصر | ١٢٠٠—١٢٠٥ | ١٧٨٦—١٧٩٠ |
| سليم الثالث | ١٢٠٣—١٢٢٢ | ١٧٨٩—١٨٠٧ |
| استيلاء الروس بقيادة سوفاروف على اوخاكوف واسماعيل | ١٢٠٥ | ١٧٩٠ |
| توسط انجلترة وغيرها فى ابرام معاهدة ياسى بين الروسيا والترك | ١٢٠٦ | ١٧٩٢ |
| * رجوع السلطة فى مصر الى مراد بك وابراهيم بك | ١٢٠٥—١٢١٣ | ١٧٩٠ — ١٧٩٨ |
| غارة الفرنسيس على مصر | ١٢١٣ | ١٧٩٨ |

# الباب الثانى

## تاريخ مصر
## من الحملة الفرنسية الى انتهاء عهد محمد على

---

# الفصل الأول

## الحملة الفرنسية على مصر

( ١٢١٢ – ١٢١٦ هـ : ١٧٩٨ – ١٨٠١ م )

حالة مصر قبيل الحملة

قضت مصر تحت حكم ولاة العثمانيين وأجنادهم والمماليك نحو ثلاثة قرون عانت فيها من أنواع الظلم وسوء الإدارة ما أضعف تجارتها وجعلها فى معزل عن بقية العالم ؛ فأصبحت لاتدرى شيئاً عن قوى الدول الأوربية وأطماعها ، أو علاقة بعضها ببعض . وقد كان يقيم بمصر فى ذلك الحين كثير من جالية الفرنسيين والانجليز ، ولكن المصريين لم ينتفعوا بإقامتهم بينهم ، بل اكتفوا بالنظر اليهم بعين الازدراء والمقت ، ظناً منهم أن دولهم ما زالت على الضعف الذى عهدوه عنهم أيام الحروب الصليبية ؛ وفاتهم أن الزمن قد تغيّر ، وأن أوربا أصبحت على مبلغ من القوة وسعة العلم وعظم الدراية بالفنون الحربية بحيث لايمكن مصادمته الا بمثله

قوة فرنسا

وكانت دولة فرنسا قد قويت شوكتها بين دول أوربا ، وظهر فيها فى أواخر القرن الثامن عشر ( من التاريخ الميلادى ) قائد حربى عظيم أخذ يتغلب على ممالك

أوربا ، وبات كثير من دولها فى خوف منه : ذلك هو البطل الشهير «نابليون بونابرْت»

وفى أواخر سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٨ م) جرَّد « نابليون » هذا حملة على مصر فامتلكها، ودخلت البلاد من ذلك الحين فى طور يُعتبر ابتداؤه مبدأ تاريخها الحديث. نعم لم يلبث الفرنسيون بمصر أكثر من ثلاث سنوات ، ولكن قدومهم لها كان الحلقة الأولى من سلسلة حوادث ، لعبت أوربا أهم أدوارها ، وأفضت عاقبتها الى المركز الاجتماعى والسياسى الذى تشغله مصر الآن

متى فكر فى الحملة

ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر فجائية أو من خواطر اللحظات ، بل ان «ليبنتز» أحد نصحاء لويس الرابع عشر ألحَّ عليه سنة ١٦٧٢ بوجوب غزو مصر ، وبيَّن له أن امتلاكها يجعل فرنسا سيدة العالم . وقد رأى ذلك غيره من وزراء فرنسا بعده ، ولكن فرنسا لم تخط خطوة فى هذا السبيل الاّ فى عهد « نابليون »

على أن نابليون نفسه لم يقدم على هذه الحملة الاّ بعد تفكير طويل : فاستشار فيها العلماء ، وقرأ لأجلها الكتب ، وبعدئذٍ عرض اقتراحه على هيئة الحكومة الفرنسية مع ايضاح طويل

اسباب الحملة

أما أهم الأسباب التى حدت بنابليون الى الاقدام على هذه الحملة واقتنعت بها الحكومة الفرنسية فهى : أولاً — رغبته فى زيادة نفوذ فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط وضم وادى النيل اليها ، لما فيه من الخيرات الكثيرة التى تغنى فرنسا عن كثير من المستعمرات البعيدة ، ولما له من المكانة التجارية العظمى . وثانيا — تمهيد الطريق لقهر الانجليز بطردهم من الهند واستيلاء الفرنسيين عليها ، لأن مصر هى مفتاح الطريق الى تلك البلاد . وفى الحقيقة كانت لنابليون أطماع كبيرة فى الشرق بأسره ، وكانت نفسه تتوق الى أن يأتى فيه بمثل ما أتاه الاسكندر من قبل*

كل هذه الاعتبارات ، الى ما عسى أن يكون قد نال الفرنسيين المقيمين بمصر

---

* ووافقت الحكومة الفرنسية أخيراً على تجريد الحملة لانها أخذت تخشى سطوته بعد انتصاراته فى اوربا



نابليون بونابرت

من عسف المماليك وظلمهم ، جعلت فرنسا تُقدم على تجريد تلك الحملة مع ما فيها من المبادأة بالعدوان لسلطان آل عثمان الذى كان صديقها فى ذلك الحين

تدبير الحملة

ورأت الحكومة الفرنسية أن يكون إعداد هذه الحملة بغاية التستّر والتكتّم ، كى لا يعلم بمسيرها أحد وخاصة انجلترة أشد أعداء فرنسا فى ذلك الحين . فسهر « نابليون » على إعداد ما يلزم لها من الجند والسفن الحربية والمراكب النقالة ، فجهز

لها نحو ٤٠ الف مقاتل ، عليهم ضباط من نخبة قواد فرنسا : مثل « كليبر » و « ديزيه » و « مينو » و « مورات » . وأعدّ لها أسطولاً كبيراً جعل على رأسه القائد العظيم « برُوِى » ، وسلّحه بالكثير من المدافع والذخيرة . واصطحب معهُ كذلك من لا يقلون عن مائة رجل من أعظم علماء فرنسا : جمهم من أكبر اساتذة كل علم وفن ، وجهزهم بكثير الكتب والآلات العلمية ، مما رأى أن يكون له فائدة فى الاستكشاف عن حال مصر خاصةً والشرق عامة ، ومن أهم ماعنى باحضاره معهم مطبعة عربية كان للحملة منها فوائد كبرى

خروج الحملة من فرنسا

وفى اليوم الثانى من ذى الحجة سنة ١٢١٢ هـ ( ٩ مايو سنة ١٧٩٨ م ) أقلع نابليون بهذه القوة من ميناء طولون ، وانضمت اليها بعض المراكب من الجهات الأخرى ، وقصد جزيرة مالطة ، فاستولى عليها بلا عناء ، وكانت اذ ذاك فى يد « فرسان القديس يوحنا » وترك أحد قواده حاكماً عليها ، ثم غادرها

وكان إعداد هذه الحملة قد تمّ وعلمه بعض الدول ، غير أنه لم يعلم بمقصدها أحد

بحث نلسن عن الاسطول الفرنسى

وأوجست انجلترة منها خيفة ، وظنت انها ربما تقصد شواطئ « إرلندة » رجاء الإغارة على الجزائر البرطانية ، فعهدت البحرية الانجليزية الى « نِلسُن » أمير البحر الانجليزى العظيم بأن يقفو أثر هذا الأسطول الفرنسى ، وأن يلحق به كل ما أمكنهُ من الضرر ، فتلقى « نلسن » هذه التعليمات ، ولكنهُ لم يبحث عن نابليون غربى البحر الأبيض حيث يُنتظر وجوده لو كانت وجهته الحقيقية ارلندة ، بل أدّاه ذكاوه الفطرى أن يقصد « مالطة » . فلما وصلها وجد أن نابليون قد غادرها بجيشه منذ خمسة أيام ، وأنه سار شرقاً . فأدرك أن وجهة نابليون لابد أن تكون مصر ، ورأى أن يتبعه اليها . وبالفعل وصل بأسطوله الانجليزى الى الاسكندرية يوم ٨ المحرم سنة ١٢١٣ هـ ( ٢١ يونية سنة ١٧٩٨م ) ، فلم يعثر للفرنسيين فيها على أثر . فبعث وفداً الى حاكم المدينة « السيد محمد كريم » ( وكان مصرى الجنس ) يستفسر منه عن قدوم أسطول فرنسى الى البلاد المصرية . فراع أهل المدينة رؤية الأسطول



نلسن

الانجليزى ، وأوجسوا منهُ خيفة ، اذ لم يكن لهم علم بعزم الفرنسيين على غزو بلادهم .
وحاروا أيضاً فى أمر استعلام الانجليز عن مجئ الأسطول الفرنسى ، فلم يعرفوا لاهتمامهم
هذا علة . وذلك يدلك على الدرجة التى وصلت اليها مصر فى تلك الأيام من قِصَر
النظر وقلة الدراية بأخبار العالم والتنافس الحاصل بين ممالكه . فأكّد رجال « نلسن »
للحاكم أن الأسطول الانجليزى ما أتى الى هذه البلاد الاّ ليدفع عنها الأسطول
الفرنسى ، وأن غاية مايبغيه الانجليز أن يسمح لهم بانتظار الأسطول الفرنسى خارج
الميناء ، وأن يشتروا من المدينة بالمال ما يحتاجون اليـه من الزاد . فلم يقتنع السيد

نلسن بالاسكندرية

محمد كريم بحسن نيّة الانجليز ، وامتنع عن اجابة ملتمسهم ، وأجابهم بصراحة (ما كانت لتخفى عنه شيئاً لو قصد الانجليز بالبلاد سوءاً) إذ قال : «ان مصر بلاد السلطان . وليس للفرنسيين أو سواهم شيء فيها ، فاذهبوا أنتم عنا »

ولما كان هم نلسن منصرفاً الى مطاردة الأسطول الفرنسي ، لم يرَ داعياً الى استعمال القوة فى الاسكندرية وأقلع عنها مؤقتاً ليتجوّل قليلاً فى البحر الأبيض المتوسط ويأخذ من بعض جزائره ما يحتاج اليه من الزاد

وصول الحملة الى مصر

ومضى اسبوع بعد اقلاع العمارة الانجليزية ولم يظهر فى المياه المصرية أحد من الأعداء ، فهدأ روع الناس بالاسكندرية والقاهرة . وبينما هم كذلك اذا بالعمارة الفرنسية العظيمة قد لاحت أمام الثغر الاسكندرى، فعاد الفزع وزاد على ما كان،و بعث حاكم المدينة بالرسل الى القاهرة على جناح السرعة ، يستنجد مراد بك وابراهيم بك ، ويصف لهما حرج الحالة وهول العمارة الفرنسية ، وقال عنها انها « لا يُعرف أولها من آخرها »

تدابير المماليك

فلما وصل الخبر الى مراد بك أسرع الى مقابلة ابراهيم بك بمنزله ( مستشفى قصر العينى الآن ) ، فبادر الى عقد جمعية عمومية من كبراء البلاد ، ليتداولوا فيما يجب عمله لصد الأعداء . فاجتمعت الجمعية توّاً من كبار المماليك والعلماء ، وحضرها « بكر باشا » والى السلطان بمصر * . وبعد أن تباحثوا فى الأمر قرّ قرارهم على أن يسير مراد بك الى الاسكندرية لصد الأعداء ، وأن يبقى ابراهيم بك بالقاهرة للدفاع عنها لو اقتضى الأمر ذلك

---

* كانت السطوة الحقيقية فى هذه الايام للمماليك . ولكن لما كان هؤلاء يعلمون انهم أجانب عن البلاد ، بعيدون عن أهلها فى الشعور والعادات ، خشوا ازدياد الجفاء بينهم ، وعملوا على اكتساب مودة العلماء ليحببوا فيهم الاهليين ، فكانوا يشاورونهم فى الامر ، ويصغون لرغباتهم ، حتى صار للعلماء قول مستمع فى ادارة شؤون الحكومة

أما الوالى فلم يكد يكون له من الامر شيء سوى تسلم الجزية وارسالها الى السلطان . وكان المماليك دائما يرتابون فى اخلاصه لهم ويخشون دسائسه لدى الباب العالى ، حتى ان «مراد بك» قال لبكر باشا فى هذا الاجتماع الذى نحن بصدده : « ان الفرنسيس ما قدموا الى هذه البلاد الا برضاء الباب العالى ، ان لم يكن بايعاز منه »

نزول الفرنسيس بالاسكندرية

هذا ما كان من أمر المماليك . أما العمارة الفرنسية فانها وصلت أمام الاسكندرية في اليوم الثامن عشر من المحرم ( أول يوليه ) . وعند ذلك أرسلت زورقاً الى الميناء يطلب القنصل الفرنسي ، فتردد « السيد محمد كريم » أولاً في تسليمه ، ثم أذن له بالذهاب . فعلم منه نابليون ما كان من أمر العمارة الانجليزية وما يعده المماليك للدفاع عن البلاد . فأقرّ على انزال جيشه الى البرّ في الحال ، واختار لذلك نقطة غربي الاسكندرية بنحو ثلاثة أميال (العجمي الآن) ، فسار بأسطوله اليها وشرع في انزال رجاله وعدده ليلاً بكل سرعة ، فتم له ذلك من غير أن يعترضه أحد . وبعد أن استراح برهة على الرمال جرد قسماً من جيشه وسار على الأقدام قاصداً الاسكندرية . فقابلتهم قُبيل الفجر بعض فصائل من عرب « أولاد على » ، تبادلوا معهم بعض الطلقات ، ثم فروا مذعورين ، فاستمر الجيش في المسير نحو الاسكندرية ، حتى صار على مقربة من أسوارها

مهاجمة اسوار الاسكندرية

فقابلتهم حامية المدينة بما لديها من وسائل الدفاع . فقسم نابليون رجاله الى ثلاثة أقسام وهاجم بهم الأسوار هجوماً عاماً من اليمين واليسار والقلب ، فدخلوا المدينة عنوة ، وانسحب الحاكم ورجاله الى قلعة « فاروس » في طرف الميناء الشرقية ( قايتباى الآن ) . ولما دخل الفرنسيون المدينة مخترقين شوارعها الضيقة ، أمطرهم الأهلون من نوافذ المنازل وابلاً من المقذوفات ، فقابلهم الفاتحون بأشد منها ، وكادوا يفتكون بالعباد فتكاً ذريعاً ، لولا ان أرسل نابليون رسولاً الى الاسكندريين ، يؤمّنهم على أموالهم وأرواحهم ودينهم وتقاليدهم ، وأخبرهم بأن فرنسا لا تقصد سوءاً إلاّ بالمماليك ، وانها تحرص على مودّة الأهلين وودّ سلطانهم الأعظم . فهدأ الناس حقناً للدماء ، واستسلم اليه السيد محمد كريم ، لقلة ما بقي معه من الذخيرة . فأكرم نابليون مثواه ، وقال له : « قد أخضعتك بالقوة ولى أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكن نظراً لما أبديته من الشجاعة ، ولأن الشجاعة حليفة الشرف ، أردّ اليك سيفك ، أملاً ان تُخلص للجمهورية الفرنسية بقدر ما أخلصت لتلك الحكومة العثمانية » .

فأعرب السيد محمد كريم عن رغبته فى خدمة الجمهورية ، وأبقاه نابليون فى منصبه تحت اشراف « الجنرال كليبر » ( وكان هـذا قد اضطرّ الى البقاء بالاسكندرية لجرح أصابه وقت مهاجمة الأسوار )

ملل الجند من المدينة

ولم تكد الجنود الفرنسية تنزل الى المدينة وتتجول فى أنحائها حتى لحقهم المَلَل واستولت عليهم الكآبة ، فإنهم (فضلاً عن تألمهم من الحر الشديد الذى لم يعتادوه فى بلادهم ، والذى كان بالطبع على أقصى درجاته فى هذا الفصل من السنة) لم ترق المدينة فى أعينهم ، ولم يجدوا فيها شيئاً من العظمة والبهاء مما سمعوا به قبل مجيئهم وكان من مميزات الاسكندرية فى القرون الأولى ثم ذهب باضمحلال شأن المدينة على مدى الأيام . وكل ما وقع عليه نظرهم من شوارع ملتوية ، وأزقة ضيقة قذرة ، وآثار مهملة ، وملابس وأزياء لاتنطبق على ذوقهم الفرنسى ، لم يزدهم إلاّ قنوطاً واعتقاداً بأنهم مسخرون فى غزوة لا فائدة فيها

نشاط نابليون

على أن نابليون ذاته لم يظهر عليه شئ من ذلك ، بل بقى ثابت الجأش ، كله حركة ونشاط ، ولم يكد يتمّ له الاستيلاء على الاسكندرية حتى أمر بانزال كل المعدات الحربية الى البر ، كى لا يفاجئه « نلسن » على غير أهبة . ثم التفت الى تنظيم حكومة الاسكندرية ، فعهد بادارة شؤونها الى ديوان ، فشُكّل من سبعة أشخاص مختارين . وأمر بانزال جماعة العلماء الذين معهُ ، وكلّفهم مباشرة البحث والتنقيب بالاسكندرية ، ريثما يتم له فتح العاصمة فيستدعيهم اليها ، فشرعوا فى عملهم بكل همة ونشاط . ومن أنفع ما بدءوا به أنهم رسموا مصوراً وافياً للاسكندرية وضواحيها

منشور نابليون الى المصريين

وقبل أن يزحف نابليون بجيشه الى القاهرة أمر بكتابة منشور بالعربية ليلقى به السكينة فى قلوب الأهلين ، وعهد بكتابته الى المستشرقين من علمائه ، وطُبع بالمطبعة العربية التى معهم . وقد رأى نابليون فى هذا المنشور أن يُخضع المصريين من باب الدين واحترامه لعقائدهم وخليفة نبيهم ، فغالى فى مصانعتهم حتى شك معظم الأهلين

فى صدق نيته ، وأخذوا يهرعون الى القرى والبلاد التى بمعزل عن طريق الفرنسيين حتى لايقعوا فى حبال مكايدهم . ومما قلّل من ثقة الأهلين بهذا المنشور ان نابليون كان وعدهم عند استيلائه على الاسكندرية بعدم التعرّض لحريتهم وتقاليدهم ، ولكن ما لبث أن جرّدهم من السلاح وأمرهم أن يحملوا على صدورهم شارة الجمهورية الفرنسية ( وهى قطعة مستديرة من القماش مؤلفة من ثلاثة الألوان : الأزرق والأبيض والأحمر ) وها هى بعض عبارات هذا المنشور العجيب ، نقلاً عن كتاب المؤرخ الشهير الشيخ عبد الرحمن الجَبَرْتى الذى كان معاصراً لهذه الحملة :

بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله ، لا ولد له ولا شريك له فى ملكه . من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية . السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالى مصر جميعهم ان من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى . فحضر الان ساعة عقوبتهم . واحسرتاه ، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابازة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لا يوجد فى كرة الارض كلها . فأما رب العالمين القادر على كل شىء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون ، قد قيل لكم انى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين انى ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين ، وانى اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا ايضا لهم : ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن فيها : من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة . فان كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم . ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم . ولكن بعونه تعالى من الان فصاعداً لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الامور ، وبذلك يصلح حال الامة كلها . وسابقا كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما ازال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك . ايها المشايخ والقضاة والائمة والجربجية واعيان البلد ، قولوا لامتكم : ان الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا ، الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا

يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى واعداء اعدائه ، ادام الله ملكه . ومع ذلك ان المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لامره . فما اطاعوا اصلا الا لطمع انفسهم . طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير ، فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم . طوبى ايضا الذين يقعدون فى مساكنهم ، غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين . فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب . لكن الويل ثم الويل للذين يتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ، ولا يبقى منهم اثر

الزحف على القاهرة

ترك نابليون « كليبر » بالاسكندرية وشرع فى الزحف على القاهرة فى ٢٣ المحرم ( ٧ يولية ) . واختار لذلك طريق الصحراء الغربية مُخترقاً مدينة « دمنهور » . وكان قد أرسل قسماً من جيشه بطريق الساحل الشرقى للاستيلاء على « رشيد »[١] وعزّزه بأسطول من المراكب الصغيرة . حتى اذا تم لهما فتح المدينة سار الأسطول فى النيل وبجانبه الجيش لينضما الى جيش نابليون عند « الرحمانية » . وجدّ « نابليون » فى البر حتى وصل الى دمنهور ، بعد ان لاقت جيوشه من التعب والحر والظمأ ماذهب بقواهم[٢] وزاد من سخطهم ، فاستراحوا بها يوماً ثم واصلوا المسير نحو الرحمانية فجر يوم ٢٦ المحرم ، وقبل وصولها التقوا بشرذمة من المماليك لم تكد تشتبك معهم حتى فرّت أمام نيرانهم الحامية

الوصول الى الرحمانية

ولما وصلوا الى الرحمانية رأت جنود نابليون النيل لأول مرة ، فهرولوا اليه يطفئون ظمأهم ، ويمتّعون به أبصارهم التى ملّت الصحراء ورمالها ، وأبدوا رغبة عظيمة فى البقاء طويلاً بالرحمانية . فرأى نابليون أن يبقى بها بضعة أيام ريثما يلحق به الجيش والأسطول اللذان ذهبا لفتح رشيد

الاستيلاء على رشيد

وكان هذان قد نجحا فى مهمتهما . وسار الأسطول فى النيل ، وانضم الجيش الى نابليون . ثم سار الجيش ازاء الأسطول على ضفة النيل الغربية . الاّ أن الريح كانت شديدة ، فساقت الأسطول أمام الجيش حتى وصل منفرداً الى « شَبراخيت »

---

(١) وكانت اذ ذاك مدينة تجارية عظيمة وتمتاز عن الاسكندرية بكثرة حدائقها وجمال منظرها

(٢) لان اكثر الترع كان نيليا

واقعة شبراخيت

( بعد الرحمانية ) ، فالتقى هنالك قبل وصول نابليون بأسطول المماليك وجيشهم المؤلف من ٤٠٠٠ فارس على رأسهم «مراد بك» . فوقع الأسطول الفرنسى بين نارين ، وكاد المماليك يفتكون به ، لولا أن اشتعلت النار بذخيرة أحدى سفن المماليك ، فعاقهم ذلك حتى وصل نابليون . فقدم جيشه الى خمس مربعات ، وأمسك عن اطلاق النار ، حتى أقدم عليه فرسان المماليك بشجاعتهم المعتادة ، ولما صاروا على مرمى مدافعه أطلقها عليهم ، فكانت تحصدهم حصداً ، فاضطر مراد بك الى الانحياز الى القاهرة بمن بقي من رجاله ( ٢٩ المحرم : ١٤ يوليه )

استعداد المماليك

وكان أهل القاهرة قد استولى عليهم الجزع منذ نزول الفرنسيس الى أرض الاسكندرية ، فلما جاءهم نبأ انهزام مراد بك بشبراخيت وتقهقره الى القاهرة هاجوا وماجوا . وأخذ الكثير منهم يفرون من المدينة . ولما سمع « ابراهيم بك» بتقهقر زميله شرع فى تحصين « بولاق » ( فرضة القاهرة فى ذلك الحين ) ، وعمل على نصب المدافع على النيل بين بولاق وشبرا . وأقبل عليه الاهلون يساعدونه بكل ما لديهم من الوسائل ، فاكتظت بهم بولاق حتى كان يخيل للناظر أن سكان القاهرة انتقلوا اليها . وكان الجميع يزدادون فزعاً كلما سمعوا باقتراب الفرنسيس ، فامتلأ الجو بصياحهم وعويلهم وتضرعاتهم ، والعقلاء منهم ينصحون لهم بالتزام السكينة ، ويذكّرونهم بأن ذلك لايجدى نفعاً ، وأن النبى وأصحابه كانوا يقاتلون بالسيوف والرماح ، لا بالعويل والصياح

واقعة انبابة او الاهرام

أما مراد بك فانه استعد للقاء الفرنسيس ببلدة «انبابة» من أعمال الجيزة وخندق بها ، ونصب المدافع أمام عسكره مخافة أن يحصل له ما حصل بشبراخيت يوم هاجم الأعداء بفرسانه من غير المدافع

وقد كانت تجزئة المماليك لقواهم على الوجه المتقدم من اكبر غلطاتهم ، إذ كان خير طريقة لهم أن يجمعوا كل قواهم على الشاطئ الشرقى وينتظروا قدوم العدو ، فيضطرونه الى عبور نهر النيل العظيم ، فيهاجمونه مجتمعين أثناء عبوره . ولكنهم غفلوا



نابليون أمام الاهرام

( رسم على افندى يوسف – عن صورة بدار الكتب السلطانية )

عن ذلك كما غفلوا عن غيره من الحيل الحربية ، واعتمدوا على شجاعتهم وانتصاراتهم القديمة ، ونسوا أنهم انما يحاربون دولة فى مقدمة دول أوربا : لها من الدراية بالفنون الحربية الحديثة ما تذوب أمامه كل شجاعة ، ويفنى به كل استبسال . وصل نابليون الى « انبابة » فى اليوم السابع من شهر صفر (٢١ يولية) ، فرأى المماليك أمامها فى انتظاره ، وقد ملأوا الجو بصياحهم وحماستهم . وبريقُ دروعهم وملابسهم المطرزة بالقصب يتلألأ فى الشمس فيزيد منظرهم روعة ومهابة ، ورأى وراءهم الأهرام تتجلّى فى الصحراء وتُذكّر القادم بأنه فى أرض الفراعنة الأقدمين ، فأشار اليها وقال محرضاً جنوده على القتال : « أيها الجند، إن أربعين قرناً تنظر اليكم من قمة هذه الأهرام» فكانت هذه الكلمة من أشهر كلماته المأثورة

ورأى نابليون ان المماليك يتأهبون لمهاجمته من الأمام كعادتهم ، فقسّم جيوشه فرَقاً كل منها على شكل مربع مجوَّف، وساقها على المماليك ،على هيئة هلال : يستعد وسطُه للقاء قلب المماليك، ويحيط طرفاه بجناحيهم

فأدرك مراد بك قصده ،فأمر أبسل قوّاده « أيوب بك الدفتردار » أن يهاجم الفرقة التى أرادت الالتفاف حولهم من الغرب . فانطلق أيوب بك على الفرنسيس برجاله انطلاق السهام ، فأفسح لهم هؤلاء الطريق حتى صاروا فى وسط المربع ثم أصلوهم ناراً حامية من ثلاث جهات ، ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً

ثم هجم قلب الجيوش الفرنسية على خنادق المماليك واستولوا عليها بروؤس الحراب وساقوا فرقة أخرى للاحاطة بالمماليك من الشرق . فلما رأى مراد بك أن الفرنسيس كادوا يحيطون به ، وأن طرفى هلال جيوشهم آخذان فى الاقتراب ، بادر بالتقهقر ، واضطر الى ترك مئات من رجاله فى الميدان ، فحصرهم الفرنسيس بينهم وبين النهر وما زالوا بهم حتى أفنوهم قتلاً وغرقاً

ولم يستطع مراد بك بعدُ استئناف القتال ، فأسرع الى منزله وأخذ ما قدر على حمله من المال والنفائس ، وقصد الى الصعيد

هذه هى الموقعة التى تعرف عند المصريين بواقعة « أنبابة » وعند الفرنسيس بواقعة «الاهرام» ، استمرت أقل من ساعة من الزمان ، فكانت كما رأيت القاضية على المماليك ولم يخسر فيها الفرنسيس غير عشرة قتلى وثلاثين جريحاً ، فكانت أكبر برهان على فضل الأنظمة الحربية الحديثة وفوقها على شجاعة القرون الوسطى وإقدامها

بعد الواقعة

ولم يكد ابراهيم بك يسمع بهذه الكارثة حتى أسرع بالتأهب للفرار من القاهرة وحذا حذوه بقية المماليك . ثم ازداد الفزع فتبعهم معظم الأهلين ، وظل الناس طول الليل يخرجون بنسائهم وأطفالهم من المدينة ، بعضهم قاصد الى الصعيد ، وبعضهم الى جهة بُلْبَيْس والسُّوَيس ، وفى هذه الطريق سار ابراهيم بك

تسليم القاهرة

وفى الصباح ( ٨ صفر ) اجتمع علماء المدينة بالجامع الأزهر ليتداولوا فى الأمر ، فقرّ قرارهم على التسليم ، وذهب وفد منهم ومن الأعيان الى نابليون بونابرت بالجيزة يخبره بالأمر . فأحسن مقابلتهم ، وأمنهم على حياتهم ومالهم ودينهم بعبارات تشبه عبارات المنشور، مؤكداً أنه صديق المصريين والسلطان، وأنهُ ما أتى إلاَّ لتخليصهم من نير المماليك الظالمة

ولما سمع أهل المدينة بذلك هدأ روعهم ، وأرسلت الزوارق الى الجيزة ، فجاءت بمعظم الجيش ، فنزل قسم منهُ بالقلعة . ثم دخل نابليون نفسه القاهرة بعد أن ترك « ديزيه » لحماية الشاطئ الغربى ، ونزل بقصر محمد بك الألفى على شاطئ بركة الأزبكية ( حديقة الأزبكية الآن )

استئصال شأفة المماليك

ورأى نابليون أن يبدأ باستئصال شأفة المماليك : فأرسل « ديزيه » فى فرقة من الجيش لمطاردة مراد بك بالصعيد ، وأرسل أخرى فى طلب ابراهيم بالشرقية ، فلم تقوَ عليهِ لقلة عددها ، واضطر نابليون أن يذهب اليهِ فى جيش بنفسه . فقابله ابراهيم بك بالصالحية ، فانهزم واضطر الى الفرار جهة الشام ، بعد أن كبّد الجيوش الفرنسية خسارة كبيرة

ثم عاد نابليون الى القاهرة، واستولت رجاله على أملاك البكوات وأموالهم وتشددوا

مع نسائهم حتى اضطروهنّ الى أن يفدين أنفسهنّ بالمال: من ذلك أن زوجة مراد بك فدت نفسها بمبلغ ١٢٥٠٠٠٠ ريال ، وحاول بعضُ الغوغاء الاشتراك مع الجند فى نهب بيوت المماليك ، فقابلهم نابليون بالشدة ، فساعد ذلك على رجوع السكينة بعض الشيء

اصلاحات نابليون

ولما رأى نابليون أن قد هدأت الأمور عمل على تنظيم الحكومة ، وأن يدخل فى البلاد كل ما يستطيع من الإصلاحات التى تقتضيها الحضارة الفرنسية، فنصّب أحد رجاله حاكمًا على القاهرة ، وجعل آخر مديراً للشؤون المالية . وأمر بتشكيل مجلس نيابى (ديوان) من الأهلين ليسترشد بهم فى ادارة البلاد . وتكوّن الديوان بادئ الأمر من عشرة من المشايخ . منهم الشيخ عبد الله الشرقاوى ( مؤلف كتاب «تحفة الناظرين» فى تاريخ مصر) والسيد خليل البكرى (نقيب الأشراف وشيخ سجّادة البكرية فى ذلك الوقت) وغيرهما من أفاضل العلماء . ثم وسّع من نطاق المجلس، فانضم اليه أعضاء يمثّلون جميع الطوائف المقيمة بمصر ، ومن جملتهم أعضاء من الفرنسيين

استياء المصريين

واندفع نابليون فى ادخال كثير من الاصلاحات الأخرى الخاصة بالصحة العامة أو الأمن وغير ذلك ، غير ناظر لاستياء الناس أو رضاهم ، ومكتفيًا باعتقاده أنهُ انما يريد الاصلاح على النمط الأوربى . فمن ذلك أنهُ أمر الأهلين بكنس شوارعهم ورشّها فى أوقات معيّنة ، وبوضع مصباح على كل منزل ، مع تهديد كل من يخالف ذلك بالعقوبات الشديدة ، ووضع أنظمة لقيد عقود الزواج والوفيات والمواليد ، مع تأدية مغارم لكل ذلك : مما جعل المصريين يحسّون تدخله فى حريتهم الشخصية (وكانوا لم يعهدوا شيئًا من ذلك فى عهد أظلم المماليك ) . فقلّت ثقتهم بوعود نابليون ومواثيقه ، وأخذوا ينظرون شزرًا الى كل قانون جديد يسنّه ، خصوصًا عند ما أمر بهدم ابواب الحارات والدروب

وكان نابليون قد أخذ يحصن القاهرة ، فهدّم لذلك كثيراً من الآثار والمساجد، فزاد استياء الأهلين . ولما جمع العلماء وكلفهم تعليق شارات الحكومة الفرنسية ذات

(١) (٢)



(٤) (٣)

**بعض أعضاء المجلس النيابي**

(١) السيد خليل البكرى (٢) الشيخ عبد الله الشرقاوى

(٣) الشيخ المهدى الكبير (٤) الشيخ سليمان الفيومى

( رسم على افندى يوسف — عن مجموعة بدار الكتب السلطانية )

الألوان الثلاثة ، وبهرهم عند ما رفضوا ذلك ، أمسكوا عن مساعدته فى تحسين العلائق بينه وبين العامة ، وأخذ سخطهم فى الاستفحال

وبينما نابليون مشتغل باصلاحاته هذه اذ جاءه نبأ تدمير الانجليز لاسطوله فى خليج « بوقير »

واقعة بوقير البحرية

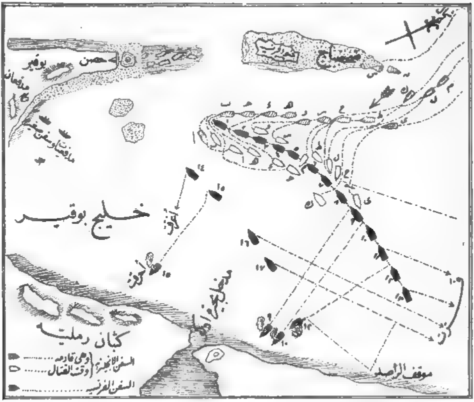
وذلك ان « نِلْسُن » أمير البحر الانجليزى لم يفتر عن البحث عن الأسطول الفرنسى حتى عثر عليه فى خليج « بوقير » فى ١٧ ربيع الأول ( أول أغسطس ) ، فوقعت بين الأسطولين موقعة بحرية عظيمة انتهت بتدمير الأسطول الفرنسى ، فكانت من أهم الوقائع التى كوَّنت مجد بريطانيا البحرى . والفضل فى ذلك للبطل العظيم « نلسن » قائد الأسطول الانجليزى ، فانهُ مع فَوْق الفرنسيس عليهِ فى عدد مراكبهم ، ونصبهم القلاع والاستحكامات على الشواطئ لمعاونة الأسطول ، تمكن من شطر الأسطول الفرنسى شطرين ، أحاط بأحدهما من الجانبين وفتك به ، وشتَّت السفن الانجليزية شمل المراكب الباقية ، فلم ينج منها من الغرق أو الحريق إلاَّ القليل

وكان الفرنسيس فى أول الواقعة قد أرسلوا بعض مراكبهم الصغيرة لتغرى الأسطول الانجليزى على الاقتراب من شواطئهم المحصنة ، حتى يقع بين نارين ، فلم يعبأ بهم نلسن ، وكان من مهارته مارأيت . وفى هذه الواقعة جُرح نلسن فى رأسه جرحاً خفيفاً ومات « برويس » قائد الأسطول الفرنسى بعد أن أظهر من البسالة والثبات ما يجعله فى مقدمة أعاظم الرجال

ثورة القاهرة

بلغ نابليون ذلك فحزن حزنا شديداً لانقطاع كل اتصال بينه وبين فرنسا ، ولكنه أظهر الجلد واستمر فى تقوية مركزه فى الديار المصرية . وبقيت مشروعاته تلى بعضها بعضاً من غير أن يعبأ باستياء الأهلين ، حتى بلغ السيلُ الزُّبى ، وخرج سكان القاهرة على الفرنسيس خروجاً عاماً فى ١٠ جمادى الأولى ( ٢٢ اكتوبر ) أى بعد نزولهم مصر بشهرين تقريباً

بيان واقعة بوقير البحرية






وتُلَخَّص أهم أسباب هذه الثورة فيما يأتى :

(١) قتل الفرنسيس للسيد محمد كريم (حاكم الاسكندرية) لاتهامه بمخابرة المماليك

(٢) غلو الفرنسيس فى ضرب الضرائب وكثرة الحاحهم والحاحهم فى الاستفسار عن الأملاك الشخصية (٣) هدم بعض المساجد لتحصين القاهرة (٤) خوف الأهلين من بعض اصلاحات نابليون وحملها على محمل سيئ ، مثل هدم أبواب الحارات وكانت هذه الأبواب تغلق فى الليل فتصير كل حارة كأنها حصن فى ذاتها

(٥) انهزام الفرنسيين فى موقعة بوقير البحرية ، وسماع المصريين بأن الباب العالى أرسل جيشاً لفتح مصر

استفحال الثورة

وقد استفحل أمر الثورة وأظهر فيها عوام القاهرة إقداماً كبيراً لم يُعهد فيهم من قبل ، فذبحوا كثيراً من رجال الفرنسيين ، ثم تحصنوا فى الأحياء الوطنية ( داخل حدود مدينة الفواطم ) ، ونصبوا المتاريس على مداخلها ، ووقفوا يدافعون عنها بما لديهم من الأسلحة والذخيرة . ولكن ماذا تجدى الشجاعة والحماسة أمام القوة والعلم؟ فان نابليون لم يكد يسمع بالخبر حتى طار برجاله الى مواضع المتاريس ، فصوَّب عليها المدافع . ثم رأى أن الثائرين لجهلهم لم يحصّنوا التلول المشرفة على القاهرة من الشرق * فأسرع بارسال المدافع لتُنصَب عليها ، وطاول زعماء الثورة : يطلب منهم الصلح خديعة منه ليتم له نقل المدافع الى المواقع المذكورة ، فلما أصبح الصباح ورأى الثائرون المدافع مصوَّبة عليهم استولى عليهم الفزع ، وعلموا انهم وقعوا فى شرك أعمالهم . ولما انهالت المقذوفات طول المساء على حيّ الأزهر (مقر المشايخ ومنبعث الفتنة فى نظره) هاج الأهلون وماجوا ، واضطر المشايخ الى الذهاب الى بونابرت واظهار خضوعهم له فأشبعهم تأنيباً وتعنيفاً على ما سبّبوه من سفك الدماء ، ثم أمر بالكف عن اطلاق النيران ، وأمسك الأهلون أيضاً عنه ، إلاّ سكان حيّ الحسينية ( ومعظمهم من طائفة الجزارين ) فانهم لِما فُطروا عليه من الشدة والعنف استمروا فى القتال حتى نفدت جميع مقذوفاتهم ، والفرنسيس يصلونهم طول الوقت ناراً حامية حتى ألحقوا كثيراً من الضرر بحيّهم . وما زالت آثار هذا التخريب باقية الى الآن

اخماد الثورة

ثم دخل الفرنسيس المدينة وتجوَّلوا فى أسواقها لاعادة النظام والسكينة . ثم دخلت طائفة منهم الجامع الأزهر بخيولهم ، وحطموا قناديله ، وأزالو بعض الآيات القرآنية المنقوشة على جدرانه . ثم غالوا فاتخذوا الجامع اصطبلاً لخيولهم . فعظم استياء الناس ، وأرسل المشايخ وفداً الى نابليون يلتمسون اصدار الأمر باخلاء الأزهر من الجند . فأجاب ملتمسهم بعد التحذير والتهديد

فهدأت المدينة ، ورجعت المياه الى مجاريها ، وان كان نابليون قلل بعد ذلك

---

* اى من جهة باب الوزير وباب البرقية ( جبانة المجاورين )

من اعتبار المشايخ فى الديوان وغيره ، وأصبح عملهم قاصراً على نشر المنشورات التى يحثّون العامة فيها على التزام السكينة والخضوع للفرنسيس والاعتراف بما أبداه اليهم نابليون من الجميل

الترك يحاولون فتح مصر

وبعد أن أخمد نابليون الثورة تفرغ لتحصين مصر لصد غارات العثمانيين . وكان هؤلاء قد أخذوا يسعون فى استرجاعها ، وعقدوا لذلك معاهدة مع انجلترة وروسيا . وعوّلوا فى فتحها على تسيير جيشين اليها : الأول يزحف على « العريش » من جهة الشام ، والثانى يجتمع فى جزيرة « رودس » ومنها ينقله الأسطول الانجليزى الى سواحل مصر . الاّ أنهم أساءوا التدبير فى انفاذ هذه الخطة ، اذ وصل الجيش الأول الى العريش قبل أن يستعد الثانى للقيام . فتسنى لنابليون مقابلة كل منهما على حدة بمجموع جيوشه ، مع أنهُ كان يضطر الى تجزئتها لو وصل الجيشان فى وقت واحد

حملة نابليون على الشام

فلما علم نابليون بذلك أسرع بمعظم جيشه للقاء جيش الشام ، فبلغ العريش بعد أحدَ عشر يوماً واستولى عليها عنوة ، وسقطت « غزّة » فى يده بعد ذلك بقليل . وفى اليوم الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٢١٣ ( ٣ مارس سنة ١٧٩٩ ) بلغ « يافا » وحاصرها ، ولما رأت حاميتها أن لاقِبَل لهم به استأمنوا اليهِ فأمّنهم ، ولكنه غدر بهم واستعرضهم جميعاً رمياً بالرصاص . وتلك وصمة كبرى فى تاريخ حياته لا يغفرها له التاريخ مهما انتُحل له من الأعذار ، وأنهُ انما قتلهم جميعاً ليتخلص من عبء ثقيل هو إطعامهم وحراستهم

وبعد أن حصّن يافا أسرع الى حصار « عكاء » فلم يقدر عليها لحسن دفاع حاكمها « أحمد باشا الجزّار » ومساعدتهِ بحراً بأسطول انجليزى بقيادة « السير سِدنى سمِث » ، فرجع عنها بعد أن حاصرها ٥٠ يوماً

واقعة بوقير البرية

ولم يكد يصل الى مصر حتى جاءه خبر وصول البوارج العثمانية الى الاسكندرية وانزال ١٠٠٠٠ من الأتراك بجهة « بوقير » يوم ٩ المحرم سنة ١٢١٤ ( ١٣ يونيه سنة ١٧٩٩ ) . فسار اليهم وهزمهم شرّ هزيمة

عودة نابليون الى فرنسا

على أن ذلك لم يطيّب من خاطر نابليون ، فانّ انقطاع المواصلات عنهُ بمصر بعد تدمير أسطوله بموقعة « بوقير البحرية » ، وعجزه عن الاستيلاء على عكاء التى هى فى نظره «مفتاح الشرق» ، وضياع أمله فى فتح الهنـد ، كل ذلك ملأه يأساً ، وذهب أدراج الرياح ما كان له من الآمال فى تكوين دولة عظيمة بالمشرق . ثم ان « السير سدنى سمث » كان قد أرسل اليه طائفة من الصحف الأوربية ، فقرأ فيها أن الحرب تجددت بين فرنسا والنمسا ، وأن الأخيرة استردت شمالى ايطاليا الذى كان قد استولى عليه هو قبل مجيئه الى مصر ، فعوّل فى الحال على أن يعود الى فرنسا سراً ، فغادر مصر يوم ١٩ ربيع الأول سنة ١٢١٤ ( ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ ) بعد أن عهد بقيادة الجيش للقائد « كليبر » .

الحالة بعد خروج نابليون

خرج نابليون من مصر وترك الجيش الفرنسى تهدده الأخطار من كل جانب . اذ كان عدده قد نقص كثيراً فى معارك الشام وغيرها ، ودبّ السخط فى نفوس الجند وقلّت أموال الخزينة ، وأصبح الجيش فى حاجة الى الذخيرة والملابس . وأرسلت الدولة العثمانية جيشاً آخر الى العريش يقوده الصدر الأعظم ، وأسطولاً الى دمياط : تريد اعادة الكرة على مصر . هذا الى أن المماليك عادوا الى مكافحة الفرنسيس . نعم انهم فى جمادى سنة ١٢١٤ هادنوا المماليك الذين كانوا قد تغلبوا على معظم الصعيد بزعامة رئيسهم مراد بك بأن ولوا مراداً حكم بلاد الصعيد ، بشرط أن يكون خاضعاً لسلطتهم مستعداً لمعونتهم ، ولكنه كان متربصاً بهم النوازل حتى يستبد فى قومه بملك مصر

كليبر وسياسته

وكان « كليبر » من أكبر قوّاد الفرنسيس وأعظمهم مهارة ، إلاّ انه أدرك صعوبة التغلب على هذه الأمور ، ورأى من المصلحة أن لا يبقى بمصر ، وعرض الصلح على الصدر الأعظم والسير سدنى سمث ، واتفق معهما على أن يخرج من مصر بجنوده وجميع مهماته ، ويسافر الى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية . ويُعرف ذلك « بمعاهدة

معاهدة العريش

العريش » ( شعبان ١٢١٤ : يناير ١٨٠٠ ) . فلما علمت بذلك الحكومة الانجليزية استنكرت تصرف السير سدنى سمث ، وأرسلت اليه الأوامر بأن لا يعقد صلحاً مع



القائد كليبر

( رسم علي افندي يوسف - عن صورة بدار الكتب السلطانية )

الفرنسيس الآ اذا سلّموا جميع جيشهم بمصر . فكان ذلك من الغلطات التي دوّنها التاريخ للحكومة الانجليزية ، إذ أن غرضهم الأصلي لم يكن الاّ اخراج الفرنسيس من مصر، وها هو ذا قد عُرض عليهم بلا ضرب ولا طعن . فأبلغ السير سدني سمث أوامر حكومته الى كليبر ، فانقطعت بذلك المفاوضات بين الطرفين

الترك في مصر

وكان كليبر بعد معاهدة العريش قد سمح لجيش الصدر الأعظم بدخول مصر ، فسار وعسكر بجهة بلبيس . ثم انتشر عسكره في ضواحي القاهرة والأقاليم المحيطة بها يجمعون المعونات والضرائب ، ودخل كثير منهم المدينة ، وغفلوا عن احتلال القلاع والحصون التي أخلاها الفرنسيون . فلما تحقق الفرنسيون تغيُّر نية الانجليز انتهزوا فرصة

تشتت الجيش العثماني وأوقعوا بكل قسم منه على انفراده بغتة ، وكانت الواقعة الفاصلة بعين شمس ، فانهزم الترك وتبعهم الفرنسيس الى « الصالحية » ، فتقهقروا الى الشام

ثوران القاهرة

ولما عاد كليبر الى مصر وجد أن رؤساء العثمانيين الذين بقوا بالقاهرة هم وبعض المشايخ والتجار أثاروا أهلها وعامتها على الفرنسيس ، فهاجوا وملكوا البلد وحصنوا مداخل الدروب ومنعوا الفرنسيس من دخول المدينة . فحصلت بين الطرفين مناوشات عظيمة انتهت بعد نحو ثلاثين يوماً بإبرام الصلح بينهما على أن يخرج العثمانيون الى بلادهم ، وأن يغرم العلماء والأهلون نحو عشرة آلاف ألف فرنك

أما شأن مراد بك ومن معه من المماليك في هذه الثورة فانهم جاءوا الى « دير الطين » ( الساحل القبلي ) ينتظرون لمن يكون الغلب فيكونون معهُ ، فلما حدث ما حدث رجعوا الى الصعيد

عودة النفوذ الى الفرنسيس

مقتل كليبر

وبذلك رجع الفرنسيس نفوذهم في مصر ، الا أنهُ لم يمضِ قليل حتى قُتل « القائد كليبر » غيلة : قتله « سليمان الحلبي » أحد طلبة العلم من نزلاء السوريين ، بإيعاز من أحد زعماء المماليك ( على ما قيل ) ، وذلك في ٢٠ المحرم سنة ١٢١٥ هـ ( ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ م )

مينو وسياسته

فعُهد بقيادة الجيش الفرنسي الى القائد «مينو» ، وكان أقل كفاءة من كليبر ، غير محبوب من الجيش مثله ، وكان شديد الميل الى البقاء بمصر . فتظاهر باعتناق الاسلام وتسمى « عبد الله مينو » ، وتزوج ببنت أحد كبار المصريين من أهل رشيد

حملة ابركرومبي

ولم يفتر الانجليز عن العمل على اخراج الفرنسيس من مصر . ففي شهر شوال سنة ١٢١٥ هـ ( فبراير سنة ١٨٠١ م ) أرسلوا جيشاً بقيادة «السير رَلْف أبرْكرومبي» فوصلت السفن الانجليزية الى الاسكندرية ، وأنزلت الجنود بجهة « بوقير » ، ثم وصل جيش عثماني وانضم اليهم . فعهد مينو بقيادة مدينة القاهرة الى القائد « بِلْيار » وجاء بمعظم الجيش الفرنسي الى الاسكندرية . فالتحم الفريقان في موقعة فاصلة عند « كانوب » قرب بوقير انهزم فيها الفرنسيس وتراجعوا الى الاسكندرية ،

فحوصروا بها ، ومات « ابركرومبى » فى هذه الواقعة ، فعهد بالقيادة الى « هتشنسن »
وفى أثناء ذلك تقدم الجيش التركى الذى كان بالعريش . فسار هتشنسن للانضمام
اليه بعد أن عهد بفتح الاسكندرية الى أحد قوّاده

فالتقى الجيشان بجهة « الرحمانية » وسارا نحو القاهرة . فلم يأنس بليار من نفسه
مقدرة على صدهم ، وعرض عليهم الصلح على أن تخرج الجيوش الفرنسية من مصر
وتسافر مخفورة الى فرنسا على نفقة الحكومة الانجليزية . فقبل الانجليز ذلك ،
وأنزلت الجنود الفرنسية بقوارب فى النيل الى رشيد وبوقير ونزلوا هنالك فى السفن
التى أعدت لهم

جلاء الفرنسيس

فدخلت الجنود العثمانية وبعض رجال الجيش الانجليزى الى مصر ومعهم من
أمراء مصر ابراهيم بك الكبير والبرديسى والألفى والسيد عمر مكرم وغيرهم، فامتلأت
قلوب الأمة المصرية فرحاً لتخلصهم من أذى الفرنسيس وجورهم

أما عبد الله « مينو » فكان قد أصر على الدفاع عن الاسكندرية ، فشدّد
الانجليز والعثمانيون عليه الحصار . وانتهى الأمر بقبوله التسليم والخروج من مصر بنفس
الشروط التى سلّم بها « بليار » ، فسافر بجنوده الى فرنسا فى اليوم العاشر من جمادى
الأولى سنة ١٢١٦ هـ ( ١٨ سبتمبر سنة ١٨٠١ م ) ، وبذلك تم جلاء الفرنسيس
عن مصر بعد أن قضوا فيها نحو ثلاثة أعوام

أعمال البحث العلمى الفرنسى

ذكرنا فيما تقدم أن نابليون أحضر معه الى مصر نحو مائة رجل من أكبر علماء
فرنسا الملمّين بكل فن وعلم . وكان أهم غرض من احضارهم الانتفاع بآرائهم فى كل
ما يلزم الجيش والجالية التى كان يرمى نابليون الى توطينها بالبلاد . فلم يكد رجال
البحث يلفون الديار المصرية حتى أكبوا على دراسة جميع ما فيها من آثار ونبات
وحيوان ومعادن ورسموا كل شىء ووصفوه وصفاً مسهباً . وقد نجحوا فى أعمالهم نجاحاً
تاماً حتى أنهُ قيل فى وصف الحملة الفرنسية : « انها كانت علمية أكثر منها حربية »

اقسامه

وبعد خروج نابليون من مصر عُنى « كليبر » بتنظيم أعمال هذه الهيئة العلمية ، فقسم

أعضاءها الى تسعة أقسام : قسم لدرس الشؤون الزراعية ، وآخر للصناعة والتجارة ، وقسم للجغرافيا ، وآخر للآثار ، وآخر للادارة ، وآخر لدرس الأخلاق والعادات ، وهكذا

مشروع قناة السويس

ومن أهم أعمالهم بمصر أنهم فحصوا أمر برزخ السويس وامكان شق ترعة فيه بين البحرين الأبيض والأحمر . فدرسوا المشروع درساً دقيقاً برياسة مهندسهم العظيم « لابير » ، وكتبوا فيه تقريراً وافياً كانت له أكبر فائدة للمسيو « ديلسبس » الذى حفر هذه الترعة فيما بعد فى عهد الخديوى اسماعيل . ولم ينجز الفرنسيس هذا المشروع إذ ذاك لوقوعهم فى خطأ حسابى توهموا به أن سطح البحر الأحمر أعلى من سطح البحر الأبيض بتسعة أمتار

ومن أعمالهم أنهم درسوا الأمراض الخاصة بالبلاد وطرق علاجها ، ولا سيما الرمد وفحصوا نظام الرى وطرق اصلاحه ، ومسحوا أرض القطر ، ورسموا له خريطة عظيمة نُشرت عند عودتهم الى فرنسا

الآثار المصرية

أما بحوثهم فى الآثار المصرية القديمة فيكفاهم فخراً أنهم أول من لفت نظر أوربا الى درس هذه الآثار ، وأن ما دوّنوه فيها كان الأساس الأول لبحوث العلماء الأوربيين بعد . وقد كشفوا كثيراً من المدن والآثار المصرية القديمة ، ورسموا لها صوراً جميلة* ، وأشكالاً تبين دواخل أهم المعابد وما على جدارنها من النقوش . وكان كل ذلك طبعاً بالقلم والقرطاس ، إذ لم يكن التصوير الشمسى وقتئذ معروفاً . ولا يفوتنا أن رجال الحملة هم الذين عثروا على حجر رشيد الذى كان له الفضل الأكبر فى انجلاء تاريخ مصر القديم

كتاب وصف مصر

وفى سنة ١٢١٧ هـ ( ١٨٠٢ م ) أمرت الحكومة الفرنسية بجمع أعمال علماء الحملة ونشرها فى مؤلف واحد ، فظهرت فى ذلك الكتاب العظيم المسمى « وصف مصر » ( Description de l' Egypte ) ، فكان أكبر وأوفى مؤلف ظهر الى الآن فى وصف الديار المصرية

---

* هذه الصور بعضها مطابق تماما لحالة الآثار وقت رسمها وبعضها يمثل شكلها فى أيام رونقها واستعانوا فى رسمها بالنظر الى الاجزاء التى لم تتهدم فى الاثر واستنتاج شكل التى تهدمت بطريق المحافظة على التماثل فى البناء

# الفصل الثانى

## محمد على باشا

### ١ — ﴿ نشأته ونهوضه ﴾

نشأته

وُلِد محمد على باشا ابن ابراهيم أغا من سلالة ألبانية ببلدة « قَوَلَة » أحد الموانى الصغيرة التى على الحدود بين تراقية ومقدونية عام ١١٨٣ هـ ( ١٧٦٩ م ) ، وهو العام الذى وُلِد فيه « وِلِنجتون » القائد الانجليزى العظيم « ونابليون » الفاتح الكبير ، ولكل منهما أثر عظيم فى تاريخ حياة المترجَم . وانهُ لمن العبث أن نسرد هنا الأقاصيص التى تعزى اليه فى حداثة سنه ، إذ لم نعثر عليها فى أصل يُعتمد عليه

توفى والده ابراهيم أغا وهو فى سن الطفولة ، فتولى أمره عمه « طوسون » . غير أن هذا وافته منيته بعد مدة وجيزة ، فقام بأمر تربيته أحد أصدقاء والده ، وقد تبنّاه وعُنِى به حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ، فتعلم طرفاً من الفروسية واللعب بالسيف . ثم زوّجه احدى قريباته ، وكانت من ذوات اليسار . وخدم حاكم قولة واكتسب رضاه بما كان يأتيه من ضروب المهارة والحذق فى جباية الأموال من القرى المجاورة التى كانت لا تؤدى ما عليها الاّ بالشدة واستعمال القوة الجبرية . واعانته ثروة زوجته على الاتجار فى الدخان ، فاصطحب المسيو «ليون» أحد صغار التجار ( ويغلب أنهُ كان وكيلاً لأحد المحال التجارية بمرسيليا مسقط رأسه ) ، وشاركه فى الاتجار فى هذا الصنف . فلم تعد عليه هذه التجارة بالأرباح الطائلة ، الاّ أنه استفاد فائدة جمة من مرافقته للمسيو «ليون» : فاكتسب منه كثيراً من العادات والآداب الفرنسية التى تركت فى نفسه أثراً عظيماً ، وساعدته مساعدة كبيرة فى بقية أطوار حياته

هذا جل ما رواه لنا التاريخ من سيرته الأولى ، وهو يحملنا على أن نترك الثلاثين

سنة الأولى من تاريخ حياته صحيفة بيضاء . وذلك أمر لا بد منهُ لمن نشأ في بلدة صغيرة لم تكن ذات شأن كبير من قبل

وقبل أن نشرح طريقة استيلاء محمد على على الديار المصرية وابادته للماليك يجب علينا أن نصف حالة الدولة العثمانية فى إبان شبابه ، حتى يتمكن القارىء من الوقوف على سر نجاحه :

حالة الدولة العثمانية فى أول عهد محمد على

كانت الدولة العثمانية إذ ذاك مكونة من عدة شعوب مختلفة ، ذوى أديان متباينة ونِحَل متضادة : مما طرّق اليها الضعف ، وأدخل عليها الوَهَنَ والاختلال الذى كاد يبلغ أقصاه فى عصر محمد على ، إذ قد بدأ فى عهد صغره أمر « على باشا والى يانينة » ، وهو أيضاً من الألبانيين : أُولئك القوم الذين فتحوا الشرق بقيادة الاسكندر ، واستوطنوا مصر فى عهد البطالسة ، وهدّدوا رومية فى زمن بيروس . خرج ذلك الرجل على دولته ، فنكث فَتْلها ، وأقلق بالها ، واستقل بأمر البانيا مدة خمسين عاماً انتهت بقتله غيلةً سنة ١٢٣٧ هـ ( ١٨٢٢ م )

وكانت كذلك جميع أجزاء الدولة مفككة العُرى ثائرة على الباب العالى : فمصر والأناضول وسورية كلها كانت فى فتن وقلاقل ، و بلاد العرب مع الدولة فى حرب عوان . وكانت الولاة فى يانينة وبغداد كأمراء مستقلين ، واستقل بالفعل فى عكاء احمد باشا الجزّار ، وشرع يحذو حذوه معظم ولاة الدولة . ووقف دولاب أعمال الحكومة الداخلية جملةً ، وكان الجيش مؤلفاً من رعاع الناس وسِفْلَتهم، وكان السلطان أشبه بسجين أو أُلعوبة فى يد وزرائه وعساكره الانكشارية ، وكان الباب العالى مكوّناً من فئة الوزراء الذين يتهددهم الخطر فى كل لحظة ، فقد كان كل منهم يتحيّن الفرص لاغتيال زميله ، أو السعى فى عزل السلطان وتولية غيره : ليكون هو الصدر الأعظم الجديد

تلك كانت حالة الدولة بالاختصار فى شبيبة محمد على ، ومنها يسهل تفهُّم أطوار حياته وعلاقته مع الدولة . وبالرغم من كل هذا كان عامة مسلمى الدولة مطيعين خاضعين

السلطان من آل عثمان : لأنهُ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والإمام الواجب تنصيبه ديناً ولو لم يكن له من الأمر شئ . بخلاف الوزير أو الوالى اللذين لم يكن كل منهما فى نظرهم إلاّ فرداً من رجال الحاشية توصّل الى مركزه السامى بالحظوة أو الرشوة . لذلك نرى أن كل الفتن والقلاقل فى ذلك العهد كانت نتيجة المنافسة القائمة بين حكام الأقاليم ورجال الباب العالى ، وأن فوز أحدهم بأمنيته كان متوقفاً على حسن الحظ والإقدام والخداع ، لا على الكفاءة الشخصية والمواهب الطبيعية

أول قدومه الى مصر

بلغ محمد على الثلاثين من عمره عام ١٢١٢ ﻫ ( ١٧٩٨ م ) ، وكان لا يزال فى مسقط رأسه بين أولاده الثلاثة : ابراهيم وطوسون واسماعيل . وقد ذكرنا أن تجارة الدخان لم تعد عليه بربح طائل ، لذلك كان ميالاً للاحتراف بمهنة أُخرى . فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى دخل فى طور جديد من أطوار حياته . والسبب فى ذلك يرجع الى الحملة الفرنسية على مصر

أولا فى واقعة بوقير

وذلك أنهُ فى سنه ١٢١٣ ﻫ ( ١٧٩٩ م ) أعلن الخليفة الحرب على الفرنسيين لغزوهم مصر ، فأصدر الأوامر بجمع الجيوش من انحاء الدولة ، فجمع حاكم قولة ( الشربجى ) فرقة عددها ٣٠٠ من الجنود المتطوعين ( الباش بُزُق ) بقيادة ابنه « على أغا » ، ورافق محمد على هذه الفرقة وكيلاً له عليها . فتوجهت بطريق البحر الى الدردنيل ، ومن ثمّ انضمت الى عامة الجيش فى جزيرة رودس

ولما وصل الجيش الى ميناء بوقير من الديار المصرية التحم بالجيش الفرنسى ، فكانت الدائرة على الترك ، واضطرهم الفرنسيون الى الالتجاء لسفنهم وسفن الانجليز المرافقة لها بعد مذبحة شنيعة . وكان محمد على قد أشرف على الغرق ، لولا أن قيّض الله له « السير سدنى سمث » ، فانتشله من الماء بيده وأنزله فى سفينته

ثانيا فى حملة ابركرومبي

وبعد ذلك رجع محمد على الى بلدته ، ثم عاد سنة ١٢١٥ ﻫ ( ١٨٠١ م ) مع جيش « القبطان حسين باشا » الذى جاء ليساعد القائد الانجليزى « أبرَكرومبى » على اجلاء الفرنسيس . ومن هذا الوقت بقى فى مصر حتى صار والياً عليها

وقد نال إعجاب قائده والقوّاد الانجليز بما كان يأتيه من ضروب الشجاعة وشدة البأس عند هجومه على حصن الرحمانية ، إذ دخله عنوة بعد أن اضطر القائد الفرنسى الى اخلائه ، وكان هذا سبباً فى ترقيته الى رتبة قائد فى الجيش

## ﴿ نهوض محمد على ﴾

النزاع بين الباب العالى والمماليك

بعد اخلاء الحملة الفرنسية البلاد ورجوعها الى فرنسا ابتدأت جماعة المماليك تَشْرَئِبّ أعناقها لأن تقبض على زمام الأمور فى البلاد كما كانت من قبل . فى حين أن الباب العالى كان يطمح الى طرد المماليك من الديار المصرية ، واسترجاعها بعد أن اغتُصِبت منهُ مدة من الزمان . لكن المقادير جاءت بعكس ما أمل الفريقان : إذ أراد الله أن تكون نصيباً لمحمد على

محاولة الترك الفتك بالمماليك

بدأ النزاع بين الباب العالى والمماليك عند ما أراد الأول أن يستقل بالسيادة فى مصر ، فاستخدم للتغلب عليهم طريقة غير مقبولة : وذلك أن القبطان حسين باشا دعا البكوات العظام من حزب مراد بك الى معسكر بوقير ، بعلّة التفاوض معهم فى صيرورة حكومة مصر ، فكان معظمهم غير مرتاح البال الى هذه الدعوة ، إلاّ أن خوفهم من نزع السلطة كلها من أيديهم حملهم على تلبيتها ، وطمأن خاطرهم قربُ معسكر القائد « هتشنسن » الانجليزى

حماية الانجليز للمماليك

قابلهم الباشا القبطان بتهلل واستبشار واكرم مثواهم ، ثم دعاهم الى ركوب زورق له لزيارة القائد الانجليزى ، بحجة أنهُ يريد أن يتفاوض معه أيضاً . ولما بعدوا عن الشاطئ قليلاً لحقه زورق يحمل بعض الأوراق ، فاستأذنهم ليقرأها على انفراد وترك الزورق بمن فيه من البكوات . فظهر لهم عند ذلك أنه يريد بهم سوءاً ، فأمروا النواتى بالرجوع فامتنعوا وأطلقوا عليهم النار ، فقتلوا ثلاثة وجُرح عثمان بك البرديسى واثنان آخران . فلما علم القائد الانجليزى بذلك استشاط غضباً ، فاعتذر له الباشا القبطان بأسباب واهية . وفى الوقت الذى حدثت فيه تلك الحادثة عند ساحل البحر كانت

تمثل الرواية نفسها فى القاهرة ، وقد احتمى معظم من بها من البكوات بالمعسكر الانجليزى فيها ، فأسعفهم القائد « رَمْزى » رغم إلحاح الصدر الأعظم فى تسليمهم اليه، فكانت هذه الحادثة مدعاة الى اشتعال نيران الحقد فى صدور المماليك . وقد زادها لهيباً جعل « محمد خُسْرُو » مملوك الباشا القبطان والياً على مصر فى ربيع الأول سنه ١٢١٦ هـ ( يوليه سنة ١٨٠١ م ) : حصَّل له القبطان ذلك المنصب بتوسط الصدر الأعظم يوسف باشا لدى الباب العالى

خسرو باشا

ويُعتبر خسرو باشا الوالى الجديد على الديار المصرية من أشهر رجال الترك فى القرن الثالث عشر . وكان ذا حُظْوَة عظيمة لدى السلطان . وقد خاصم محمد على مدة نصف قرن كان فى أثنائها عدوَّه المبين لأسباب سنذكرها فى موضعها . وكان من الذين يعتدُّ برأيهم فى جسام الأمور ومعضلات السياسة كما سيجئ . ولا يُعْزَى فشلُه فى مصر الى قلة الذكاء والشجاعة ، بل لأنهُ ابتدأ حروباً داخلية فى وقت كانت فيه خزائنه خلوا وجيشه غير مدرب ، على قوة عظيمة من فرسان المماليك الذين كان فى قبضتهم خيرات البلاد وفيضُها

خسرو باشا والمماليك

ومن العبث أن نتجاهل ما كان للمماليك من المزايا العظيمة التى يمتازون بها على الأتراك فى حروبهم لهم ، وذلك لأنهم التحموا بالجيوش الفرنسية أكثر من الأتراك، فاقتبسوا من طرقهم الحربيــة مازادهم فَوْقاً على الأتراك ، ذلك الى أنهم يعرفون البلاد أكثر من جنود الترك الذين وصلوا اليها حديثاً ، وأنهم كانوا لايزالون أصحاب النفوذ والسلطان فى البلاد

فلما أراد « خسرو » مطاردتهم ونزع البلاد من أيديهم ، ظهرت كل هذه العقبات أمامه . واذْ كانوا هم القابضين على أزمَّة الأحكام فى المديريات ، أصبح القصد اذاً من حربه لهم انتزاع البلاد من قبضتهم . فأرسل لذلك « طاهر باشا » قائد الألبانيين بجيش كان نصيبه الخيبة والفشل ، وطارده عثمان بك البرديسى قائد المماليك من الوجه القبلى الى الوجه البحرى حتى ساحل البحر . ولما وصلت أخبار هذه

الهزيمة الى خسرو أعدّ مدداً أرسله بقيادة محمد على، وكان ممن نال ثقة خسرو فى هذا الحين . إلاّ أن عثمان بك بادر الى مناجزة الجيش التركى قبـل أن يصل اليه المدد الذى كان يقوده محمد على ، وبدد شمله

خسرو ومحمد على

فلما علم خسرو بالهزيمة الثانية وجّه لومه الى الألبانيين وخاصة الى محمـد على ، وأراد أن يحاكمه على تقصيره أمام مجلس عسكرى ، وكان غرضه بذلك اغتياله ، فامتنع محمد على عن الحضور ، ومن هذا العهد ابتدأت بذور العداوة تنبت بين هذين الرجلين : تلك العداوة التى فتّت فى عضد الدولة ومزقت أحشاءها كل ممزق

خسرو وجنود الحامية العثمانية

وبعد هذه الهزيمة الأخيرة أبت عساكر الترك الحرب كل الإباء لتأخر رواتبهم ، وثاروا وحاصروا الخزانة ونهبوا وسلبوا القاهرة ، ودخلوا القلعة ، فاعتصم خسرو بمنزله وأراد طاهر باشا قائد فرقة الألبانيين ( وعددهم ٥٠٠٠ ) أن يتوسط بين خسرو والعصاة ، فأبى خسرو وساطته ، فانضم الى العصاة عليـه . ولما لم يجد خسرو لديه حينئذ جنداً تحميه ولى هارباً الى دمياط ، وبقى بها ينتظر فرصة يسترد بها ما فقده

فشل خسرو

ولما علم طاهر بذلك جمع رءوس العلماء وأشراف العاصمة وشاورهم فى الأمر ، فرضُوا أن يكون نائباً عن الوالى عليهم ، فأعلن أنهُ هو الحاكم على مصر حتى يولّى الباب العالى خلفاً لخسرو باشا ، وذلك فى صفر ١٢١٨ ( مايو ١٨٠٣ ) . وكان من سوء طالع طاهر باشا أنهُ وقع فى نفس الحيرة التى وقع فيها خسرو إذ لم يمكنه دفع مؤخر رواتب الجند : وبعد ٢٢ يوماً من قبضه على زمام الأحكام تألّب عليه الجند، واغتاله ضابطان ( موسى أغا واسماعيل أغا ) بعد أن تظلّما له من تأخير رواتب الجنود

طاهر باشا ومقتـله

ابتداء ظهور محمد على

فأصبح محمد على ، بعد هرب خسرو وقتل طاهر رئيس الأجناد غير المماليك من الأرناءوط وغيرهم، لأن رتبته فى الجيش كانت تلى رتبة طاهر باشا ، ولأنه كان محبوباً لدى العلماء والأهالى لما كان يبديه من العطف والحنان عليهم ، فحاز رضاهم بدفاعه ، وكاد يعلن نيابته عن الوالى لولا أن رأى مركزه لايقل خطراً على مركز طاهر :

لعدم قدرته على دفع مؤخر رواتب الجند، وعلى مقاومة خسرو باشا والمماليك معاً بمن كان تحت إمرته من الألبانيين . فرأى أنه من الحكمة والكياسة أن ينضم الى عثمان بك البرديسى هو ومن معه ، فتحالفا ونصَّبا ابراهيم بك الكبير نائباً عن الوالى العثمانى لكبر سنه ومكان احترامه عند المماليك ، وطردوا الانكشارية من مصر

اتحاده مع البرديسى على خسرو

وكان بمصر وقتئذ « أحمد باشا » والى المدينة وينبع ، ماراً بها : يستمد واليها ويتأهب للخروج الى منصبه ، ويؤلف حملة يكافح بها الوهابيين . فاشترك فى هذه الحوادث وفى مقتل طاهر باشا ، وجعل نفسه والياً على مصر ، أو على الأقل نائباً عن خسرو ريثما يحضر من دمياط . وكاد يتم له مراده ، لولا مناصبة محمد على وابراهيم بك له وعدم اعترافهما له بأى حق فى التدخل فى شئون البلاد . ولم يشعر بسلطته أحد لأنها لم تدم أكثر من يوم وليلة . ثم جاء التقليد من الاستانة بنيابته عن الوالى حتى يحضر ، ولكن بعد فوات الفرصة: فانهم طردوه و باقى الانكشارية من مصر ، فخرج الى الحجاز

تدخل والى ينبع

ثم أن البرديسى ومحمد على تعاونا على اخضاع المماليك الثائرين الذين كانوا يهددون العاصمة . وبعد أن تم لهما ذلك عملا على بت الأمر فى قضية خسرو ، فأعد لذلك عثمان بك البرديسى جيشاً برياً ، أما محمد على فانه جهز أسطولاً صغيراً ونزل به الى دمياط . وكان قد أخذ لذلك عدته ، وبعد مناوشات خفيفة أخذ خسرو سجيناً الى القاهرة

اخذ خسرو سجينا

ولما علم الباب العالى بسير الأحوال فى مصر استولى عليه الخوف والقلق ، واتضح له جلياً أن خسرو أصبح غير لائق لولاية مصر ، فأصدر عهداً بتولية « على باشا الجزائرى » . ونزل هذا الوالى الجديد بالاسكندرية فى ربيع الأول سنة ١٢١٨ هـ ( ٨ يولية سنة ١٨٠٣ م ) ، فرأى أنه لايمكنه مقاومة البرديسى ومحمد على بحد السيف ، فاتفق معهما ظاهراً ، على حين أنه كان يعمل فى الخفاء على هدم قوتهما وتكوين حزب وطنى مصرى يناهض المماليك . ولكن من سوء حظه أن بعض مراسلاته مع السيد

على باشا الجزائرى

« السادات » وقعت فى يد البرديسى ( وكان هذا ضيفاً عنده ) ، فاحتال البرديسى فى قتله ، وتمّ له ذلك فى شوال سنة ١٢١٨ ﻫ ( يناير سنة ١٨٠٤ م )

محمد الالفى

وفى الشهر التالى لمقتل على باشا الجزائرى ظهر رجل ذو سطوة وبأس وأعوان كثيرين وهو « محمد بك الألفى » الذى يُعدُّ من أكبر المماليك فى الديار المصرية . وذلك أنه رجع من انجلترة بعد أن مكث بها سنتين، وكان قد سافر اليها عام ١٨٠٢م مع الحملة الانجليزية . وسبب سفره أن الانجليز كانوا عاهدوا المماليك فى واقعة سنة ١٨٠١ م أن يأخذوا بناصرهم ، ليتخذوهم صنائع وأعواناً لهم بمصر اذا اقتضى الحال تدخلهم فى شئونها مرة أُخرى . فلما رجعت الحملة صار يتغنى قوادها بفروسية المماليك وشجاعتهم وخدماتهم ، فسهل على الأمة الانجليزية تعزيز هذا الاتفاق ، وعزموا على مساعدة الألفى وحماية المماليك . فلما وصل الى السواحل المصرية علم أنه لا يمكنه الوصول الى ضالته إلاّ بتوحيد قوى المماليك وجعلهم تحت حماية الانجليز ، وكان ذلك لا يتم له الاّ بالاتحاد مع البرديسى عدوه العنيد ، وابرهيم بك الكبير . فلما نزل عند بوقير قابله أعوانه بكل حفاوة واكرام . وإذ كان فى ريبة من أمر البرديسى اتخذ مسكنه فى دمياط ، وأصدر الأوامر الى أتباعه بالاجتماع فى ضيعته بالجيزة ، ومعهم كل ما يمكن جمعه من العدة والعدد ، على أن يلحق بهم بعد

اتحاد محمد على والبرديسى على الالفى

إلاّ أن وصوله الى الديار المصرية لم يرُق فى نظر كل من البرديسى ومحمد على : لأن الأول رأى أن من الخطل أن تكون نتيجة خلعه والبين وقتله ثالثاً أن يشاركه فى السلطة مناظر كان بعيداً عن الديار أثناء حربه معهم ، وفاته أنه لو اتحد مع الألفى كما اتحد مع ابرهيم بك لاستعادوا سلطة المماليك فى مصر ، لأن محمد على غريب عن البلاد وهو وحده لا يقوى على مقاومتهم . ولكن تدبير محمد على ودهاءه وسعوده كلها حالت دون اتفاقهم ، خصوصاً أنه رأى البرديسى فى قبضته ولا داعى قط لإشراك مملوك آخر فى حكم البلاد . فاتفق الاثنان على أن يتخلصا من محمد الألفى ، وفعلاً حاصر محمد على ومن كان معه من الألبانيين قصره فى الجيزة وأخذ أتباعه

فرار الالفى الى سورية

على غرة ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وفر الباقون . أما البرديسى فسار بجيشه ليفتك بالألفى فى طريقه الى القاهرة ، فقابله بالمنوفية هو وحاشيته . فأفلت الألفى من يده وهرب الى سورية ، أما من كان معه فقتل معظمهم وسلب كل ما معهم من المتاع والمال

تظاهر محمد على بالخضوع للدولة

اتبع محمد على اثناء كل هذه المكافحات التى ناصب بها السلطان ومحمد الألفى خطة أظهرت ما كان عليه من الدهاء والحكمة ، إذ أنه اختفى وراء الستار ، وأظهر البرديسى بمظهر العاصى فى وجه السلطان والمهاجم للألفى بك ، مع أن محمد على كان يساعده فى جباية الأموال اللازمة للجيش الذى كانا يستظهران به على من ينازعهما السلطة

تأليبه الاهالى على البرديسى

ولما هرب الألفى من الديار المصرية طلب محمد على من البرديسى رواتب الجند وأنذره أنه اذا تأخر اضطر الى تركه وحيداً وساعد الترك عليه وانضم اليهم . فلم يسع البرديسى إلاّ تلبية طلبه ، وبذل كل جهده فى جباية ما يلزم من المال بالقوة من التجار ، فأثار غضب الأهالى وهيّجهم ، ولاسيما أن ذلك أعقب ضرائب فادحة جمعتها الحكومة واستعمل الجباة فى استخراجها العنف والشدة معهم ، اذ كانوا يضربون من يمتنع منهم ، وقد يقتلونه

استمالة قلوبهم

فانتهز محمد على هذه الفرصة وانسلخ من البرديسى ، وأظهر استياءه لجمع هذه الضرائب الفادحة ، ووعد الأهالى بالأخذ بناصر الذين يعارضون فى جمعها ، فمال اليه الناس ، وأصبح محبوباً عند عامة أهل القاهرة وأشرافها . ولما وثق من أن الرأى العام يؤيّده ، وأن هذه أحسن فرصة للقضاء على سلطة البرديسى والتخلص منه ومن أتباعه قام فى فجر يوم ٣٠ ذى القعدة سنة ١٢١٨ﻫ ( ١٢ مارس سنة ١٨٠٤ م ) هو وجميع من التف حوله من الجند وحاصروا قصر البرديسى ( الذى كان محصناً بالمدافع ) فتمكن محمد على من رشو رجال مدفعية البرديسى فحوّلوا مدافعهم على سيّدهم . إلاّ أن البرديسى وابراهيم بك الكبير اقتحما الطريق وفرّا هاربين الى بلاد سورية

مهاجمة البرديسى

فرار البرديسى وابراهيم بك

فصفا الجو عندئذ لمحمد على، وأصبح صاحب الكلمة النافذة فى القاهرة . إلاّ أنه رأى الفرصة لم تحن بعد للقبض على زمام الأمور فى الديار المصرية للأسباب الآتية:

العقبات الباقية

(١) أنه رأى لا بد من أن عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى سيتفقان على مناوأته ، وهو لا يقوى على مكافحتهما متحدين

(٢) أن أتباعه من الجند لم تكن إلاّ عصابة صغيرة من الألبانيين لا تقوى على منازعة جميع المماليك

(٣) انه كان يُعتبر فى هذه الفترى خارجاً على الدولة لاشتراكه فى خلع خسرو ، وأن الدولة ربما أرسلت جيشاً لقهره والضرب على يده

فأراد أن يتخلص من هذا المأزق الحرج باذاعته أنه يريد تحرير القطر المصرى من جور المماليك وعسفهم ، حتى يكون قد خدم الدولة خدمة جليلة تمحو ما مضى من سيئاته وعصيانه . ومهّد السبيل لذلك أنهُ لما علم أن الباب العالى عيّن والياً جديداً بدلاً من الجزائرى* قام فى الحال وأطلق خسرو باشا ( وكان سجيناً ) ليتولى الأمور حتى يصل الوالى الجديد . ولكن الجند لم يرضوا بأى حال إعادةَ تنصيبه والياً ، فاضطر محمد على بعد اطلاقه بثلاثة أيام أن يسفره الى رشيد ، ومن ثم أبحر الى القسطنطينية بعد أن أظهر له عجزه عن حمايته

خورشيد باشا

وبعد هذا الحادث بزمن وجيز وصل « أحمد خورشيد باشا » الوالى الجديد ، واعترف بتوليته كلُّ الجيش : من ترك وألبان ، وأذعنوا له بالطاعة . ولكنه أظهر بعد فترة من الزمن انهُ والٍ ضعيف الارادة غير كفء لهذا المنصب ، وعجز كسابقيهِ عن دفع مرتب الجند الأتراك ، فرجعوا الى السلب والنهب . أما محمد على فاتبع الطريق الأقصد ، ومنع اتباعه من الألبانيين من مصادرة الأهالى ، بل كان بالعكس يجتهد فى حمايتهم من ظلم الأتراك وعسفهم . ولما رأى الأهالى ما ارتكبه الجنود ثاروا على الوالى والتجئوا الى محمد على ليوقف هذه المظالم ، فأمنّهم على حياتهم وأموالهم بشرط

ضعفه وتمرد الجند

التجاء الاهالى الى محمد على

* ويسمى على باشا الطرابلسى أيضا نسبة الى طرابلس الغرب

أن يدفعوا له من المال ما يقوم بحاجة أتباعه من الألبانيين . وفى هذه الأثناء جاء الى خورشيد باشا الوالى أمر سلطانى باستدعاء الألبانيين وقائدهم محمد على ، فتأهب هو وجنده للرحيل من الديار المصرية . فرجاه كبار الأمة وعلماؤها فى البقاء بمصر خوفاً من تسلط الأتراك وبطشهم ، فقبل ذلك منهم وأبى الرجوع . وفى هذه الأثناء جمعت المماليك جموعها على مقربة من المنية ، للإغارة على القاهرة ، فولى خورشيد محمد على قائداً على الجيش الذى أعده لمحاربة المماليك ، فحاربهم فى عدة وقائع لم تكن فاصلة . وفى خلال هذه الحروب وصل جيش من الدلاة من قبل الباب العالى أكثر همجية وأبشع حالاً من الجيش الذى فى داخل البلاد ليحل محل الألبانيين فلما علم محمد على بذلك ظن أنهُ وقع بين نارين ، فقفل راجعاً الى القاهرة وواجه الجيش الجديد جهة « البساتين » و « دير الطين » وأخبرهم أنهُ لم يحضر للخلاف ولا عصيان ، ولكن لطلب النفقة والمؤونة ، وأنهُ يرمى معهم الى غرض واحد وهو تأييد الوالى والسلطان وابادة المماليك . فانخدعوا بقوله ، وأفسحوا له الطريق ، فدخل القاهرة دخول المنتصر بعد أن اتفق مع الدلاة وأجزل لهم العطاء والهدايا فأصبحوا معهُ على الوالى . وسمح لهم بالذهاب فى طول البلاد وعرضها ، يجمعون الضرائب ويأكلونها .

بقاؤه بمصر رغم ارادة الدولة

اتفاقه مع الدلاة

ولما عاثت جنود الأكراد ( الدلاة ) فى الأرض فساداً قام الأهالى فى وجه خورشيد ، وطلبوا من محمد على أن يحميهم ويكون الوالى عليهم ، فقبل ذلك وشنّ الغارة على الوالى . فاعتصم هذا بالقلعة ، ولما لم يجد له وسيلة يتخلص بها من محمد على اجتهد فى الحصول على عهد من الباب العالى بتنصيب محمد على والياً على جدة . فلم يلتفت محمد على لهذا التنصيب ، وحاصر خورشيد باشا فى القلعة ، وأطلق عليها المدافع اطلاقاً ذريعاً . وذلك فى صفر سنة ١٢٢٠ هـ ( مايو سنة ١٨٠٥ م )

محاصرته خورشيد باشا

وحينئذ اجتمع علماء البلد ووجهاؤها وأقاموا محمد على والياً على مصر ، فقام اليه الشيخ الشرقاوى و« السيد عُمَر مكْرَم » نقيب الأشراف وألبساه «الكرك» ايذاناً

الاهالى يختارون محمد على واليا

بالولاية . وكان فى يد السيد عمر أمر العامة فى جميع أنحاء مصر : لايعصون له أمراً . فأيد أمر محمد على بنفوذه وجاهه اكثر من أربع سنين تأييداً لم يقم به أحد مثله . وأرسل العلماء رسولاً الى الباب العالى ليلتمس العفو عما فرط منهم فى حق الوالى ويرجو اعتماد تنصيب محمد على خلفًا له . فعلم السلطان من ذلك مقدار ميل الأهلين لمحمد على ، وأيقن أنهُ أصبح صاحب الكلمة العليا فى مصر ، فوافق على تنصيبه والياً عليها فى ربيع الثانى سنة ١٢٢٠ هـ ( يولية سنة ١٨٠٥ م ) . ولما علم خورشيد باشا بهذا النبأ سلّم له القلعة وتخلى عنها

قبول الباب العالى ذلك

## ﴿ توطيد سلطة محمد على فى مصر ﴾

[illegible]

كانت لاتزال سلطة محمد على بعد يوليه سنة ١٨٠٥ مزعزعة الأركان : لأن [illegible] خلوه والياً كان بالرغم من الباب العالى ، فكان أولياء الأمور فى القسطنطينية يتحيّنون أول فرصة للتخلص منهُ ، فانهُ وإن كان أدار الشؤون المصرية بالضبط [illegible] وقام بها خير قيام ، لايبعد أن يجاهر يوماً ما بالعصيان فى وجه الباب العالى [illegible] قبل . هذا الى أن ما حاق بالمماليك من المصائب والنكبات المتتابعة جعلهم [illegible] محمد على عدوّهم العنيد . ثم دهمه أمر لم يكن فى الحسبان وهو ورود [illegible] والسبب فيها يرجع الى تحالف فرنسا مع الترك بعد توليته [illegible] ذلك فى حرب عوان مع انجلترة ، فأرسلت الأخيرة [illegible] اتفق مع حليفتها الروسيا مؤملة أن ترجع البلاد المصرية [illegible] على آمال الترك فيها ( وأرسلت أيضاً أسطولها [illegible] هذه الأخطار التى

خورشيد باشا وبعد [illegible] واعترف بتولي[illegible] فترة من الزمن [illegible] دفع مرتب الجند الأتراك [illegible] الأقصد ، ومنع اتباعه من الأ[illegible] باشا وتخله [illegible] الباب [illegible] فى حمايتهم من ظلم الأتراك وعسفهم . [illegible] الوالى والتجئوا الى محمد على ليوقف هذه المظالم [illegible] الحالة [illegible]

ضعفه وتمرد الجند

التجاء الاهالى الى محمد على

* ويسمى على باشا الطرابلسى أيضا نسبة الى طرابلس [illegible] ولاية محمد .

أول خطر يحدق به ، لأن جميع ما لديه من الجند كانوا مشاة لايقوَوْن على مكافحة فرسان المماليك ، خصوصاً فى الخلوات حيث يمكنهم الكرّ والفرّ بكل نظام وبدون أدنى خطر ، فدبر لهم مكيدة أنفذها بعض الموالين له : وذلك أنهم اتفقوا سراً مع رؤساء المماليك على أن يفتحوا لهم أبواب القاهرة فى يوم الاحتفال بفتح الخليج : أى فى الوقت الذى يكون فيه محمد على وجميع ضباطه مشغولين لاهين فى الاحتفال خارج المدينة على شرط أن يدفعوا لهم مالاً فى مقابل هذه الخدمة . فاغتر المماليك ووقعوا فى هذه الاحبولة . فلما حل اليوم المعهود دخلوا المدينة من باب الفتوح ، فلم يجدوا فى حراسته الا ثلة ضئيلة من الفلاحين تغلبوا عليها بدون عناء . ثم ساروا قاصدين باب زَويلة، فلما صاروا فى قلب المدينة انصبت عليهم النيران من جانبى الشارع من النوافذ وكان قد استعد لذلك محمد على ، فلما تنبهوا لغلطتهم التجأ أكثرهم الى جامع برقوق، وسلّم معظمهم عند ما أمّنهم الوالى على حياتهم . الاّ أنه رغم ذلك ذبح معظمهم فى جمادى الثانية سنة ١٢٢٠ هـ ( أغسطس سنة ١٨٠٥ م )

الصعوبة المالية

ثم أراد محمد على أن يجمع مالاً لإعطاء الجند مرتبهم مخافة أن يُعزل كسابقيه ، وأراد أيضاً ان يجزل العطايا الى أمير البحر التركى ( وكان راسياً بأسطوله فى مياه الاسكندرية ، يحمل الأوامر بمساعدة المماليك على محمد على ) . ولما رأى أنه من المحال أن يضرب الضرائب على الفلاحين ، ولاسيما أن جميع الأراضى كانت لاتزال فى قبضة المماليك ، جمع بعض المال من أقباط مدينة القاهرة ، ووجـد بفحص دفاتر الحساب أن الجُباة منهم اختلسوا مالايقل عن ٤٨٠٠ كيس ، فأجبرهم على دفعها، وبذلك أجزل العطايا الى أمير البحر التركى وأرجعه من حيث أتى ، وكان ذلك فى

صدور عهد بنقله الى سلونيك

[illegible] سنة ١٨٠٥ م . ولم يمر على هذا الحادث الأ زمن يسير حتى عاد أمير البحر [illegible] مصر، باشا » والى سلونيك ليكون والياً على مصر، ولينتقل [illegible] باشا . فتظاهر محمد على باظهار الطاعة لأوامر [illegible] يغادر مصر توّا ، لأن الجنود أبوا عليه النقلة،

بالولاية . وكان فى يد السيد عمر أمر العامة فى جميع أنحاء مصر : لايعصون له أمراً . فأيد أمر محمد على بنفوذه وجاهه اكثر من أربع سنين تأييداً لم يقم به أحد مثله . وأرسل العلماء رسولاً الى الباب العالى ليلتمس العفو عما فرط منهم فى حق الوالى ويرجو اعتماد تنصيب محمد على خلفاً له . فعلم السلطان من ذلك مقدار ميل الأهلين لمحمد على، وأيقن أنهُ أصبح صاحب الكلمة العليا فى مصر ، فوافق على تنصيبه والياً عليها فى ربيع الثانى سنة ١٢٢٠ هـ ( يولية سنة ١٨٠٥ م ) . ولما علم خورشيد باشا بهذا النبأ سلّم له القلعة وتخلى عنها

قبول الباب العالى ذلك

## ﴿ توطيد سلطة محمد على فى مصر ﴾

الصعوبات الباقية

كانت لا تزال سلطة محمد على بعد يوليه سنة ١٨٠٥ مزعزعة الأركان : لأن اختياره والياً كان بالرغم من الباب العالى ، فكان أولياء الأمور فى القسطنطينية يتحيّنون أول فرصة للتخلص منهُ ، فانهُ وإن كان أدار الشؤون المصرية بالضبط والمهارة ، وقام بها خير قيام ، لايبعد أن يجاهر يوماً ما بالعصيان فى وجه الباب العالى كما فعل من قبل . هذا الى أن ما حاق بالمماليك من المصائب والنكبات المتتابعة جعلهم يتحدون معاً على محمد على عدوّهم العنيد . ثم دهمه أمر لم يكن فى الحسبان وهو ورود حملة انجليزية لغزو مصر . والسبب فيها يرجع الى تحالف فرنسا مع الترك بعد توليته بعام ونصف ، وكانت فرنسا إذ ذاك فى حرب عوان مع انجلترة ، فأرسلت الأخيرة حملة لتغزو البلاد المصرية باتفاق مع حليفتها الروسيامؤملة أن ترجع البلاد المصرية الى حكم المماليك على الأقل وتقضى على آمال الترك فيها ( وأرسلت أيضاً أسطولها ليقتحم الدردنيل ) . فساعد الحظ محمد على باشا وتخلص من كل هذه الأخطار التى كانت تحدق به ، الواحد بعد الآخر : فأرضى الباب العالى ، وقضى على المماليك وسلطتهم ، وتغلب بمعونة الأهالى وحامية رشيد على الحملة الانجليزية

ابتداء التغلب على المماليك

ذكرنا سابقاً أن المماليك كانوا يهددون القاهرة فى أول ولاية محمد على ، وكان هذا

أول خطر يحدق به ، لأن جميع ما لديه من الجند كانوا مشاة لايقوَون على مكافحة فرسان المماليك ، خصوصاً فى الخلوات حيث يمكنهم الكرّ والفرّ بكل نظام وبدون أدنى خطر ، فدبر لهم مكيدة أنفذها بعض الموالين له : وذلك أنهم اتفقوا سراً مع رؤساء المماليك على أن يفتحوا لهم أبواب القاهرة فى يوم الاحتفال بفتح الخليج : أى فى الوقت الذى يكون فيه محمد على وجميع ضباطه مشغولين لاهين فى الاحتفال خارج المدينة على شرط أن يدفعوا لهم مالاً فى مقابل هذه الخدمة . فاغتر المماليك ووقعوا فى هذه الاحبولة . فلما حل اليوم المعهود دخلوا المدينة من باب الفتوح ، فلم يجدوا فى حراسته الا ثلة ضئيلة من الفلاحين تغلبوا عليها بدون عناء . ثم ساروا قاصدين باب زَوِيلة، فلما صاروا فى قلب المدينة انصبت عليهم النيران من جانبى الشارع من النوافذ وكان قد استعد لذلك محمد على ، فلما تنبهوا لغلطتهم التجأ أكثرهم الى جامع برقوق ، وسلّم معظمهم عند ما أمّنهم الوالى على حياتهم . الاّ أنه رغم ذلك ذبح معظمهم فى جمادى الثانية سنة ١٢٢٠ هـ ( أغسطس سنة ١٨٠٥ م )

الصعوبة المالية

ثم أراد محمد على أن يجمع مالاً لإعطاء الجند مرتبهم مخافة أن يُعزل كسابقيه ، وأراد أيضاً ان يجزل العطايا الى أمير البحر التركى ( وكان راسياً بأسطوله فى مياه الاسكندرية ، يحمل الأوامر بمساعدة المماليك على محمد على ) . ولما رأى أنه من المحال أن يضرب الضرائب على الفلاحين ، ولاسيما أن جميع الأراضى كانت لاتزال فى قبضة المماليك ، جمع بعض المال من أقباط مدينة القاهرة ، ووجد بفحص دفاتر الحساب أن الجُباة منهم اختلسوا مالايقل عن ٤٨٠٠ كيس ، فأجبرهم على دفعها، وبذلك أجزل العطايا الى أمير البحر التركى وأرجعه من حيث أتى ، وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٨٠٥ م . ولم يمر على هذا الحادث الأزمن يسير حتى عاد أمير البحر التركى نفسه يصحبه « موسى باشا » والى سلونيك ليكون والياً على مصر ، ولينتقل محمد على منه ليتولى منصب موسى باشا . فتظاهر محمد على بإظهار الطاعة لأوامر الباب العالى، ثم ادّعى أنه يتعذر عليه أن يغادر مصر توّاً ، لأن الجنود أبوا عليه النقلة،

صدور عهد بنقله الى سلونيك

ولا حيلة له فى دفعهم ، فإن فئة كبيرة من الضباط عاهدوا أنفسهم وأغلظوا الايمان والمواثيق ألاّ يخضعوا لأحد غيره ، وأن يعاضدوه ويأخذوا بناصره ولو على السلطان

تظلم العلماء والاشراف

وقد تظلّم العلماء والأشراف لدى الباب العالى والتمسوا ابقاء محمد على . ومن حسن حظه أن نشبت فى هذه الفترة نار حرب بين الروس والترك ، فاضطر الترك بطبيعة الحال الى استدعاء أسطولهم الى المياه التركية ، فأبحر الأسطول بعد أن أجزل محمد على العطاء لأمير البحر وموسى باشا معاً . وأخيراً وصل الى مصر فى ٢٤ شعبان سنة ١٢٢١ هـ ( نوفمبر سنة ١٨٠٦ م ) عهد بتأييد محمد على فى منصب والى مصر

تأييده فى الولاية

اتحاد البرديسى والالفى عليه

وفى أثناء هذه الحوادث جمع الألفى بك والبرديسى شمَث جيشهما ، وأوثقا عرى التحالف بينهما وبين البدو ، وشنا الغارة على محمد على فى بلاد الوجه البحرى . وشجعهم على ذلك الأسطول التركى الذى كان راسياً فى المياه المصرية . فاشتبك الألفى مع فرقة أرسلها عليه محمد على ، فانهزمت عند «النجيلة» ، ثم انضم الألفى بعد انتصاره الى البرديسى وحاصرا دمنهور ، فدافع الأهالى عنها دفاعاً صادقاً ، وأظهروا شدة وبسالة لم تكن فى الحسبان ، على حين أن الألفى والبرديسى كانا يتنازعان السيادة والأفضلية . وكان محمد على يستمد الواقعة الفاصلة بينه وبين المماليك بعد ما تخلص من الأسطول التركى كما تقدم ، فساعدته السعادة وحسن الجد بموت عدويه العظيمين : فمات البرديسى بالحمى فى سنة ١٢٢١ هـ ( اكتوبر سنة ١٨٠٦ م ) ، ومات الألفى فى ذى القعدة سنة ١٢٢١ هـ ( يناير سنة ١٨٠٧ م ) وبموتهما تفرّق اتباعهما أيدى سبأ ، وفرّ معظمهم الى الوجه القبلى

موت البرديسى والالفى

الحملة الانجليزية

ثم وصلت الحملة الانجليزية التى اسلفنا الذكر عن سبب مجيئها الى الديار المصرية باختصار . وكان الغرض من هذه الحملة تأييد سلطة المماليك ونزع البلاد من يد الباب العالى ، ولكن كانت نتيجتها الفشل التام . والسبب فى ذلك يرجع الى غلو الانجليز فى تقدير ما كان لدى المماليك من الجند

وصلت هذه الحملة فى أول المحرم سنة ١٢٢٢ هـ ( مارس سنة ١٨٠٧ م ) واستولت

على الاسكندرية . ثم سيّر قائدها « فريزَر » قوة لتحتل رشيد ، فتغلّبت عليها أولاً لضعف حاميتها ، إلاّ أن الحامية عادت وأخذتهم على غِرّة وبددت شملهم . ولما علم محمد على بما جرى فى الاسكندرية رجع من مطاردة المماليك فى الصعيد الى القاهرة وجهز جيشاً سيّره الى رشيد ، فالتقى هو وأهالى البلاد من رشيد ودمنهور و بعض أهل البحيرة مع الانجليز عند قرية « الحماد » ( جنوبى رشيد ) ، وهزموهم شرَّ هزيمة . ثم ذهب محمد على الى جهـة الاسكندرية وأراد أن يحاصرها ، ولكن ولاة الأمور الانجليز كانوا أرسلوا الى قائد الحملة بالرجوع ، فأخلى الاسكندرية بعد أن عقد شروط الصلح مع الوالى فى دمنهور ، وتركت الحملة البلاد المصرية فى رجب سنة ١٢٢٢ هـ ( سبتمبر سنة ١٨٠٧م ) . أما العمارة البحرية التى أرسلتها الأمة الانجليزية لاختراق الدردنيل فانها حُطمتْ ولم ينج منها الاّ بضع سفن

انهزامها عند الحماد

وكان من نتائج هذه الحملة رضاء الباب العالى عن محمد على . فمنحه السلطان خلعة وسيف شرف ، وأمر بإرجاع ابنه ابراهيم اليه ( وكان معتقلاً فى القسطنطينية ) وقد صار لهذه الإنعامات السلطانية أثر عظيم فى توطيد سلطته إذ كان فى هذا الوقت فى وجل شديد من جنده ، حتى أنه استعد للاعتصام بالقلعة اذا تألبوا عليه

رضاء الباب العالى عن محمد على

## ﴿ القضاء على المماليك ﴾

لما وثق الباب العالى من محمد على أراد أن يستخدمه فى اصلاح شؤون الدولة ، فأول أمر كلفه إياه اخضاع طائفة الوهابيين الذين كانوا يتدخلون فى أمر الحج واحتلوا الحرمين الشريفين وسلبوهما . ولهذه الطائفة مذهب خاص سنتناول الكلام عليه فيما بعد . فجاءت الأوامر الى محمد على باخضاع هؤلاء القوم، فاضطرَّ أن يُعِدَّ جيشاً أعظم عدداً وأكثر تدرباً من الجيش الذى عنده . وأن يكون له أسطول لنقل الجنود فى البحر الأحمر ، فوجد أن لامندوحة من زيادة الضرائب الى درجة أقصت عنه كل من كان ملتفّاً حوله . ولقد كان مركزه إذ ذاك غاية فى الخطر ، فرأى أن لا يتحرك

الخوف من المماليك

بجيشه الى محاربة الوهابيين قبل أن يقضى على البقية الباقية من المماليك ، وخاصة بعد أن ظهر له أنهم جميعاً مزمعون على قتله . وكان قد رأى أولاً أن يتفق معهم ، وأرسل لهذا الغرض حسن باشا الأرناءوطى يبلغهم أنه يعطيهم كل ضياعهم ، فأبوا ذلك ، ففكر فى قهرهم بحدّ السيف ، فحاربهم فى موقعة عند أسيوط انهزم فيها جيشهُ .

إلاّ أن المماليك انتكث فتلهم وتفرقوا ثانية فى طول البلاد وعرضها ، فى أواخر رجب سنة ١٢٢٥ هـ ( أغسطس سنة ١٨١٠م ) ، ولم تمضِ مدة يسيرة حتى خُدع شاهين بك ( رئيس المماليك بعد موت الألفى ) واحتال لذلك محمد على بمنحه كل الأراضى التى على ضفة النيل اليسرى من الجيزة الى بنى سويف وفيها الفيوم . فخضع كل المماليك اقتداء به ، ووقّعوا على شروط الصلح فى سلخ عام ١٨١٠ م ، ورجعوا الى القاهرة واتخذوا مساكنهم فى قصورهم كما كانوا من قبل

استرضاء المماليك فى الظاهر

وكان شغل محمد على الشاغل فى هذه الأثناء تخليص الحرمين الشريفين من أيدى الوهابيين . إلاّ أنه لم يجرُؤ على تسيير جندى واحد الى بلاد العرب ما دامت المماليك تهدد ولايته وتناصبه العداء . وكان على يقين من وثوبهم به فى أول فرصة تغيب فيها الأتراك عن البلاد ، وقد تمثل له جلياً مبلغ تحفزهم لقتله غيلة عند ما وافته الأخبار وهو فى مدينــة السويس مهتماً بشؤون الحملة الى بلاد العرب من « محمد بك لاظ الكخية » يحذّره من المماليك ، وكانوا يريدون اغتياله وهو راجع الى القاهرة . فأخذ الحيطة ، وبدلاً من مكثه فى السويس الى اليوم الذى ضربه لرجوعه تركها فى غلَس الظلام على ظهر نجيب سريع العدو غير معلن أحداً وجهته ، ووصل القاهرة فى فجر اليوم الثانى يصحبه أربعة من الخدم . فهذه المؤامرة وغيرها جملته يفكر فى القضاء عليهم بأية وسيلة قبل أن يسبقوه الى ذلك

سبب الفتك بهم

وفى شهر صفر سنة ١٢٢٦ هـ ( فبراير سنة ١٨١١م ) جمع محمد على جيشاً مؤلفاً من ٤٠٠٠ جندى فى القاهرة بقيادة « طوسون باشا » ثانى أولاده ، لغزو بلاد العرب وإخضاع الوهابيين . ورأى أنه لا بد قبل مسير الحملة من الديار من الاحتفال

مذبحة المماليك بالقلعة



محمد على فى القلعة وقت مذبحة المماليك

(رسم على افندى يوسف) — عن صورة بدار الكتب السلطانية

بها وتسليم وسام الشرف السلطانى له . فدعا فى اليوم المضروب جميع ضباط الجيش والأعيان وعدداً عظيماً من الجند . ثم دعا جميع المماليك ورؤسائهم ، وأعدّ لهم وليمة فاخرة تذكاراً لهذا اليوم المشهود ، فاجتمع الجميع فى القلعة فى يوم الجمعة خامس صفر ( أول مارس ) ، وكان عددُ من حضر من المماليك يقرب من الخمسمائة

وكان الغرض الحقيق من دعوة المماليك التخلص من شرهم ودسائسهم ، فأسرَّ محمد على بذلك الى « حسن باشا » و « صالح قوج » الأرناءوطيين فقط ، وفى صبيحة هذا اليوم أسرَّ به الى « ابراهيم أغا » ( حارس الباب ) . فنُظّم الموكب فى القلعة على الترتيب الآتى :

ابتدأ الموكب بعساكر الدلاة ، ثم تبعهم العساكر الانكشارية ، ثم الجنود الألبانية بقيادة صالح قوج ، وتلاهم المماليك ، ففرقة من الجنود النظامية . فلما صار الموكب وانفصل الدلاة ومَن خلفهم من الانكشارية عند باب العزب ، أمر صالح قوج باغلاق الباب وأشار الى طائفته بالمقصود ، فأعملوا السيف فى رقاب المماليك ، وقد انحصروا جميعهم فى المضيق المنحدر ، وهو الحجر المقطوع فى أعلى باب العزب ( بين الباب الأسفل والباب الأعلى ) الذى يتوصل منه الى رحبة سوق القلعة . وكان قد جهز محمد على عدداً من الجند على الحجر والأسوار ، فلما بدئ بالضرب من أسفل أراد المماليك التقهقر ، فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً ، وذلك لوجود خيلهم فى مضيق صغير جداً لا يسع جوادين جنباً الى جنب ، وقد أعمل جنود محمد على فيهم السيف قتلاً وفتكاً حتى فنى كل من كان منهم فى القلعة

اضطراب القاهرة

ولما قُتل شاهين بك كبير المماليك ، وعلم الناس بهذا الخبر ، أغلقوا الحوانيت ، وصارت العساكر بعد ذلك تنهب وتسلب فى جميع أنحاء العاصمة ، بدعوة البحث عمن هرب من المماليك للفتك بهم . ولما علم محمد على بما ارتكبه الجنود من السلب والنهب ركب جواده ونزل بشخصه يمنع العسكر من ارتكاب هذه الجرائم . وقد حذا

وحِيل محمد على

حذوه ابنه طوسون باشا فى إيقاف الجنود عند حدها . ويقال ان محمد على كان

فى شدة الوجل خوفاً من خيبة تدبيره ، وكان قد أعد الخيل للهرب اذا لم يفلح
وفى اثناء حدوث هذه الحوادث فى القاهرة أصدر فى الوقت نفسه أوامره لكل حكام المديريات بقتل من يعثرون عليه من المماليك ، فكان مجموع من قُتل منهم بالقاهرة والمديريات يزيد على الألف . وهكذا انقرضت هذه الطائفة التى عاثت فى الأرض فساداً اكثر من ستة قرون أذاقت فى خلالها المصريين كل صنوف الذل والعذاب

## ٢ — ﴿ الحروب الوهابية فى بلاد العرب ﴾

منشأ الوهابيين

من اعظم الثورات المشهورة ، واكبر الفتن الدينية التى شاهدتها بلاد العرب من عهد القرامطة، الثورة التى اضرم نارها الوهابيون . وذلك أنهم أثبتوا فى حماستهم العسكرية وشجاعتهم البدوية صفات العرب القديمة وتمسكهم بالدين . ومؤسس هذه النهضة رجل اسمه « عبد الوهاب » من بنى تميم بنجد ، وقد أُطلق على ما كان متمسكاً به من العقيدة « المذهب الوهابى »

عبد الوهاب

وُلد عبد الوهاب صاحب هذا المذهب عام ١١٠٨ هـ ( ١٦٩٦ م ) فى قرية تسمى « العُيَيْنَة » من اقليم « العارِض » . وقد جاور فى أثناء شبابه بمكة والمدينة ومعظم مدن الشرق المشهورة ، وخاصة البصرة . ولما رأى فى أثناء سياحاته العدة أن الدين الحقيق داخَلَهُ الفساد ، وتسلطت عليه البدع والمنكرات ، عزم على إصلاح ما أفسده المفسدون . وكانت قواعد مذهبه وسياسته على غاية من الايجاز فى الإصلاح الاسلامى

المذهب الوهابى

وكان الوهابيون فى عقيدتهم ومذهبهم على طريق أهل السنة والجماعة . والأساس الأصلى لمذهبهم هو توحيد الله ، واعتقاد أن النبى صلى الله عليه وسلم انسان أدّى ما يجب عليه من إبلاغ الرسالة ، ورفض جميع تفاسير القرآن التى لم تأت من طريق السنة . ومن معتقداتهم أن الناس عند الله سواء ، وكلهم عباده ، اكرمُهم عنده أتقاهم

وأصلحهم فى أعماله ، وبنوا على هذا الاعتقاد أن الاستغاثة بالذين توفوا من الأولياء الصلحاء والأنبياء إثمٌ عند الله ، وبدعة حدثت فى الدين يجب استئصالها وازالة كل أثر يقويها، كالتناصيب التى على القبور والقباب وما أشبهها، فأزالوها وحرّموا زيارتها والتوجه اليها والاستغاثة عندها . ويرون ان الحلف بسيدنا محمد صلى الله عليهِ وسلم جريمة كبرى ، ويلعنون مَنْ يكثر من الخضوع للموتى لعناً مؤبداً ، ولا يلفظون بلفظ « سيد » للنبى صلى الله عليهِ وسلم فى صلاتهم

أما آدابهم فهى على نقاء وصفاء ، إذ يحرمون جميع الموانع المسكرة وكل المواد المخدرة، ويحرمون جميع أنواع الفجور والفسق والعدول عن الحق والانصاف، والعمل بالحيل والخداع ، والاغتصاب والمقامرة . أما فى شهامة التعصب الحقيقى للدين فإنهم يغارون على كل صغيرة مخلة بالدين الحق . ووجّهوا أيضاً جل قوتهم الى تحريم الملابس الحريرية ، والترف فى العيش ، وحلق الرأس ، والبكاء والنحيب على الميت

محمد بن سعود

ولما أراد عبد الوهاب نشر مذهبه قام فى وجهه أناس كثيرون واضطهدوه . ففرّ هارباً الى « الدرعية » ، وهى احدى مدن نجد وعلى بُعد ٤٠٠ ميل من شرق المدينة . فجاء « محمد بن سعود » حاكمها ، ومال الى مذهبه فاعتنقه وعمل على نشره . وكان غرضه من ذلك أن يمدّ سلطانه على البلاد العربية ، فاتخذ ذلك وسيلة الى مطامعه الشخصية ، فامتد سلطانه وسلطان ابنه « عبد العزيز » على جميع بلاد نجد من سنة ١١٥٩ الى ١٢٠٦ هـ ( ١٧٤٦ — ١٧٩١ م ) . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن

وفاة عبد الوهاب

عبد الوهاب عاش حتى رأى مذهبه منتشراً فى طول البلاد وعرضها ، وتوفى سنة ١٢٠١ هـ ( ١٧٨٧ م ) بعد أن بلغ من العمر الخامسة والتسعين تقريباً ، تاركاً ثمانية عشر ولداً من عشرين زوجة

ولقد أقلق بال شريف مكة انتشارُ مذهب عبد الوهاب وازدياد نفوذ عبد العزيز ابن سعود فى البلاد العربية، فجرّد فى عام ١٢١٣ هـ ( ١٧٩٨ م ) حملة على عبد العزيز كان نصيبها الفشل

عبد العزيز ابن سعود

ولما أمن عبد العزيز جانب شريف مكة (لأنه كان لا يقوى على مقاومته) وجَّه جُل عنايته الى نشر مذهب الوهابية وتوسيع نطاق ملكه فى وادى الفرات ودجلة . فلم يوفَّق الى ذلك لأن والى بغداد هزمه هزيمة منكرة ، وان كان لم يقتف أثره فى أواسط بلاد العرب خوفاً من هلاك جيشه فى وسط الصحراء . ومن ذلك الحين لم يجرؤ عبد العزيز على محاربة والى بغداد . الأّ أنهُ قام فى عام ١٢١٦ هـ ( ١٨٠١ م ) وهاجم « كربلاء » وقتل رجالها واستحيا نساءها وانتهك حرمة ضريح الحسين وسلب أشياء كثيرة . وفى العام التالى دخل مكة بدون معارضة من شريفها « غالب » ، وكان قد تركها وانحاز الى جُدة

فتحه مكة

وفى نفس العام قام أحد المتعصبين من الأعجام واغتال عبد العزيز وهو يصلى، انتقاماً لما ارتكبه من الفظائع فى كربلاء ، فقام بأعباء الملك بعده ابنه « سعود الثانى » وهو أعظم رجال هذه الأسرة ، إذ وصلت فى عصره مملكة الوهابيين الى أوج عزها ومجدها . وقد دخل فى السنة التى تولى فيها الضريح النبوى ، ونهب كل ما فيه من الكنوز ، ومن هذا العهد أصبحت بلاد العرب كلها تحت سلطانه . ثم ابتدأ من عام ١٢٢١ هـ ( ١٨٠٦ م ) يتشدد فى جمع الضرائب ، حتى كره الناس حجَّ بيت الله الحرام . ومن غلوه فى مذهبه أنه أغلق أبواب جميع القهوات وحرَّم شرب الدخان ولبس الحرير وغيره مما يُتزيَّن به

سعود الثانى

مهمة محمد على

ومما سبق يُعلم ان ما كُلفه محمد على من قبل الباب العالى كان فى الحقيقة فتح بلاد العرب للدولة من جديد ، وكان بقاؤه على ولاية مصر متوقفاً على نجاحه فى اخضاع الوهابيين

## حملة محمد على على الوهابيين

اعداد الاسطول

قبل أن يعدّ محمد على حملته على بلاد العرب كاتبَ شريف مكة، ولما وثق من موالاته له ، وعلم أنه لم يَنْقَدْ للوهابيين الاّ كرهاً ، جهّز جيشاً عظيماً يبلغ ٨٠٠٠ من الألبانيين وأرسله بطريق البحر الأحمر فى أسطول أعده لهذا الغرض ، كان يصنع

سفنه قطعاً مفككة بالقاهرة ، ثم يرسلها الى السويس على ظهور الإبل لتركّب هناك
وقد أفاد هذا الأسطول فائدة عظيمة إذ به يمكنه أن يُسيطر على جميع ثغور العرب
ويصبح فى قبضته كل التجارة وطرق الحج الى بيت الله الحرام

وصول طوسون الى ينبع

نزلت هذه الحملة فى ثغر « ينبُع » بقيادة ابنه طوسون ، فلم يلقَ بها أدنى مقاومة
لأن شريف مكة « غالباً » سلّمها طوع ارادته ، ومن ثم سار نحو المدينة . وكان
العدو قد كمن له ، فتغلب فى طريقه بعد مناوشات خفيفة على قريتى « بدر »

انهزامه عند الجديدة

و « الصفراء » . الا أن العدو بيّته عند « الجُدَيّدة » فى درب ضيق جداً وكاد
يقضى على كل الجيش ، فلم يبقَ منه الا ٣٠٠٠ جندى التجئوا الى ينبع بعد أن
أنهكهم التعب ، وهرب بعد هذه النكبة كل الألبانيين . فلما علم محمد على بذلك
استشاط غضباً وأنّب « صالح قوج » رئيسهم على تخاذلهم وما أظهروه من الجبن .
وكان يريد الفتك بصالح قوج ، لولا ما له عليه من المآثر خصوصاً بلاءه فى حادثة
القلعة ؛ فاكتفى بنفيه من مصر مع من هرب معه من الألبانيين بعد أن أجزل لهم
العطاء ، وكان يعتقد أنه لا يهدأ له بال ما دامت هذه الفئة الثائرة المتمردة فى داخل البلاد

فتح المدينة

وفى عام ١٢٢٧ هـ ( ١٨١٢ م ) أرسل محمد على مدداً الى طوسون بطريق
القُصَير ، فسار به نحو المدينة ودخلها عنوة بعد أن دوّخ الوهابيين . وكانت هذه ضربة
قاضية على سعود الثانى ، وابتدأ المذهب الوهابى يتدهور بعض الشىء . ثم ذهب
طوسون توّاً الى مكة بطريق جدة ، فلم يلقَ الا الاكرام من شريف مكة وسلمه
مفاتيح الكعبة ، فأرسلها طوسون هى ومفاتيح الحجرة الشريفة الى والده ، فأرسلها
الى الباب العالى يبشره برجوع الحرمين الى حوزته . وأراد بعد ذلك طوسون أن

انهزام طوسون عند طربة

يقتفى أثر الأعداء فى داخل البلاد ، فهزمه الوهابيون شرّ هزيمة عند « طرَبة » ،
وهى بلدة صغيرة شرقى مكة وعلى مقربة منها . وكانت خسائر هذه الهزيمة عظيمة
جداً ، حتى ان سعوداً زحف بجيشه على المدينة ثانية وهددها بالأخذ عنوة

ولما وصل خبر هذه النكبة الى محمد على عزم على أن يتولى قيادة الجيش بنفسه .

**خروج محمد على الى الحجاز**

فأخذ العُدَّة لذلك ، وتوجَّه الى الأقطار الحجازية ، ولما وصل هناك أدى فريضة الحج ، ثم علم من بعض الأفراد أن الشريف غالباً مذبذب فى ولائه ، فاحتال فى القبض عليه بواسطة طوسون ابنه ، وأرسله الى القسطنطينية حيث قُتل هناك بعد مدة وجيزة

ثم ابتدأ محمد على بعض مناوشات مع الوهابيين لم تكن فاصلة ، وكان كلا الفريقين يخاف منازلة خصمه

**وفاة سعود وتضعضع الوهابيين**

وفى أوائل سنة ١٢٢٩ هـ ( ١٨١٤م ) مات سعود الثانى ، وبموته فقد الوهابيون أعظم ساعد وأكبر بطل . بلغت فى مدته دولتهم شأواً بعيداً لم تبلغه من قبل ولا من بعد ، فان عبد الله ابنه الذى خلفه كان أقل منهُ ذكاء وفروسية وقدرة . وكان

**عبد الله سعود**

آخر ألفاظ فاه بها سعود يوصى بها ابنه الأكبر : « يا عبد الله لا تدخل فى حرب مع الترك فى ميدان مكشوف أبداً ، والزم أنت وعساكرك فى حربهم المواقع الصعبة حتى لا يتيسر لهم النصر ، وخذ لنفسك الحذر ، ولا رادّ لقضاء الله وقدَره » . ولو اتبع

**انهزامه عند بيصل**

عبد الله هذه النصيحة لما تغلب عليه المصريون قط ، الاّ أنه خالف والده والتحم مع محمد على فى أول واقعة عند « بَيْصَل » حيث دارت الدائرة فيها عليه ، وذلك فى سنة ١٢٣٠ هـ ( ١٨١٥ م )

**عودة محمد على**

ثم حصلت حوادث فى هذه الفترة اضطرت محمد على أن يرجع الى مصر ، منها أنه لما علم بهرب نابليون من منفاه فى « إلبا » ، وتوقع احتمال غزو الترك البلاد المصرية ، رجع مسرعاً بطريق القصير فقنا ، ووصل القاهرة فى اليوم الذى جرت فيه موقعة « ووترلو » . ومنها أنه علم أيضاً بتدبير مؤامرات على عزله وقتله ، وظن أن ذلك بايعاز من رجال الباب العالى . أما رئيس المؤامرة فهو « لطيف باشا » أحد المماليك ، وكشف سرها « الكخيا لاظ أوغلى باشا » وكان نائباً عنه أثناء تغيبه عن البلاد ، فقتل لطيفاً ومن معه بعد أن حاول الهرب والاختفاء . وكان غرضه أن يكون والياً علي مصر اذا نجح فى قتل محمد علي

عودة طوسون ووفاته

وعند عودة محمد على همَّ بتنظيم جيشه على الطراز الغربي ، فأبى عليه ذلك الجند مُقلّدين الأتراك فى ذلك ، ولما علم طوسون بتلك الفتن والقلاقل من جهة وتألب الجيش عليه من جهة أخرى عاد مسرعاً الى مصر ، وتوفى بالاسكندرية عقب مرض لم يمهله أكثر من عشر ساعات

وكان قبل سفره قد عقد شروط صلح مع الوهابيين ، الاَّ أنهم نبذوها ظهريًا ، ولذلك جهز محمد على حملة أخرى على بلاد العرب بقيادة ابنه ابراهيم باشا فى شوال سنة ١٢٣١ هـ ( سبتمبر ١٨١٦ م ) . ولم يسلك ابراهيم طريق السويس ، بل نزل فى النيل بجنده ( فى سفن أعدت لذلك الغرض ) الى قنا ، ومن ثم على ظهور الأبل الى القصير ، ثم الى ينبع ، ومنها الى المدينة المنورة

خروج ابراهيم باشا

قد أعمل الفكرة ذلك البطل العظيم فى استنباط الخطط الحربية التى وقفته بين صميم عظماء الرجال ومشاهير القواد ، وأعانه على تنفيذ تلك الخطط مَهَرَة الضباط والمهندسين الفرنسيين . على أن والده قد أوصاه أن يحارب كل قبيلة مناضدة للعدو على انفراد ، ليكون بذلك أقدر على الفتك بجنودها ، وتفريق كلمتها وتمزيقها شر ممزق كما نصح له ألاَّ يتوغل داخل البلاد ، وحذره من الإغارة على الدرعية من طريق غير طريق المدينة المنورة ، ليحفظ لنفسه خط الرجعة ، وليكون وصول المدد اليه من السهولة بمكان . وأول موقعة التحم فيها جيشه مع الوهابيين كانت عند « الرَّيس » سنة ١٢٣٢ هـ ( ١٨١٧ م ) وفى هذه الملحمة انهزم جيشه هزيمة لم تثن من عزمه ، ولم تفت فى ساعده ، بل استمر سنة كاملة فى كفاح وجلاد ، حتى ذلل كل صعوبة اعترضته فى هذا المضمار . ولذلك أخضع قرى كثيرة ، وصار قاب قوسين أو أدنى من الدرعية حاضرة الوهابيين ، وهى على بعد ٤٠٠ ميل من المدينة المنورة التى اتخذها قاعدة لأعماله الحربية

واقعة الريس

حصار الدرعية

وابتدأ ابراهيم باشا فى حصار الدرعية فى جمادى الثانية سنة ١٢٣٣ هـ ( أول ابريل سنة ١٨١٨ م ) ، فمكث مدة يعالج فتحها وهو مستعصى عليه . وفى غضون ذلك

انفجر مخزن ذخيرته ، فلم تفتر همته ، ولم يساوره اليأس ، لأنه كان على يقين من استياء العالم الاسلامى أجمع من فظاعة الوهابيين . هذا الى أن تلك الحرب فى الحقيقة كانت حرباً بين العنصرين التركى والعربى ، وكلاهما يود لو يضعف الآخر أمامهُ . فيميل عليه ميلة واحدة يكون فيها القضاء المبرم عليه

تخريب ضواحى الدرعية

بعد ذلك أخذ ابراهيم باشا يعد يد التخريب والتدمير فى ضواحى مدينة الدرعية،



عبد الله سعود فى سرادق ابراهيم باشا

تسليم عبد الله

ليحول بينه وبين المؤنة والمدد . وبذلك اضطر عبد الله الى الخضوع والاستسلام لسيطرته وسلطانه ، فسلم نفسه فى ذى القعدة سنة ١٢٣٣هـ (سنة ١٨١٨ م) . ولم يعامله ابراهيم باشا الاّ بكل كرامة واحسان ، ثم أرسله الى والده بالقاهرة ، فبالغ فى اكرامه أيضاً ، ثم أرسله الى الباب العالى بعد أن استرد منهُ كل ما سلبهُ من الحرم الشريف . وبعد وصوله بزمن يسير أُمِرَ بهِ فقتل . فلما بلغ أهل الدرعية مقتله هاجوا وماجوا ، وانتثر عقد نظامهم ، فأرسل محمد على فى طلب قرابة عبد الله الى القاهرة وأجرى عليهم وظائف تقوم بمعاشهم

تخريب الدرعية

أما مدينة الدرعية فأصبحت أثراً بعد عين ، لأن ابراهيم باشا رأى بقاءها عامرة حجر عثر فى طريقه ، ولو تركها من غير تخريب الكانت ركناً مكيناً ومعقلاً حصيناً لأعدائهِ ، فلم يبقِ عليها لذلك . وساعده على تخريبها الأهالى أنفسهم تقرُّباً اليه واسترضاء له

هكذا انتهت الحروب فى بلاد العرب بعد القضاء على سلطة الوهابيين ، الذين كانوا يدعون أنهم يسعون فى سبيل استرداد مجد الإسلام الضائع

## ٣ — « فتح السودان »

أسباب فتح السودان

بعد أن تم النصر المبين لمحمد على وقضى على الوهابيين القضاء المبرم ، واستأصل شأفتهم من بلاد العرب ، عنّت له حاجة شديدة الى فتح السودان وضمه الى سلطانه ونفوذه . وذلك لأسباب سياسية ومادية

الاسباب السياسية

أما الأسباب السياسية فتلخص فيما يأتى :

لما قضى محمد على على دولة المماليك فى مذبحة القلعة هرب أُناس كثيرون منهم واعتصموا بالوجه القبلى ، فطاردهم ابراهيم باشا حتى اجتازوا الحدود المصرية وتحصنوا فى دنقلة وأقاموا بهـا القلاع والحصون ، وقد احتال محمد على فى القبض عليهم والإيقاع بهم فلم يفلح

هذا الى أنّ جنده الألبانيين كانوا خطراً عليه في كل وقت ، لأنهم كانوا لا يُنزلونه من أنفسهم الأ منزلة فرد منهم ، وكان الضباط يشقّون عصا طاعته ويأتمرون فيما بينهم به ليسقطوه ، ولم يذعنوا للإصلاح الذى أدخله فى الجيش . ولذلك كان يصدّرهم فى مقدمة الجيش عند الالتحام ليبيدهم ويقضى عليهم ، فيربأ بنفسه عنهم ويستبدل بهم أبناء السودان ( الذين شبّوا على الشجاعة والصبر ومقاومة أعباء الحروب ) بعد تدريبهم على الفنون الحديثة الحربية ، لأنه اعتقد ان أبناء مصر لا يصلحون للتجنيد لما ينقصهم من الصفات التى تؤهلهم لذلك

أما الأسباب المادية فتلخص أيضاً فيما يأتى :

الاسباب المادية

أراد محمد على فتح السودان ليتسنى له بذلك تجديد طرق القوافل التى كانت بين مصر والسودان فيتسع نطاق التجارة بين القطرين ، ويناله من هذه التجارة ما يفرضه عليها من ضرائب ومكوس جمة ، حتى يسترد ما أنفقه فى محاربة الوهابيين ، ويكون ذلك مورداً دائماً من موارد خزانته ، فضلاً عما كان يسمع عن السودان وما فيه من مناجم الذهب الغنية التى يمكن استخراجها والانتفاع بها

وان من البواعث التى حركته لفتح السودان ما رآه من أن سعادة مصر متوقفة على استحواذه عليه وضمه الى ملكه ، لأن ريف مصر متوقف ريّه على روافد النيل العليا ، ولذلك أصبح من المحتم أن يكون النهر وروافده تحت سلطة واحدة ، ليمكنها بذلك توزيع المياه على حسب الحاجة مع مراعاة المصلحة العامة

تجهيز الحملة وفتح سيوة

ولما عزم محمد علىّ على انفاذ رأيه ، ورأى أن فتح السودان أمر من العِظَم بمكان ، سيّر جيشاً بادئ ذى بدء الى واحة سيوة لإخضاعها قبل الزحف على السودان ، حتى لا تكون مصدر شرّ بجواره . فسار هذا الجيش الصغير فى جمادى الأولى سنة ١٢٣٥ هـ ( فبراير سنة ١٨٢٠ م ) ، فأخضع سكان الواحة ، وصارت جزءاً متمماً لمصر من ذلك الوقت

أما حملة السودان فإنها ابتدأت السير من القاهرة فى شوال سنة ١٢٣٥ هـ

خروج الحملة بقيادة اسماعيل

( يوليه سنة ١٨٢٠ م ) ، وكانت مؤلفة من ثلاثة آلاف راجل ، والف وخمسمائة فارس ، واثنى عشر مدفعاً ، وخمسمائة من عرب العبابدة تحت إمرة شيخهم « عابدين كاشف » ( وكان قد وعده محمد على بولاية دنقلة بعد فتحها ) . فتجمع الجيش فى اسوان ، حيث رُتبت هناك الميرة والذخيرة

ولما خرج اسماعيل باشا ( وهو أصغر أولاد محمد على ) لتولى قيادة الجيش اجتاز هو ومن معهُ الحدود المصرية ، ودخلوا أرض دنقلة ، حيث تقيم البقية الباقية من المماليك الذين طاردهم ابراهيم باشا كما تقدم والتجئوا الى هذا الاقليم

فلما علموا بذلك انقسموا قسمين : قسماً سلّم صاغراً بدون معارضة ، وآخر ركب رأسه فارًّا الى كردفان ، بعد أن تشتت شمله وناله من العناد والذلة ما ناله

ومما هو خليق بالذكر هنا أن ابراهيم بك الكبير مات بدنقلة قبل الحملة بزمن يسير ، وبموته انقرضت رؤساء هذا العنصر الذى حكم مصر نحو ستة قرون

واقعة كرتى

سار اسماعيل وبيده زمام القيادة العامة ولم يعترضه فى طريقه عقبات تذكر حتى وصل مدينة « كُرتى » ، حيث سحق عرب الشائقية وشتت شملهم فى موقعتين فاصلتين

فتح بربر

ومن ثم يمم جيشهُ « بربر » ، ودخلها بدون مقاومة فى جمادى الثانية سنة ١٢٣٦ هـ ( مارس سنة ١٨٢١ م ) ، وفى ٤ شعبان من تلك السنة دخل أيضاً مدينة « شِنْدِى »

وشندى

التى سلمها الملك « نمر » ، وتم له اخضاع قبيلة الشائقية . وما زال اسماعيل متوغلاً فى البلاد حتى وصل رأس الخرطوم ، ثم حوَّل وجهةُ شطر النيل الأزرق . ولحسن حظه

وسنار

دخل « سنَّار » ، وهى حاضرة اكبر اقليم فى السودان ، بدون معارضة تذكر . وذلك أن سلطانها « بادى » وأخاه كانا إذ ذاك يتنازعان المُلك ، فنجح اسماعيل فى تثبيت عرش « بادى » ، الذى قابله بكل تجلة وحفاوة ، ثم قبِلَ أن يكون نائباً عن محمد على فى هذه الأرجاء الشاسعة مع الاعتراف بسلطانه . ومن هناك أرسل اسماعيل آلافاً من العبيد الى اسوان ، حيث أُعدَّ لهم معسكر لتدريبهم على الفنون الحربية الحديثة

مرض الجيش

وتفشى المرض فى جيش اسماعيل أثناء اقامته بسنار ، حتى اضطر الى أن يطلب

قلق اسماعيل

مدداً ومؤونة من أبيهِ ، لانحطاط قوة الجيش ، لقلة عدده وفتور عزيمته . ذلك الى ان جنده كانوا بين قبائل شتى معاديةٍ لهم ، ولا يمكنهم أن يصدوا هجماتهم اذا ثار ثائرهم وخرجوا عليهم

مدد ابراهيم

لذلك كان اسماعيل قلقاً مضطرباً ، ولكن هدأ روعه وسكن اضطرابه إذ علم بوصول المدد اليه ، فرجع قافلاً منحدراً الى ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض حيث وصل المدد الذى أرسله أبوه تحت إمرة أخيه « ابراهيم باشا » . فلما وصل

تقسيم القيادة بين اسماعيل وابراهيم

اسماعيل بجيشه والتقى بأخيهِ اتفقا على تقسيم العمل والجيش معاً : فكانت مهمة اسماعيل الزحف بجيشه الى أعالى النيل الأزرق بقدر استطاعته ؛ وأما مهمة ابراهيم فهى الاستكشاف عن النيل الأبيض من الجهة الغربية ؛ وكان الباعث له على ذلك رغبته فى الوصول بجيشه الى المحيط الاتلنتى اذا كان النيل الأبيض متصلاً بنهر النيجر ، واذا لم يتحقق له ذلك عاد الى كردفان وعبأ جيشاً يسير به نحو الشمال مخترقاً الصحراء ، حتى يصل الى طرابلس ، ومن هناك الى البحر الأبيض المتوسط . وان هذه الخطة لتدل صراحةً على مقدار ما كان يطمح اليهِ محمد على وأولاده ، كما تدل على مقدار هممهم العالية وثقتهم بأنفسهم

تومات

وصل اسماعيل فى زحفه على النيل الازرق الى «تومات» ، أما ابراهيم باشا فقد اعترضه مرض شديد ، حال بينه وبين تنفيذ خطته ، واضطره الى العودة لمصر بعد أن وصل جيشه الى جبل « دِنـكا » جنوباً

جبل دنكا

محمد بك الدفتردار يفتح الابيض

وفى منتصف عام ١٢٣٧ ( ١٨٢٢ م ) أرسل محمد على جيشاً ثالثاً بقيادة صهره « محمد بك الدفتردار » لغزو كردفان ، فهزم بعض القبائل عند مدينة « بارا » ، واستولى على الأبيّض ، وضم اقليم الأبيض الى مصر

ومما قام به هذا الجيش أيضاً الانتقام من « نمر » ملك شندى على نكايته باسماعيل ومن معهُ

وذلك ان اسماعيل وهو عائد الى مصر ظافراً منصوراً أهان نمراً إهانة شنيعة ،

فأسرّها نمر فى نفسه ، وأخذ يفكر فى طريقة الانتقام من اسماعيل ، حتى بيّت رأيه على أن يأدب مأدبة فاخرة يدعو فيها اسماعيل ومن معه . فلما تمّ له ذلك ، ولبّى دعوتهُ اسماعيل ومن معهُ ، أمر أتباعه وأشياعه بأن يجمعوا حول نُزُله حطباً ومواد ملتهبة ثم يضرموا فيها النار . ففعلوا ، فشبّت النار فى النُّزُل ، فدمرته وحرقت جميع من فيه ، وكان بين المحروقين اسماعيل ، الذى لبى دعوته جاهلاً بنيته الخبيثة

احراق اسماعيل وبناء الخرطوم

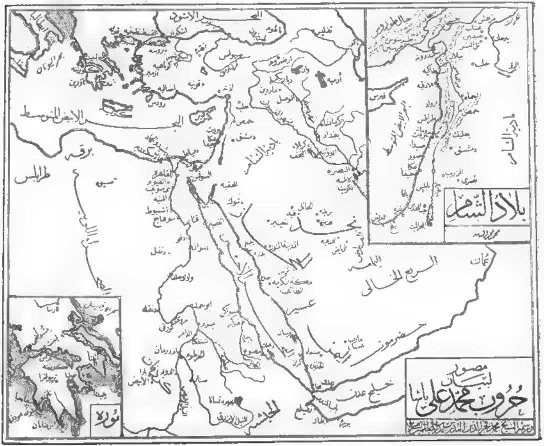
على أن الجيش لم يظفر بقتل نمر ، ولكنهُ أحرق شندى بعد أن أخضع كل الاقليم . وبعد ذلك بنى مدينة الخرطوم سنة ١٢٣٨ هـ ( ١٨٢٣ م ) ، وجعلها حاضرة البلاد

مقدار نجاح الحملة

ومما تقدم نعلم أن الحملة على السودان لم تقم بتحقيق جميع الأغراض التى كان يرمى اليها محمد على : لأنه لم يجد فى السودان ذهباً يفى بنفقات استخراجه من مناجمه، ولأن طرق القوافل لم تثمر لكثرة الضرائب الفادحة التى كانت تجبى على البضائع عند الحدود المصرية . أما التجنيد من أبناء السودان فلم يتحقق تماماً ، لأنه جند منهم جيشاً عظيماً ، ولكن جو مصر لم يكن ملائماً لهم ، فمات عدد عظيم من هذا الجيش ، ولذلك أضرب محمد على عن التجنيد منهم وعاد الى التجنيد من المصريين

الرقيق

وقد ازداد الاتجار بالرقيق بعد فتح السودان زيادة عظيمة ، حتى اضطرت انجلترة وفرنسا للتدخل فى الأمر . فوعد محمد على أن يقضى على هذه الحرفة الشنيعة التى تنافى الانسانية ، ولذلك خرج لزيارة السودان عام ١٢٥٤ هـ ( ١٨٣٨ م ) ، وأمر بمنع بيع الرقيق جملة . ولكن رغم ذلك كله بقى الاتجار به منتشراً الى زمن قريب ولم يضمحل تماماً الا بعد الاحتلال البريطانى كما سيأتى


مصور لبيان حروب محمد علي باشا
بلاد الشام
مورة
البحر الابيض المتوسط
برقة
طرابلس
نجد
الربع الخالي
حضرموت
خليج عدن
عسير
اليمامة
عمان
الحبشة
بادية الشام

## ٤ — ﴿ أعمال محمد على باشا فى الديار المصرية ﴾

### مقـدمة

علمنا ما كانت عليه البلاد من الفوضى فى عهد العثمانيين ، وكيف كانت تئن تحت ظلم المماليك وعسفهم ، وجور الجنود الأتراك الذين ساموا العباد نهباً وسلباً ، حتى عمّ الفقر ، وكثرت الاضطرابات ، وأصبحت البلاد كأنها بلا حكومة . فلم يكن اصلاح هذه الحالة بالأمر الهين على كل من أراد النهوض بالبلاد وجعلها فى صف الأمم الراقية

صعوبة مهمة محمد على

فلما قبض محمد علىّ على زمام الأمور بمصر ، وهمّ باصلاح شأنها ، ظهرت أمامه كل هذه الصعوبات ، وعرف مقدار الاعباء الملقاة على عاتقه ، فلم يدع وسيلة فى سبيل تحقيق هذه الأمنية الاّ اتخذها . وقد كان يشعر بصعوبة المهمة التى أقدم عليها ، حتى قال فى حديث له عن اصلاحاته : « ان ثمرة غرسى سيجنيها أحفادى من بعدى ، لأن بلاداً عمّ فيها الارتباك وساد ، ودُرست فيها معالم الحكومة وآثارها ، وأصبح أهلها فى الدور الأول من النشء ، وبلغوا من الجهل درجة لا يتسنى لهم معها أن يقوموا بعمل نافع : لا يدخلها التمدين الآ بيطء »

ملخص أعماله

ولو نظرنا الى الأعمال الخطيرة التى قام بها فى سبيل إصلاح البلاد لدهشنا من أن فرداً واحداً وُفّق لكل هذه الأعمال التى لا زالت خالدة بيننا الى الآن : فهو الذى وضع أساساً متيناً لحكومة عادلة منتظمة : وأنقذ البلاد من ذلك النظام الممقوت الذى وضعهُ السلطان سليم ، وهو تقسيم البلاد بين الوالى المُوَلّى من قبل الباب العالى وبين المماليك ، وأغاثها من جور الجنود العثمانيين الذين كانوا يغيرون على البلاد اذا تأخر ما هو مفروض لهم : وأنشأ الطرق وحفر الترع وأصلح الزراعة ، وشيّد المعامل ودور الصناعة ، وأسس المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، واستحضر اليها كبار الأساتذة الغربيين لنشر العلوم الحديثة بين أبناء رعيته ، وأوفد البعوث العلمية الى

أوربا لتعود مزوَّدة بعلومها ومعارفها وأسرار تقدمها ، وكان فى ذلك يحارب جهل الأمة حتى قضى على ما عندها من خرافة أو عادة ممقوتة ، وكان يسوق التلاميذ الى تلقى العلوم والمعارف رغم معارضة آبائهم وعويلهم كأنما يُساقون الى الموت وهم ينظرون

تقدير أعماله

قام محمد على بتلك الأعمال الجليلة التى لا ينكرها انسان ، مع أنهُ لم ينل فى صغره نصيباً من التعلم ، كما أنهُ لم يكن ملماً تمام الإلمام بالحضارة الأوربية ، ولذلك لا يدهش المؤرخ خطؤه أحياناً فى بعض الاصلاحات والمشروعات الصناعيــة ، ولا يأخذ عليه ذلك ، بل يغتفر له غلطاته بملء صدره بشفاعة أعماله النافعة

محبته لمصر

واذا قلنا بأن غرضه الأول فى مصر لم يكن إلاَّ أن ينشئ لهُ ملكاً : ينصره بجميع الوسائل الممكنة كجمع الأموال وحشد الجنود لحروبه العدّة التى لم تجن منها مصر ثمرة تذكر ، فلا يغرب عنــا أنهُ ما لبث حتى أدرك أن لا قيام للملك إلاَّ باصلاح مصر ، فأخلصَ فى محبتها ، وعمل على أن ينهض بها الى مستوى الرقىّ والفلاح قدر استطاعته ، مقتدياً فى ذلك بالدول الأوربية العظيمة . وكفاه فخراً أنه أول حاكم شرقى أدخل المدنيّة الحديثة فى بلاده . وكثيراً ما كان يصرّح فى خلال أحاديثه بمحبته لمصر وميله لرقيها . من ذلك أنه قال لأحد الغربيين أثناء حديث له :

« لا شك أنك تعلم أن مصر كانت فى قديم الزمان سيدة ممالك العالم، وعلَمها الذى يُهتدى بهِ . أما الآن فقد أخذت أوربا هذه المكانة ؛ وانى لآمل أن يأتى يوم تنهض فيه مصر الى مكانتها الأولى فى التمدين والعمران. وما هذه الدنيا الأ صعود وانخفاض »

## الحــكومة فى عهد محمد على

صعوبة مهمته

ان من يفكر فى الصعوبة التى تعترض الحاكم عند انشائه نظام حكومة جديدة فى بلاد كمصر كانت مجالاً فسيحاً للسلب والاضطهاد والفوضى ، لا يسعه الأَ أن يعترف بأن ما قام بهِ محمد على فى تلافى هذا الخلل يستحق عليه أعظم ثناء ، ويجعله فى عداد كبار المصلحين : على قلة عددهم وبخل الزمان بأمثالهم . لذلك يُقابَل بالقبول ما بالغ

به فى مدحه «السير مَرى» فى مذكراته (صفحة من تاريخ حياة محمد على) إذ يقول: « ان العالم الاسلامى منذ فناء دولة العرب الزاهرة من بلاد الأندلس لم يظهر فيه حاكم يضارعه فى أعماله وصفاته، فَمَثَلُهُ مَثَلُ صلاح الدين فى عدله وتسامحه الدينى»

ويجب على من يريد أن يحكم على محمد على وما أدخله على حكومة مصر من التغيرات ، وأن يقارنهُ بنابغ من ساسة عصره الغربيين ، أن يلاحظ الزمان والمكان لكل منهما ، حتى تكون مقارنته قوية الأساس ، لايتطرق اليها الخطأ

نظام الحكومة

تولى محمد على الحكم فلم يغير ما كان عليه نظام الحكومة فى عصر المماليك حتى عام ١٢٤١ هـ ( ١٨٢٦ م ) ، وهو العام الذى أدخل فيهِ التعديل العظيم فى نظام الحكومة ، متخذاً الأنظمة التى وضعها نابليون للبلاد رائداً له

الديوان الخديوى

فأنشأ ديواناً خديويًا[1] جعل مقرهُ القلعة ، وكان يرأسه الوالى ، وينوب عنهُ فى غيابه « الكتخدا » . وكان عمله الفصل فى الأمور التى ليست خاصة بالقاضى الشرعى أو التى لايحتاج الأمر فيها الى عرضها على القاضى أو على أى مجلس آخر وذلك لظهورها وجلائها . وكان هذا الديوان يفصل فى القضايا التى يعرضها ضابط القاهرة[2] بعد تحقيقها ابتداء فى المحارس ( القرهقولات )

مجلس المشاورة الملكى

ثم أنشأ مجلسين : أحدهما كان يسمى « مجلس المشاورة الملكى » ويختار هو أعضاءه بنفسه ، وكان عددهم يتراوح ما بين ٣٠ و ٤٠ عضواً . وكانوا ينظرون فى شؤون البلاد العامة ، وعليهم تُعرَض القوانين قبل سنّها . ومع أن رأى هذا المجلس كان استشاريًا محضاً ، تمكن به محمد على من تخفيف عبء المسؤولية الملقاة على عاتقه أمام شعبه وأمام الدول الأجنبية

نظير مجلس الوزراء الدواوين الاخر

وأما المجلس الآخر فكان يسمى «المجلس المخصوص» وهو بمثابة مجلس الوزراء الآن . وقد أنشأ محمد على فوق ذلك عدة دواوين أخرى تم أسماؤها عن اختصاصاتها.

---

(١) هكذا كان يسمى، وان كان لم يمنح لقب «خديوى» رسميا لوالى الا فى عهد اسماعيل
(٢) هذا الضابط بمثابة الحكمدار فى وقتنا هذا

وأهمها « مجلس المشاورة العسكرية » و « ديوان دار الصناعة ( الترسخانة ) أو البحرية » ، و « ديوان التجارة » ، وكان هذا الديوان مكوناً من تجار مختلفي الجنس والديانة يرأسهم نقيب ( شاهبَنْدَر ) التجار أو رئيس تجار القاهرة

تقسيم مصر

وقد اقتضت ادارته الداخلية للبلاد تقسيم القطر الى سبع مديريات ، والغاء الأقسام التي كانت في عهد المماليك . ثم قسم كل مديرية الى عدة مراكز بلغت ٦٤ مركزاً . ثم قسم المراكز الى أخطاط أى نواحٍ يدير شؤونها موظف يلقب بالناظر ، والى قُرًى يتولى أمورها العمد ومشايخ البلاد . وكان غرضهُ من هذا التقسيم تسهيل جمع الضرائب

بيد أنهُ رغم هذه الأنظمة والتقسيمات كان يتولى مهامّ شؤون البلاد بنفسه منفرداً بالسلطة وحده : فكان يفاوض سفراء الدول الأجنبية بنفسه ، ويسمع شكوى رعاياه ومطالبهم بلا واسطة ، ويتصرف في مالية البلاد ، ويقوم بالمشروعات العامة

## التقدم المادى

مقدمة

أراد محمد علي أن ينهض بالبلاد بادخال الاصلاحات الغربية فيها ابتداء ، وفاتهُ ان البلاد كانت تسبح في ظلمات الجهل ، وانها في حاجة الى زمن كبير تتفقه في التعليم حتى تصل الى درجة تمكّنها من استثمار الأرض بالطرق الفنية وادارة المعامل والسير في التجارة حسب ما يقتضيه النظام الأوربي الذي عمل على ادخاله في البلاد . ولا شك انهُ كان يشعر بشيء من ذلك، إلاّ أن الأحوال التي وُجِدَ فيها كانت تحتّم عليه السير في هذه الطريق بسرعة ؛ إذ كان في شدة الحاجة الى المال للانفاق على الجيش ، ودفع الجزية للباب العالي ، وارضاء أولي الشأن في القسطنطينية . ورأى انه لا يتم له هذا الغرض إلاّ اذا جعل جميع موارد البلاد تحت سيطرته مباشرة : من زراعة وصناعة وتجارة

## الزراعة

كانت الزراعة أول عمل وجّه اليه محمد على عنايته الخاصة ، اذ رأى انها ينبوع ثروة البلاد ، وعليها يتوقف أهم دخلها السنوى . فجعل زراعة جميع الأراضى تحت إشرافه ، كى لا يفرّ أحد من دفع الضرائب . وتشدّد لذلك فى المحافظة على الأمن العام ، فقبض بيد من حديد على عصابات اللصوص التى كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد

نزع ملكية الأراضى

ولم يكتف بضرب الضرائب الفادحة ، بل عزم على نزع مِلْكية جميع الأراضى ليستغلها على نفقته الخاصة . فلما همّ بإبراز هذه الفكرة الى حيز الفعل قامت فى وجهه صعوبات عظيمة كان لابد من تذليلها . وذلك أن الأراضى الزراعية فى مصر كان بعضها أوقافاً خيرية يدير شئونها جماعة العلماء ، وكان جزء آخر كبير جداً ملكاً للمماليك أصحاب الشأن والنفوذ فى البلاد ، وما بقى كان فى قبضة عامة أفراد الأمة . فاستعمل محمد على مع كل طائفة من هؤلاء التهديد والوعيد ، حتى أصبح المالك الوحيد لأكثرها . فانه استولى على أملاك المماليك فى الوجه البحرى بعد حربه مع الانجليز عام ١٨٠٧ م وطرده المماليك من ريف مصر الى صعيدها

الاستيلاء على الاوقاف

واستولى بعد ذلك على معظم الأراضى الموقوفة التى كانت تحت رعاية العلماء ، فجعل الوقف تحت رقابته من غير أن يحله . فاحتج عليه العلماء وتجمهروا وعارضوه معارضة شديدة ، فأقنعهم بالدليل القاطع أنه الوالى من قبل الخليفة الذى يتولى أمور المسلمين جميعاً ، فهو أحق فرد فى مصر برعاية الوقف . ومن هذا الوقت بقى الوقف تحت إشراف الأسرة المحمدية العلوية

ونزع بعد ذلك ملكية الأراضى التى كانت لبقية الأفراد ، مدعياً حقّ التسلط على كل الأراضى لانه الحاكم النائب عن الخليفة المالك للأرض بحكم الفتح الاسلامى القديم . فاستحضر كلّ الملاّك وطلب منهم ابراز حقوق ملكيتهم ، فقدموا اليه حججهم رغم أنوفهم ، فكان يضرب ببعضها عرض الحائط ، ويظهر بطلان بعضها ، ويُمنى

بعض الملاك أحياناً بعوض يُعطاه من الخزانة . ولما أصبحت جميع الأملاك فى قبضة يده جمع كل ما لديه من الحجج وأعدمها . وبتعاقب الأيام أصبح من المستحيل معرفة ما كان للمماليك أو للوقف أو لأفراد الأمة من الأرض ، اذ لم تقو المحاكم على معارضة محمد على ، وكانت الأهالى تحت رحمته . وبذلك أصبح معظم أراضى القطر فى قبضة يده الا جزءا يسيراً كان فى قبضة بعض العلماء والأمراء

استخدام الفلاحين

اهتم بعد ذلك بتدبير الوسائل التى تسهل عليه زراعة هذه الأراضى ، فاستخدم الفلاحين طبعاً فى زراعتها ، فاصبحوا بمثابة الموالى ، وكانت القاعدة أنه مادام الفلاح قادراً على دفع ما فرض عليه اداوه من ثمرتها يبقى فى الأرض يتعيش منها وتخلفه من بعده ذريته

وظل الفلاحون هكذا محرومين من التمتع بحق امتلاك الأراضى الى زمن غير بعيد ، وذلك عند ماسنّ سعيد باشا قانونه المختص بأرض مصر ، وتلاه من بعده قانون المقابلة الذى وضعه اسماعيل باشا ، ثم القانون الذى سنته المحاكم الحديثة خاصًّا بحق امتلاك الفلاح للأرض

مسح الاراضى

ثم أمر محمد على مديرى البلاد بمسح الأطيان وتقدير عدد الفدادين التى تخص كل قرية ، ما عدا الضياع التى كانت توهب للمقربين وذوى الحظوة : فهذه كانوا لا يتدخلون فى أمرها ، وكانت بالطبع شيئاً قليلاً . أما العدد الأوفر من القرى المصرية فكانت تحت سيطرة محمد على ، اذ كان يدير شؤون كل قرية فئة من مشايخ البلد يرأسهم عمدة مُنصَّب من قِبَل المدير ، مسئول أمامه عن مقدار ما يُطلب من قريته من الضرائب . ولذلك كان العمدة يوزع الأراضى على الفلاحين حسب اختياره ، ثم يجمع منهم الضرائب على قدر ما يفلح كل من الأرض . وما أشبه الفلاح فى هذه الحالة بالحيوان تحت رحمة العمدة . أما العمدة فكان مثله كمثل السوط فى يد المدير الذى كان صاحب البأس والسطوة ولا يسيطر عليه أحد الا الوالى مالك مصر الوحيد

ونظام جمع الضرائب

هذه هى الطريقة التى اتبعها محمد على منـذ عام ١٢٢٣ هـ ( ١٨٠٨ م ) وسار على مقتضاها ٤٠ عاماً ، وبها أمكنهُ أن يجنّد الجيوش ويمدّ الأساطيل ويحارب الأمم ويخضعها

التصرف فى المحصولات

وكان من عادته أن يعيِّن أنواع المحصولات التى تزرع فى كل بقعة من بقاع المملكة . ثم تأخذ المحصولات جميعها وتوضع فى أهراء الحكومة ، ويقدّر أثمانها طائفة من رجال الحكومة . فكان جزء منها يؤخذ فى مقابل الضرائب التى على الأرض ، وما بقى تشتريه الحكومة فتصنع بعضه فى مصانعها والجزء الأعظم يباع الى التجار الأوربيين ، وبهذا احتكر محمد على كل التجارة فى مصر

المحصولات التى ادخلها فى مصر

ولا يسعنا فى هذا المقام الاّ أن نذكر شيئاً عن المحصولات التى جلبها هذا المصلح الكبير الى البلاد ولا نزال ننتفع بها ، وكانت نتيجة زرعها ازدياد ثروة البلاد : مما أعانه على شنّ الغارة على أعدائه . وأهم هذه النباتات ، وأعظمها ربحاً للبلاد القطن

القطن

الذى أشار بغرسه المسيو « جوميل » فى عام ١٢٣٥ هـ ( ١٨٢٠ م ) ، وهو أحد النساجين الفرنسيين المستخدمين بالحكومة المصرية وقتئذ . وقد أنتجت تجارب زرعه محصولاً حسناً ، لجودة التربة وملاءمة الجو ، وبذلك ابتدأ طور جديد فى تاريخ مصر المادى . وجلب بذوره من الهند أولاً ثم من أمريكا فيما بعد من صنف يُعرف بقطن « الجزائر » وهو أجود نوع فى العالم . وقد كان يزرع القطن فى مصر قبل عصر محمد على بقرون عدة ، غير أنه كان من صنف ردئ ، ولا يعرف تاريخ جلبه الى البلاد

القنب والنيلة

وقد عُنى فرنسى آخر بزراعة القِنّب فى مصر ، لصنع الحبال اللازمة للأسطول . واهتمّ محمد على أيضاً بزراعة النيل ( النيلة ) ، فجلب لذلك الفلاّحين الملمين بزراعتها من جزائر الهند الشرقية . وأحضر من آسيا الصغرى زرّاعاً مهرة فى زراعة الخشخاش ، وزرع الغابات والحراج ، ليستغنى بها عن الأخشاب التى تُجلَب من البلاد الأجنبية

زراعة الحدائق

ولم يفته تحسين زراعة الجنائن ، إذ أنشأ ابنه ابراهيم باشا فى جزيرة الروضة حديقة

غنّاء ، فيها من الفاكهة والرياحين ما لذّ وطاب ، وذلك بهمة رجل ايقوس من مهرة العالمين بفن الجنائن

مقدار فائدة الفلاح

ومما سبق يظهر جلياً أن جلب هذه المحصولات وزراعتها ، وتحسين حالة الرى ، ( مما سيأتى ذكره عند الكلام على الأعمال العامة ) : كان من اكبر النعم على مصر لو كان الفلاّح يضمن بيع محصوله بأثمان مناسبة . ولكن لسوء حظه كانت معاملاته كلها وبيع محصوله يتوقف على عمال الحكومة الذين يلاحظون الزراعة ، وعلى أمانة الذين يقدّرون أثمان المحصولات التى كانت تشترى جميعها الحكومة . والظاهر أن الفلاحين كانوا يتحمّلون فى ذلك مغارم كبيرة ، إذ كانت تُشترى منهم بأثمان بخسة وموازين مغشوشة ، فضلاً عن أنهم كانوا لا يأخذون أثمان سلعهم نقداً ، بل فى معظم الأحيان يُجبَرون أن يبادلوا بها مصنوعات معامل الحكومة ترويجاً لها

## الصناعة

الاهتمام بالصناعة

رأى محمد على أن الممالك الصناعية بأوربا على جانب عظيم من الثروة وسعة الرزق ، فحاول إدخال صناعاتها فى مصر ، وأن يشجّع الصناعات الوطنية أيضاً ، حتى يتسنى له صنع كل ما يحتاج اليه من لوازم الجيش ومعدات الأسطول ، وينافس الغرب فى صناعة المنسوجات

الصعوبات

ولا يخفى ما فى ذلك من المصاعب ، لضرورة جلب الفحم والحديد والأخشاب والآلات من الخارج ، ولأنه أيضاً يلزم المصريين زمن طويل وخبرة كبيرة حتى يصلوا الى درجة بها يمكنهم أن ينافسوا أعمال أوربا . إلاّ أنهُ قاوم كل هذه الصعوبات وأنشأ عدة معامل فى أنحاء القطر ، وفق بغرضه مدة من الزمان

معامل الغزل والنسيج

فمن أهم ما أنشأه معامل الغزل ونسيج القطن والحرير والكتّان والصوف . فكان للقطن خاصة ثمانيــة عشر معملاً فى أمهات مدن القطر ، كالمنصورة ودمياط ورشيد ( التى كان ينسج فيها كِرْباسُ أشرعة السفن ) ، وفى المحلة الكبرى وزفتى ومُنية غمر

وبنى سويف . وأهم هذه المعامل معمل بولاق ، وكان يسمى « معمل مالطة » لكثرة المالطيين فيه ، وكان رئيسه المسيو « جوميل » الفرنسى

المبيضة

وأنشأ مُبَيِّضة للمنسوجات بين بولاق وشبرا

معمل الجوخ

وأنشأ فى بولاق معملاً للجوخ ، أحضر له فى مبدأ الأمر رجالاً من الفرنسيين لإدارته ، ثم أرسل الشبان الى معامل «سيدان» و«ليون» بفرنسا ليتعلموا صناعته . فلما رجعوا حسّنوا صناعة هذا الصنف ، وصار يستعمل فى ملبوس الجيش

المصابغ

وأسس مصابغ للمنسوجات استعمل فيهـا النيل ( النيلة ) الذى كان يستخرج من البـلاد

معمل الطرابيش

وأنشأ كذلك معملاً عظيماً للطرابيش بمدينة فوّة بادارة رجل مغربى ، وجلب له مهرة العمال من تونس ، فنجح نجاحاً باهراً ، إذ كان ما يصنعهُ فى اليوم يربو على ٧٢٠ طربوشاً

السكر والزيت

وأنشأ أيضاً معامل للسكر فى الصعيد : أهمها معمل الروضة ومعمل ساقية موسى وأوجد معاصر للزيت ، فكان فى الوجه البحرى منها عشرون وفى القاهرة أربعون

وقد وجّه عنايته الخاصة الى ايجاد جميع المواد الأصلية اللازمة لهذه الصناعات فى البلاد المصرية ، فأكثر من زراعة القطن والقِنّب والكتان ، كما أسلفنا . وربى

تربية الاغنام

الأغنام وعُنى بأمرها عناية عظيمة ، وجلب كل صنف منها لتحسين نوع الصوف الذى فى البلاد ، غير أن ذلك لم يُجد نفعاً لعدم ملاءمة الجو لهذه الأغنام ، فاضطر أخيراً للعدول عن ذلك ، بعد أن بذل فيه كل مجهود

ودودة القز

واجتهد أيضاً فى إنماء دودة القز فى البلاد ، ليستغنى بنتاجها عما يأتى اليـهِ من الخارج ، فزرع لأجلها أشجار التوت بوفرة فى رأس الوادى ، وحفر السواقى لريها ، وجلب أناساً كثيرين ممن لهم دراية بتربية دود القز ، فبلغ ما جمعهُ من الحرير سنة ١٢٤٩ هـ ( ١٨٣٣ م ) عشرة آلاف أقة تقريباً

هذه بعض المصانع التى شيَّدها محمد على فى أنحاء البـلاد ، وناهيك بمصانعه

مصانع الجيش تلاشي الصناعات

الأخرى : من المسابك وغيرها من لوازم الجيش والأسطول . ولكنها لم تدم طويلاً للصعوبات التي بيَّنَّاها آنفاً ، وتلاشى بعضها في مدة حياته ، واضمحل الباقي عقب موته ، وأصبحت كأن لم تكن : يشهد بذلك ما قاله أحد مهندسي الانجليز من أنه « زار دار الصناعة ببولاق عقب وفاة محمد علي ، فوجد فيها من الآلات المهملة ما لا تقل قيمته عن ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه »

والسبب في عدم اضمحلال هذه المعامل جملة في أيام محمد علي يرجع الى أمرين : أولها أنه كان القابض على زمام مالية البلاد ، فكان ينفق على هذه المعامل كل ما تحتاج اليه ، ثانيهما أن المحصولات التي كان يشتريها من الأهالي كان لا يدفع ثمنها نقداً ، بل كان يبادل بها منهم مصنوعات المعامل . على أن معظم المعامل كما سبق أُغلق في أواخر أيامه ، وبادت البقية الباقية منها في أيام عباس الأول

## الأشغال العامة

اهم الاشغال العامة

قام محمد علي بعدة أشغال عامة عظيمة عادت على البلاد بالمنفعة الجليلة والفوائد التي لا تزال مصر تجني ثمارها الى الآن . ومن أعظم هذه المشروعات ثلاثة : حفر ترعة المحمودية ، واصلاح مرفأ الاسكندرية ، وانشاء القناطر الخيرية

ترعة المحمودية

أولاً — ترعة المحمودية . لا يخفى أن تجارة مصر في ذلك الوقت كانت تتوقف على نهر النيل وفروعه المنتشرة في أنحاء البلاد . وكان أهم الثغور التجارية حينئذٍ دِمياط ورشيد ، غير أنهما لوقوعهما عند مصبي النيل تسُد فُرَضَهما رمالُ البحرين وغِرْيَن النهر : مما يجعلهما غير صالحين للسفن الكبيرة التي تنقل التجارة الخارجية . ولاحظ ذلك محمد علي ، فعزم على تحويل مجرى تلك التجارة الى الاسكندرية ، رغم ما بها من العيوب ، اذ هي معرضة للرياح الشمالية الغربية ، وماء البحر عندها ضَحْضاح . فرأى ان من أعظم المشروعات المفيدة لذلك حفر ترعة تربط الاسكندرية بالنيل ، فحفرها وسمَّاها « المحمودية » نسبةً الى السلطان محمود الثاني . فأفادت هذه الترعة البلاد

فائدة كبرى، اذ أصبحت تجرى فيها السفن ذاهبة الى الاسكندرية حاملة حاصلات البلاد فى زمن قصير بدون مشقة كبيرة . وقد جمع الألوف من العمال وسخرهم لحفرها من جميع مديريات القطر ، حتى تمت فى أقرب وقت مع الأبنية اللازمة لها . وقد بلغت نفقاتها ٣٠٠ ألف جنيه ، كما أورده « كاوت بك » فى كتابه على مصر

ومن فوائد هذه الترعة أيضاً انها كانت سبباً فى عمران البلاد التى مرت بها واحياء أراضيها من العطف الى الاسكندرية ، بعد ان كان أكثرها غير صالح للزراعة

أما مدينة الاسكندرية فانها تغيرت بسببها تغيراً عظيماً وجرت شوطاً بعيداً فى الثروة والعمارة . وبقيت هذه الترعة أعظم طريق للتجارة بين مصر والاسكندرية حتى أنشئت السكة الحديدية

ميناء الاسكندرية

ثانياً — ميناء الاسكندرية . بعد أن حفر محمد على باشا ترعة المحمودية كلَّف « موجيل بك » ان يصلح مرفأ الاسكندرية حتى يتسنى له بناء عمارة بحرية يحقق بها ما تطمح اليه نفسه ، ويجذب بهـا التجار الأجانب الى الثغر : تسهيلاً لبيع حاصلات البلاد التى كانت جميعها فى قبضة يده . فأصلحه وبنى فيه دار صناعة بحرية وأحواضاً لبناء السفن ، فاتسع بذلك نطاق المدينة ، وانتابها التجارُ من كل حَدَب وصَوْب وأصبحوا يتنافسون فى شراء حاصلات مصر ، حتى ان احدى الشركات التجارية الانجليزية اشترت فى عام من الأعوام محصول القطن كله

القناطر الخيرية

ثالثاً — القناطر الخيرية . هذه من أجل مشروعات محمد على باشا وأعظمها فائدة للزراعة ، وقد كان لها الفضل الأكبر فى تنظيم الرى فى الوجه البحرى

رأى نابليون فى انشائها

وقد قيل ان نابليون لما قدم الى مصر فى غارته المشهورة أدرك الفائدة التى تنجم عن انشاء قناطر على النيل عند تفرعه لتنظيم المياه فى الفرعين وقت انخفاضه ، لأنه اذا حُجزت المياه عن أحد الفرعين اتجه ماء النيل كله الى الفرع الآخر ، فيرتفع سطحه عن سطح النيل الأصلى ، وتفيض المياه منه الى الترع فتروى الأراضى . وقال نابليون عندئذ : « ان هذه الفكرة لا بد أن تخرج يوماً ما الى حيز الوجود »

فلم يمضِ طويل عهد حتى تحقق ذلك القول وظهر المشروع الى حيّز الوجود على يد البطل العظيم محمد على باشا . ومن أهم الأمور التى حَدَثَتْ به الى انفاذه انتشار زراعة القطن فى الوجه البحرى ، اذ كان ينمو فى فصل الصيف ويُروَى فيه

تعميق الترع

وأول فكرة خطرت لمحمد على لتدارك ذلك أن يزاد فى عمق الترع حتى تنصب فيها مياه النيل وقت انخفاضه ، فترُفع منها بالسواقى والشواديف وغيرها من آلات الرفع الى الأرض التى يراد ريها . غير أنهُ اتضح ان انفاذ هـذا المشروع يتطلب أموالاً جمة وجهداً عظيماً من الحكومة والأهلين لا يكاد يكون فى الامكان

سد أصم

ثم لاحظ محمد على ان اكثر ترع الوجه البحرى واقع بطبيعة الحال شرقى دال النيل وفى وسطها ، لارتفاع سطح الفرع الشرقى عن الغربى ، فعمد الى زيادة المياه فى تلك الترع باقامة سد أصم على الأخير يكوّن من احجار يُرمَى بعضها فوق بعض، ليمتنع الماء عن فرع رشيد ويرتفع فى فرع دمياط فيملأ الترع الكثيرة المتفرعة من هذا الفرع . وفعلاً شرع فى العمل سنة ١٢٤٩ هـ ( ١٨٣٣ م )

مشروع لينان باشا

ولكن « لينان بك » ( لينان باشا فيما بعد ) أحد المهندسين الفرنسيين النبغاء الذين كانوا فى خدمة الحكومة المصرية أشار عليهِ بعدم اقامة هذا السد الأصم ، لما ينشأ عنه من حرمان أراضى فرع رشيد ، ولرفعه مياه النيل وقت الفيضان فى فرع دمياط الى درجة يخشى منها . وعرض عليـه مشروعاً آخر ، وهو اقامة قنطرتين عظيمتين فى عرض فرعى دمياط ورشيد بعد نقطة افتراقهما عند رأس الدال ، فى كل قنطرة عيون تُحكَم عليها أبواب تُرتَج فى كلا الفرعين بالتناوب أثناء الصيف ؛ فاذا حُجزت المياه قَبْلها عن فرع ارتفع الماء فى الفرع الآخر وملأ الترع العظيمة التى تستمد منه والتى يتوقف عليها الرى الصيفى فى الوجه البحرى . وفى أيام الفيضان تُفتح الأبواب ، فتسير المياه فى مجراها الطبيعى بلا مقاومة

فأعجب محمد على باشا بالمشروع الجديد وأمر بتشكيل لجنة لدرسه والبدء بإنفاذه

فى الحال*. وبعد فحص طويل قرّ رأى اللجنة على مشروع لينان باشا كما هو ، واختير لموضع القنطرتين موضعان على بُعد ٩ كيلومترات فى فرع رشيد و ٥ كيلومترات فى فرع دمياط . وعُمل التصميم على أن تستقى من النيل ثلاثة ( رياحات ) عظيمة : أحدها من فرع رشيد ، والآخران من فرع دمياط

ابتداء العمل

ثم ابتدأ العمل فى أواخر ١٢٤٩ هـ ( ١٨٣٣ م ) ، واستعان محمد على عَلَى انجازه بسرعة بتسخير الالوف من العمال . ولكن لسوء الحظ انتشر بالبلاد وباء عام ١٢٥١ هـ ( ١٨٣٥ م ) ، ففتك بكثير من العمال ، وكاد العمل يقف جملةً بالرغم من مقاومة لينان باشا ومثابرته . وما زال كذلك فى الاحتضار حتى نُصّب لينان باشا على وزارة الأشغال ، فلم يعد له ذلك الإشراف المباشر على إنشاء القناطر . وسئم محمد على بطء العمل ، وانقلب شغفه مللاً ، الى أن أمر بتشكيل لجنة للنظر فى الاستغناء عن المشروع . فأقرت اللجنة فائدة المشروع ، وأوصت بمواصلة العمل فيـه ، ولكن ملل الباشا كان قد بلغ أشده ، فأمر بوقوف العمل واستعمال ما بقى من المواد المعدة له فى غيره من الأعمال

وقوفه

مشروع موجيل بك

وبقى المشروع كأن لم يكن ، الى أن قدم الى مصر مهندس فرنسى آخر يدعى « المسيو موجيل » ( موجيل بك فيما بعد ) عام ١٢٥٨ هـ ( ١٨٤٢ م ) ، فعرض على محمد على مشروعاً آخر ضمّنه انشاء قلاع على القناطر لجعلها مركزاً حربياً للدفاع عن مصر، لعلمه باهتمام الباشا بالشؤون الحربيـة . فأعجب الباشا بالمشروع أيما اعجاب ، وأمر لينان باشا أن يمد موجيل بك بما لديه من المعلومات فى هذا الشأن

الفرق بين المشروعين

ويختلف مشروع موجيل بك عن مشروع لينان باشا بأن موضع القنطرتين فى الأخير كان على بعد ٩ كيلومترات من رأس الدال فى فرع رشيد و ٥ كيلومترات فى فرع دمياط ، بيد ان موجيل بك رأى اقامة القنطرتين فى موضعين قريبين جداً من

* ومن شدة رغبته فى انجازه على وجه السرعة انه أراد هدم أهرام الجيزة لاستخدام أحجارها فيه ، لولا أن أقنعه لينان باشا ان قطع الاحجار من المحاجر أسهل من ذلك وأشد اقتصاداً

رأس الدال ، فصارتا قريبتين احداهما من الأخرى كأنهما عمل واحد ، وفى ذلك تسهيل لإدارة حركة القناطر وصيانتها بعد انشائها . على أن مشروع لينان باشا كان يمتاز باختيار موضعين صالحين جداً لانشاء القناطر ، لصلابة الأرض عندهما وموافقة الشواطئ لذلك

السرعة الزائدة فى العمل

فشرع موجيل بك فى العمل عام ١٢٥٩ هـ ( ١٨٤٣ م ) مبتدئاً بفرع دمياط ، فلم تعترضه صعوبة تذكر ، الى أن ابتدأ العمل فى فرع رشيد فى سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧م ) . فأخذ الملل يستولى على محمد على ، وأمر أن تضاعف السرعة فى انجاز العمل ، فأضر ذلك بالأساس حتى صار من الضرورى اصلاحه فى العام التالى . ورأى موجيل بك أن يرجئ العمل سنة حتى يصلح وتمظم متانته ، فلم يرض الباشا .

وفاة محمد على

وبينا الأمر كذلك اذ مات محمد على عام ١٢٦٥ هـ ( ١٨٤٩ م ) قبل أن يرى نتيجة المشروع الذى طالما تاقت نفسه الى اتمامه

مظهر بك يتولى العمل

ثم تولى عباس باشا الأول ولم تكن له ثقة فى نجاح هذا العمل ، فأراد توقيفه ، لكنه خشى الرأى العام وسمح بمواصلته . وفى سنة ١٢٦٩ هـ ( ١٨٥٣ م ) أغضبه بطء موجيل بك فعزله وسلّم القناطر الى مظهر بك . ثم استؤنف العمل فى انجاز القناطر دون الشروع فى اصلاح أساسها وتقويم ما تصدع منها ، فتمت بكل لواحقها من طرق وشرفات وقلاع عام ١٢٧٧ هـ ( ١٨٦١ م )

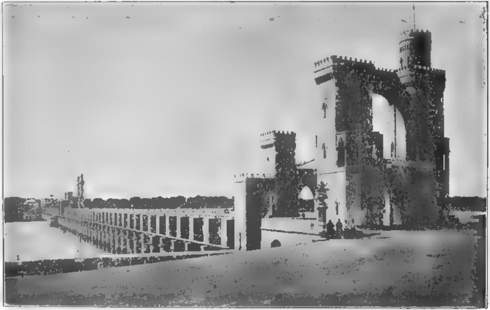
النفقات

وقد قُدّرت نفقاتها لذلك الوقت بنحو ١,٨٠٠,٠٠٠ جنيه عدا أعمال السخرة التى لا يستهان بها . وقد قدَّر « السير ولْكُكْس » ما تكلفته القناطر على البلاد بنحو ٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه

وعند ما جُربت القناطر لأول مرة اتضح أنها لا تفى بكل الغرض المراد منها الآ بعد الاصلاح . وسنأتى على ذكر ذلك عند الكلام على الأعمال العامة التى تمت بعد عام ١٣٠٠ هـ ( ١٨٨٢ م )

مشروعات اشغال اخرى

هذه هى أهم الأشغال العامة التى قام بها محمد على ، وقد كاد يهم بانفاذ مشروعات



القناطر الخيرية

رأى محمد على في قناة السويس

أخرى خطيرة ، مثل مد سكة حديدية بين السويس والقــاهرة ، ومثل حفر قناة السويس : مما سنتكلم عليه فى موضعه . ونقول بمناسبة هذا المشروع الأخير أنه بعد أن خرجت الحملة الفرنسية من مصر ظل بعض العلماء الفرنسيين يفكرون فى ابراز هذا المشروع الخطير الى الوجود ، وقصد جماعة منهم مصر ليحببوا الى محمد على حفر هذه الترعة . فقابل مشروعهم فى أول الأمر بصدر رحب ، وكلف المسيو لينان ( لينان باشا ) أن يرسم له خطة لذلك . لكنهُ عاد فتراخى فى الأمر، ويقال إنهُ لم ينظر الى المشروع بعين الرضى ، إذ قال مرة فى حديث له : «إنى لا أريد أن أجعل وادى النيل طريقاً دولياً » . وقال فى حديث آخر : « إنى أخشى أن تكون هذه الترعة بسفوراً آخر* »

## نهضة التعليم

صعوبة نشر التعليم

تولى محمد على شئون مصر فى عصر ساد فيه الجهل بين أهلها ، وانحطت فيه مداركهم ، ودُرست دور العلم عندهم . وهذه نتيجة طبيعية لحكم المماليك البيكوات الذين قبضوا على البلاد بيد من حديد مدة وضعوا فيها بين المصرى وبين نور العلم الحديث حجاباً كثيفاً لم يزده طول حكمهم الا جدةً . والسبب فى ذلك يرجع الى ما فُطروا عليه من الجهالة وعدم ميلهم الى التعلم ، واعتزالهم العالم بأسره

فلما رأى محمد على ما عليه البلاد من التدهور أراد أن يصلح حال رعيته بالتعليم فوجّه اليه شطراً عظيماً من عنايته . فاعترضه فى طريقه عدة عقبات ، إذ كان الآباء يمتنعون عن ارسال أبنائهم الى دور العلم ، مع تكفله بنفقات تعليمهم وإطعامهم وإلباسهم ، وكان يحبب اليهم العلم والتعليم باعطائهم الرواتب الشهرية . ومن العجيب أنهُ كان مع هذا يضطر غالباً الى أن يقود التلاميذ الى دور العلم بالسلاسل والأغلال ومن هؤلاء أفراد نبغوا وساروا فيما بعد بالتعليم شوطاً بعيداً

أما المدارس التى أسسها محمد على فكانت على ثلاثة أنواع : ابتدائية وتجهيزية وخاصة

المدارس الابتدائية

فأنشأ خمسين مدرسة ابتدائية فى أمهات البلاد ، وكان عدد من فيها من الطلبة

* يعنى انها تصبح موضع نزاع بين الدول العظام ربما أفضى الى استيلاء اقواهن على مصر

أحد عشر ألفاً تقريباً . وأسس مدرسة لتعليم نخبة أبناء الأمة سماها كلية الأمراء كان يتعلم فيها ابناؤه وأبناء الأمراء ، بلغ عدد تلاميذها نحو ٥٠٠ تلميذ

المدارس الخاصة

أما مدارسه الخاصة فكانت عدة . وأهمها وأعظمها فائدةً للبلاد مدرسةُ الطب التى قضت على عهد التمائم والسحر والرُّقَى وغيرها من أنواع الشَّعْوَذة التى كان يتطبّب بها المصريون . والفضل فى إنشاء هذه المدرسة راجع الى الدكتور « كلوت بك » أحد نجباء الفرنسيين الذين كانوا فى خدمة الحكومة المصرية

مدرسة الطب

أُسست هذه المدرسة بأبى زعبل كطلب الدكتور المذكور سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧م) وكان غرضه من انشائها ترقية هذا الفن فى البلاد ، حتى يوجد بها أطباء تسد حاجة الجيوش البرية والبحرية . وقد قدم له فى هذا الشأن تقريراً جاء فى آخره: « يجب أن يكون بمصر مدرسة للطب تكون تلاميذها من المصريين المخلصين ، الذين يغارون على بلادهم ويحبون تقدم وطنهم . ويتوصل الى ذلك بانشاء مستشفى عمومى يتعلم فيه مائة



كلوت بك

وخمسون شاباً ممن لهم إلمام تام بمعرفة اللغة العربية قراءة وكتابة ومبادىء الحساب ، ويجب أن تدرس لهم اللغة الفرنسية وأنواع الطب بفروعه ولا سيما الجراحة ، وتكون مدة الدراسة بها أربع سنوات يُختبر التلميذ فى آخر كل سنة منها »

فسر محمد على من المشروع وأمر بتأسيس المدرسة وجعلها تحت رياسة كلوت بك

الطب البيطرى

وأسس محمد على بجوار هذه المدرسة مدرسة للطب البيطرى ، وولى رياستها

الهندسة والفنون للمسيو « هامون » الفرنسى ، ومدرسة الهندسة بالخانقاه جعل رئيسها «لامبير بك»

وأخرى للموسيقى بالقلعة . وبنى مدرسة لتعليم الفنون والصنائع ، وأخرى لتعليم الألسن

مدرسة الالسن وقد قال عنها « على باشا مبارك » فى كتاب « الخطط » فى ترجمة رفاعة بك ناظرها

ما يأتى : — « عرض رفاعة بك على محمد على تأسيس مدرسة لتعليم اللغات الأوربية ينتفع بها الوطن ، ويستغنى بمن يتخرج فيها عن الدخيل . فأجابه الى ذلك ، ووجّه به الى مكاتب القطر لينتخب التلاميذ لهذا الغرض ، فأسس المدرسة ، وعند الامتحان امتُحن التلاميذ فى اللغة الفرنسية وغيرها من العلوم المدرسية فظهرت نجابتهم . ثم أنشأ بها قلماً للترجمة تُرجم فيه كثير من الكتب الأوربية فى كل فرع من العلوم . وكان بهذه المدرسة أيضاً قسم تجهيزى خاص ، فنبغ فيها رجال بارعون فى انشاء اللغة العربية والعلوم . غير أن هذه المدرسة قد ألغيت فى عهد عباس باشا الأول »

التعليم الزراعى ولم يفت محمد على أمر تحسين الزراعة العملية : فأنشأ لها مدرسة ببلدة « نَبَرُوه » من أعمال مديرية الغربية ، وأحضر اليها المعلمين وآلات الفلاحة من اوربا لتدريس هذا الفن علماً وعملاً . إلاّ أنّ جهل الأهالى وقف عقبة كؤوداً أمام سيرها ، فاضطر محمد على الى نقلها الى شبرا الخيمة لتكون تحت رياسة « المسيو هامون » ، ولكن ذلك لم يجد نفعاً أيضاً ، وأخذت فى الاضمحلال حتى أغلق بابها

البعوث العلمية ولم تقف همة محمد على باشا عند انشاء المدارس فى جميع انحاء القطر ، بل أرسل عدداً كبيراً من الشبان المصريين الى أعظم ممالك اوربا وخصوصاً فرنسا لتلقى العلوم بها ، حتى اذا ما عادوا الى مصر استغنى بهم عن استزادة عدد الأوربيين . فأرسل البعوث من المصريين ليتعلموا العلوم الغربية ، وليستعينوا بآراء الفرنسيين وأفكارهم وطرق حياتهم على اصلاح شأن مصر . ومن الغريب أن آباء التلاميذ كانوا يندبون حظ أبنائهم الذين ساعدهم الحظ الأوفر باختيارهم للرحيل الى اوربا ، واستعملوا كل الوسائط لحرمان أولادهم من ثمرة العلم . فلم يثن كل ذلك عزم محمد على ، وأرسل فى عام ١٢٤٢ هـ ( ١٨٢٦ م ) أربعين طالباً فتحت لهم مدرسة خاصة فى باريس عُهد

أمر ادارتها الى الأستاذ الشهير « المسيو جومار » ، فقام بهما خير قيام ، واختار لها مدرسين اكفاء ، وخصص كل واحد من التلاميذ بدراسة فرع من العلوم خاص ليتقنه . وكان ممن تعلم بهذه المدرسة اسماعيل باشا الخديوى والأمير احمد والأمير مصطفى فاضل والأمير حليم باشا وشريف باشا ومراد باشا وعلى مبارك باشا[1]

ديوان المعارف

ثم أرسل عام ١٢٤٨ ﻫ ( ١٨٣٢ م ) اثنى عشر طالباً آخرين الى باريس ليتمموا علوم الطب ، ثم أرسل غيرهم حتى صار ما أرسله الى أوربا الى عام ١٢٥٨ﻫ (١٨٤٢م) يربو على ١٢٠ طالباً ، اكثرهم الى فرنسا ، وقليل منهم الى انجلترة وألمانيا[2]

وكان ديوان المعارف فى ذلك العصر يديره رجل كبير الهمة خطا به خطوات واسعة ، وقد أشار الى ذلك «بيتون» المؤرخ الانجليزى فى كتابه على مصر إذ قال : « ان ديوان المعارف فى عصر محمد على كان فى يد « أدهم بك » الذى قام بادارة شؤونه خير قيام ، حتى كان أحسن دواوين الحكومة نظاماً »

نقص التعليم

ومع ما بذله محمد على فى نشر العلوم كان كثيرون ممن زاروا البلاد المصرية من

---

( ١ ) وقد جاء فى كتاب المسيو « هامون » فى تاريخ مصر فى عهد محمد على نقلا عن تقرير المسيو « جومار » الى محمد على سنة ١٢٤٤ ﻫ ( ١٨٢٨ م ) ما يأتى : —

« انه خصص تلميذين بدرس العلوم السياسية ، وكان يدرس لهما قانون حقوق الدول والاقتصاد السياسى واكثر لغات أوربا المستعملة فى السياسة ، وتنقلا فى بلاد أوربا للوقوف على عادات اهلها. واختار اربعة للادارة العسكرية، وثلاثة للبحرية، وثلاثة للعلوم الآلية ( الميكانيكية ) : يتعلمون الهندسة العلمية ، ويتدربون فى المعامل ، ويتمرنون على الاشغال اليدوية . وخص فرقة بفن المدفعية والاستحكامات . وتفرغ منهم ايضا عدد لدرس الكيمياء الصناعى ، وخاصة ما يتعلق بالصباغة وعمل الزجاج وصناعة السكرين ليكونوا مديرين للمعامل التى شيدت فى مصر. وخص بعضهم بالزراعة العملية والتاريخ الطبيعى والتعدين ، وذلك للبحث عما عساه ان يوجد فى مصر من المعادن»

( ٢ ) وقد اوردنا فى الصفحة التالية صور بعض طلبة البعوث العلمية التى ارسلها محمد على باشا الى اوربا وهم :

(١) رفاعة بك ( ناظر مدرسة الالسن ) (٢) مختار بك ( احد وزراء المعارف )
(٣) حسن بك ( وزير بحرية ) (٤) مظهر بك ( مهندس القناطر الخيرية )
(٥) مصطفى محرجى ( مهندس ) (٦) محمد شافعى ( احد نظار مدرسة الطب )
(٧) محمد على باشا الحكيم (طبيب وجراح) (٨) محمد السكرى ( مدرس بمدرسة الطب )



بعض طلبة البعوث العلمية

الغربيين فى أيامه متفقين على أن اكبر غلطة له أنه أراد أن يطفر بمصر طفرة فى سبيل الرقى ، فكانت النتيجة ان ما تعلمه الأهالى لم يُبنَ على أساس متين . ونحن لا يسعنا الاّ أن نقول ان مساعى محمد على فى تحسين حال التعليم فى البلاد كانت من أنجح أعماله فى مصر ، إذ كان هو نفسه ممن يعتقد نفع التعليم الأوربى ، فأثر هذا الاعتقاد فى كثير من الأهالى أصحاب النفوذ فى البلاد ، وكان ادخاله العلوم الحديثة فى البلاد ونبوغ الذين تعلموها فى مدارس أوربا من المصريين من الدواعى التى أدت الى محو كثير من الاعتقادات القديمة فى التعليم . ولا شك أن بعض الذين تعلموا فى فرنسا نبغوا وبنوا ركناً عظيماً فى تاريخ مصر الحديث ، فضلاً عن أن ما ترجمه هم وتلاميذهم من الكتب الى اللغة العربية وطُبِعَ فى مطبعة بولاق التى أسسها محمد على أفاد العالَم المصرى فائدةً خالدة الأثر

اثره فى البلاد

ومن أياديه على العلم أنه شجَّع العلماء الغربيين وخاصة الفرنسيين الذين أتوا الى مصر ليدرسوا تاريخ الآثار المصرية . ونخص بالذكر من هؤلاء الأفاضل العالم «شمبليون» الذى خص كل حياته بحل رموز اللغة المصرية القديمة حتى أُتيح له ذلك فى عام ١٢٣٦ ه‍ ( ١٨٢١ م ) بعد أن جاهد فى سبيل ذلك جهاد الأبطال . ثم العالم « لبسيسوس » ، وقد وضع قاموساً لهذه اللغة ، ثم العالم « امبير » . وقد حل هؤلاء العلماء مشكلات عويصة فى هذه اللغة ، ومهّدوا الطريق لمن جاءوا بعدهم واشتهروا فى هذا الفن الى وقتنا هذا

مساعدة العلماء الغربيين

## الجيش

نال محمد على ولاية مصر بفطنته وذكائه ، وباغتنام الفرص والتغلب على من نازعه . وقد حصّل ذلك على كره من الباب العالى ، وإن استطاع أن يرضيه ويحافظ على مركزه سنين قلائل بما ناله من الفخار بعد قهره الحملة الانجليزية عام ١٢٢٢ ه‍ ( ١٨٠٧ م ) وتغلبه على المماليك فى جميع أنحاء القطر وقهر الوهابيين . ولكن بتعاقب

الحاجة الى الجيش

الأيام ظهر له جلياً أن رضى الباب العالى غير ثابت ، وان لا مندوحة له من تنظيم جيش قوى يعتمد عليه فى دفع كل عدو . لذلك وجّه جل عنايته لإعداد جيش يحميه من تدخل الباب العالى فى الشؤون المصرية ، ويقهر به كل مَنْ ناوأه . وقد عظم شأنه بهذا الجيش، حتى قيل انه كان فى نهاية عظمته يريد أن يرث الدولة العثمانية

محمد على والجنود الالبانية

ولا يخفى أن قوته كانت فى أول أمره مستمدة من أبناء جلدته من العساكر الألبانية، وهو لم يكن فى نظرهم ممتازاً عنهم الاّ برتبته العسكرية . لذلك كان وجودهم حوله خطراً يتهدده فى كل لحظة ، كما كانت الجنود العثمانية أيام المماليك خطراً على مَن يرسله الباب العالى من الولاة . فعمل على ابادتهم والاستعاضة عنهم بغيرهم : ممن هم أقل تمرداً وعصياناً

ولما رأى أنه لا يستطيع ابادتهم مرة واحدة اضطُر الى مجاملتهم فى مبدإ الأمر . ورأى ان أهم أسباب ثورانهم وسلبهم ونهبهم فى البلاد راجع الى تأخير رواتبهم ، فكبح جماحهم وجعلهم طوع ارادته مدة بدفعه رواتبهم بحالة منتظمة، وبذله العطايا لهم

معارضتهم فى تنظيم الجيش

وفى شهر شعبان سنة ١٢٣٠ هـ ( اغسطس سنة ١٨١٥ م ) أراد أن ينظم جيشه على الطريقة الأوربية ، وكان الجنود لا يألفون النظام ولا سيما الأوربى، فعارضوا فى ذلك أشد المعارضة ، وكانت النتيجة ان شبت نار الثورة فى القاهرة ، وتآمر الجند على الفتك به ، ونهبوا الأسواق واضطروه الى الاعتصام منهم بالقلعة، وقُتل فى تلك الفتنة كل منظمى الجيش . الاّ أنه بحذقه ودهائه تمكن من اخضاع الضباط بالعطايا، وأظهر لهم عدوله عن هذا المشروع ، فمال الجند الى الخضوع

اقصاؤهم عن القاهرة

على ان كل هذا لم يثنِ عزم محمد على عن تنظيم الجيش كما أراد ، فاتّبع الحيطة والسياسة فى ابراز فكرته وتنفيذ غرضه ، فأقصى الألبانيين عن القاهرة تدريجاً : أرسل بعضهم الى بلاد العرب ، وبعضهم الى بلاد النوبة ، ومَنْ بقى فرّقهُ فى معسكرات الأقاليم

إنشاء مدرسة حربية بأسوان

بعد ذلك أسس مدرسة لتعليم النظام الحربى فى بلدة اسوان ، لتكون قريبة من بلاد النوبة وبعيدة عن القاهرة ، وعهد بأمرها الى رجل من ضباط نابليون بونابرت اسمه المسيو « سيف »

وُلد هذا الجندى العظيم فى مدينة « ليون » من أعمال فرنسا عام ١٧٨٨ م ، وابتدأ أول طور فى حياته بالخدمة البحرية ، وحارب الانجليز فى موقعة « الطرف الأغر » ، ثم انضم الى جيش نابليون البرى وحارب فى عدة مواقع بقيادة نابليون . ولم يساعده الحظ فى الالتحام بموقعة « وُوتَرلو » ، فترك فرنسا قاصداً مصر حيث نال الحظوة التامة عند محمد على بما قام به من الخدم التى سنذكرها فى موضعها . وقد اعتنق الدين الاسلامى ، وترقى فى الجيش المصرى حتى وصل الى أعلى رتبة فيه ، وكان يُعرف بعد إسلامه باسم سليمان باشا الفرنسى ( الفرنساوى )

سليمان باشا الفرنساوى

تنظيم الجيش بأسوان

قام ذلك الرجل العالى الهمة بتنظيم هذا الجيش بأسوان مدة ثلاثة أعوام ، أعدّ فى أثنائها ضبّاطاً كثيرين ليقوموا بأمر الجيش الجديد . وكان معظمهم من شبان المماليك وصغار ضباط الألبانيين والأتراك ، أما العساكر الذين تألف منهم الجيش الجديد فكانوا فى أول الأمر من أسرى حروب السودان ، غير أن كثرة الوفيات بينهم لعدم ملاءمة الجو اضطرت محمد على الى العدول عن التجنيد منهم ، وابتدأ بجنّد الجيش من فلاحى مصر . وقد كان هؤلاء يأبون الانتظام فى سلك الجندية كل الإباء ، وبذلوا فى ذلك كل طاقتهم ، فكان الآباء يشوّهون خَلْق أبنائهم : إما بقطع الأصابع ، أو بفقء العين ، أو بنزع الثنايا ، وكثير منهم هربوا الى بلاد سورية . فلم يثنِ كل ذلك عزم محمد على ، ونجح أخيراً فى تجنيد عدد عظيم منهم ، صار فيما بعد على جانب عظيم من النظام وكمال العُدّة ، حتى أنهُ فى عام ١٢٣٨ هـ ( ١٨٢٣ م ) عند ما ثار الألبانيون لمّا علموا بحرق اسماعيل باشا ابن محمد على فى قرية شندى دخل « سيف » القاهرة يقود ٢٥,٠٠٠ من الجنود المدرّبين على النظام الجديد ، ليحموا الباشا من شرّ هذه الطائفة الطاغية ، ويثبتوا قدمه ويوطدوا سلطانهُ ، فأنعم على هذا البطل

تجنيد الفلاحين والسودان

الفرنسى برتبة «الكولونيل» ( بك ) مكافأة له على ما قام به، ثم رفع راتبه الى ١,٦٠٠ جنيه فى السنة . ومن هذا الوقت أصبح لمحمد على جيش يركن اليه ، وكان معظمه من السودان والفلاحين

المشاة والفرسان والمدفعية

ثم أسس مدرسة لعساكر المشاة فى « الخانقاه » . أما الفرسان فاتخذ لهم قصر مراد بك على الضفة اليسرى من النيل ، وعهد بأمر تعليمهم الى أحد رجال نابليون ، وهو المسيو « فَران » . ولم يَفُتْهُ أمر تعليم فرقة خاصة للمدفعية لما يعلمه من الأعمال الجليلة التى تقوم بها هذه الفرقة فى حومة الوغى ، اذ كانت ذكرى حروب الفرنسيس فى موقعة أنبابة لا تزال جديدة فى ذهنه ، وقد أبلت فيهـا المدفعية ، الفرنسية بلاء حسنًا. فناط بالكولونيل « سيجيرو » الاسبانى تأسيس مدرسة للمدفعية، فنظمها وقام بأمرها خير قيام ، فرفع مقامه محمد على ، ومنحه رتبة بك

دار الصناعة بالقلعة

ولم يترك محمد على بابًا الاّ طرقه رغبة فى تقوية جيشه الذى تتوقف عليه قوته وعظمته ، فحوّل جزءًا عظيمًا من قلعة الجبل الى دار صناعة ، حيث كان يشتغل فيها مئات من المصريين فى صب المدافع وصنع معدات الجنود والذخيرة، وكل ما يلزمهم وكان يشرف على هؤلاء عمال مهرة أحضرهم محمد على من أوربا لهذا الغرض. وقد تمكن بكل هذه المعدّات من اعداد جيش من أعظم جيوش العالم فى ذلك العصر

زيادة الجيش تدريجا

ولم يتبع فى تأليف الجيش الطريقة التى كان يتبعها فى أعماله الأخرى : أى السرعة بل كانت زيادته تدريجية . ففى عام ١٢٣٨ ﻫ ( ١٨٢٣ م ) كان عدد الجيش الجديد ٢٥,٠٠٠ جندى ، وفى عام ١٢٤١ ﻫ ( ١٨٢٦ م ) عند ما أشعل اليونان نيران حرب استقلالهم بلغ ٩٠,٠٠٠ ، وفى عام ١٢٤٨ﻫ ( ١٨٣٢ م ) بلغ ١٥٠,٠٠٠ من الجنود النظامية يستعملون ١٠٠ مدفع من مدافع الميدان . وقال كلوت بك فى كتابه على مصر عند كلامه على الجيش ان عدد الجنود المصرية عظم فى عصر محمد على حتى بلغ ٢٧٦,٠٠٠ : منهم ١٣٠,٠٠٠ من الجنود المنتظمة و ٤١,٠٠٠ من المرتزقة ( الباشبزق ) ، و ١٩,٠٠٠ بحرى ، والباقى من المهندسين وغيرهم



القلعة

( منظر عام )

## البحرية

أول أسطول

أول أسطول أنشأه محمد على كان أيام حربه مع الوهابيين ، وكان الغرض منه نقل العساكر من السواحل المصرية الى بلاد العرب . وقد أفاده فيما بعد ، إذ كان يحافظ به على السفن التجارية الذاهبة الى الشرق من لصوص البحر ، وعلى مر الأيام رأى ضرورة بقاء أسطول فى البحر الأبيض لحماية السفن التجارية من لصوص اليونان

وقبل نشوب حرب اليونان اشترى بعض السفن من البندقية ومرسيليا ، وصنع بعضها الآخر هناك على حسابه . إلا أن معظم أسطوله حُطم فى هذه الحرب فى واقعة « نوارين » كما سيأتى بعد فى موضعه

دار الصناعة البحرية

ولما علم محمد على ما للأسطول من الفائدة بعد هذه الواقعة أسس فى عام ١٢٤٥ﻫ (١٨٢٩ م) دار صناعة بحرية بالاسكندرية ، وبنى فيها مصانع خاصة لفتل الحبال وصناعة الحديد وعمل الصوارى والقلوع وكل ما يلزم للسفن ، وأنشأ فيها أيضاً مدرسة بحرية أعدّها لتمرين عدد من الشبان المصريين على العلوم والمعارف اللازمة لضباط البحرية . وكان المنوط به انشاء هذه السفن المهندس البحرى «دى سريزى» ، أما ادارة المدرسة فكانت فى يد المسيو « بيسون » ، وقد ترقى بعدُ الى رتبة أمير البحر للأسطول المصرى . ورقى هذان الرجلان العمارة البحرية الى درجة جعلتهما فى صف سليمان باشا منظّم الجيش البرى

مقدار الاسطول

وقد بلغ عدد المراكب الحربية فى عام ١٢٤٨ ﻫ ( ١٨٣٢ م ) ثلاثين قطعة تحمل ١٫٣٠٠ مدفع ، وفيها من العساكر البحرية من لا يقل عن ١٢٫٠٠٠ جندى

البعث البحرى

وأرسل جملة من التلاميذ لتلقى الفنون البحرية العملية على سطح المراكب الانجليزية

تحصين السواحل

ولم يفته أمر تحصين الشواطئ ، فأنشأ الحصون (الاستحكامات) اللازمة لحفظ السواحل ، مخافة الإغارة على البلاد كما حصل فى عام ١٢٢٢ ﻫ ( ١٨٠٧ م ) ، فأحضر لذلك مهندسين حربيين من الأجانب ، وكلفهم اختيار المواقع المهمة من جميع

السواحل المصرية ، وأنشأ بها المعاقل ، ونصب بها المدافع اللازمة والعساكر الكافية . فتضاعفت بذلك قوة مصر ، وعظم شأنها ، كما يدل على ذلك حروبه التى سنذكرها

## ميزانية الحكومة

كثرة المشروعات

قد رأينا المشروعات العظيمة التى قام بها محمد على : من اصلاح الزراعة ، وتنمية الصناعة ، ونشر التعليم وترقيته ، وتنظيم الجيش وانشاء البحرية . ويجدر بنا الآن أن ننظر كيف كان يتسنى له جمع المال اللازم لكل هذه المشروعات وتوزيعه عليها . على أن الوقوف على ذلك باليقين ليس بالأمر الهين ، لأن دفاتر المالية فى ذلك العهد لم يكن يعتمد عليها ، ولأن الحكومة المصرية لم تنشر لها ميزانية سنوية إلا بعد عهد محمد على . إلا أن بعض الأوربيين الذين كانوا بمصر فى ذلك العهد وعنوا بهذه الشؤون قدروا ذلك بوجه تقريبى يساعدنا على تفهم الوارد والمنصرف . وقد كانت الميزانية فى أول أمرها صغيرة بالطبع ، لصغر الجيش وعدم اتساع نطاق المشروعات ، وقد قدر الدخل لعام ١٢٣٦ هـ ( ١٨٢١ م ) بمبلغ ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه ، والمصروف بأقل من ذلك بيسير ، أما فى عام ١٢٤٩ هـ ( ١٨٣٣ م ) فكان تقدير الميزانية كما يأتى :

الميزانية فى ١٨٢١ و ١٨٣٣ م

| الايراد | جنيه ٢,٥٠٠,٠٠٠ | المنصرف | جنيه ٢,٠٠٠,٠٠٠ |
|---|---|---|---|
| منه : ١,١٢٥,٠٠٠ | ضريبة الأراضى | منه : ١,٢٠٠,٠٠٠ | الجيش |
| ٤٥٠,٠٠٠ | « الميزانية الصغيرة » ( من تجارة الحاصلات ) | ٤٠٠,٠٠٠ | البحرية |
| ١٨٠,٠٠٠ | المكوس على الحبوب | | |
| ١١٢,٠٠٠ | الرسوم الجمركية | | |
| ٣٥٠,٠٠٠ | ضريبة الرءوس ( الفرضة ) | | |

و ١٨٣٨ م

ثم نمت بعد ذلك الميزانية ، حتى قدر الدخل فى سنة ١٢٥٣-٥٤ هـ ( ١٨٣٨ م ) بنحو ٤,٥٠٠,٠٠٠ ، والمصروف بنحو ٣,٥٠٠,٠٠٠ جنيه

## ٥ — ﴿ حرب اليونان ﴾

تأثير الثورة الفرنسية فى أوربا

بعد سقوط نابليون بونابرت أُبرم تحالف متين بين الروسيا وبروسيا والنمسا (الحلف المقدس) كان الغرض منهُ المحافظة على عروش الملوك فى أوربا ومقاومة كل ثورة عليهم بحد السيف. غير أن هذه المحالفة لم تُمكن تيار مبادىء الثورة الفرنسية : ذلك التيار الذى لم يكد يعم فرنسا حتى فاض على جميع بقاع أوربا . ففى سنتى ١٢٣٥ و ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ و ١٨٢١ م) شبت ثوارت فى جنوبى ايطاليا واسبانيا وبلاد اليونان

خروج اليونان على الترك

على أن الثورة فى بلاد اليونان كان الغرض منها اعلان الحرب على الترك لنيل استقلال داخلى ، فكان قيصر الروس بمقتضى ذلك التحالف المتين مضطراً الى محاربة اليونان ، مع أن السياسة الروسية كانت من زمن بعيد ترمى الى مساعدة

موقف الدول الاوربية

اليونان وكل المسيحيين فى شبه جزيرة البلقان على الدولة العثمانية . أما فرنسا وانجلترة فلم ترَ حكومتاهما مؤازرة اليونان بالرغم من ميل الأهالى فيهما اليها ، وذلك لعدم اضعاف الترك أمام الروس . فكانت النتيجة أن اليونان لم تساعدها إحدى هذه الدول رسمياً ، إلاّ بافراد تطوعوا من تلقاء أنفسهم

حالة الدولة العثمانية

وكانت الدولة العلية فى هذا الوقت فى منتهى الضعف والانحلال ، إذ كان على باشا والى يانينة قد انهك قواها كما سبق ذكره . هذا الى أن السلطان محموداً الثانى لما رأى ما عليه جيشهُ من سوء النظام والاختلال اجتهد فى اصلاحه وتنظيمه على الطرق الحديثة الغربية، فثار به الجنود وتألبوا ، وأبوا ادخال النظام الجديد (كما حصل فى عام ١٢٣٠ هـ (١٨١٥م) لمحمد على حينما أراد اصلاح جيشه) ؛ فاحتال على قتل العساكر الانكشارية ، رأس كل فتنة وسبب كل نكبة نُكبت بها الدولة ، فتم له ذلك عام ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) . فكان قضاؤه عليهم وقت ان كانت الدولة فى حاجة الى جندى واحد ، وبذلك أصبح بلا جيش تقريباً

ولما شبت نار الثورة اليونانية ، وتفاقم خطبها ، وكادت تنتهى باستقلال اليونان

بدون مساعدة الدول الأخرى لها ، رأى السلطان محمود الثانى أن يستنجد بمحمد علىّ على قمع الفتنة فى البلاد اليونانية

توليته على اقريطش

ففى عام ١٢٣٩ هـ ( ١٨٢٣ م ) عيّن الباب العالى محمد على واليًا على جزيرة اقريطش ، فوق ولايته لمصر ، وأصدر اليه الأوامر باخماد الثورة هناك ، فأرسل ابنه ابرهيم باشا ، فهزَم الثوار فى صيف ذلك العام

توليته على المورة

وفى سلخ هذا العام ( ١٨٢٤ م ) جعله السلطان واليًا على بلاد المورة لإخضاعها فجهز لذلك جيشًا مؤلفًا من ١٧٫٠٠٠ مقاتل بامرة ابرهيم باشا ، وأقلع الجيش من ميناء الاسكندرية فى ذى القعدة سنة ١٢٣٩ هـ ( يوليه ١٨٢٤ م ) . فالتقى الأسطول التركى الذى كان بقيادة خسرو باشا بالعمارة البحرية المصرية فى جزيرة رودس ، الا



ابرهيم باشا

خروج ابراهيم اليها

أن فوز القائد « بياوليس » اليونانى أجبر العمارتين على الانزواء فى جزيرة اقريطش عدة شهور . ثم تحيّن ابراهيم باشا الفرص وأفلت من المدمرات اليونانية ، ونزل فى « مُودِن » بالقرب من نَوَارين » ،* فى شعبان سنة ١٢٤٠ هـ ( فبراير ١٨٢٥ م ) .

اخضاع المورة

وبعد أشهر قلائل أخضع كل بلاد المورة ، واستولى على أمهات المدن فيها الآ « نوبليا » . وكان أهم وقائع هذه الحرب الاستيلاء على « تريبولِتْزا » ، إذ فتحها ابراهيم باشا عنوة بعد جهاد عظيم

غزو شمالى اليونان

ولما أمدّه والده بمدد جديد انتقل الى شمالى بلاد اليونان ليساعد رشيد باشا فى حصار «مِسُّولُونجى» ، وكان هذا يحاصرها من عدة شهور بدون فائدة . فعبر ابراهيم خليج « كورِنْثة » ومعهُ ١٠٫٠٠٠ جندى ، واستولى على الجزائر الواقعة عند مدخل ميناء المدينة ، وبنى فيها قلاعاً حصينة ، فأغلق بذلك الميناء . وأتمّ الحصار براً وبحراً

حصار مسولونجى

حتى لم يعد من الممكن وصولُ المدد اليها بأيّة طريقة ، فسلّمت فى رمضان ١٢٤١هـ ( ابريل سنة ١٨٢٦ م ) ، بعـد أن خسر الجيش المصرى عليها ٦٠٠٠ جندى ، وخسر الترك ٢٠٫٠٠٠

اسرى اليونان

وفى أثناء ذلك قامت نار الثورة فى بلاد المورة ثانيةً ، فرجع ابراهيم باشا لاطفائها الآ أنهُ عامل الأسرى اليونان بالقسوة ، وأرسل ما يقرب من ٥٠٠٠ أسير الى مصر بيعوا بها ( على ما قيل ) بيع الرقيق

فتح أثينا

وكان رشيد باشا أثناء تلك الفترة يحاصر « أثينا » ، وفتحها عنوة بعد المقاومة الشديدة . ثم وجّه السلطان محمود الثانى ومحمد على جل جهدهما الى تدمير الأسطول اليونانى الراسى عند « هيدرا » ، وكان لايزال قوياً

استياء انجلترة وفرنسا

ولما علمت الأمة الانجليزية والأمة الفرنسية بما فعله ابراهيم باشا فى بلاد المورة : من تخريب البلاد واستعباد نسائها وأطفالها ، حنقتا عليه وانتهزت الروسيا هذه الفرصة فبدأت تفاوضهما فى أمر التدخل ، فعُقد لذلك مؤتمر فى لندن فى ٢٩ ذى القعدة

---

* على الشاطئ الغربى من شبه جزيرة مورة

مؤتمر لندن يقرر التدخل

سنة ١٢٤١هـ ( يولية سنة ١٨٢٦م ) قرّر ارسال عمارة بحرية من قِبَل الدول الثلاث، تكون القيادة العامة فيها للقائد الانجليزى « كُدْرِنْجتون »

وكانت انجلترة وفرنسا لاتزالان تحذران ازدياد النفوذ الروسى فى شبه جزيرة البلقان ، فأمرت الحكومة الانجليزية القائد « كُدْرِنْجتون » بأن يتجنب محاربة الترك ما أمكنه ذلك ، وأن يعمل طاقته لإبرام اتفاق أساسه أن يمنح الخليفة اليونان استقلالاً داخلياً مع بقائها جزءاً من أملاك الدولة العثمانية

مدد جديد للاسطول المصرى

وفى أثناء هذه المفاوضات أرسل محمد على عمارة بحرية لتساعد العمارة التى كانت فى المياه التركية على تحطيم الأسطول اليونانى الذى كان يتوقف عليه مصير الحرب. وعند ما وصلت هذه العمارة الى المياه التركية كان القائد « كدرنجتون » قد تمكن من إبرام هدنة مع ابراهيم باشا فى مصلحة اليونان ، وفى أثنائها كانت المفاوضات دائرة بين السلطان وبينه للنظر فى منح اليونان استقلالاً داخلياً كما قدمنا ، فلم يتعرض كدرنجتون لدخول العمارة التركية المصرية فى خليج « نوارين »

عمل أساطيل الحلفاء

وفى اليوم الثانى أخبر ابراهيم باشا القائد « كدرنجتون » ان أحد زعماء اليونان ( كوكرين ) ومن تبعه من مواطنيه يهاجمون « بَتْرَاس » ، وانه مضطر الى الذهاب الى تخليصها من أيديهم ، فلم يقبل « كدرنجتون » مبارحته خليج نوارين . إلاّ أنه تمكن من الافلات ببعض سفنه ، وحاولت بقية العمارة اتباعه ، فلم يمكنها ، واضطرت الى الانزواء فى الخليج

ابتداء المناوشات البحرية

عند ذلك أصدر كدرنجتون أوامره الى أسطول المتحالفين بالدخول فى خليج نوارين ، وأن ترسو سفنه على مقربة من العمارة التركية المصرية ، فأراد الترك أن يمنعوه من الدخول فلم يفلحوا . فلما دخلت أساطيل المتحالفين وجدت الأسطول التركى المصرى مصفوفاً داخل الميناء على شكل نصف دائرة يرتكز أحد طرفيها على قلعة البلد والآخر على قلعة جزيرة صغيرة عند مدخل الميناء ، وكان يحمل ما لا يقل عن ١٩,٠٠٠ جندى و ٢٠٨٢ مدفعاً تقريباً

واقعة نوارين

ولما رست الأساطيل المحالفة فى الميناء اقتربت احدى الحراقات التركية من احدى البوارج الانجليزية ، فأرسلت هذه لها زورقاً يأمرها بالابتعاد ، فكان الجواب ان صوّبت على الزورق ناراً حامية أتت على كل من فيه . فانتشب حينئذ القتال ، وتكاثف الدخان حتى أصبح من الصعب الوقوف على ما حصل . الا ان « محرم بك » قائد الأسطول المصرى أخبر كدرنجتون أنهُ لا يريد القتال ، فأخلى له السبيل . لكنهُ عدل عن فكره الأول وصوّب مدافعه على السفينة الانجليزية « آسيا » ، فاستؤنف القتال ، ولم يمكث طويلاً حتى دمرت سفينته . وظلت الحرب مشتعلة مدة ثلاث ساعات ، فأسفرت النتيجة عن تدمير معظم العمارة المصرية التركية

تدمير الاسطول المصرى

موقف انجلترة

وتقول الحكومة الانجليزية انها لم تكن تقصد الحرب ، وانها عادت باللائمة على كدرنجتون ، اذ كان غرضها الوحيد من هذه المظاهرة البحرية اجبار الدولة العلية على منح اليونان استقلالاً داخلياً وايقاف القتال بأى حال

أما ابراهيم باشا فلم يكن حاضراً تلك النكبة بل كان فى بلاد المورة يهدئ الأحوال بها ، وقد أصبحت كلها فى قبضته . فلما سمع بهذا الخبر أبرق وأرعد . فلم يجده ذلك نفعاً . ولما ثاب الى رشده اختار خطة الدفاع ، فكان حاله فى بلاد المورة كحال نابليون بونابرت فى مصر بعد موقعة بوقير البحرية ، اذا انقطعت بينه وبين أبيه طرق المواصلات

ولم تكن موقعة « نوارين » هذه كافية لاستقلال اليونان ، ولذلك أصبح من المحتم على الحلفاء التدخل فى أمرها . الا أنه ظهر لانجلترة وفرنسا ان كل تدخل من قبلهما يخفض من شأن الدولة العلية ويزيد النفوذ الروسى ، فاقترح « بلمرستون » وزير خارجية انجلترة فى ذلك الوقت أن يحتل بلاد المورة ستة آلاف من الجنود الانجليزية ومثلها من الفرنسيين ، حتى يمنح الباب العالى تلك البلاد استقلالها الداخلى فأبى البرلمان الانجليزى ذلك ، فقامت فرنسا بالأمر وحدها وأرسلت ١٥٠٠٠ جندى لتحتل المورة ( صفر سنة ١٢٤٤ هـ : أغسطس سنة ١٨٢٨ م )

فرنسا تحتل المورة

وعند ذلك ظهر « كدرنجتون » فى المياه المصرية عند الاسكندرية ، وأرجع

الانجليز يهددون محمد على

بعض السفن التى كانت ذاهبة لمساعدة ابراهيم ، ثم أرسل الى محمد على باشا انذاراً نهائياً بتخريب الاسكندرية اذا لم يسرع باستدعاء ابراهيم واخلاء المورة . وبمساعى المستر « بَرْكر » السفير الانجليزى فى مصر تم الاتفاق مع محمد على على اخلاء بلاد المورة بشروط أهمها :

شروط جلاء الجيوش المصرية

« أن يطلق محمد على سراح الأسرى اليونانيين الذين بيعوا فى مصر ، وأن تتخلى الجيوش المصرية عن « المورة » فى أقرب وقت بحيث ينقلهم محمد على على سفنه ، وأن يخفر الأسطول الانجليزى السفن المصرية فى ذهابها وايابها ، وأن يتعهد « كدرنجتون » بارجاع أسرى المصريين وسفنهم التى أخذت منهم أثناء الحرب »

ارتياب محمد على من الدولة

ويقال أن محمد على وافق على هذه الشروط بدون معارضة كبيرة خصوصاً لما وصله من الأخبار أن الباب العالى أراد أن يقبض على جنوده ، إذ أصدر الأوامر الى قائد الأسطول التركى أن يدعو الجنود المصرية الى النزول فى سفنه بدعوى أنهُ يريد نقلهم الى الاسكندرية ( وهو مأمور سرًّا أن يرسلهم الى الدردنيل ) . والسبب فى نصب هذه الأحبولة التى فطن لها ابراهيم باشا وتجنبها أن الباب العالى هاله نجاح محمد على فى « المورة » برًّا ، فخشى بأسه وخاف على ملكه

اخلاء المورة

فأخلى ابراهيم باشا بلاد « المورة » فى ربيع الأول سنة ١٢٤٤ هـ ( اكتوبر سنة ١٨٢٨ م ) . ولما كان السلطان محمود الثانى لا يزال مصمماً على رفض تحرير بلاد اليونان أعلنت عليه الروسيا الحرب سنة ١٢٤٥ هـ ( ١٨٢٩ م ) وهزمت جيوشه فى عدة مواقع فاصلة . فلما رأى السلطان ذلك اضطر الى إبرام معاهدة « أدِرْنَة » فى السنة نفسها ، وكان من أهم شروطها تحرير بلاد اليونان واستقلالها استقلالاً تاماً

مماهدة ادرنة

## ٦ — حرب الشام

اسباب الحرب

بعد أن وضعت حرب اليونان أوزارها ، ورجعت الجنود المصرية الى بلادها ، طلب محمد على من الباب العالى أن يوليه على عكاء علاوة على ولاية مصر مكافأة

١ . عدم مكافأة محمد على

له على مساعدته فى هذه الحرب ، كما وعده بذلك من قبل ، فرفض طلبه . فلما أعلنت الروسيا الحرب على الدولة فى عام ١٢٤٥ هـ ( ١٨٢٩ م ) لم يهتم محمد على باجابة طلب السلطان أن يمد الدولة بجيش مؤلف من ٢٠٠٠٠ مقاتل وبعمارته البحرية ، إذ رأى أن لا فائدة تعود عليه وعلى بلاده من افناء ثروتها ورجالها فى مساعدة دولة تضن بمكافأته على جليل خدماته

٢ . ضعف الدولة

ولاحظ محمد على حينئذ أن الأحوال ملائمة لأن ينال بحد السيف ما منَّاه به الباب العالى ، وأنَّ هذه أحسن فرصة لديه : إذ كانت الدولة فى هذه الفترة فى منتهى الضعف والانحلال ، لتشتيت السلطان محمود شمل العساكر الانكشارية وفتكه بهم جملةً فى عام ١٢٤١ هـ ( ١٨٢٦ م ) على يد حسين باشا كما قدَّمنا ، ولتضعضع الجيوش التركية لما حل بها من الانهزام الأخير على يد الروس فى حرب عام ١٨٢٩م

ولم يكن أمام محمد على إذ ذاك معارض من دول أوربا العظام ، إذ كان كل منها مشتغلاً بما فى بلاده من الاضطراب والفتن : فكانت فرنسا منهمكة فى إطفاء نار « ثورة يوليه سنة ١٨٣٠ » وانجلترة مغلولة اليدين من جرَّاء الاضطرابات التى قامت من أجل قانون الاصلاح ، وكانت الثورة مشتعلة فى بلجيكا واسبانيا والبرتغال . أما الروسيا فكانت مشغولة أيضاً باخضاع ثورة « بولندة »

٣ . خسرو باشا

ومما ساعد فى فساد العلائق بين محمد على والدولة أن خسرو باشا كان حينئذ أكبر رجال الدولة نفوذاً ، إذ كان هو المدبّر للخليفة وقطب السياسة فى القصر السلطانى ولا يخفى ما فى صدره من الحقد والبغضاء لمحمد على من يوم خلعه عن ولاية الديار المصرية عام ١٢١٨ هـ ( ١٨٠٣ م ) كما سبق آنفاً . فصار همّهُ الوحيد طول حياته ايغار صدر الخليفة على محمد على والعمل على ثل عرشه . وكان له فى ذلك غرضان : الأول أن ينتقم لنفسه منه ، والثانى أن يحظى هو بولاية مصر . ولذلك لما نُصّب خسرو أمير البحر للعمارة التركية فى حرب اليونان لم يساعد ابراهيم باشا تمام المساعدة بل عمل جهده على افناء الجيش المصرى بعد الحرب بالمكيدة التى لم تفلح ، كما ذكرنا

٤ ـ النزاع مع والى عكاء

وكانت حالة الفلاح المصرى فى هذه الفترة غاية فى الشقاء والبؤس ، إذ أثقل عاتقه محمد على بالضرائب وبتسخيره فى حفر الترع وتجنيده تجنيداً اجبارياً . وقد أثرت هذه العوامل فيه تأثيراً سيئاً ، فكان يهلك من المصريين الآلاف فى حفر الترع وتحت تعذيب محصّلى الضرائب . ولما ضاقت الحال واشتد الكرب بالناس هاجر خلق كثير من سكان الوجه البحرى الى بلاد الشام هرباً من مظالم الحكام ؛ ورجا محمد على من « عبد الله الجزار » والى عكاء ارجاع كل من هاجر الى مصر ثانية ، فحرضه خسرو باشا على ألاّ يجيب طلبه . ولما لم تجدِ مساعى محمد على عند والى عكاء هدّده باعلان الحرب عليه . وزيادة على ما سبق كان عبد الله الجزار قد شجع المصريين على نقل حاصلات الوجه القبلى بطريق صحراء سورية بدلاً من تصديرها عن طريق الاسكندرية ، فكان ذلك مضراً بمصالح محمد على

عند ذلك لجأ عبد الله الجزار الى الباب العالى ليوقف محمد على عند حدوده ، وأن لا يتدخل فى شؤون ولاية عكاء . فأرسل الباب العالى الى محمد على بأن المصريين ليسوا عبيده ، بل هم أحرار يسكنون أنّى شاءوا ، وفى أى جزء من أجزاء الدولة أرادوا

٥ ـ تدخل محمد على فى الجزائر

وفى هذه الآونة جرت مفاوضات بين رئيس الوزارة الفرنسية ومحمد على بشأن غزو بلاد الجزائر بأسطول فرنسى مصرى ، فاقترح محمد على على فرنسا أن تسلمه أسطولها ليكون بقيادته ويتعهد هو باخضاع « داى » الجزائر فلم تقبل فرنسا ذلك . وخاف أيضاً محمد على من أن تفتح فرنسا الجزائر ، فتمتد الفتوح الفرنسية شرقاً وتكون خطراً على مصر . هذا الى أن وانجتون الانجليزى أعلمه أن أى تدخل منهُ فى أمر بلاد الجزائر يكون مدعاة الى خلعه . ولما علم الباب العالى بذلك حضّ محمد على أيضاً على عدم التدخل فى هذا الأمر ، وهدده بالخلع ، ثم عَلِمَ محمد على بعد ذلك أن السلطان على وشك أن يخلعه لما سبق ، فأعلن الحرب عليهِ خوفاً على ضياع ملكه

اعداد الحملة

ابتدأ محمد على فى اعداد الحملة لذلك فى أواخر سنة ١٢٤٦هـ ، الاّ أنها تأخرت الى جادى الأولى سنة ١٢٤٧ هـ ( نوفمبر ١٨٣١ م ) لتفشى الهيضة ( الكلرا ) فى مصر وفتكها بالناس فتكاً ذريعاً

خروجها — فسار الجيش البرى من الطريق القديم مجتازاً الصحراء الى العريش ، وكان عدده يتراوح بين الثلاثين والأربعين ألف مقاتل . وكان مؤلفاً من ست فرق من المشاة وأربع من الخيالة وقوة كافية من المدفعية . أما الأسطول فانه كان يحمل المدافع الضخمة والذخيرة ويقل ابراهيم باشا وأركان حربه ، وبينهم البطل العظيم « سليمان باشا الفرنسى »

فتح غزة ويافا — زحف الجيش البرى فى أوائل شهر نوفمبر ، فاستولى على غزة ويافا بدون أدنى مقاومة . وفى هذا الميناء اجتمع الجيش البرى بالأسطول ، ثم تولى ابراهيم قيادة الجيش وزحف على عكاء ، حيث اجتمعت جموع عبد الله الجزار . وكان غرض هذا أن يقهر ابراهيم ويرده على عقبيه كما فعل ذلك من قبل « احمد باشا الجزار » مع نابليون ، ولكن فاته أن احمد باشا الجزار كان يساعده أسطول السير سدنى سمث من جهة البحر . ومع عظم جيش ابراهيم وحسن استعداده قد دافع عبد الله الجزار عن المدينة دفاعاً شديداً مدة ستة أشهر حاول فى خلالها عثمان باشا والى حلب أن

فتح عكاء — يخلص حامية عكاء ، الاّ أن ابراهيم باشا داهمه فى الطريق وهزمه هزيمة منكرة . وبعد ذلك سقطت عكاء فى يده فى ذى الحجة سنة ١٢٤٧ هـ ( مايو ١٨٣٢م ) ، وأسر عبد الله الجزار ومَنْ معه وأرسلوا الى الاسكندرية

عزل محمد على — وفى أثناء حصار عكاء أصدر الباب العالى أمراً فى أول ذى الحجة سنة ١٢٤٧هـ ( ٢ مايو سنة ١٨٣٢م ) يقضى بعزل محمد على عن الديار المصرية وجزيرة اقريطش ( كريد ) وتولية حسين باشا ( مبيد الانكشارية ) عليها ، وتسليمه قيادة الجيش الذى سيَّره على محمد على . الاّ أن ذلك كان على غير رغبة خسرو باشا ، اذ كان

خيانة خسرو — غرضه من عزل محمد على أن يكون هو خلفه . وقد نظَّم الجيش على الطريقة الغربية عدة سنوات ليكون هو القائد له فى ساحة القتال ، وبذل جل طاقته ليحصل على قصده ، فلم يصغ له الباب العالى . فلما خابت كل أمانيه عزم على أن يعرقل مساعى حسين باشا ويفسد عليه كل خططه ، وساعده على ذلك أنه كان وزيراً للحربية فى

هذه الآونة . فلما اجتمعت الجيوش فى « أذَنَة » ( أطَنَة ) ، وكان عددهم ٤٥،٠٠٠ أبوا الاذعان لأوامر حسين باشا ( بتحريض من خسرو ) ونبذوا كل نظام أراده

فتح دمشق

وبعد سقوط عكاء سار ابرهيم باشا بجيشه الى « دمشق » ، فسلمت اليه بدون مقاومة ، وكان ذلك فى ١٦ المحرم سنة ١٢٤٨ هـ ( ١٥ يونيه سنة ١٨٣٢ م )

وحمص

ثم زحف على « حمص » حيث التقى بمحمد باشا والى طرابلس يقود نحواً من ٣٠،٠٠٠ مقاتل ، ( وكانوا مقدمة الجيش التركى ) ، وذلك فى ٩ صفر سنة ١٢٤٨هـ ( ٨ يوليه سنة ١٨٣٢ م ) فلم ينتظر محمد باشا لسوء تدبيره تلاحق الجيش التركى الذى يقوده حسين باشا شمالى هذه النقطة بنحو ٥٠ ميلاً ، بل هاجم جيش ابرهيم ، فهزمه ابرهيم شرّ هزيمة وأخذ منه كل ما لديه من الذخيرة والميرة وألفى أسير وستة وثلاثين مدفعاً . وبذلك أصبحت جلّ بلاد الشام فى يد ابرهيم . ولما علمت القبائل المجاورة بانتصارات ابرهيم باشا أرسلت اليه وفود المهنئين ، ووعدته بالمساعدة

مساعدة القبائل لابراهيم

أما حسين باشا فانه كان قاصداً حلب ، فلما علم أهل البلدة بهزيمة الجيش العثمانى أغلقوا أبوابها فى وجهه ، فاضطر الى التقهقر الى الإسكندرونة حيث يرسو الأسطول العثمانى . أما ابرهيم باشا فانه دخل حلب بدون عنــاء ولا مقاومة فى ١٨ صفر ( ١٧ يوليه ) ثم اقتفى أثر الجيش التركى ، فوجده محتمياً فى مضيق « بيلان » ( بين حلب والاسكندرونة ) ، فهاجمه وشتت شمله . وذلك فى أول ربيع الأول ( ٢٩ يوليه ) . وكانت نتيجة هذه الهزيمة ان غادر الأسطول العثمانى الاسكندرونة .

فتح حلب

واقعة بيلان

فتح أذنة

وفى الحال أرسل ابرهيم باشا ابن أخيه عباساً ليحتل بلدة اذنة خلف « جبال طوروس » وبذلك استولى ابرهيم باشا فى مدة لا تتجاوز سبعة أشهر على كل بلاد سورية

قدر ابراهيم باشا وسليمان باشا

وقد عُدَّ ابراهيم باشا فى الطبقة الأولى من قوّاد ذلك العصر بما أظهره من الحذق والدراية بالفنون الحربية . ولا يفوتنا ان نُعطى سليمان باشا الفرنسى (رئيس اركان حربه) نصيبه من الفخر فى هذه الحروب اذ كان فى هذه الوقائع سيفه القاطع وعضده المتين

أما حسين باشا فانه نفى الى نهر الطونة بعد أن ألقى خسرو باشا كل اللوم على




رشيد باشا　　سليمان باشا الفرنساوى فى حضرة محمد على باشا وابرهيم باشا

عائقه . وطلب خسرو ثانية من الباب العالى أن يوليه قيادة الجيش ويمنحه ولاية مصر ، فأبى السلطان عليه ذلك وعهد بقيادة الجيش الى «رشيد محمد باشا» ، وهو أحد رجال الدولة العظام: اشترك مع ابرهيم باشا فى حرب «المورة» وخاصة فى حصار «مسولونجى» واشتهر بعدها بمحاربة مصطفى باشا والى أشقودرة عنـد خروجه على الدولة . فعزم خسرو على احباط مساعى مُناظره الجديد كما قضى على حسين باشا وجيشه من قَبل ويظهر أن خسرو كان يعتقد ان من مصالح دول أوربا المحافظة على كيان الدولة

العلية ، فكان لا يهمه هزيمة جيش حسين باشا أو القضاء على جنود رشيد باشا أمام جيش محمد على ، إذ كان على يقين أن الدول العظام لا تسمح لمحمد على أن يجنى ثمار انتصاراته . ولا غرابة ، فقد أحسّ محمد على بخطر تدخل الدول ، ورحّب بالصلح عند ما كان جيش ابراهيم فى اطنة ، غير أنه طلب من السلطان ولاية سورية فلم يقبل

مدد جديد لابراهيم

وفى هذه الأثناء طلب ابراهيم باشا من والده المدد ، فسيّر له جيشاً مؤلفاً من ٥٠,٠٠٠ مقاتل ، وأمره بمواصلة القتال والزحف ، فتقدم فى زحفه حتى وصل الى « قونية » . وفى خلال ذلك جمع رشيد باشا جموعه عند « اخشير » (شمالى قونية)

استعداد رشيد باشا

وكانت الدولة وعدته أن تمده بعساكر البشناقيين هناك ، فخندق عند اخشير وعزم على انتظار هجوم المصريين فى هذا المكان ، غير أن خسرو باشا لم يرسل المدد واستبقاه فى القسطنطينية ، محتجاً بأن مالديه من الجند كاف للتنكيل بجيش محمد على . ثم سعى فى ارسال الأوامر الى رشيد بالاسراع فى مهاجمة المصريين خوفاً من تدخل الروسيا . فأمر السلطان رشيد باشا بالهجوم على المصريين ، فحاول رشيد باشا اقناع السلطان انه ليس لديه مئونة فى اخشير ، وأن الجيش فى حالة يرثى لها

وفى أثناء هذه الأزمة وصل « الكونت مورافييف » الروسى الى القسطنطينية فى خدمة خاصة ، فساعد خسرو فى آرائه ، فكانت النتيجة أن رشيد باشا لم يُجب الى طلبه وتُرك للقضاء والقدر

تعجيل رشيد بالقتال

على أن الجيش المصرى كان فى حالة صعبة جداً لما كان يقاسيه من البرد ، ولو انتظر رشيد باشا قليلاً لاضطر ابراهيم الى التقهقر ، ولكنه عجل بمناجزته حسب أوامر السلطان . وكان جيش ابراهيم حينئذ لا يتجاوز الثلاثين ألف مقاتل

واقعة قونية

وبعد أن تأهب الجيشان تقدم الجيش العثمانى الى الأمام ، أما الجيش المصرى فمكث فى مكانه لا يبدى حراكاً ، وكان الضباب الكثيف الكثير الانتشار فى بلاد الأناضول وفى مثل هذا الشهر خاصة ، سادلاً أستاره على الجيشين ومخفياً كلاً منهما عن عين الآخر ، ولذلك لم يبدأ ابراهيم باشا بالضرب كى لا يعرف العدو مكانه .

أما رشيد باشا فبمجرد وصوله على مسافة ٤٠٠ متر ابتدأ بإطلاق النار ، فعلم ابراهيم باشا وسليمان باشا ترتيب الجيش العثمانى ، وتفريق مدفعيتهم . ثم شاهد أيضاً سليمان باشا أن المشاة العثمانية انفصلت بسبب الضباب عن الفرسان ، فأمر المشاة المصرية بالدخول بين الفريقين ليستحيل اجتماعهما ورجوعهما الى ما كانا عليه من الالتئام .
ولقد أوقعت هذه الحركة الرعب والفزع فى قلوب الترك ، وأخذتهم الدهشة ، الى أن فاجأتهم الفرسان المصرية ، وأعملت فى فرسانهم السيف فبددت شملهم ، ووجهت المدفعية المصرية نارها على مشاة الترك فحصدتها حصداً . ولما رأى رشيد باشا أن لامناص من الهزيمة اجتهد أن يستجمع جناح جيشه الأيسر فلم يفلح ، ووقع أسيراً فى يد المصريين ، فجاءوا به الى ابراهيم باشا . ولما علم الجيش بأسر قائدهم ولّوا الأدبار ، وبذلك انتهت واقعة «قونية» الفاصلة ( ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٤٨ هـ : ٢١ نوفمبر ١٨٣٢ م )

فتح اكثر الاناضول

وقد فرح سكان آسيا الصغرى فرحاً عظيماً بانتصارات ابراهيم . أما هو فتقدم بجيشه الى «كوتاهية» غربى «اخشير» وهدّد «بروسة»، فى الوقت الذى كان فيه بعض جنوده وعماله قد أخضعوا اكثر بلاد الأناضول . وأصبح اسمه ذا تأثير عظيم فى قلوب القوم ، حتى أن أربعة من جنده وضابطاً واحداً استولوا على مدينة «أزمير» العظيمة*

فزع الباب العالى

ولما وصلت أخبار هذه الهزيمة الى الاستانة حنق الباب العالى وخاف من ضياع ملكه ، لأن بلاد آسيا الصغرى تُعتبر قلب الدولة وحصنها المكين

روسيا تمد يد المساعدة

عند ذلك مدّت الروسيا يد المساعدة للدولة العثمانية ، فطلبت من الباب العالى أن يسمح لها أن ترسل له قوة بحرية وأخرى برية لمساعدته، إلاّ أن السلطان محموداً الثانى توانى فى قبول ذلك ، وفاوض محمد على فى شروط الصلح ، فلم يرض الأبكل

* ثم عادت الجنود العثمانية فاحتلتها لعدم ارسال ابراهيم باشا ما يكفى من الجند للاحتفاظ بها . وقد ذكرنا الحادثة ايضاحا لمقدار تأثير صيت ابراهيم باشا

بلاد سورية وولاية «أذنة» (اطنة) . وفى هذا الحين أرسلت الروسيا القائد «مورافيف» يلتمس من محمد على بكل وداد واحترام توقيف ابراهيم عن الزحف على الاستانة

خوف الدول من روسيا

وأما بقية الدول العظام فقد أزعجها تدخُّل الروسيا ، فاستفسر «الكونت بروكش أوستين» سفير النمسا فى مصر من محمد على عن أغراضه ، واجتهدت انجلترة وفرنسا فى توقيف زحف ابرهيم ، ونصحتا الباب العالى أن ينزل عن صيداء وعكاء ونابلس وبيت المقدس الى محمد على . الاّ أن هذا أبى الاّ كل بلاد سورية وأذنة ، وأمر ابراهيم بالزحف على الاستانة . وذلك بتحريض من فرنسا ، لأنها رغم اتفاق سفيرها مع السفير الانجليزى فى الاستانة كانت تعمل فى الخفاء مع محمد على ، وتشجعهُ بتوسط سفيرها فى القاهرة ؛ رغبةً فى ازدياد نفوذها فى البلاد المصرية

المدد الروسى

فلما احتل ابرهيم باشا «كوتاهية» ( فبراير سنة ١٨٣٣ م ) اضطر الباب العالى الى طلب المساعدة من الروسيا رسمياً ، فأرسلت له جيشاً مؤلفاً من ١٢،٠٠٠ مقاتل تساعده عمارة بحرية ، وعسكر الجيش على الشاطئ الأسيوى عند «انكيار سكلسّى» ( هُنكار إسْكِلَه سى ) على البسفور . فأقلق تدخل الروسيا بال فرنسا وانجلترة ،

تدخل الدول

فشدّدتا على الباب العالى فى الاتفاق مع محمد على ، فأبرم معهُ اتفاق «كوتاهية» فى ذى الحجة سنة ١٢٤٨ هـ ( مايو سنة ١٨٣٣ م ) . وبه ولّى الباب العالى محمد على بلاد سورية ، وجعل ابراهيم باشا مُحصّلاً لولاية اذنة ، وعلى ذلك تمّ الصلح واطمأن خاطر انجلترة وفرنسا من جهة روسيا

معاهدة كوتاهية

أما قيصر روسيا فانهُ لم يقف عند ذلك الحد ، بل اجتهد فى اقناع السلطان أن كيان دولته يتوقف على مساعدة الروسيا لها ومحالفتها اياها . فاقتنع بذلك لما رآه من خذل الدول الغربية لهُ ، وأبرم معاهدة هجومية دفاعية مع الروسيا تُعرف بمعاهدة «انكيار سكلسى» ( هنكار اسكله سى ) فى صفر سنة ١٢٤٩ هـ ( يونية ١٨٣٣م ) وأهم شروطها أن تتعهد روسيا بحماية البلاد العثمانية من إغارة أى دولة ، وفى مقابل ذلك تتعهد الترك باغلاق الدردنيل فى وجه أساطيل جميع الدول . وكان ابرام هذه المعاهدة سرًّا بدون علم الدول الأخرى

معاهدة هنكار اسكله سى

## حكومة محمد على فى بلاد الشام وغزوته الثانية لها

اتفاق كوتاهية غير دائم

لم يكن اتفاق كوتاهية حلاًّ نهائياً للنزاع بين الدولة العثمانية ومحمد على ، إذ كان هذا من جهة يعتقد ان حكمه فى كل الولايات التى تحت سلطته لم يكن الاَّ لأجَل محدود، وكان على يقين أن الباب العالى لابد أن ينزعها من يده متى سمحت له قوته وساعدته الأحوال، وان ما امتلكه بحد السيف لا بد أن يعمل جهده ليحافظ على كيانه بحدالسيف أيضاً. فأفلح فى إثارة نار الفتنة فى بلاد ألبانيا، وكان يدس الدسائس فى الاستانة لخلع محمود الثانى وتولية ابنه عبد المجيد مكانه . ومن جهة أخرى كانت الاشاعات تتواتر أن السلطان يريد الاستفادة من معاهدة «انكيار سكلسى» باعلان الحرب على محمد على. وكانت الفرص مساعدة للسلطان ، إذ تألّب معظم أهل الشام على ابراهيم باشا ، وثاروا فى وجهه ، وابتدأ تذمّرهم منه فى ربيع عام١٢٥٠هـ(١٧٣٤م)

تذمر السوريين من ابراهيم

والسبب فى ذلك يرجع الى عسف حكومته وظلمها . إذ اتضح جلياً لأهل الشام أن حكومة الباب العالى كانت أقل ظلماً وأحسن حالاً من حكومة محمد على . وقد ذكرنا آنفاً أنهُ لما دخل ابراهيم باشا بلاد الشام قابله الأهالى بالتهلل والاستبشار والتفوا حوله ، وانما كان ذلك يرجع الى أمرين :

الأول عدم ميل الأهالى الى السلطان محمود الثانى من جراء المصائب التى انصبّت على الدولة العثمانية فى مدته ولاسيما ابرامه لمعاهدة « أدرنة » التى اعتبرتها الأمة من أعظم النكبات التى انتابت الدولة

والثانى قسوة الأحكام التركية منذ فارقها الفرنسيون عام١٢١٤هـ( ١٨٩٩ م ) ، لأنها قبل حملة نابليون عليها كانت تتمتع بشبه استقلال ، ولكن بعد الحملة قررت الدولة عليها الضرائب الفادحة ، وابقت الجنود التى أرسلتها لطرد الفرنسيين فى البلاد يعيثون فيها فساداً

فلا غرابة بعدئذٍ أن يستقبل أهلُ الشام ابراهيم باشا بكل فرح وابتهاج . وقد أدخل بعض اصلاحات فى بادئ الأمر كانت مفيدة له وللبلاد ، إذ صرف معظم

السنتين الأوليين فى درس أحوال الشام ، وفى توطيد عرى التحالف بينه وبين القبائل القوية التى ينتظر أن يركن اليها عند الحاجة فى تنظيم قوّة حربية يعتمد عليها فى اخماد نار الفتن الداخلية ، أو صد هجمات الدولة حال اعلانها الحرب عليه . وقد جعل الحاكم العام على البلاد الشامية « شريف باشا » أحد أقربائه ، وكان ذا أخلاق فاضلة وخبرة فى الأمور السياسية : وجعل « حنا بحرى » أحد السوريين مساعداً له فى ادارة الشؤون المالية ، وكان ذا حذق ومهارة فى ذلك . ثم ساوى بين كل الديانات أمام القانون : لافرق بين المسلم والمسيحى ، وعقد فى كل بلدة من أمهات البلاد مجلساً كانت تُنتخب أعضاؤه من المسلمين والمسيحيين على السواء . وكل هذه المجالس كانت تحت سيطرة « مجلس المشاورة » فى عكاء ، اذ كان بمثابة محكمة عليا : تتسلم دخل البلاد ، وتولّى الحكام ، وتخابر الحكومة الرئيسية فى مصر

اسباب تذمر السوريين

وبعد أن وضع ابراهيم هذه الأنظمة رأى أن لابد لضمان سير الأحوال على ما يروم من جيش عظيم يعوّل عليه ، وأن يكون له موارد للثروة يستقى منها . فأول عمل قام به للحصول على المال أن احتكر جميع أصناف الحرير وبعض المواد الأخرى ، وسخر الأهالى وأكرههم على زرع الحاصلات التى لاغنى للبلاد عنها كالحبوب ، وعلى غرس النباتات التى تلائم طبيعتها . فكان من نتائج ذلك مهاجرة الأهلين الى بلاد الجزيرة وآسيا الصغرى ، كما هاجر أهل مصر عام ١٢٤٥ هـ ( ١٨٢٩ م ) وكان سبباً من أسباب حربه الأولى مع الدولة

ثلاثة أوامر شديدة

وفى أثناء سير الأحوال فى البلاد الشامية أصدر محمد على باشا ثلاثة أوامر لابنه ابراهيم وهى : ( ١ ) أن يضرب الجزية ( الفرضة ) على كل فرد بدون تمييز بين الجنسية والديانة ( ٢ ) أن يجنّد جيشاً من البلاد بالاجبار ، وأن يأخذ كل ما يحتاج اليه هذا الجيش من الحيوان ( ٣ ) أن ينزع السلاح من كل السكان

ومن الغريب أن هذه الأوامر كلها صدرت دفعة واحدة . فكانت النتيجة أن تذمَّرَ الأهالى وثاروا فى عام ١٢٥٢ هـ ( ١٨٣٥م ) وأحدثوا فتنة تفاقم خطبُها وامتد لهيبها

فى طول البلاد وعرضها ، وكان أهم مادعاهم الى العصيان نزع السلاح منهم . غير أن ابراهيم باشا استطاع أن يخضع العصاة فى دمشق وحلب وماجاورهما من البلاد بدون عناء

سفر محمد على الى الشام

أما فى طرابلس وعكاء وجبال لبنان ونابُلُس ( التابعة لولاية دمشق ) فقد قاومه الثائرون فيها مقاومة عنيفة ، حتى أن محمد على لما علم بحرج مركز ابراهيم باشا أعدّ كل ما يمكن جمعه من الجند والذخيرة وسار بنفسه الى مساعدته . فنزل فى يافا ، وبحذقه ومهارته تمكن من ضم سبعة من رؤوس الثوّار اليه فى مدة وجيزة ، ثم حارب أهالى نابلس ، ودخل بلدهم دخول المنتصر ، وفى هذه الاثناء ثارت طائفة النُصَيرية [1] فأخضعها المصريون سريعاً ، إلاّ أن الدروز ، والمارونية [2] استمروا فى مقاومة الجنود المصرية حتى رجب سنه ١٢٥٢ ﻫ ( اكتوبر سنة ١٨٣٦ م ) ، اذ تمكن فيه ابراهيم باشا وبمحالفةُ الأمير بشير الشهابى [3] والى لبنان من اخضاعهم ونزع السلاح منهم ، فى أقل من ستة عشر شهراً

اطفاء الفتنة

ومن ذلك الحين ابتدأ الأهالى فى الشام ينفرون من محمد على ، وينظرون اليه بعين العداوة والبغضاء ، ولا سيما بعد أن بدّل بالحكام الملكيين غيرهم من الجيش ، ونشر عساكره فى جميع انحاء البلاد

ولا يفوتنا أن نذكر أن إخضاع الثورات الداخلية فى الشام ( التى تبلغ مساحتها أربعة أمثال مساحة مصر الزراعية ) ، وجلب الجنود اليها ومايلزمهم من البلاد المصرية كل ذلك أثقل عاتق الحكومة المصرية وسبّب أزمة مالية سنة ١٢٦٠ ﻫ ( ١٨٤٤م)

الدول ضد المتعدى

وفى أثناء هذه الفتن الداخلية فى بلاد الشام كان السلطان محمود الثانى يريد منازلة محمد على ، آملاً استرجاع ما فقد ، ففى سنة ١٢٤٩ ﻫ ( ١٨٣٤ م) احتج على دول أوربا العظام التى كانت تمنعه عن الدخول فى الحرب مع خصمه محمد على لتخليص

---

( ١ ) طائفة قريبة من الاسماعيلية فى المذهب تقطن الجبل بين لبنان ونهر العاصى

( ٢ ) طائفة مسيحية تقطن لبنان تابعة لكنيسة رومية ظاهراً لكنها محافظة على تقاليدها القومية

( ٣ ) هو راس بيت عربى يزعم انتماءه الى قريش ، وقد تنصر بشير هذا وتبعه بعض أهل بيته ليتولى زعامة نصارى لبنان ( وهم اكثر قطانه )

ورعاياه من ظلمه . فلما علم محمد على بنية الباب العالى أعلن الدول أنه اذا ظهر الأسطول العثمانى فى جنوب جزيرة رودس فانه لا يرى مندوحة من مهاجمته واعلان عدم الطاعة والاذعان للخليفة . فصرحت الدول العظام بأنها ستكون ضد المعتدى . ولذلك خاف كل من الفريقين ، وأجّل اعلان الحرب مدة ست سنوات . ولكن بالرغم من كل ذلك بقى كلا الجانبين يستعد للحرب

خوف روسيا من الدول

أما الروسيا التى كان الباب العالى يعتمد على مساعدتها فإنها أحجمت عن الخوض فى هذا المشروع الذى لم تتحقق حسن عواقبه ، لأن قيصر الروس ابتدأ يدرك أنهُ اذا شرع فى انفاذ شروط معاهدة هنكار اسكله سى قامت فى وجهه دول أوربا وأخضعته بحد السيف . فان دول أوربا الكبرى وخاصة انجلترة وفرنسا والنمسا كانت تحذر تدخل الروسيا ، وأخذت على عاتقها أن تمنع استنجاد الدولة العلية بها ، سواء أكان الاعتداء من السلطان على محمد على أم من محمد على عليه

الدولة تريد الحرب

ومما شجع الباب العالى الأخبار التى كانت تأتيه عن تمرد أهل الشام وعدم رضاهم بحكم ابراهيم باشا . وعن انهزام المصريين شر هزيمة أمام عرب « حوران » فى سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) . ولذلك ابتدأ فى استعداده البرى والبحرى بهمة جديدة

وكان محمد على فى هذه الأثناء فى رحلته الى بلاد السودان (١٢٥٤هـ : ١٨٣٨م) ليقف على حقيقة كنوز الذهب التى كان يمنّى نفسه أن يستعين بها على شن الغارة على السلطان اذا اضطره الحال الى ذلك

خوف الدول

وفى ذى القعدة سنة ١٢٥٤ هـ (يناير سنة ١٨٣٩ م) عقد الباب العالى مجلساً حربياً قرر فيه تجهيز ٨٠,٠٠٠ جندى بقيادة حافظ باشا ، فلما علم سفراء الدول بذلك اضطربوا وخافوا من ضياع الدولة . لأن فرنسا وانجلترة والنمسا كانت لا تزال تخاف من تدخل الروسيا تنفيذاً لمعاهدة هنكار اسكله سى

الدولة تقرر الحرب

وفى ٢٢ يناير عقد الباب العالى مجلساً آخر لتقرير الحرب أو السلم انتهى بتقرير محمود الثانى أخيراً اعلان الحرب ، وذلك لأن حافظ باشا كان يمنّيه بالنصر ، ورشيد باشا

(الذي كان في هذه الآونة قائماً بتأدية مأمورية خاصة في باريس ولندن) صرح الباب العالي خطأ أن كلاً من انجلترة وفرنسا لا تتعرضان للسلطان اذا هو هاجم محمد على

منشور محمد على الى سفراء الدول

فقفل محمد على راجعاً من سنار عند ما علم من عباس بن طوسون (وكان نائباً عنه في مصر) بالاستعدادات الحربية التي كانت قائمة على قدم وساق في القسطنطينية ولما وصل الى القاهرة كتب منشوراً وأرسله الى جميع سفراء الدول معلناً فيه أنه برئ من كل هذه المشاكل، وأن لابد له من مقابلة القوة بالقوة. ولما وصل هذا المنشور الى يد السلطان احتدم غيظاً وشدد في الاسراع بتجديد الحملة، ومن فرط حنقه قال: « انى أفضل الموت على التراخى فى اخضاع هذا العاصى »

انجلترة تنذر محمد على

أما محمد على فانه أراد أن يداهم الدولة قبل أن تتم إعداد جيشها الذى كان يقوم بأمر تنظيمه القائد « فون مُلتكه » وضباط آخرون من الألمان. وحدث أن الحكومة الانجليزية أبرمت مع الدولة في ذلك الحين معاهدة تجارية تتعلق بجميع أملاك الدولة، فكانت ضربة قاضية على آمال محمد على التجارية لأنه كان محتكراً كل التجارة المصرية كما سبق. فلما علم بذلك محمد على هدّد الدولة باعلان استقلاله ولو تمّ له ذلك لكان الضربة القاضية على الباب العالى، إذ كان فى ذلك نزع سيادته الاسمية والفعلية حتى من بلاد الحجاز مصدر زعامته الدينية. إلاّ أن الحكومة الانجليزية أنذرت محمد على بواسطة سفيرها فى مصر المستر « كمبل » أنه إذا شرع فى ذلك كانت انجلترة خصمه

وتحذير الدولة

وحذرت انجلترة الباب العالى أيضاً، وأظهرت له انها لا تساعده اذا كان هو المعتدى، ولا تتحمل شيئاً من نتائج هذه الحرب. أما اذا اعتدى محمد على فانها تأخذ بناصر الدولة. ولذلك خاف كل منهما أن يبتدئ بالعداء، إلاّ أن شدة بغض محمود الثانى لمحمد على جعلته يهاجمه أولاً، ولذلك عند ما طلب محمد على أن يكون لخلفه حق الوراثة لجميع الولايات التى تحت سلطته من بعده أعلن السلطان أن محمد على خائن للخليفة، وأرسل الجيش لاخضاعه

الدولة تعلن الحرب

واقعة نصيبين

تجمع الجيش التركى عند « سيواس » بقيادة حافظ باشا ، ثم زحف الى جهة الجنوب حتى وصل نهر الفرات عند بلدة صغيرة تسمى «بيرجك» على الضفة اليسرى منهُ ، ثم وصلت الأوامر الى حافظ باشا بأن يجتاز النهر وينتقل الى الشاطىء الأيمن

فلما وصل هذا الخبر الى ابراهيم باشا أرسل الى والده يخبره بذلك، فأمده بالذخيرة وجيش بقيادة احمد باشا «المنكلى» ناظر الحربية المصرية . وكان ابراهيم باشا فى هذا الحين بمدينة حَلَب لقُربها من الحدود الشمالية، ووفرة المؤونة فيها، ثم سار من هذه البلدة قاصداً «نَصيبين» (بلدة على نهر الفرات)، وكان قد علم أن الجيش التركى عسكر فيها وانهُ حصلت بعض مناوشات بين الباش بزق السلطانية وبين فرسان العرب عند « تل باشر » جعلت سليمان باشا الفرنسى يهتدى أثناءها الى التحصينات المهمة التى أقيمت أمام نصيبين ، وتبين له أنهُ يتعذر مهاجمتها من هذه الجهة ، ففكر ابراهيم باشا وسليمان باشا فى الدوران حول نصيبين ليهاجموها من الجهة التى لم يحصنها الترك

انهزام الترك

عند ذلك أشار القائد « ملتكة » ومن معه من الضباط الألمان على حافظ باشا أن يهاجم المصريين أثناء سيرهم غير متأهبين للحرب ، فلم يقبل حافظ باشا ذلك فدار ابراهيم باشا بجيشه وهاجم الجيش التركى . وبالرغم من محاولة بعض الفرق الشامية من جيش ابراهيم الانضمام الى جيش الترك شتت الجيش المصرى شمله فى ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٥٥ هـ ( ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ م ) . وكانت خسائر الترك فادحة جداً حتى أصبح السلطان فى الحقيقة بلا جيش ، ومن حسن حظ الخليفة محمود أنه مات قبل أن يصل خبر هذه الهزيمة الى القسطنطينية بعدة أيام . وهكذا أصبحت الدولة العلية للمرة الثانية تحت رحمة محمد على

تولية السلطان عبد المجيد

ولما تولى الخلافة السلطان « عبد المجيد » كان سنه إذ ذاك لا يتجاوز السابعة عشرة، فتسلم خسرو باشا منصب الصدارة العظمى، وكان قبل ذلك مغضوباً عليه . ولما علم بذلك احمد باشا فوزى أمير البحر التركى (وكان خسرو باشا من أشد أعدائه) حزن حزناً شديداً وصمم على تسليم العمارة البحرية الى محمد على، بدعوى أنهُ خائف

خسرو يتولى الصدارة

على حياته من خسرو، وأنه ربما اغتاله كما اغتال السلطان محموداً الثانى (حسب اعتقاده) وأظهر أن لا بد من عزله لسلامة الدولة، وقد صرح برأيه هذا الى القبودان «ووكر» الانجليزى مساعده

خيانة الاسطول العثمانى

فأقلع بأسطوله من الدردنيل، وكانت مأموريته فى هذا الحين أن يساعد حافظ باشا من جهة البحر، فالتقى فى أثناء سيره بالأسطول الفرنسى، وأخبر قائده «لالاند» بما أخبر به أمير البحر «ووكر»: من أن الحزب الروسى (أى حزب خسرو) سمّ السلطان، وأنه متوجه بالأسطول الى اقريطش، فأخبره «لالاند» ان اقريطش فى يد محمد على، وان معنى الذهاب اليها تسليم العمارة البحرية له. وبعد ذلك بأيام قلائل وصل الأسطول التركى الى المياه المصرية. وانضم الى الأسطول المصرى. فلما علم الضباط بنية أميرهم همّوا بالتألب عليه، فاستمالهم محمد على

ذهابه الى جانب محمد على

ورسا الأسطول التركى فى الميناء الغربى بالاسكندرية على بُعد ستة أميال من الشاطئ، وكان مؤلفاً من ٢٠ بارجة تحمل ٢١ ألف جندى بحرى، ثم نَزَلَ الضباط وقابلوا محمد على. الاّ أن القائد «ووكر» لم يرجع ثانيةً الى الأسطول، محتجاً بأن الحكومة الانجليزية لم تخول له الخدمة تحت إمرة محمد على

بقاؤه بالمياه المصرية

ولما علم سفراء الدول بهذا الحادث استولى عليهم الهلع، وأظهروا لمحمد على استياءهم من خيانة أمير البحر، وأنهم لا يريدون أن يكون شريكاً له فى هذه الجريمة، ونصحوا له أن يُرجع الأسطول التركى الى الاستانة. فغضب لذلك محمد على وقال ان الحرب تبيح لأحد الفريقين أن يقبل الفارّين من الفريق الآخر. وكانت حالة الدولة فى هذا الحين فى منتهى التعس والاضمحلال، حتى أن خسرو باشا طلب من أمير البحر أن يرجع مع العفو التام من الخليفة، فأجابه هذا أنه ليس خارجاً على الباب العالى وانما يخشى غدره وخيانته: وانهُ لن يبرح المياه المصرية ما دام هو المحرِّك لسُكان سياسة الدولة، والقابض على زمامها

## تدخل دول أوربا

خوف الدول من روسيا

كان أول همّ لدى الدول الكبرى منع الروسيا من إنفاذ شروط معاهدة « هنكار اسكله سى » والانتفاع بها ، ولذلك كان من المحتم عليها ان تعمل جميعها للوصول الى ذلك . الآ أن الباب العالى ، لمنع زحف ابرهيم باشا على القسطنطينية ، قرر إعطاء مصر لمحمد على وذريته من بعده واعطاء الشام لابراهيم الى أن يخلف والده على مصر . وكان هذا الاتفاق على رغبة من الروسيا لأنه يخلصها من اتفاق هنكار اسكله سى ولا يحط من سلطتها فى القسطنطينية ، فرأت الدول الكبرى ان الأمر أشد خطورة من أن يفصل فيه الباب العالى وحده ، ولذلك كتبت اليه تعلمه ألاّ يفاوض محمد على فى شيء ، ولا يتفق معه الاّ بواسطة الدول . فلما فطنت الروسيا لغرضهم لم تعارض فى الأمر ، وبذلك ظهرت الدول الكبرى بمظهر المشجع للباب العالى على معارضته لمحمد على ورفضه لمطالبه

الدول تلغى قرارات تركيا

فرنسا وانجلترة

الى هذا الحد كانت فرنسا وانجلترة متفقتين ، لأنهما اجتهدتا معاً فى توقيف النفوذ الروسى فى البلاد العثمانية ، ورأتا أن أحسن حل للمشكل القائم بين محمد على والدولة وضع الدولة تحت حماية الدول الكبرى جميعاً . ثم ابتدأ الخلاف بينهمـا ، لأن « بلمرستون » وزير خارجية انجلترة كان يعتقد أن الدولة العلية لا تصير فى أمان الاّ اذا كانت صحراء سيناء الحد الفاصل بينها وبين محمد على . والرأى العام فى فرنسا من جهة أخرى كان ميالاً لمحمد على ، إذ كان يرى فيه حليفاً يعتمد عليه فى منازعة الدولة البرطانية فى البحر الأبيض المتوسط

وقوع الخلاف بينهما

مؤازرة فرنسا لمحمد على

لذلك عرضت فرنسا على انجلترة أن يُمنح محمد على وذريته من بعده كل الولايات التى تحت يده ، فلم يوافق على ذلك بلمرستون مع شدة ميله الى استجلاب مودة فرنسا . غير انه عرض عليها فى شعبان سنة ١٢٥٥ هـ ( اكتوبر سنة ١٨٣٩ م ) أن تكون مصر وراثية لأسرة محمد علي ، وأن يتولى محمد على أيضاً ولاية عكا الى

طرابلس ودمشق . وبعد مفاوضات طويلة أعلن « تييرس » رئيس الوزارة الفرنسية فى مايو سنة ١٨٤٠ أن فرنسا لا تقبل ذلك ، بدعوى أن هذه الشروط لا توافق محمد على وأنه اذا أعلن بها اندفع فى زحفه على آسيا الصغرى ، وأن أساطيل الدول لا يمكنها أن تقوم بعمل ما ضده ( اللهم الا امتلاك بعض البلاد على الساحل ) ، وليس فى قدرتها طرده من بلاد الشام . وكان تييرس فى هذه الأثناء يخابر محمد على والباب العالى سرًّا فى ابرام اتفاق لمنح محمد على كل بلاد سورية ، فلما علم بلمرستون بذلك قطع كل رجاء فى مؤازرة فرنسا له

روسيا تتفق مع انجلترة

وفى أثناء ذلك أرادت الروسيا أن تتفق مع انجلترة فى حل المسألة التركية المصرية ، فأرسلت سفيراً عرض على الحكومة الانجليزية أن الروسيا مستعدة أن لا تتدخل فى المسألة التركية وحدها وأنها تبادر الى التنزول عن شروط معاهدة هنكار اسكله سى ، وفى مقابل ذلك يُقْفَلُ الدردنيل والبسفور فى وجه كل السفن ويُسمح للروسيا وحدها ان تمر منهما لحماية الدولة العلية وقت الخطر

الدول تعمل من غير فرنسا

فابتدأت الدول الأربع ( الروسيا وبروسيا والنمسا وانجلترة ) تفاوض محمد على بواسطة « الكولونيل هُدْجس » السفير الانجليزى بمصر ( وكان قد عُين بدلاً من الكولونيل « كمْبل » للقيام بهذه المهمة خاصةً ) . فلم يصغ محمد على لكل تهديدات « هدجس » ووعيده ، مرتكناً على ما كانت تعده به فرنسا من المساعدة ، ولذلك رفض كل مفاوضات الدول الأخرى . فلما يئست الدول الأربع منه أبرمت مع الدولة العثمانية « معاهدة لندن » فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ هـ ( ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ م ) بدون علم فرنسا . وقررت فى هذا المجتمع أيضاً الطرق التى يجب اتخاذها لاخضاع محمد على . وأهم شروط هذه المعاهدة ما يأتى : —

معاهدة لندن

( ١ ) الزام محمد على بارجاع ما فتحه من بلاد الدولة العلية وأن يحفظ لنفسه الجزء الجنوبي من الشام الشامل مدينة عكاء

( ٢ ) أن يكون لانجلترة الحق بالاتفاق مع النمسا فى محاصرة فرض الشام ، ومساعدة كل من أراد الهجرة من أملاك محمد على والرجوع الى الدولة

(٣) أن يكون لسفن الروسيا والنمسا وانجلترة معاً حق الدخول فى البسفور والدردنيل لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها ، وأن لا تدخلها سفن مادامت الدولة غير مهددة بخطر

وفى مادة خاصة اشترطت الدول أنهُ اذا خضع محمد على لرأى الدول فى مدة عشرة أيام أعطتهُ ولاية مصر وراثية وجنوبى بلاد الشام الشامل لولاية عكاء مدة حياته ، واذا أصر على عصيانه الى ما بعد هذه المدة أعطته ولاية مصر فقط ، واذا لم يخضع فى مدة عشرة أيام أخرى عادت الدول الى النظر فى الأمر من جديد

حنق فرنسا

ولما وصل خبر هذه المعاهدة الى فرنسا هاج الرأى العام ، وقامت الاستعدادات الحربية على قدم وساق . فنصحت الحكومة الانجليزية لملك فرنسا « لويس فليب » بواسطة ملك البلجيك أن يتبصر فى عواقب هذه الاستعدادات الحربية . ففطن لذلك الملك وعزل « تييرس » رئيس الوزارة وعيَّن بدله « جيزُو » ، الاَّ أنهُ لم يتمكن من توقيف الاستعدادات الحربية لهياج الرأى العام

عدم خضوع محمد على

أما محمد على فقد مضت عليه المدة المعينة ، ولم يقبل شيئاً من هذه الشروط ، فأعلن الباب العالى خلعه وحصر الشواطئ المصرية والشامية . وكان محمد على من جهة لا يزال مؤملاً مساعدة فرنسا له ومرتكناً على قوة جيش ابنه ابراهيم ، ومن جهة أخرى كانت فرنسا تعتقد فى عظم جيوش محمد على وانهُ يمكنهُ أن يقاوم الدول حتى تجهز هى جيشها . ولكن الحوادث أظهرت غير ذلك . فأحجمت فرنسا عن مساعدة محمد على بعد سقوط وزارة « تييرس » ، وتلاشى جيش ابراهيم أمام قوى الدول المتحدة كما سيأتى . وسهّل عليها الأمر نزول انجلترة عن الاصرار على حرمان محمد على من مصر ذاتها

خلعه

## الحملة الأخيرة

تدابيره فى الشام

لما جاء الى سليمان باشا الفرنسى والى بيروت نبأ ما قرره الباب العالى بدأ فى الاستعداد الحربى ، وأبلغ سفراء الدول أن بلاد الشام فى حالة حرب . وكان ابراهيم

فى ذلك الوقت فى دمشق بجيشه المؤلف من أربعين ألف كامل العدة : وهو الجيش الذى كسر الترك فى واقعة نصيبين وقونية من قبلها

وكان محمد على فى أعظم سطوته وبأسه ، اذ قد بلغ عدد جيشه فى هذا الوقت ربع مليون جندى منها ١٣٠٠٠٠ من الجنود النظامية و ٤٠٠٠٠ من رجال البحرية

فأول عمل قام به مناصبًا الدولة أن أعلن : ١ – أن الفرنسيين آتون لمساعدته ٢ – أنه حامى الاسلام ضد الكفار ٣ – تحذير المارونية من الانجليز ، وقال انهم يقصدون بتدخلهم فى الأمر نصرة الدروز على كاثوليك لبنان

خروج الشام على ابراهيم

الاّ أن ذلك لم يُجْد نفعًا ، لأن أهالى الشام كانوا قد سئموا حكمه ، فثاروا على ابراهيم باشا بمساعى «وِتْشَرْدوُود» أحد رجال السفارة الانجليزية ، فانه جمع رؤساء القبائل وأوضح لهم عاقبة الحالة حتى أفلح فى اثارة خاطرهم على ابراهيم . وربما كان هذا أكبر سبب فى هزيمة الجيش المصرى ، إذ بمجرد ظهور أسطول المتحالفين فى المياه الشامية قامت الثورة فى لبنان ، فكان تأثيرها فى القضاء على ملك محمد على فى الشام أكثر من أساطيل الحلفاء وجيوشهم

تأثير ثوران لبنان

أساطيل الحلفاء امام بيروت

ابتدأت المناوشات عندما وصلت أساطيل الحلفاء أمام بيروت بقيادة «ستُبفُورْد» و «نبْيِير» الانجليزيين ، ومعها جيش عثمانى مؤلف من ٤٠٠٠ جندى . فشرعت الأساطيل فى اطلاق قنابلها على بيروت ( رجب سنة ١٢٥٦ هـ : سبتمبر ١٨٤٠م)

عجز ابراهيم عن انقاذ المدينة

ونزل الجيش العثمانى بالقرب من المدينة . إلاّ أنها لم تفلح فى الاستيلاء عليها لحسن دفاع سليمان باشا عنها ، ولما وصل الخبر الى ابراهيم فى دمشق سيّر مددًا الى بيروت هزم فى الطريق عند قرية «برُومانة» فى رجب سنة ١٢٥٦هـ (سبتمبر سنة ١٨٤٠) ثم انزل الحلفاء قوة أخرى عند صيداء فاستولت عليها عنوة قبل أن يصل اليها ابراهيم باشا الزاحف لتخليصها ، فاشتبك مع الحلفاء فى ٨ أكتوبر فى موقعة فاصلة عند «قلعة ميدان» كانت الدائرة فيها عليه ، وقد قال شاهد عيان ان ابراهيم باشا نجا مع ثلة صغيرة من الفرسان بكل مشقة راجعًا الى دمشق . ولما سمع سليمان باشا بذلك

انهزاماته

سقوط عكاء

أخلى بيروت ، وانضم الى ابراهيم . ثم استولت أساطيل الحلفاء على « عكا » ، وكانت فيها حامية مصرية عظيمة ، فلم تقوَ على المقاومة اكثر من ثلاثة أيام

اخلاء الشام

فلما علم محمد على بسقوط هذه المدينة حزن حزناً شديداً ، ثم أرسل بعدها بزمن يسير الى ابراهيم يأمره بإخلاء كل بلاد الشام ، لأن مركزه أصبح حرجاً جداً . ولم يتمكن من ارسال النجدات اليه براً ، لأن ما لديه من الجند كان يحرس بحّارة الأسطول التركى الذين تألبوا على احمد باشا فوزى قائدهم ، وانكروا عليه ما أتى به من العصيان ، فاضطر محمد على الى انزالهم الى الشاطئ وحراستهم . ولم يمكنه ارسال المدد أيضاً من جهة البحر خوفاً من أسطول الحلفاء الذى كان يتجوّل فى تلك المياه

صعوبة الاخلاء

ولما وصل الخبر الى ابراهيم باخلاء بلاد الشام أخذ فى اخلائها . وقد أظهر من المهارة والحذق هو وسليمان باشا فى تقهقر جيشه فى وسط صحراء سورية ما شهدت به الأعداء ، وقام كل ضابط من رجاله بواجبه وحافظ على النظام الى آخر لحظة من حياته

التقهقر

ابتدأ ذلك التقهقر من مدينة دمشق فى ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٦هـ (٢٩ديسمبر سنة ١٨٤٠م ) وكان عدد الجيش ٦٢,٠٠٠ جندى يتبعهم عشرون ألفاً من الأطفال والنساء . وقد لاقى الجيش فى سيره عناء شديداً ، إذ كانت الأعراب تتخطفه من أطرافه وأهل البلاد يناوشونه ، حتى كان يضطر الى محاربتهم من آن لآخر . وبعد أسبوع وصل الى بلدة «المزاريب» ، ومن ثم سيّر ابراهيم باشا سليمان باشا بالمدافع والخيل من طريق الصحراء الى العقبة وسار هو ومن معهُ الى أن وصل الى «غزة» وكان قد هلك أثناء هذا التقهقر ثلثا من معه من الجند وكثير من المستخدمين الملكيين فكتب الى والده يخبره بقدومه ، ويطلب منه ارسال ما يلزم من السفن لنقل الجند الى الاسكندرية وما يلزمهم من المئونة . فأرسل له أسطولاً مكوناً من ثمانى سفن

نبيير يحمل محمد على على الخضوع

وبعد سقوط « عكاء » أبحر « نبيير » بأسطول الحلفاء الى الاسكندرية وقابل محمد على ، واخبره انه اذا خضع للخليفة أخذت دول التحالف على عاتقها أن تتوسط لدى الباب العالى ليعطيه مصر وراثة . أما اذا استمر على عدم الاذعان فانه يضطر

الى ضرب الاسكندرية وتخريب قصر رأس التين نفسه . فقبل ذلك محمد على بعد أن يئس من مساعدة فرنسا له ، وردّ الأسطول العثمانى الى القسطنطينية

أما الباب العالى فلم يقبل هذا الاتفاق . إلاّ أن « بلمرستون » أشار على دول التحالف أن تنصح له بالقبول ، فطلبت الدول أولاً من محمد على أن يخضع للباب العالى خضوعاً تاماً بلا قيد ولا شرط . فامتثل لذلك وأرسل فى ذى القعدة سنة ١٢٥٦هـ ( يناير ١٨٤١م ) رقعة يظهر فيها خضوعه ويعترف بسيادة الباب العالى



بلمرستون
( زعيم ساسة أوربا فى المسألة التركية المصرية )

تقليد الولاية
فبراير سنة ١٨٤١

ولما وصلت هذه الرسالة الى الباب العالى عاد « بلمرستون » فأوعز الى الدول

المتحالفة أن يطلبوا الى الباب العالى أن يمنح محمد على ولاية مصر وراثية، فتم ذلك بتقليد ( فرمان ) فى ٢١ ذى الحجة سنة ١٢٥٦هـ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١م) هذا مؤداه:

أولاً – أن الولاية تكون لمن يختاره الباب العالى من أولاد محمد على باشا الذكور ، ثم لأولاد أولاده الذكور ، وهلم جرًّا ، بحيث لا يكون لأولاد البنات الحق فى الحكم مطلقاً

ثانياً – يجب على كل من يختاره السلطان والياً على مصر أن يسافر بنفسه الى القسطنطينية لتسلُّم تقليد التولية بيده

ثالثاً – أن الذى ينتخب والياً لمصر يُعتبر كأحد وزراء الدولة فى مخاطباته مع الباب العالى وفى المقابلات السلطانية ، بحيث لا يكون له أدنى امتياز عنهم من هذه الوجهة مطلقاً

رابعاً – أن والى مصر يكون ملزماً باتباع أمر التنظيمات العالى الذى أصدره السلطان عبد المجيد عند توليته ، وكل ما أصدره أو يصدره الباب العالى من القوانين واللوائح . ويكون الوالى ملزماً أيضاً بالسير فى ولايته طبق المعاهدات المُبْرَمة أو التى تبْرَم بين الباب العالى والدول الأجنبية أيًّا كانت بلا تغيير ولا تبديل ، إذ الحكومة المصرية لم تخرج عن كونها ولاية عثمانية كباقى الولايات

خامساً – أن سائر الضرائب على اختلاف أنواعها يكون تحصيلها باسم الجناب السلطانى، ويكون تحصيلها وتوزيعها بحسب القواعد المتبعة فى باقى ولايات الدولة العلية

سادساً – أن ربع المتحصل يدفع للخزانة الشاهانية ، والثلاثة الأرباع الباقية يصرف منها ما يلزم لنفقات الإدارة وجباية الأموال ، وما يلزم أيضاً للوالى وأسرته ، وثمن البُر الذى يرسل سنوياً الى مدينتى مكة والمدينة المنورة

سابعاً – أن هذه الضرائب تُدفع بقيمة واحدة مدة خمس سنين تبتدئ من سنة ١٢٥٧ هجرية ، وبعد انقضاء هذه المدة يمكن تعديلها إما بزيادة أو نقصان حسب ما تستدعيه ثروة الحكومة والأهلين

ثامناً – أنه لضبط المتحصل من الضرائب ومعرفة ما يخص الدولة بالتحقيق يلزم أن تعيّن لجنة من الدولة تقيم فى مصر لهذه الغاية ، ويُنظر فى تعيينها بعد كما تقتضيه الإدارة الشاهانية

تاسعاً – يكون لمصر الحق فى ضرب العملة : من فضية وذهبية ونحاسية ، بشرط أن يكون ذلك باسم السلطان المعظم ، وأن لا تختلف العملة المصرية عن العملة العثمانية لا فى الشكل ولا فى الهيئة ولا فى العيار

عاشراً – عدد الجيش المصرى يجب أن لا يتجاوز ثمانية عشر ألفاً فى مدة السلم، وأما فى أيام الحرب فيزاد هذا المقدار الى الحد الذى تقرره الدولة ، إذ أن العساكر المصرية تكون ملزمة حينئذٍ بالاشتراك والمساعدة فى القتال مع باقى الجنود الشاهانية

حادى عشر – أن مدة الخدمة العسكرية يجب أن لا تتجاوز خمس سنين ويكون جمع العسكر بطريق القرعة كما هو المتبع فى الدولة ، ومن حيث أن الجيش المصرى يبلغ ( فى ذلك الوقت ) زهاء ثمانين ألفاً ، يؤخذ منهم عشرون ألفاً ويُرجَع الباقى الى بلادهم ، ويُرسل أيضاً من هذا المقدار ألفان الى دار السعادة كى لا يبقى فى مصر الا الثمانية عشر ألفاً المقررة

ثانى عشر – من حيث أن مدة الخدمة العسكرية خمس سنين يؤخذ سنوياً من أفراد القرعة أربعة آلاف شاب ، يرسل منهم الى دار الخلافة أربعمائة و يبقى الباقون فى مصر

ثالث عشر – أن من أدى مدة الخدمة المطلوبة من الجند يعود الى بلده ، ولا يجوز ادخاله فى الجيش مرة أخرى

رابع عشر – أن ملابس العساكر المصرية وعلامات رتبهم تكون مشابهة لجنس ولون ملابس العساكر الشاهانية

خامس عشر – كذلك ملابس البحارة وضباط البحرية وبيارق المراكب تكون مماثلة لما هو متبع فى بحرية الدولة العلية

سادس عشر — لا يكون لوالى مصر الحق فى منح الرتب العسكرية للضباط البحرية والبرية الا لغاية « صاغ قول أغاسى » ( بدخول الغاية )

سابع عشر — لايكون لوالى مصر الحق فى انشاء سفن حربية الا بعد الحصول على اذن صريح من الدولة العلية

ثامن عشر — من حيث ان حق الوراثة على ولاية مصر لم يمنح لمحمد على باشا وأسرته الا بهذه الشروط ، فلو أخلّوا بأحدها سقط حقهم ، وصار لجلالة السلطان الحق فى تولية مَنْ يشاء

ومنح الباب العالى محمد على أيضاً ولايات النوبة ودارفور وكردفان وسنّار مدة حياته ، بدون أن تنتقل الى ورثته كمصر ، بمقتضى تقليد شاهانى أُصدر فى اليوم الذى أصدر فيه التقليد الأول ، أى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م . وكلفه أن يقدم حساباً عن هذه الولايات سنوياً الى دار الخلافة العظمى ، وأن يمنع ما كان متبعاً فى السودان من إغارة الجند على قرى الأهالى ، وخطف بناتهم وصبيانهم . وأن يمنع جملةً عادة خصى بعض هؤلاء التعاس الحظ لاستخدامهم فى القصور حرساً على الحريم (أغاوات) وأن يحفظ للضباط الموجودين رتبهم ، ويرسل الى الباب العالى قائمة بأسمائهم : من الرتبة التالية لصاغ قول أغاسى فما فوق ، ليصدر أمراً بتثبيتهم فى وظائفهم

تخفيف الشروط السالفة

فقبل محمد على باشا كل هذه الشروط وان لم يكن ذلك عن رضى ، ثم طلب من الدول أن تساعده فى تخفيف بعضها وتغيير بعضها الآخر . فقبلت الدول ملتمسه وأرسلت الى الباب العالى لائحة بتاريخ ١٨ المحرم سنة ١٢٥٧ هـ (١٣ مارس سنة ١٨٤١ م) تطلب منه ذلك . فنزلت الحضرة السلطانية بمقتضى تقليد آخر تاريخه صفر سنة ١٢٥٧ هـ ابريل سنة ١٨٤١ بتعديل تقليـدها الصادر فى ٢١ ذى الحجة سنة ١٢٥٦ هـ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م ) ، وهاك أهم مافيه من الشروط المعدلة :

تقليد جديد ابريل سنة ١٨٤١

أولاً — ان حق الوراثة يكون للأكبر سناً بين أولاده الذكور، مع بقاء الشرط الملزم لمن يستحق الولاية بهذه الكيفية بالسفر الى مقر دار الخلافة العظمى لتسلمه التقليد بيده

ثانياً – ان ماتدفعه الحكومة المصرية للدولة العلية (صاحبة السيادة) من الخراج لايكون ربع دخل الحكومة قبل أخذ نفقات الجباية والإدارة ، بل يصير تقديره فيما بعد مع مراعاة حالة الحكومة المصرية

ثالثاً – أن يكون للوالى حق فى منح الرتب لغاية «أمير آلاى» (بدخول الغاية) أما مافوق ذلك فلا يكون إلاّ باذن من الباب العالى

تأييده — ولما اقرت الدول هذا التعديل أصدرت الحضرة الشاهانية تقليداً آخر فى ١١ ربيع الآخر سنة ١٢٥٧ هـ (أول يونيه سنة ١٨٤١ م) مؤيداً لما فى التقليد السابق

آخر تقليد يونية سنة ١٨٤١ — وفى غرة جماد الأولى سنة ١٢٥٧ هـ (٢٠ يونيه سنة ١٨٤١م) صدر تقليد آخر بجعل مقدار ماتدفعه الحكومة المصرية الى الدولة العلية سنوياً ثمانية آلاف كيس

## ٧ – شيخوخة محمد على وحكم ابراهيم

تضعضع مصر — بعد أن انكمش محمد على فى ولاية مصر ، وحرمته الدول من فتوحاته التى اكتسبها بحد السيف وأريقت من أجلها دماء المصريين ، لم يكن فى قدرته النهوض بها الى الدرجة التى كانت تصبو اليها نفسه . والسبب فى ذلك يرجع الى أمرين : الأول تقدمه فى السن واضمحلال قواه العقلية والجثمانية ، والثانى أن حالة البلاد الداخلية كانت قد انحطت دفعة واحدة ، لما حلّ بأهلها من المصائب من جراء كل هذه الحروب التى قاموا بأعبائها وأنفقوا عليها من دمائهم وأموالهم ، حتى أصبحت البلاد فى حالة يرثى لها

ومع ذلك ابتدأ محمد على بحصن مدينة الاسكندرية على يد مهندسين فرنسيين ، وذلك حينما أجبرته الدولة على تنقيص جيشه الى ثمانية عشر الف جندى . وأرسل حفيده عباس باشا الى الباب العالى يلتمس منه أن يمنحه تقليداً أوسع نطاقاً من الأخير ، فأرضاه الباب العالى بأن منحه لقب الصدارة العظمى من غير أن يجيبه الى طلبه

كوارث أخرى — ولكن شاءت المقادير الاّ مماكسة محمد على ، ففى سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م)

انتشر طاعون الماشية فى البلاد ، وتبعهُ هبوط النيل ، فأصبحت البلاد على حافة الخراب . وفى العام نفسه اجتاح الجراد زراعة البلاد فتركها قاعاً صفصفاً ، وبذلك وقف دولاب الحكومة ، واستولى الرعب والوجل على قلوب حكام البلاد ، فاجتمع مجلس فى القاهرة وكتب تقريراً عن سير الأحوال فى مصر ، وما آلت اليه من الانحطاط . إلاَّ أنهم لاقوا صعوبة عظيمة فى تبليغ هذا التقرير الى الباشا ، ولما وصل اليه استشاط غضباً . وكان يخاف أن يخلعه ابنه ابراهيم ، ففكر فى التخلى عن الملك والذهاب الى مكة ليقضى باقى أيامه فيها . فتوسط سفراء الدول وأزالوا ما فى نفسه نحو ابنه البار

اضمحلال صحة ابراهيم

وابتدأت بعد ذلك الأحوال تتحسن شيئاً فشيئاً فى السنتين التاليتين . إلاَّ أن صحة ابراهيم فى هذه الأثناء اضمحلت دفعة واحدة ، فأشار عليهِ الأطباء بالسفر الى أوربا . فعمل بذلك ، وبعد أن طاف فى كثير من البلدان ، خصوصاً ايطاليا وفرنسا وانجلترة ، رجع الى الديار المصرية وعلامات الصحة بادية عليهِ . فلم يجد والده هناك بل علم أنهُ سافر الى مقرّ الخلافة ( رجب سنة ١٢٦٢ هـ : يونيه سنة ١٨٤٦ م ) ليحظى بالمثول بين يدى الخليفة ويقدم له ولاءه وطاعته

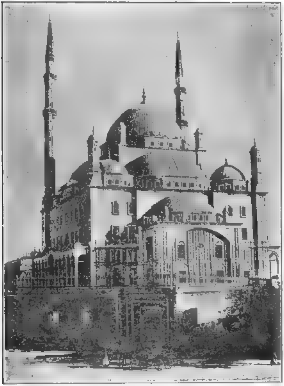
محمد على فى الاستانة

وقد قوبل محمد على من الخليفة بكل حفاوة واكرام ، وهنا تقابل مع أشد أعدائه خسرو فتعانقا طويلاً واتفقا على تناسى الماضى . ولما طالت مدة إقامة محمد على فى دار الخلافة ابتدأ رجال القصر يعاملونهُ معاملة قاسية ، فأثّر ذلك فى صحته تأثيراً سيئاً ، فلما رجع الى مصر فى أواخر ذلك العام كان أشبه بالشبح منهُ بالانسان

وفى أثناء عودته زار مسقط رأسه «قَوَلَة» التى تركها منذ عام ١٢١٤هـ (١٧٩٩م). وبعد ذلك ترك مقاليد الأمور لحفيده عباس باشا الأول ، لأن حالة ابراهيم الصحية لم تمكنهُ من القيام باعباء الأمور فى البلاد . وكانت خاتمة أعمال محمد على وضع أول حجر أساسى للقناطر الخيرية فى ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٢٦٣هـ ( ابريل سنة ١٨٤٧م ) بين جم غفير من المشاهدين

سفره الى اوربا

ثم أشار الأطباء ثانيةً على ابراهيم بالسفر الى أوربا . وفى مدة غيابه ذهب والده الى نابلى فى ايطاليا ، حيث سمع بخلع « لويس فليب » ملك فرنسا ، فتذكر خدماته له فى الأزمة الأخيرة ، وعزم على تجريد حملة لارجاعه الى عرشه . فلما علم بذلك ابراهيم قفل راجعاً الى مصر



جامع محمد على
( بالقلعة )

تولية ابراهيم باشا

وفى شعبان سنة ١٢٦٤ﻫ ( يوليه سنة ١٨٤٨م ) أصدر الباب العالى تقليداً بتولية ابراهيم باشا على الديار المصرية ، فذهب لتقديم ولائه الى الباب العالى فى القسطنطينية . وبعد عودته بزمن يسير جداً عاوده المرض الذى أضنى صحته منذ سنين عدة .

فقضى على ذلك الرجل العظيم فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٢٦٤هـ (نوفبر سنة ١٨٤٨م)، ودفن بالقرافة ، وبموته رجع عباس باشا من مكة ، فتقلد الأمور فى البلاد . ثم سافر تواً الى القسطنطينية ليتسلم تقليد التولية

وفاة محمد على

أما محمد على فلم يمكث بعد تولية عباس إلاَّ اشهراً قلائل ، كان فى أثنائها منحط القوى العقلية والجثمانية جلة لكبر سنّهِ ، الى أن فاض روحه بالاسكندريه فى ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥هـ (٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ م ) ، وبذا انتهت حياة عظيم من اكبر رجال الشرق

جامع محمد على

ونقلت جثته الى القاهرة حيث دفنت بمسجده الذى شيّده بالقلعة سنة ١٢٤٦هـ ( ١٨٣١ م ) ، وهو من أجمل المبانى التى شيدت بمصر على الطراز التركى الحديث

# الفصل الثالث

## الطريق البرية بين الهند وأوربا

الطريق القديمة وهجرها

كان من أهم موارد الثروة فى مصر فى عهد المماليك الضرائب التى كانت تجبى على البضائع والسلع المتبادلة بين أوربا والهند على طريق مصر . وقد ظلت هذه الطريق مسلوكة حتى كشف البرتغال طريق الرجاء الصالح كما سبق ، فتحولت التجارة اليها منذ ذلك العهد ، وهُجرت طريق مصر ، لسهولة الأولى وقلة نفقاتها وصون البضائع وقلة الخطر فيها ، خصوصاً ان البحر الأبيض المتوسط كان يهدّد تجارته فى ذلك العهد لصوص البحر من الترك وغيرهم . وكانت القوافل التى تحمل التجارة من السويس الى الاسكندرية تسطو عليها قبائل الأعراب وقطاع الطريق

الاسباب الجديدة لاحيائها

بقيت طريق الرجاء الصالح متبعة حتى أواخر القرن الثامن عشر عند ما فكر بعض رجال انجلترة فى احياء طريق مصر . ولا غرابة ، فان نفوذ الدولة البريطانية كان قد اتسع فى بلاد الهند ، وأصبح من الضرورى لها اتخاذ طريق أقصر للمواصلة بينها

وبين هذه المستعمرة العظيمة من طريق الرأس ، التي كانت تستغرق زمناً طويلاً

مشروع جورج بلدوين

وأول من عُني باحياء هذا المشروع «جورج بلْدوين» سفير انجلترة في مصر في عهد الثورة الفرنسية ، وأول عمل قام به للوصول الى غرضه أنه حصل على اذن من الباب العالي يخول له الملاحة في البحر الأحمر . ثم أحضر سفينة من لندن الى الاسكندرية ، وأخرى من « كلكتة » الى ميناء السويس ، ثم صعد الهرم الأكبر يرافقه ثلة من اصدقائه ، ومعهُ ثلاث زجاجات مُلئت بالماء : احداها من النيل ، والثانية من نهر التاميس ، والأخيرة من ماء الكنج . ثم شربوا من مزيج الثلاث على ذكر اتحاد الثلاثة الأنهار واتساع نطاق التجارة البريطانية على طريق الديار المصرية.

هجره

غير أن الباب العالي لم يلبث ان ألغى الإذن

مشروع برجز وهجره

وبعدئذٍ أظهر أحد التجار الانجليز بمدينة الاسكندرية وهو « المستر برِجْز » لمحمد على الفوائد المادية التي تعود على البلاد من اتصال التجارة بين مصر والهند ، وذلك أثناء حربه مع الوهابيين . فصادف ذلك هوًى في نفس الوالي ، وأرسل بعض السفن الى مياه بمبایَ ، ولكن المشروع لم يفلح طويلاً

الانجليز والتجارة المصرية

ولما ابتدأ احتكار محمد على التجارة في الديار المصرية تلهى الفرنسيون النازلون بمصر بالوظائف الأميرية عن سواها من الأعمال . وكان نظير ذلك لرجال الانجليز الحظ الأوفر في التجارة المصرية ، فكانوا يتغنّون بمدح محمد على في بلادهم ، ويذكرون له الأيادي البيضاء في تشجيع التجارة . فلما سمع بذلك «توماس وَجْهورن»

مشروع وجهورن

أحد رجال الأسطول الانجليزى الموظفين في « شركة الهند الشرقية » أخذ يعمل بكل قواه العقلية والجثمانية لإحياء هذه الطريق ، خصوصاً بعد أن توطدت دعائم الأمن العام في مصر بفضل اصلاحات محمد على ، وصار استعمال البخار في تسيير السفن من أكبر المشجعات أيضا على الدأب وراء انفاذ فكرته . فقدّم اقتراحه في أول مرة الى شركته في سنة ١٢٣٨ – ٣٩ ﻫ ( ١٨٢٣ م ) ، فلم توافق عليه بالرغم

صعوبة تنفيذه

من مساعدة «برْكر» سفير انجلترة في مصر ، ظناً منها أنه من الأمور الصعبة التنفيذ

معاضدة الحكومة الانجليزية له

ولكن المشروع لم يندثر جملةً ، ففي سنة ١٢٤٤ – ٤٥ هـ (١٨٢٩ م) أرسل السير «جون ملكم» حاكم بمباي باخرة الى السويس لنقل التجارة ، فلم تواصل رحلاتها الا زمناً يسيراً لكثرة نفقات الفحم . الا أن « بركر » مازال بفكرة « وجورن » يحمدها ويعضدها حتى طلبت منه الحكومة الانجليزية تقريراً رسمياً في هذا الصدد فاقتنعت انجلترة بالتقرير ، وماجاء شهر رمضان سنة ١٢٤٦ هـ (فبراير سنة ١٨٣٠م) حتى أصبح نجاح مشروع « وجهورن » من المحقق

معاضدة محمد على له

وفي أثناء هذا الجهاد الطويل كان محمد على من أكبر المشجعين لوجهورن ، حتى أنه من شدة ميله لمحمد على قدّم رسالة الى البرلمان الانجليزي يرجوه فيها أن ينظر الى مصر بعين الرعاية والشفقة ، وأن لايجعلها في حوزة تركيا . ولا شك أن محمد على خدم الأمة الانجليزية من هذه الوجهة ، ولذلك يعترف بعض الانجليز بأن بريطانيا العظمى مدينة له في إحياء هذه الطريق

نجاح جهاد وجهورن

أما وجهورن فقد جنى ثمرة جهاده بعد أن لاقى أهوالاً وقاسى شدائد جمة مدة عشرين عاماً . ففي ٢٧ رمضان سنة ١٢٦١هـ (أول اكتوبر سنة ١٨٤٥م) ابحرت باخرة من بمباي تحمل بريداً : فوصلت الى السويس بعد ١٩ يوماً . ثم نقل البريد برّاً الى الاسكندرية ، فبلغها في اليوم التالي ، ومنها نقل على طريق تريست ونهر الرّين

بين الهند وانجلترة في شهر

والبلجيك ، فوصل لندن في صبيحة يوم الواحد والثلاثين من شهر اكتوبر ، أي أنه لم يستغرق في طريقه اكثر من شهر*. ولقد بذلت الحكومة الفرنسية جهدها لإثبات أن الطريق من فرنسا آمن وأقصر ، فاتخذت أخيراً شركة البواخر الشرقية التي

شركة البواخر الشرقية

أسست سنة ١٢٥٥–٥٦هـ ( ١٨٤٠ م ) ميناء مرسيليا مركزاً عاماً للبريد الأوربي

تأثير ترعة المحمودية

وقد زاد في سهولة هذه الطريق أنه قبل ممات محمد على أُسست شركة سفن

---

* كان البريد ينقل بين السويس والقاهرة على الجمال بطريق الصحراء . وكان بعض رجال الانجليز قد عرض على محمد على انشاء خط حديدي على هذه الطريق ، فوافق على هذا الرأي ، وأحضرت بعض المواد اللازمة لانشاء الخط بالفعل . الا أن محمد على ارتاب فيها يحدث في عاقبة الامر وأحجم عن المشروع

تجارية تجرى فى ترعة المحمودية والنيل بين مصر والاسكندرية ، فكان متوسط المسافرين على طريق مصر بين عامى ١٢٦٨ و ١٢٦٥ هـ ( ١٨٤٢ - ١٨٤٩ م ) يبلغ ١٥٫٠٠٠ فى العام الواحد

فضل وجهورن

وتوفى « وجهورن » عام ١٢٦٦ - ٦٧ هـ (١٨٥٠م )، وكان لايزال يعترف الى آخر لحظة من حياته ان السبب فى نجاحه يُعزى الى كرم وتشجيع محمد على ، صاحب الأيادى البيضاء عليه . ولا يزال اسم « وجهورن » مقروناً بالتبجيل ، وله تمثال منصوب فى ميناء السويس . ويمتاز وجهورن على « ديلسبس » بأنه لم يستنفد أموال الخزانة المصرية ولم يحوّل المشروع الذى قام به ضد مصلحة مَن أحسن اليه ، كما فعل الآخر . وقــد اعترف بعض رجال الأمة الانجليزية بفضل محمد على ، فأهدوه فى عام ١٢٥٥—٥٦ هـ (١٨٤٠ م ) وساماً ، زُيّن أحد وجهيه برسم محمد على ، ونُقشت على الثانى العبارة الآتية :

اعتراف الانجليز بمساعدة محمد على

« الى مشجع العلم والتجارة والنظام ، الحامى لرعايا وأموال الممالك المتضادّة ، والفاتح لطريق البرية الى الهند »

## ملخص لأهم الحوادث التاريخية فى الباب الثانى

| | هـ | م |
|---|---|---|
| **أوّلاً — ﴿ الحملة الفرنسية ﴾** | ١٢١٢—١٢١٦ | ١٧٩٨ — ١٨٠١ |
| تجريد نابليون حملة على مصر | ١٢١٢ | ١٧٩٨ |
| اقلاعه بجيشه الى البلاد المصرية | ٢ ذى الحجة ١٢١٢ | ١٩ مايو ١٧٩٨ |
| وصــول نلسن أمير البحر الانجليزى بأسطوله الى الاسكندرية مقتفياً أثر الاسطول الفرنسى فلم يعثر عليه | ٨ المحرم ١٢١٣ | ٢١ يونيه ١٧٩٨ |
| وصول العمارة الفرنسية أمام الاسكندرية | ١٨ المحرم » | ١ يوليه » |
| زحف نابليون على القاهرة من طريق الصحراء بعد اخضاع الاسكندرية | ٢٢ » » | ٧ » » |
| الاستيلاء على رشيد | » | » |
| انهزام مراد بك أمام نابليون عند شبراخيت وتقهقره الى القاهرة | ٢٩ » » | ١٤ » » |
| انهزام المماليك فى واقعة انبابة (الاهرام) | ٧ صفر » | ٢١ » » |
| اجتماع العلماء بعد الموقعة وتقريرهم التسليم لنابليون | ٨ » » | ٢٢ » » |
| دخول نابليون القاهرة | ١١ » » | ٢٥ » » |
| اصلاحات نابليون فى القاهرة | » | » |
| تدمير العمارة الفرنسية فى موقعة بوقير البحرية على يد نلسن | ١٧ ربيع ١ » | أغسطس » |
| خروج سكان القاهرة على الفرنسيس خروجاً عاماً واخماد الثورة على يد نابليون | ١٠ جمادى الاولى » | ٢٢ اكتوبر » |
| تجريد نابليون حملة على بلاد الشام لصد غارة الترك على مصر | » | ١٧٩٩ |
| وصول الحملة الى يافا | ٢٥ رمضان » | ٣ مارس » |
| حصار نابليون لعكاء ورجوعه عنها لمناعتها | » | » |
| انتصار نابليون على الترك فى واقعة بوقير البرية | ٩ المحرم ١٢١٤ | ١٣ يونيه » |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| مغادرة نابليون مصر قاصداً فرنسا وعهده بالقيادة لكليبر | ١٩ ربيع ١ ١٢١٤ | ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ |
| مهادنة الفرنسيين للمماليك بعد تغلب الآخرين على معظم الصعيد | » | » |
| ادراك كليبر صعوبة مركزه وابرامه معاهدة العريش مع سدنى سمث | شعبان » | يناير ١٨٠٠ |
| عدم موافقة الحكومة الانجليزية على هذه المعاهدة | » | » |
| دخول الترك مصر بعد المعاهدة ووقوع الثورة فيها واخمادها على يد الفرنسيس وعودة النفوذ لهم فيها | » | » |
| مقتل القائد كليبر | ٢٠ المحرم ١٢١٥ | ١٤ يونيه ١٨٠٠ |
| وصول الحملة الانجليزية بقيادة السير رلف ابركرومبي لطرد الفرنسيس | شوال » | فبراير ١٨٠١ |
| انهزام الفرنسيس عند كانوب وموت ابركرومبي وتولى هتشنسن مكانه | » | » |
| جلاء الفرنسيس عن مصر بعد تسليم بليار بالقاهرة ومينو بالإسكندرية | ١٠ جمادى ١ ١٢١٦ | ١٨ سبتمبر » |
| طبع الحكومة الفرنسية أعمال البعث العلمى فى مؤلف يدعى وصف مصر | ١٢١٧ | ١٨٠٢ |
| **ثانياً — « محمد على باشا »** | ١١٨٣ — ١٢٦٥ | ١٧٦٩ — ١٨٤٩ |
| **١ — نشأته ونهوضه** | ١١٨٣ — ١٢٢٠ | ١٧٦٩ — ١٨٠٥ |
| مولد محمد على فى قولة | ١١٨٣ | ١٧٦٩ |
| قدومه الى مصر فى واقعة بوقير البرية | ١٢١٣ | ١٧٩٩ |
| قدومه الى مصر وقت حملة ابركرومبي | ١٢١٥ | ١٨٠١ |
| تولية خسرو على مصر من قبل الباب العالى | ١٢١٦ | ١٨٠١ |
| نزاع بين خسرو والمماليك وبينه وبين الجنود | | |

| | هـ | | م | |
|---|---|---|---|---|
| الثمانية يظهر فيه محمد على تدريجاً وينتهى بهروب خسرو الى دمياط | | | | |
| الاهالى يختارون طاهر باشا خلفاً لخسرو | | ١٢١٨ | | ١٨٠٣ |
| مقتله بعد ٢٢ يوماً | | | | |
| محمد على يصبح رئيس الجنود الالبانية فى مصر | | | | |
| اتحاده مع البرديسى على خسرو — مداخلة والى ينبع — أخذ خسرو سجيناً الى القاهرة | | | | |
| تولية على باشا الجزائرى | ربيع الاول | » | يوليه | » |
| البرديسى يحتال حتى يقتله | شوال | » | يناير | ١٨٠٤ |
| وصول الالفى بعد ان مكث بانجلترة سنتين | | | | |
| اتحاد محمد على والبرديسى على الالفى — فرار الالفى الى سورية | | | | |
| تظاهر محمد على بالخضوع للدولة وتأليبه الاهالى على البرديسى ومهاجمته اياه وطرده هو وابراهيم بك الى الشام | | | | |
| تولية خورشيد باشا - ضعفه وتمرد الجند عليه والتجاء الاهالى الى محمد على | | | | |
| بقاء محمد على بمصر رغم ارادة الدولة — اتفاقه مع الدلاة | | | | |
| محاصرة خورشيد باشا بالقلعة (برغبة الاهالى) | صفر | ١٢٢٠ | مايو | ١٨٠٥ |
| اختيار الاهالى محمد على والياً على مصر | | | | |
| موافقة الباب العالى على ذلك | ربيع الثانى | ١٢٢٠ | يوليه | ١٨٠٥ |
| **٢ — توطيد سلطته فى مصر** | | ١٢٢٠—١٢٢٦ | | ١٨٠٥—١٨١١ |
| أول فتك بالمماليك | جمادى الثانية | ١٢٢٠ | اغسطس | ١٨٠٥ |
| الباب العالى يحاول ابعاد محمد على عن مصر — تظلم الاهالى ووصول عهد بتأييده فى الولاية | شعبان | ١٢٢١ | نوفمبر | ١٨٠٦ |

| | هـ | | م |
|---|---|---|---|
| اتحاد البرديسى والالفى عليه | | | |
| موت البرديسى | | ١٢٢١ | ١٨٠٦ |
| موت الالفى | | ١٢٢١ | ١٨٠٧ |
| وصول الحملة الانجليزية الى مصر لتأييد سلطة المماليك | اول المحرم | ١٢٢٢ مارس | ١٨٠٧ |
| استيلاء الحملة على الاسكندرية ــ رجوع محمد على من مطاردة المماليك بالصعيد وهزمه الانجليز عند الحماد ــ عقد شروط الصلح مع محمد على وترك الانجليز البلاد | رجب | ١٢٢٢ سبتمبر | ١٨٠٧ |
| رضاء الباب العالى عن محمد على والانعام عليه وفك عقال ابراهيم ابنه | | | |
| خوف محمد على من المماليك والعمل على الفتك بهم ــ هزمه لهم عند أسيوط ــ انتشارهم فى طول البلاد وعرضها | | | |
| استرضاء محمد على للمماليك وعقد مهادنة معهم | | ١٢٢٥ | ١٨١٠ |
| تدبير المماليك الكيد لمحمد على وهو راجع من السويس ووقوف محمد على على ذلك ــ فتك محمد على بالمماليك فى مذبحة القلعة | صفر | ١٢٢٦ فبراير | ١٨١١ |
| ٣ ــ الحروب الوهابية | | ١٢٢٦ــ١٢٣٥ | ١٨١١ــ١٨١٩ |
| مولد ابن عبد الوهاب صاحب المذهب الوهابى بالعيينة من اقليم العارض ( مذهب الوهابيين يوافق مذهب اهل السنة الصحيحة ) | | | |
| حماية محمد بن سعود لابن عبد الوهاب وتشجيعه على نشر مذهبه | | | |
| وفاة ابن عبد الوهاب | | ١٢٠١ | ١٧٨٧ |
| امتداد سلطان أولاد سعود على جميع بلاد نجد | | ١١٥٩ــ١٢٠٦ | ١٧٤٦ــ١٧٩١ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| قلق شريف مكة من انتشار المذهب الوهابى وتجريده حملة على عبد العزيز | ١٢١٣ | ١٧٩٨ |
| فشل الحملة والعمل على نشر المذهب فى وادى الفرات ــ هزم والى بغداد لعبد العزيز بن سعود | | |
| مهاجمة ابن سعود كربلاء وتخريبها | ١٢١٦ | ١٨٠١ |
| دخول عبد العزيز مكة فى العام التالى بدون معارضة الشريف | | |
| قتل عبد العزيز وتولية سعود الثانى وهو أعظم رجال هذه الاسرة | | |
| تشدد سعود الثانى فى جمع الضرائب حتى أضربت الناس عن الحج | ١٢٢١ | ١٨٠٦ |
| تجريد محمد على حملة على الوهابيين بأمر الباب العالى | ١٢٢٦ | ١٨١١ |
| وصول طوسون الى ينبع وانهزامه عند الجديدة وهرب جنده | | |
| وصول المدد الى طوسون وفتحه المدينة وارسال مفاتيح الكعبة والحجرة النبوية الى والده | ١٢٢٧ | ١٨١٢ |
| مطاردة طوسون الوهابيين وانهزامه عندتربة | | |
| سفر محمد على الى الاقطار الحجازية عند سماعه بهذه النكبة لتولية القيادة بنفسه | | |
| وفاة سعود الثانى وتضعضع الوهابيين | ١٢٢٩ | ١٨١٤ |
| انهزام خلفه عبد الله سعود عند بيصل | | |
| عودة محمد على لوقوع قلاقل داخلية فى مصر | ١٢٣٠ | ١٨١٥ |
| عودة طوسون عند سماعه بتلك القلاقل ــ موته فجأة | | |
| نقض الوهابيين شروط الصلح التى عقدها معهم طوسون قبل عودته | | |

| | | هـ | | م |
|---|---|---|---|---|
| تجريد حملة الى بلاد العرب بقيادة ابراهيم باشا للقضاء على الوهابيين | شوال | ١٢٣١ | | ١٨١٦ |
| هزيمة ابراهيم عند الريس | | ١٢٣٢ | | ١٨١٧ |
| حصاره الدرعية وتسليم عبدالله له وأمره بتخريب البلد | ذى القعدة | ١٢٣٣ | | ١٨١٨ |
| مقتل عبد الله بالاستانة | | | | |
| ٤ – فتح السودان | | ١٢٣٥ — ١٢٣٩ | | ١٨٢٠ — ١٨٢٣ |
| عزم محمد على على فتح السودان لاسباب مادية وسياسية | | | | |
| تجريده حملة للاستيلاء على سيوة | جمادى ١ | ١٢٣٥ | فبراير | ١٨٢٠ |
| مسير حملة السودان من القاهرة بقيادة اسماعيل | شوال | ١٢٣٥ | يوليه | ١٨٢٠ |
| فرار المماليك من دنقلة وتشتتهم عند ما سمعوا بمجيء اسماعيل | | | | |
| سحق اسماعيل عرب الشائقية فى كرتى | | | | |
| فتحه بربر | جمادى ٢ | ١٢٣٦ | مارس | ١٨٢١ |
| فتح شندى وسنار ومرض الجيش أثناء اقامة اسماعيل بسنار | | | | |
| وصول المدد الى اسماعيل بقيادة أخيه ابراهيم — تقسيم القيادة بينهما | | | | |
| وصول اسماعيل فى زحفه الى تومات وعودة ابراهيم الى مصر لمرضه بعد أن وصل الى جبل دنكا | | | | |
| وصول مدد بقيادة محمد بك الدفتردار لغزو كردفان | | ١٢٣٧ | | ١٨٢٢ |
| هزمه بعض القبائل عند بارا واستيلاؤه على الابيض | | | | |
| انتقام الدفتردار من نمر لحرقه اسماعيل بحرق شندى | | | | |
| بناء الخرطوم وجعلها حاضرة للبلاد السودانية | | ١٢٣٨ | | ١٨٢٣ |
| ٥ – حرب اليونان | | ١٢٣٩ — ١٢٤٥ | | ١٨٢٣ — ١٨٢٩ |
| شبوب نار الثورة فى جنوبى ايطاليا واسبانيا و بلاد اليونان | | ١٢٣٥ — ١٢٣٦ | | ١٨٢٠ — ١٨٢١ |

| | | ه | | م |
|---|---|---|---|---|
| اعلان اليونان الحرب على الترك لنيل استقلالها وعدم مساعدة الدول لها | | | | |
| انتصار اليونان فى بادىء الامر واستنجاد السلطان بمحمد على على قمع الفتنة | | | | |
| تولية محمد على على جزيرة اقريطش | | ١٢٣٩ | | ١٨٢٣ |
| تولية محمد على على بلاد المورة | | ١٢٣٩ | | ١٨٢٤ |
| اقلاع الجيش المصرى من الاسكندرية الى بلاد اليونان | ذى القعدة | ١٢٣٩ | يوليه | ١٨٢٤ |
| نزول الجيش المصرى فى مودن | شعبان | ١٢٤٠ | فبراير | ١٨٢٥ |
| اخضاع بلاد المورة واستيلاء ابراهيم على أمهات المدن فيها | | | | |
| حصار مسولونجى وتسليمها | رمضان | ١٢٤١ | ابريل | ١٨٢٦ |
| قيام الثورة فى بلاد المورة ثانياً واخضاعها | | | | |
| فتح رشيد باشا مدينة أثينا | | | | |
| استياء دول أوربا العظمى من فظائع ابراهيم وعقدهم مؤتمراً لذلك فى لندن | ذى القعدة | ١٢٤١ | يوليه | ١٨٢٦ |
| اقرار المؤتمر على ارسال عمارة بحرية تعهد القيادة العامة فيها الكدرنجتون | | | | |
| اشتباك العمارة المصرية التركية مع أساطيل الحلفاء فى خليج نوارين وتدمير العمارة المصرية التركية | المحرم | ١٢٤٣ | أغسطس | ١٨٢٧ |
| احتلال فرنسا لبلاد المورة بعد رفض البرلمان الانجليزى الاشتراك معها | صفر | ١٢٤٤ | أغسطس | ١٨٢٨ |
| ظهور الاسطول الانجليزى فى المياه المصرية وتهديده محمد على | | | | |
| اتفاق محمد على مع الانجليز على اخلاء بلاد المورة | | | | |
| اخلاء ابراهيم بلاد المورة | ربيع الاول | ١٢٤٤ | اكتوبر | ١٨٢٨ |

| | ه | | م | |
|---|---|---|---|---|
| تصميم السلطان محمود على رفض تحرير اليونان واعلان الروسيا الحرب عليه لذلك | | ١٢٤٥ | | ١٨٢٩ |
| انهزام الترك أمام الروس واضطرارهم لعقد معاهدة أدرنة واقرارهم فيها على تحرير اليونان | | ١٢٤٥ | | ١٨٢٩ |
| ٦ - حرب الشام | | ١٢٥٦ — ١٢٤٧ | | ١٨٤١ — ١٨٣٢ |
| استياء محمد على من الباب العالى لعدم مكافأته على مساعدته فى حرب المورة ولاسباب أخرى | | ١٢٤٥ | | ١٨٢٩ |
| ابتداء استعداد محمد على للحملة على الشام | | | | |
| خروج الحملة بعد تأخرها بسبب الهيضة | جمادى ١ | ١٢٤٧ | نوفمبر | ١٨٣١ |
| زحف الجيش البرى واستيلاؤه على غزة ويافا | | | | |
| حصار عكاء وسقوطها فى يد ابراهيم | ذى الحجة | ١٢٤٧ | مايو | ١٨٣٢ |
| اصدار الباب العالى أمراً بخلع محمد على أثناء حصار عكاء | » » | » | » | » |
| فتح دمشق | ١٦ المحرم | ١٢٤٨ | ١٥ يونيه | ١٨٣٢ |
| انهزام محمد باشا والى طرابلس عند حمص | ٩ صفر | ١٢٤٨ | ٨ يوليه | ١٨٣٢ |
| استيلاء ابراهيم على حلب | ١٨ صفر | » | ١٧ » | » |
| هزيمة حسين باشا فى مضيق بيلان | ١ ربيع ١ | » | ٢٩ » | » |
| هزيمة رشيد باشا فى واقعة قونية | ٢٧ جمادى ٢ | » | ٢١ نوفمبر | » |
| احتلال كوتاهية | شوال | » | فبراير | ١٨٣٣ |
| معاهدة » | ذى الحجة | » | مايو | » |
| معاهدة هنكار اسكله سى | صفر | ١٢٤٩ | يونيه | » |
| ابتداء خروج أهل الشام على ابراهيم باشا | | ١٢٥٠ | | ١٨٣٤ |
| استفحال الثورة فى الشام — سفر محمد على باشا الى الشام لاطفائها | | ١٢٥٢ | | ١٨٣٥ |
| انهزام المصريين فى الشام أمام عرب حوران | | ١٢٥٤ | | ١٨٣٨ |
| تقرير الباب العالى اعلان الحرب على محمد على | | | | |

| الحادث | هـ | | م | |
|---|---|---|---|---|
| اتهازاً لفرصة خروج الشام | ذى القعدة | ١٢٥٤ | يناير | ١٨٣٩ |
| رجوع محمد على من السودان لما علم بذلك | » | » | » | » |
| هزيمة الجيش التركى بقيادة حافظ باشا عند نصيبين | ١١ ربيع ٢ | ١٢٥٥ | ٢٤ يونيه | » |
| مجيء الاسطول العثمانى الى مصر وانضمامه الى محمد على | | » | | » |
| ابتداء تدخل دول أوربا فى المسألة المصرية التركية | | » | | » |
| انفراد فرنسا بمؤازرة محمد على | | » | | » |
| معاهدة لندن لاخضاع محمد على | ١٥ جمادى ١ | ١٢٥٦ | ١٥ يوليه | ١٨٤٠ |
| اعلان الباب العالى خلع محمد على عن الشام | ٥ رجب | » | ٢ سبتمبر | » |
| عدم خضوع محمد على وشروع الدول فى اخضاعه بالقوة | | » | | » |
| ضرب أساطيل الحلفاء ميناء بيروت | رجب | » | ٢ سبتمبر | » |
| هزيمة ابراهيم باشا فى برومانة ثم فى قلعة ميدان واخلاء بيروت واستيلاء الحلفاء على عكاء | | » | | » |
| ابتداء اخلاء الشام | ٥ ذى القعدة | » | ١٩ ديسمبر | » |
| خضوع محمد على للسلطان | ذى القعدة | » | يناير | ١٨٤١ |
| صدور تقليد من السلطان بمنح محمد على ولاية مصر وراثية | ٢١ ذى الحجة | » | ١٣ فبراير | ١٨٤١ |
| تخفيف شروط هذا التقليد بتقليد آخر | صفر | ١٢٥٧ | ابريل | ١٨٤١ |
| تأييد هذا التقليد بآخر | ١١ ربيع ٢ | » | ١ يونيه | ١٨٤١ |
| **٧ — شيخوخة محمد على وحكم ابراهيم** | | | | |
| انتشار طاعون الماشية بمصر وهبوط النيل واجتياح الجراد الزراعة | | ١٢٥٩ | | ١٨٤٣ |
| سفر محمد على باشا الى الاستانة | رجب | ١٢٦٢ | يوليه | ١٨٤٦ |
| وضع محمد على باشا أول حجر من أساس القناطر الخيرية | ٢٢ ربيع ٢ | ١٢٦٣ | ابريل | ١٨٤٧ |
| تقليد ابراهيم باشا ولاية مصر | شعبان | ١٢٦٤ | يوليه | ١٨٤٨ |
| اشتداد المرض على ابراهيم ووفاته | ١٣ ذى الحجة | » | نوفمبر | » |
| وفاة محمد على باشا | ١٣ رمضان | ١٢٦٥ | ٢ أغسطس | ١٨٤٩ |

# الباب الثالث

تاريخ مصر

# بعد عهد محمد على باشا

## الفصل الأول

## عباس باشا الأول وسعيد باشا

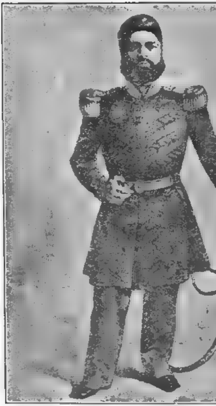
### ١ — ﴿ عباس باشا الأول ﴾

( ١٢٦٥ - ١٢٧٠ هـ : ١٨٤٩ - ١٨٥٤ م )

تدهور مصر — بعد موت محمد على كادت مصر تكون نسياً منسياً ، لا أهمية لها فى نظر أوربا ، لولا مرور تجارة الهند عن طريق مصر . وذلك لأن من خلفه من ذريته لم ينالوا تلك الصفات التى ميزته وجعلته فى مصاف عظماء الرجال

تولى الملك عباس باشا الأول ( ابن طوسون بن محمد على ) فى ٢٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ : ( ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م ) ، وكان إذ ذاك يناهز السادسة والثلاثين من عمره ، فكان أول عمل قام به أن هدم كل ما أفنى فيه جده العظيم زهرة حياته ، غير مفرق بين النافع والضار . فكما قضى على احتكار التجارة المجحف بحق الفلاح ،

عباس يهدم أعمال سلفه — أنقص الجيش الى تسعة آلاف ، وأغلق المعامل والمدارس ، واستغنى عن كثير من الموظفين الغربيين وأظهر ميله الى العادات والأنظمة التركية والبلدية



عباس باشا الأول

عزلة عباس

مضى عباس باشا معظم حكمه بمعزل عن الناس ، متهاوناً فى شؤون المُلك، غير مكترث بما فى ذلك من الضرر. ولعل له عذراً فى ذلك. إذ أنهُ لمَّا شاهد فشل حروب الشام بقيادة ابرهيم باشا ، ورأى سقوط جده الكبير والقضاء على كل آماله ، رأى أنه من العبث مقاومة أوربا ، وأدرك أن البلاد فى حاجة الى السكينة والراحة ، وأن لاداعى الى المظاهر الأوربية الكاذبة التى كان يعتقد أنها تسربت الى مصر قبل ميعادها تلك كانت خطته . ولما رأى أنه يحيط به قطيع من الذئاب الغربية وطائفة من

عيوبه ومحاسنه

الموظفين المتملقين ، الذين لاهمّ لهم إلاّ جمع الثروة من حوله ، اعتزل جميعهم إلاّ نفراً قليلاً من سفراء الدول وخدمه الخاصة ، فكانت حياته سرًّا غامضاً . وقد ذمه كثيرون من أجل ذلك ، ولكن كفاه فخراً أنهُ خلص الأمة من نهب الأجانب فى مدة حكمه : ولم يثقل كاهلها بشيء من الديون كما فعل غيره من بعده

الخط الحديدى بين مصر والاسكندرية

وفى أيامه أنشئ أول خط حديدى فى مصر بل فى ممالك الشرق بأجمعها ، وذلك هو الخط الممتد بين الاسكندرية والقاهرة . وقد قام بهذا المشروع «رُبَرْت استيفِنْسُن» مخترع القُطُر البخارية ، اذ أخذ على عاتقه جلب كل المهمات اللازمة لمده ، وابتدأ العمل سنة ١٢٦٨ هـ ( ١٨٥٢ م ) وتممه فى عام ١٢٧٢ هـ (١٨٥٦م) . وكان الموعز بمدّ هذه السكة الحكومة الانجليزية ، لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين الهند وأوربا عن طريق مصر . وقد عارضت فى الأمر الحكومة الفرنسية ، فسبب ذلك بعض التأخير فى انجاز المشروع

وراثة الملك

وكان عباس باشا يريد حرمان عمـه « سعيد » من الملك بعده ليكون لابنه « إلهامى » . فأتت المقادير على عكس ما أراد ، اذ قتل فجأة فى قصره فى بنها ، وكان ابنه الهامى غائباً عن الديار المصرية ، فورث الملك سعيد باشا بدون أدنى معارضة ، وذلك فى ذى الحجة سنة ١٢٧٠ هـ ( ١٢ يوليه سنة ١٨٥٤ م )

مقتله

ولقد كثرت الاشاعات عن سبب مقتل عباس باشا الأول . فالمتداول على الألسن أن خصيين قتلاه خنقاً وهو نائم فى فراشه . وقال آخرون انهُ قتل بايعاز بعض أقربائه الذين كانوا يريدون نزعه من ولاية الملك . وهناك فريق آخر يعزى سبب قتله الى أسباب سياسية . وكتم خبر موته عدة أيام ، ثم نقلت جثته من بنهـا الى قصره بالعباسية*، ومنها نقلت الى مقرها الأخير بقرافة الامام الشافعى بالقاهرة

* سميت صحراء الريدانية « العباسية » منذ عهد عباس باشا الاول لاتخاذه قصره بها

## ٢ — ﴿ سعيد باشا ﴾

( ١٢٧٠ – ١٢٧٩ ﻫ : ١٨٥٤ – ١٨٦٣ م )

تربية سعيد

كان سعيد باشا فى حداثته محبوباً من والده محمد على، فرباه تربية عالية فى مدارس فرنسا أهلته لتولى زمام الملك. وقليل من الامراء من نال نصيباً وافراً من



سعيد باشا

حالة مصر عند توليته

العناية كسعيد. قبض على زمام الأمور والبلاد فى حالة حسنة: اذ كانت خالية من الديون الأجنبية، وكان دخلها السنوى البالغ ثلاثة آلاف الف من الجنيهات كافياً لسد كل حاجاتها، وكانت التجارة متقدمة والأراضى الزراعية آخذة فى الازدياد. فلم يك ينقص البلاد الأ شئ من الحزم فى حاكمها يستطيع به السير فى سبيل المحافظة

عيوبه

على مصالح الأمة حسب ماتقتضيه الأحوال ، الا أنه من سوء حظ البلاد لم تتوافر هذه الصفة فى سعيد . تولى الملك وهو نشيط بطبعه محب للعمل ، فكان مبدأ حكمه يبشر بحسن مستقبل مصر . ولكنهُ مالبث أن أخذ مقاليد الأُمور كلها فى يده ، ولم يثق بأحد من الوطنيين ليشركه معهُ فى ادارة شؤون الملك . فقضى على المجلس الخصوصى ( مجلس النظار ) ، ولم يدرّب أحداً من أبناء الامة على شؤون الادارة حتى يكون له عوناً . ولم يتبع طريقة عباس باشا فى عزلته ، بل كان يقابل الأجانب ويحادثهم ويكرم مثواهم ، وبالغ فى ذلك حتى ضاعت هيبته فلم يفلح فى حكم البلاد . ذلك الى أنه أصبح بديناً منغمساً فى الملذات ، لايقوى على مزاولة العمل بالجد والنشاط اللذين عهدا فيه من قبل ، فاعتل نظام الحكومة ودب فيه روح الفساد وسوء الادارة

غرامه بالجيش

وكان شغله الشاغل مدة حكمه تنظيم الجيش ، لاعتقاده انه ماهر فى الفنون الحربية . فكان يغيّر فى نظامه ويبدّل من حين لآخر ، فتراه طوراً يجنّد جيشاً يربو على ٥٠،٠٠٠ ، وطوراً ينقصه الى نصف ذلك العدد ، متبعاً فى ذلك ما تمليه عليه أهواؤه وميوله . وقد اختار نقطة القناطر الخيرية فجعلها معسكراً لجيشه ، لاعتقاده أنها مركز حربى هام لصدّ غارات المغيرين ، كما كان يقيم بجيشه كثيراً فى صحراء مربوط

محبته لمصر

ومع ضعفه الخُلقى كان مخلصاً فى اهتمامه بتحسين حالة البلاد التى كان يعتبرها كضيعته الخاصة ، فعمل جهده فى مد السكك الحديدية وحفر الترع وغرس الأشجار وتحسين حالة الفلاّح . فأصدر قانون الأراضى الشهير فى عام ١٢٧٤ هـ ( ١٨٥٨ م ) الذى به أصبح الفلاح لأول مرة المالك الحقيق لما يفلحه من الأرض . ثم محا بعض الشيء من الاحتكارات المجحفة بحق الفلاح . وهو أول من وضع نظام الضرائب المتبع الآن بدلاً من الاحتكار والعشرية وغيرها من المكوس التى كانت فى عهد محمد على

قانون الاراضى

غير أنهُ لم يشجع العلم وأهله ، لأنه كان يعتقد أن فتح المدارس ينبه عقول عامة الناس ، فيجعل قيادتهم أمراً عسيراً

وأهم الحوادث التى حدثت فى أيامه ، بل أهم الأغلاط التى ارتكبها فى مدة حكمه

أول دين اجنبي

من الوجهة المصرية ، اثنتان : الأولى فتح باب استدانة الحكومة ، والثانية اذنه لفردنَنْد « ديلسبس » بحفر ترعة السويس لتوصيل البحر الأبيض بالبحر الأحمر ، ففي عام ١٢٧٨ ﻫ ( ١٨٦٢ م ) أمضى عقد قرض في لندن مع « فِرهلْنج غوشِن » بمبلغ ٣,٢٩٢,٨٠٠ جنيه ، فلما توفى في عام ١٢٧٩ ﻫ ( ١٨٦٣ م ) كان على البلاد ديون أجنبية قدرها ثلاثة آلاف ألف ، وعليه هو ما يربو على ضعفي ذلك ، فكان ما تركه من الدَّين لخلفه يبلغ عشرة آلاف ألف من الجنيهات تقريباً

وأما اذنه بحفر ترعة السويس فانه عاد على البلاد وأهلها بالويلات ، ونَضَب من أجلها مَعِينُ ثروتها ورجالها . وقد حصل على هذا الاذن المسيو «ديلسبس» بما كان له من المكانة العالية عند سعيد قبل توليته وبما كان يعده به من الفوائد التي تنجم من ذلك المشروع الخطير مع قلة النفقات ، بدعوى ان كل ما يحتاج اليه من المال لحفر الترعة سيكون من فرنسا . وسيتضح لنا في الفصل الثاني ان كل وعود ديلسبس كانت أضغاث أحلام وأوهاماً كاذبة ، وأن معظم نفقات القناة كان من دماء الفلّاح المصري

قناة السويس

# الفصل الثاني

## قناة السويس

المشروعات القديمة

تدل الآثار القديمة على ان فكرة توصيل البحر الأبيض بالبحر الأحمر سنحت في عالم الوجود منذ أزمان غابرة ، وانه كان يوجد في عهد « سيتي الأول » ( ١٣٨٠ ق . م ) ترعة واصلة بين البحرين بطريق النيل : تخرج منه عند «بو بسطة» وتصب في البحر الأحمر مخترقةً وادي الطميلات . وهي المسماة عند قدماء المؤرخين بترعة « سيزُستْريس »

ترعة سيزستريس

ثم أهملت هذه الترعة وبقيت كذلك الى أيام « نخاو » ( ٦٠٩ ق . م ) ، فهمّ

عمل مخاو — باعادة حفرها، وبعد أن هلك فى ذلك ما يقرب من ٥٠٠ و١٢٠ من فلاحى مصر وقف العمل فجأة ، توهماً منه ان الآلهة انذرته عاقبة العمل لمصلحة الأجانب . فكأن الاعتقاد بأن حفر الترعة ليس إلاّ عملاً قاصراً على نفع الأجانب كان يجول فى خلد الأقدمين كما جال فى خلد محمد على باشا حين تردد فى انفاذ مشروع قناة السويس عند ما عرض عليه كما ذكرنا آنفاً

دارا — ولما استولى الفرس على مصر شرع « دارا » (٥٢٠ ق . م ) فى كرّى هذه الترعة

بطليموس الثانى — القديمة، فلم يتسنّ له اتمام العمل، وبقيت الترعة مهملة حتى جاء « بطليموس الثانى » فأتم حفرها وكريها عام ٢٧٧ . ق م . غير أنها اهملت بعد ، ولم يقم الرومان فيها باصلاح يذكر

عمرو بن العاص — فلما فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٢٠ هـ ( ٦٤١ م ) واستأمره الخليفة عمر بن الخطاب عام قحط الحجاز المسمى عام الرّمادة استأذنه فى توصيل البحرين ، فأذن له بكرى الترعة القديمة ، فأعادها وسمّاها « خليج أمير المؤمنين » . وجرت بها سفن الميرة الى الحجاز ، ولبثت مسلوكة حتى عهد « أبى جعفر المنصور » العباسى ، فأمر بردمها عام ١٤٥هـ ( ٧٧٠ م ) حتى لا تنقل فيها الميرة الى محمد بن عبد الله بن الحسن الخارج عليه بالحجاز

المشروعات الحديثة — هذه هى المشروعات القديمة ، وكلها ترمى الى توصيل البحرين بطريق النيل . فلما قدم نابليون الى مصر فى غارته المشهورة فكّر فى اعادة توصيل البحرين بحفر ترعة

مشروع نابليون — بينهما من مائهما كما أشرنا قبل ، ثم امتنع عن انفاذ مشروعه لتوهم « لابير » مهندس الحملة ان سطح البحر الأحمر يعلو على سطح البحر الأبيض بتسعة أمتار . وبقيت هذه

فى عهد محمد على — الغلطة شائعة الى أن أصلحت نهائياً فى عهد محمد على باشا ، إذ حضر الى مصر فى سنة ١٢٦٣ هـ ( ١٨٤٧ م ) بعث من أوربا ليفحصوا المشروع ، فاشترك معهم لينان باشا مهندس الحكومة المصرية العظيم ، فأقرّ الجميع بفساد رأى لابير وأثبتوا أن البحرين فى مستوى واحد . على أن محمد على كان يشك فى نجاح المشروع ويخشى

عاقبته ، إلاّ أنه لم يألُ جهداً في مساعدة رجال البحث في بحثهم لئلاّ يظهر بمظهر المعرقل لمساعم

مشروع دیلسبس

وظل بعد ذلك المشروع موقوفاً حتى تولى سعيد، فنال منهُ المسيو « فردنند دیلسبس» سنة ١٢٧١هـ ( ١٨٥٤ م ) اذناً ابتدائياً بحفر القناة . وقدكان ديلسبس سفيراً لفرنسا في مصر في عهد محمد على ، وكانت تتوق نفسه الى تأليف شركة لحفر القناة، فوعده سعيد باشا حينئذٍ بأن يساعده عند ما يتولى أريكة مصر . فلما تولاها طلب اليه ديلسبس الوفاء بوعده، فنال منه الاذن المذكور، وتلاه اذن آخر في ربيع الثاني سنة ١٢٧٢هـ ( يناير ١٨٥٦م ) يلخص أهم شروطه فيما يأتي :

شروط شركة القناة

« حق تمتع الشركة بفوائد القناة مدة تسعة وتسعين سنة من عام فتحها، وان يحفر المسيو ديلسبس ترعة تستمد ماءها من النيل من مصر الى الاسماعيلية ، ويمنح في مقابل ذلك كل الأراضي اللازمة للأبنية والأعمال بدون مقابل خاليةً من كل الضرائب ،وأن يكون له الحق في أخذ أجر من الملاّك الذين ينتفعون بالماء العذب الذي يؤخذ من هذه الترعة ، وأن يكون للشركة الحق أيضاً في تعدين كل مناجم الحكومة ومحاجرها بدون ثمن أو ضرائب ، وأن تُعفى من كل المكوس على الواردات التي تجلب لها ، وأن يتم القيام بهذا المشروع في مدة لا تتجاوز ست سنوات إلاّ اذا حصلت عوائق لا يمكن تلافيها ، وأن يكون أربعة أخماس الفعلة العاملين في حفر القناة من الفلاحين . وقد وُضعت شروط خاصة بعدد الفعلة الذين يتناوبون العمل في كل ثلاثة أشهر . ثم حُددت رسوم المرور في القناة باعتبار عشرة فرنكات على كل مسافر ومثلها على كل طن من حمولة السفن ، وأن تكون الشركة مصرية بحيث يسرى عليها قانون البلاد ، وأن تقسم الأرباح ( بعد أن يخصم منها فائدة لأموال المساهمين بنسبة ٥ ٪ ومثلها للمال الاحتياطي ) على الترتيب الآتي : ١٥ ٪ للحكومة المصرية، ١٠ ٪ لمؤسسي الشركة ، ٧٥ ٪ للمساهمين والمديرين والعمال . وبعد انتهاء المدة المقررة تصير القناة وكل مشتملاتها ملكاً للحكومة المصرية

انجلترة والقناة

وقبل أن يأذن سعيد باشا لديلسبس استشار سفير انجلترة هل يصادف رفضه لهذا المشروع ارتياحاً من انجلترة . فلم يكن فى قدرة السفير أن يعطيه تصريحاً رسمياً عن هذا السؤال، لأن انجلترة وفرنسا كانتا حليفتين فى حرب القرم . الاّ أن ديلسبس ألحّ فى طلبه واقتفى أثر سعيد اينما حل وحيثما ذهب ، حتى أمضى عقد الاتفاق فى ربيع الثانى سنة ١٢٧٢ هـ ( يناير سنة ١٨٥٦ م )

الباب العالى والقناة

ولما كان من الواجب قبل الشروع فى العمل الحصول على اذن من الباب العالى ذهب ديلسبس الى القسطنطينية للسعى فى ذلك ، فوجد من أولى الشأن بها

معارضة انجلترة

معارضة عظيمة يرجع السبب الأكبر فيها الى تأثير ساسة الانجليز . والسبب فى معارضة انجلترة فى المشروع هو أنها كانت ترى بلادها من الوجهة التجارية والحربية أقرب الى الهند من أى مملكة أخرى في أوربا، عدا اسبانيا والبرتقال وكلاهما ليس بشيء فى نظرها

فاذا فُتح طريق قناة السويس أصبحت كل شواطىء البحرين الأبيض والأسود أقرب من انجلترة الى الهند، ولذلك كان غرض نابليون عندما فكر فى حفر هذه الترعة الاضرار بانجلترة فى الهند نفسها إذ أن مهاجمتها فيها قبل حفر القناة صعبة جداً لعظم بعدها. أما اذا فتحت القناة أصبحت المسافة بين مرسيليا وبمباى لا تزيد على ٤٦٠٠ ميل



فردننددیلسبس

ديلسبس فى لندن

فلما علم ديلسبس بتأثير الساسة الانجليز فى القسطنطينية ذهب الى لندن وقابل اللورد بلمرستون ، فوجد منهُ معارضة أيضاً، إذ قال له ان حفر القناة يضر بمصالح انجلترة ويذهب

بسيادتها البحرية ، وأنهُ وسيلة تريد فرنسا التوصل بها الى التدخل فى الشرق

مساعى ديلسبس

فلم يثنِ كل ذلك من عزم ديلسبس ، وما زال يواصل سعيه فى أوربا مستعيناً بقرابته من الامبراطورة « يوجينى » ( زوجة نابليون الثالث امبراطور فرنسا ) حتى وافق الباب العالى على المشروع عام ١٢٧٥ هـ ( ١٨٥٨ م ) . وفى هذا العام فتح ديلسبس باب الاشتراك فى شراء اسهم شركة القناة مقدّراً رأس مال الشركة بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، وهو مكوَّن من ٤٠٠,٠٠٠ سهم ثمن السهم ٥٠٠ فرنك . فأقبل الناس على شراء الأسهم حتى جُمع معظم رأس المال فى أقل من شهر واحد . وكان معظم المساهمين من فرنسا ، وجزء منهم من ممالك الدولة العثمانية ، واشترت مصر من الأسهم ٨٥,٥٠٦ * . أما انجلترة فأحجمت حينئذٍ عن شراء شئ منها

فتح الاشتراك

المساهمون

ابتداء العمل

وابتدأ العمل فى حفر القناة قريباً من موقع مدينة بورسعيد الحالية فى رمضان سنة ١٢٧٥ هـ ( ابريل سنة ١٨٥٩ م ) فكان سيره فى أول الأمر غاية فى البطء لما يحيط بهِ من الصعوبات . وأهم ذلك قلة تدرب عمال السخرة على العمل ، وصعوبة الحصول على الماء الذى يستقون منهُ قبل أن يتم حفر الترعة العذبة . ولما كانت الشركة (فقيرة بالنسبه لعظم المشروع ) استعان ديلسبس على هذه الصعوبات بالسعى فى حمل سعيد باشا على الاكثار من العمال المسخرين بدون مراعاة للاتفاق الأصلى فصارت تساق الآلاف من الفلاَّحين يحرسهم الجنود الى الترعة ، حيث يشتغلون طول اليوم تحت مراقبة حرّاس مسلحين بالسياط . وكان عدد الذين يشتغلون فى حفر الترعة لا يقل عن ٢٥,٠٠٠ عامل بدون أجر ، وينوب عنهم مثلهم فى كل ثلاثة أشهر ، وكانوا يعيشون على الشظف . وقد أودى بحياة الكثيرين منهم ما كانوا يقاسونه من الجوع والظمأ والعرى وحرّ الصيف وقرّ الشتاء واجهاد الجسم والبؤس

صعوباته

سوء حالة عمال السخرة

* هذه جزء من الاسهم التى اشترتها انجلترة عام ١٨٧٥ م من اسماعيل باشا بمشورة « اللورد بيكنزفيلد » . وكان عددها ١٧٦,٦٠٢ بيعت بمبلغ ٥٨٢ ر ٩٧٦ ر ٣ جنيه

وكان كلما هلك منهم أحد أتى بغيره من الفلاحين ، ولو تم مشروع حفر الترعة على حسب الاتفاق الأصلي لسبب نقصاً عظيماً في تعداد سكان البلاد

انجلترة تعلن استياءها

شاع هذا الأمر وأصبح من الفضائح حتى في مصر ، وتناولته ألسنة المعارضين لحفر الترعة وخاصة انجلترة . وكان اللورد بلمرستون رئيس الوزارة الانجليزية في ذلك الحين يعارض في أمر تسخير الفلاحين : لأنه من جهة يعتبره ضرباً من الاسترقاق ولأنه من جهة أخرى كان لا يريد أن يرى النفوذ الفرنسي يسود في مصر . لذلك أوعز الى السفير الانجليزي في القسطنطينية أن يحتج على تسخير الأهالي في الأراضي العثمانية لفائدة شركة أجنبية

اسماعيل يسعى في انقاص الامتيازات

وبقي الحال كذلك الى أن تولى الخديوي اسماعيل باشا في رجب سنة ١٢٧٩ ﻫ ( يناير ١٨٦٣ م ) ، ولم يكن للشركة لديه تلك الحظوة التي كانت لها عند سعيد ، فرأى أن ما نالته من الامتيازات مجحف بحقه وحق مصر ، وشرع يعمل على الغاء شيء منها ، ولكي لا يكون سبباً في افلاس الشركة واغضاب الشعب الفرنسي وامبراطورهم نابليون الثالث أمد الشركة بمعونة مالية ، بأن دفع لها مبلغ ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه كان مستحقاً على سعيد باشا ثمناً لأسهم اشتراها عددها ١٧٧٫٦٤٢ . الا أنه بقي مصمماً على حرمان الشركة من بعض مزاياها ، حتى طلب من الباب العالي في صفر سنة ١٢٨٠ﻫ ( يونية ١٨٦٣ م ) الموافقة على انقاص عدد العمال الذين يسخرون في حفر القناة وعلى أن ترد الشركة للحكومة المصرية ما منحه اياها سعيد باشا من الأراضي عام ١٨٥٦ ، فصادف الاقتراح ارتياحاً من الباب العالي ولا سيما أن انجلترة كانت تسعى لديه في انفاذه . فوافق عليه وهدد الشركة بتوقيف العمل ان لم ترض به

موافقة الباب العالي

وقد كاد يكون في ذلك القضاء المبرم على المشروع ، لأن الشركة كانت تعلق كل آمالها على جلب العمال من مصر بدون أجر ، وكان العمل لا يزال في مبدئه ، والشركة لم يكن في مقدورها أن تقترض مالاً جديداً . ولولا ما بذله المسيو ديلسبس من الهمة والحزم لخاب المشروع ؛ فانه تمكن بمساعدة الامبراطورة يوجيني وبميل الشعب الفرنسي

مساعي ديلسبس

الى مشروعه من استجلاب مساعدة الحكومة الفرنسية ، ناسباً سعى انجلترة فى ايقاف عمل السخرة فى مصر الى حسدها فرنسا ، فمالت اليه قادة السياسة الفرنسية ، وانتهى الأمر بتحكيم الطرفين « الامبراطور نابليون الثالث » فى حل هذا المشكل

تحكيم نابليون الثالث

فناط الامبراطور الفصل فى هذه المسألة بجماعة من رجال بلاده طبعاً ، فجاء الاتفاق فوق ما كانت تأمل الشركة ، اذ ألزمت اللجنة المحكمة اسماعيل باشا أن يدفع للشركة غرامة قدرها ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيه نظير اخلاله بشروط الاتفاق الأصلى بشأن أعمال السخرة وغيرها . فمن هذا المبلغ ١٫٥٦٠٫٠٠٠ جنيه نظير منعه الفعلة المصريين المسخرين من حفر الترعة ، و ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه لاسترجاعه الأراضى التى على ضفتى القناة ما عدا ما عرضه ٢٠٠ متر على كلا الجانبين ، و ٦٤٠٫٠٠٠ جنيه فى مقابل حفر ترعة الاسماعيلية . وقد تم دفع كل ذلك فى عام ١٨٦٩ م

غرامة مصر

بهذا الحل وباستبدال عمال مدربين بعمال السخرة أصبح مركز الشركة المالى ثابت الأركان لا يخشى معه على المشروع من أى عطلة تعترضه كما حصل ذلك من قبل

اقبال الخديوى على المشروع

ومن هذا الحين أقبل الخديوى على المشروع : يعضده بكل نفوذه الأدبى . ويفتخر بأنه القائم بأكبر مشروع ظهر فى القرن التاسع عشر

وعند ما قرب انتهاء العمل استعد اسماعيل باشا استعداداً عظيماً للاحتفال بفتح الترعة فى شعبان سنة ١٢٨٦ ﻫ ( نوفمبر ١٨٦٩ م ) ، فكان أكبر وأفخم احتفال حدث فى الأزمنة الحديثة . وسنتكلم عليه فى موضعه عند الكلام على اسماعيل باشا

على أن معونة مصر المالية لم تقف عند هذا الحد . فان الشركة حصلت منها عام ١٨٦٦م على مبلغ يربو على ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه لنزولها لها عن أراضى الطميلات ، وكانت قد اشترتها قبل ذلك بخمسة أعوام بنحو ٧٤٫٠٠٠ جنيه . وفى عام ١٨٦٨م أخذت الشركة من الحكومة المصرية مبلغاً آخر يقرب من ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه لنزولها عن بعض المبانى التى أقامتها فى منطقة القناة

بعض ما انفقته مصر

أما نفقات حفر القناة فقد بلغت حسب المدون فى دفاتر الشركة ٤٣٢٫٨٠٧٫٨٨٢ مجموع النفقات

وكان كلًا هلك منهم أحد أتى بغيره من الفلاحين ، ولو تم مشروع حفر الترعة على حسب الاتفاق الأصلى لسبَّب نقصاً عظيماً فى تعداد سكان البلاد

**انجلترة تعلن استياءها**

شاع هذا الأمر وأصبح من الفضائح حتى فى مصر ، وتناولته ألسنة المعارضين لحفر الترعة وخاصة انجلترة . وكان اللورد بلمرستون رئيس الوزارة الانجليزية فى ذلك الحين يعارض فى أمر تسخير الفلاّحين : لأنهُ من جهة يعتبره ضرباً من الاسترقاق ولأنه من جهة أخرى كان لا يريد أن يرى النفوذ الفرنسى يسود فى مصر . لذلك أوعز الى السفير الانجليزى فى القسطنطينية أن يحتج على تسخير الأهالى فى الأراضى العثمانية لفائدة شركة أجنبية

**اسماعيل يسعى فى انقاص الامتيازات**

وبقى الحال كذلك الى أن تولى الخديوى اسماعيل باشا فى رجب سنة ١٢٧٩ هـ ( يناير ١٨٦٣ م ) ، ولم يكن للشركة لديه تلك الحظوة التى كانت لها عند سعيد ، فرأى أن ما نالته من الامتيازات مجحف بحقه وحق مصر ، وشرع يعمل على الغاء شىء منها ، ولكى لا يكون سبباً فى افلاس الشركة واغضاب الشعب الفرنسى وامبراطورهم نابليون الثالث أمد الشركة بمعونة مالية ، بأن دفع لها مبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كان مستحقاً على سعيد باشا ثمناً لأسهم اشتراها عددها ١٧٧,٦٤٢ . الأ أنهُ بقى مصمماً على حرمان الشركة من بعض مزاياها ، حتى طلب من الباب العالى فى صفر سنة ١٢٨٠ هـ

**موافقة الباب العالى**

( يونية ١٨٦٣ م ) الموافقة على انقاص عدد العمال الذين يسخرون فى حفر القناة وعلى أن تردَّ الشركة للحكومة المصرية ما منحه اياها سعيد باشا من الأراضى عام ١٨٥٦ ، فصادف الاقتراح ارتياحاً من الباب العالى ولا سيما أن انجلترة كانت تسعى لديه فى انفاذه . فوافق عليه وهدّد الشركة بتوقيف العمل ان لم ترض به

وقد كاد يكون فى ذلك القضاء المبرم على المشروع ، لأن الشركة كانت تعلّق كل آمالها على جلب العمال من مصر بدون أجر ، وكان العمل لا يزال فى مبدئه ، والشركة

**مساعى دیلسبس**

لم يكن فى مقدورها أن تقترض مالاً جديداً . ولولا ما [illegible] [illegible] والحزم لخاب المشروع : فانهُ تمكن بمساعدة

الى مشروعه من استجلاب مساعدة الحكومة الفرنسية ، ناسباً سعى انجلترة فى ايقاف عمل السخرة فى مصر الى حسدها فرنسا ، فمالت اليه قادة السياسة الفرنسية ، وانتهى الأمر بتحكيم الطرفين « الامبراطورَ نابليونَ الثالثَ » فى حل هذا المشكل

تحكيم نابليون الثالث

فناط الامبراطور الفصل فى هذه المسألة بجماعة من رجال بلاده طبعاً ، فجاء الاتفاق فوق ما كانت تأمل الشركة ، اذ ألزمت اللجنة المحكّمة اسماعيل باشا أن يدفع للشركة غرامة قدرها ٣،٣٦٠،٠٠٠ جنيه نظير اخلاله بشروط الاتفاق الأصلى بشأن أعمال السخرة وغيرها . فمن هذا المبلغ ١،٥٦٠،٠٠٠ جنيه نظير منعه الفعلة المصريين المسخرين من حفر الترعة ، و ١،٢٠٠،٠٠٠ جنيه لاسترجاعه الأراضى التى على ضفتى القناة ما عدا ما عرْضُه ٢٠٠ متر على كلا الجانبين ، و ٦٤٠،٠٠٠ جنيه فى مقابل حفر ترعة الاسماعيلية . وقد تم دفع كل ذلك فى عام ١٨٦٩ م

غرامة مصر

بهذا الحل وباستبدال عمال مدربين بعمال السخرة أصبح مركز الشركة المالى ثابت الأركان لايخشى معه على المشروع من أى عطلة تعترضه كما حصل ذلك من قبل

اقبال الخديوى على المشروع

ومن هذا الحين أقبل الخديوى على المشروع : يعضده بكل نفوذه الأدبى . ويفتخر بأنه القائم بأكبر مشروع ظهر فى القرن التاسع عشر

وعند ما قرب انتهاء العمل استعد اسماعيل باشا استعداداً عظيماً للاحتفال بفتح الترعة فى شعبان سنة ١٢٨٦ ﻫ ( نوفمبر ١٨٦٩ م ) ، فكان أكبر وأفخم احتفال حدث فى الأزمنة الحديثة . وسنتكلم عليه فى موضعه عند الكلام على اسماعيل باشا

على أن معونة مصر المالية لم تقف عند هذا الحد . فان الشركة حصلت منها عام ١٨٦٦م على مبلغ يربو على ٣٠٠،٠٠٠ جنيه لنزولها لها عن أراضى الطميلات ، وكانت قد اشترتها قبل ذلك بخمسة أعوام بنحو ٧٤،٠٠٠ جنيه . وفى عام ١٨٦٨م أخذت الشركة من الحكومة المصرية مبلغاً آخر يقرب من ١،٢٠٠،٠٠٠ جنيه لنزولها عن بعض المبانى التى أقامتها فى منطقة القناة

بعض ما انفقته مصر

أما نفقات حفر القناة فقد بلغت حسب المدون فى دفاتر الشركة ٤٣٢،٨٠٧،٨٨٢

مجموع النفقات

فرنكاً ، أى نحو ١٧،٥٠٠،٠٠٠ جنيه وقد قُدّر مجموع ما انفقته الحكومة المصرية من ذلك بنحو ١٦،٠٠٠،٠٠٠ جنيه

قيمة الربح فى أول الامر

على أن المشروع لم يثمر ربحاً عقيب حفر الترعة . إذ كانت فائدته قاصرة على السفن الشراعية دون البخارية . لأنه كان يتعذر على السفن البخارية العادية فضلاً عن بواخر البريد الكبرى أن تسافر الى الهند، لعظم مقدار ما كانت تحتاج اليه من الفحم فى ذلك الوقت . ولكن هذه الصعوبة ما لبثت أن تلاشت ، اذ اختُرعت فى ذلك الحين الآلات المركبة التى جعلت البواخر لا تحرق من الفحم الأ نصف ما كانت تحرقه قبل اختراعها . فسهل على هذه السفن الانتفاع بالقناة ، فاتسع نطاق التجارة المارة بالترعة ، وزادت قيمتها زيادة عظيمة

تأثير الالات المركبة

زيادة الرسوم

ومع كل ذلك أيضاً لم يأت المشروع بالربح الكافى ، لقلة قيمة الرسوم التى كانت تجبيها الشركة ( وكانت قدتها حينئذٍ ١٠ فرنكات على كل طن ) ، وكثرة ما تنفقه على اصلاح القناة . فانحطت قيمة سهام الشركة سنة ١٢٨٨ هـ ( ١٨٧١ — ١٨٧٢ م ) من ٢٠ جنيهاً الى ٧ جنيهات لكل سهم ، وتوقفت عن دفع أرباح المساهمين . فعُقد لتلافى ذلك مؤتمر دولى بالقسطنطينية عام ١٢٩٠ هـ ( ١٨٧٣ م ) نظر فى الأمر وخوّل الشركة زيادة الرسوم التى تجبيها من السفن بقدر ٤٠ ٪ الى أن تصلح حالتها المالية فحسن بذلك حال الشركة وأخذت فى النجاح المطرد والتقدم المستمر

عدم استفادة مصر

ومما يؤسف له أن مصر لم تستفد من نجاح ترعة السويس مطلقاً ، فانهُ فوق خسارتها القناطير المقنطرة من الأموال وارهاقها الفلاحين المصريين ارهاقاً عظيماً ، وفضلاً عن تحوُّل التجارة المارة بين أوربا والهند من داخل مصر الى طريق القناة مما أحدث نقصاً كبيراً فى دخل سكك حديد الحكومة المصرية ، تنازلت لشركة فرنسية فى سنة ١٢٩٧ هـ ( ١٨٨٠ م ) عما كان يخصها من أرباح الشركة وقدره ١٥ ٪ ، فى مقابل مبلغ حقير قدر ٧٠٠،٠٠٠ جنيه كانت الحكومة قد اقترضته من تلك الشركة ولم تقدر على سداده ، فحرمت بذلك مصر من مصدر دخل عظيم

ولم يتم لوُلاة مصر من انشاء الترعة شيء مما كان يمنيهم به ديلسبس من توطيد دعامة حكمهم واتساع جاههم وسلطانهم . فترى مما تقدم كله أنهُ لم يخسر من وراء انشاء هذه الترعة الا الأسرة المحمدية العلوية ومصر والفلاحون . وإلى سعيد واسماعيل وكثرة بذلهما وسخائهما يرجع نجاح مشروع ديلسبس وايجاد تلك الفوائد الجليلة التي عادت على فرنسا وبرطانيا العظمى وغيرهما من البلاد

حياد القناة

وكان تعدد مصالح الدول الأوربية في الترعة مدعاة لجعلها على الحياد ، ولكن الدول أدخلت على الاتفاق الأصلي عدة تعديلات منذ ابرامه ، وربما عادت الى النظر في أمر القناة بعد زماننا هذا

# الفصل الثالث

## اسماعيل باشا

### ١٢٧٩ - ١٢٩٦ هـ ( ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م )

يعتبر اسماعيل باشا ( ابن ابراهيم باشا ) المتمم الحقيقي لأعمال محمد علي والسائر باصلاحاته في الطريق التي أبلغت مصر الغاية التي هي عليها الآن

مكانة اسماعيل في تاريخ مصر

تولى اسماعيل عرش مصر ومدارسها مغلقة ومشروعات محمد علي مهملة ، فكان عليه في كل شيء عمل المنشئ من جديد . ولو نظرنا الى مجموع ما تم في عهده من الاصلاحات والأعمال الهامة لعلمنا مقدار ما كان عليهِ من الذكاء والنبوغ وما كان يرمي اليهِ من النهوض بمصر حتى يجعلها في مستوى أرقى الدول الأوربية

تربيته

ومع أنهُ لم ينل حظًا وافرًا من التعلم في نشأته كان ما حصّله من المعارف ، مضافًا الى ما فُطر عليه من الذكاء وقوة الملاحظة ، كافلاً أن يقوم بعبء المشروعات الخطيرة التي أقدم عليها . وكل ما يُعلم عن تعلمه أنه أُرسل الى باريس في الخامسة عشرة من



اسماعيل باشا

( رسم علي افندى يوسف — عن صورة بدار الكتب السلطانية )

عمره ، فتعلم بها اللغة الفرنسية حتى صار يتكلمها بطلاقة . وفى أثناء اقامته ساح كثيراً فى أوربا . وبقوة ملاحظته وقف على كثير من الأمور الاجتماعية وغيرها من أسباب الحضارة الأوروبية . ولم يُربَّ تربية خاصة تؤهله لتولى الملك ( كما ربى سعيد من قبله ) اذ لم يكن يخطر بالبال حينئذ أنه سيتولى عرش مصر يوماً ما ، لأن ولاية العهد كانت لأخيه أحمد أكبر أمراء الأسرة ، ولذلك بقى اسماعيل مشتغلاً بمزارعه بعيداً عن

اشتغاله بالزراعة

حاشية سعيد حتى مات أخوه فى حادثة كفر الزيات* ولم يغير كثيراً من خطته بعد مماته

كفاءته وآماله

جلس اسماعيل على أريكة مصر فى ٢٧ رجب سنة ١٢٧٩ هـ ( ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ م ) وكان عمره إذ ذاك ٣٢ سنة ، فلم يلبث ان ظهرت فيه كفاءة عظيمة ورغبة شديدة فى رفع شأن البلاد وترقيتها بادخال كل الاصلاح الذى يراه مؤدياً الىذلك . ومع الاعتراف بأن السرعة التى سار بها فى سبيل هذا الاصلاح والانفاق عن سعة فى كل شىء أديا الى استدانته من أوربا القناطير المقنطرة من الذهب التى تضاعفت هى وفوائدها حتى وصلت فى أواخر أيامه الى عبء ثقيل لا حول ولا قوة للبلاد على احتماله مما أوجب تدخل الدول الأوربية فى شؤون مصر ، قد يُغتفر له ذلك اذا راعينا مقدار ما قام به من الاصلاح ، ولاحظنا أن سعيداً قد فتح له من قبل باب الاستدانة المشئوم ، إذ مات وهو مدين بمبلغ ١٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه

أهم أعماله

وتلخص أهم أعمال اسماعيل فى عصر فيما يأتى :

(١) الفصل فى أمر وراثة العرش وحصرها فى اكبر أولاد الوالى والحصول على لقب خديوى واصلاح الإدارة وتأييد الاستقلال الداخلى

(٢) الإصلاحات القضائية ومساواة جميع الناس أمام القانون المدنى المختلط

(٣) التعليم العام

(٤) منع الرقيق

(٥) القاء المؤاخذة ( المسئولية ) على النظار وتشكيل مجلس شورى النوّاب

(٦) توسيع منابع الثروة للبلاد بتنمية الزراعة وبالمشروعات العامة

(٧) توسيع نطاق الأملاك المصرية

(٨) اتمام مشروع ترعة السويس ( أفاد العالم فى مجموعه وان أضر بمصر فى ذاتها )

---

* غرق قطر السكة الحديدية عند قنطرة كفر الزيات وكان يقل الامير احمد وغيره من أمراء الاسرة من الاسكندرية الى القاهرة

## ١ — ﴿ وراثة العرش ﴾

### وإصلاح الإدارة وتأييد الاستقلال الداخلى

السلطان عبد العزيز فى مصر

بعد أن تولى اسماعيل ببضعة أسابيع زار مصر السلطان «عبد العزيز» ، فكان أول من زارها من سلاطين آل عثمان من عهد سليم الأول . فاحتفل به اسماعيل باشا احتفالاً كبيراً ، واجتهد فى أن تكون هذه المقابلة فاتحةً لعلاقات ودية بينهُ وبين الباب العالى . وبعد أن عاد السلطان الى الاستانة أخذ اسماعيل باشا يسعى سرًّا للحصول على أغراض يرمى اليها لتعزيز ملكه ، واستعان على نيلها بالمال كلما وجد الى ذلك سبيلاً . فسعى لدى الباب العالى فى شأن تغيير القانون الصادر به تقليد سنة ١٨٤١ م بشأن وراثة عرش مصر . وهذا القانون يقضى بأن يؤول العرش لأكبر فرد فى الأسرة بشرط موافقة الباب العالى

سعى اسماعيل فى تغيير تقليد الوراثة

فلما رأى اسماعيل أن ذلك ربما يُحدث فتناً بين أفراد الأسرة من أجل العرش بالسعى لدى الباب العالى ، أو بقتل بعضهم بعضاً ، طلب الى الباب العالى أن يجعل الوراثة لأكبر أولاد الوالى بلا شرط ولا قيد ، ليحسم كل نزاع بين أفراد الأسرة فى هذا الشأن . فلم يقبل الباب العالى ذلك فى أول الأمر ، لعلمهِ أنه ينقص من نفوذه فى مصر ، فان هذه المزية لم تتمتع بها الأسرة المالكة فى تركيا نفسها . وزار اسماعيل القسطنطينية وسعى بنفسه فى الأمر فلم يفلح ، ولكن عزيمته لم تفتر ، وذهب اليها فى زيارة أخرى أجزل فيها العطاء فنال مرادَه ، وأصدر الباب العالى عهداً يجعل

فوزه

الوراثة فى أكبر أنجال الوالى فى ١٢ المحرم سنة ١٢٨٣ هـ (٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ م) وذلك فى مقابل زيادة الجزية التى تدفعها مصر من ٣٢٠٠٠٠ الى ٦٠٠٠٠٠ جنيه

نيل لقب خديوى

وسعى أيضاً اسماعيل باشا لدى الباب العالى ليمنحه لقباً أرقى من «الباشا» المعتاد وكان غرضه من ذلك تثبيت امتياز مصر عن باقى ولايات الدولة ، وهو ذلك الامتياز الذى حصَّله محمد علي بتقليد سنة ١٨٤١م . فمنحه السلطان لقب « خديوى » فى

ربيع الأول سنة ١٢٨٤ هـ ( يوليه سنة ١٨٦٧ م ) . وهو لفظ فارسى الأصل معناه الأمير المعظم ، وكان يمنحه الفرس لحاكم الهند فى عهد حكمهم لها

الاستقلال الداخلى

ولم يكن هم اسماعيل باشا قاصراً على الوصول الى ذلك ، بل كان يبذل همته فى أن يُمنح استقلالاً إدارياً يتصرف به فى شؤون البلاد الداخلية ، إذ كان أعظم غرض له فى الحياة أن توثق عرا الارتباط بين مصر وممالك الغرب المتمدينة ، والوصول الى ذلك محال ما دام الباب العالى صاحب النفوذ والسلطان فى البلاد ، إذ كان يخشى أن يعترضه فيما يقدم عليه من المشروعات . وأى فائدة تجنيها البلاد وأى عمل عظيم يمكن لأقدر حاكم أن يقوم به اذا كانت يده مغلولة فى شؤون البلاد الداخلية ؟

سعى اسماعيل

لذلك قضى اسماعيل سنوات عديدة من حياته يبذل فى أثنائها المال الوفير للوصول الى ضالته المنشودة ، حتى أصدر الباب العالى فى ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ هـ ( ١٨٧٣م ) عهداً مثبتاً كل الحقوق التى منحها الخديوى بمقتضى العهود السابقة .

مزايا التقليد الجديد

واعترف فيه الباب العالى باستقلال الخديوى استقلالاً تاماً بشؤون مصر الداخلية ، وأذن له بأن يعمل بدون استشارته فى قرض الديون وعقد المحالفات التجارية وغيرها مع الدول الأجنبيـــة ، ما دامت تلك المحالفات لا تناقض مصلحة الدولة ولا محالفاتها السياسية مع الدول ، وأن يزيد جيشه حسب ما يراه صالحاً ، على شرط أن لا يكون فى أسطوله مدرعات . وقد زادت الجزية المصرية فى مقابل ذلك الى ٦٦٥,٠٠٠ جنيه

ولا شك أن مثل هذا العهد كان من الممكن أن يعود على مصر بأعظم الفوائد ، إذ يكون من اكبر الدواعى التى تحمل كل خديوى لمصر على السهر على ما فيه صلاح البلاد ، كى يترك وراءه ملكاً منظماً ثابت الأركان

ولما أصبح اسماعيل صاحب النفوذ والسلطان فى مصر أخذ ينظّم ادارتها الداخلية.

اصلاح الادارة

فأدخل فى البلاد جملة اصلاحات لم يأتِ بها والٍ تولى الشؤون المصرية قبله. فأعاد نظام الادارة الذى وضعه محمد على وأهمل فى عصر عباس باشا الأول بعد أن أدخل فيه بعض الاصلاحات ، ثم رتب نظام المكوس ترتيباً متقناً ، واشترى ادارة البريد المصرى من شركة ووضعها تحت سيطرة أحد مهرة الغربيين ( كما سيأتى ذكره بعد) وقسم القطر الى أربع عشرة مديرية ، وحسّن طرق الاتصال والقضاء وغير ذلك مما سنتكلم عليه فيما بعد

## ٢ — ﴿ الاصلاحات القضائية ومساواة جميع الناس أمام القانون ﴾

عناية اسماعيل باصلاح القضاء

كان أهم مشروع داخلى وجه اليه اسماعيل باشا عنايته اصلاح القضاء وجعله مستقلاً عن الادارة ، ونشر العدل وكان من قبل معدوماً . لأن القانون الذى وُضع فى عهد محمد على لم يغير من النظام القديم شيئاً وكان حبراً على ورق . فأراد اسماعيل باشا أن يؤسس المحاكم المختلطة ليتساوى الجميع أمام القانون ويكون الأجنبى والوطنى فى مستوى واحد . وكان غرضه أن يقضى على المحاكم ( القنصلية ) والامتيازات الأجنبية ، بشرط أن يتكفل للأجانب بكل ما يضمن راحتهم

ولم تكن هذه الفكرة بنت يومها ، بل كانت مختمرة عند الخديوى قبل أن يتولى عرش مصر، فلما مات أخوه أحمد فى حادثة كفر الزيات، وأصبح هو الوارث للملك

رغبته فى المساواة بين رعاياه

تفرغ لدرس الاصلاحات القضائية . ورأى أثناء ذلك ما كان للأجانب من الامتيازات فعزم على أن يغيّر ذلك تغييراً تاماً ، فيكون أول من خطا خطوة فى سبيل المساواه ونشر العدالة بين رعاياه

فلما تولى الملك لم تساعده الأحوال فى أول أيام حكمه على تخليص البلاد من هذا

النظام الردىء، إذ كان منصرفاً بكل قواه الى تحصيل عهد الوراثة والاستقلال الداخلى من الباب العالى

استشارة فرنسا

ولما سنحت له الفرص فى عام ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) فاتح الوزارة الفرنسية فى هذا الصدد ، ففاوض نوبار باشا « الموسيو موسير » وزير خارجية فرنسا فى هذا المشروع حسب ارادة الخديوى . فعقدت لجنة فى باريس كان الغرض منها فحص التغيير الذى يريد نوبار ادخاله فى القانون ، فكانت هذه أول خطوة فى سبيل انشاء المحاكم المختلطة

معارضة الدول

وقد ساعد الخديوى أيضاً فى تحقيق أمنيته هذه بعض وزرائه ، وأولاهم بالذكر شريف باشا ورياض باشا ونوبار باشا، غير أن معظم نجاح المشروع يرجع الى الأخير* إذ قضى سبعة أعوام من حياته فى كفاح مع دول أوربا حتى أفلح أخيراً فى تأسيس هذه المحاكم التى مع ظهور بعض الفائدة منها لم تأتِ بكل ما كان مؤملاً فيها

تأثير المحاكم المختلطة

وانا نشك فى أن اسماعيل باشا كان يعرف كل النتائج التى تنجم من هذا التغيير، فانه كان يريد بالمحاكم المختلطة القضاء على نفوذ محاكم السفارات التى كان يظهر انها ستقضى على شىء من سلطته الفردية ، لا عليها كلها كما فعلت هذه المحاكم وبرهنت عليه الحوادث ، إذ اتضح له أخيراً أن سلطة هذه المحاكم تعلو سلطته ، لأنها أصبحت تفصل فى كل القضايا حتى التى على الحكومة وعلى شخصه نفسه ، بل كانت من اكبر العوامل على عزله . ومع ما كان فيها وقت انشائها من النقائص كانت اكثر فائدة من محاكم الأقسام التى كان يفصل حينئذ فى قضاياها المدير أو ناظر القسم : يدلك على ذلك أن كثيراً من الأهالى كانوا يفضّلون الفصل فى قضاياهم أمام المحاكم المختلطة

* كان نوبار باشا من أنجب رجال عصره : رباه قريبه بغوص باشا من مستشارى محمد على تربية سياسية فكان يحسن معظم لغات أوربا قراءة وكتابة ويلم بكل الاحوال الاوربية ومع كونه ارمنياً مسيحياً استطاع أن يخدم ثلاثة من ولاة مصر مدة عشرين عاما حائزاً لكل رضاهم الى أن غضب عليه اسماعيل باشا . وكانت خاتمة اصلاحاته تأسيس المحاكم المختلطة التى نحن بصددها

على محاكم الأقسام التى كان كل من المدير وناظر القسم يستعمل السوط فى تحقيق قضاياها ثم لا يفلح فى تحقيق قضية واحدة من بين خمسين



نوبار باشا

مساعى نوبار — وقد لاقى نوبار باشا الصعوبات الجمة فى ارضاء كل من الأهالى والأجانب ، وخصوصاً سفراء الدول الذين رأوا أن تأسيس هذه المحاكم يكون من ورائه محو سلطتهم فى البلاد . وكانت فرنسا اكبر معارض لانشاء هذه المحاكم على حسب التغييرات التى اقترحها نوبار باشا . فى حين أن انجلترة كانت اكبر عضد له فيها ، رأى الدول — إذ رأت أن النظام المتبع حينئذٍ مضرّ بكل من الأهالى والأجانب ، ولذلك كانت تصرح دائماً بأنهــا مستعدة لمعاضدته . أما الباب العالى فانه رغم معاضدة انجلترة

للمشروع ورغبة معظم الدول الأوربية فيه ، وضع العقبات فى سبيل انفاذه بعلة أنهُ مخالف للشرع . فأبى السلطان والعلماء فى القاهرة ادخال هذا الاصلاح الذى يعد افتياتاً على حقوقهم ، وأعلن العلماء فى القاهرة ان مثل هذا التغيير لا يتفق مع الدين الحنيف . فعزل اسماعيل باشا المفتى الذى أفتى بذلك ، واستبدل به آخر وافق على انشائها . ومن هذه اللحظة لم تجئ أى معارضة من هذه الناحية

رأى الباب العالى والعلماء

و بعد أن انتهى من معظم المعارضات شكّل هذه المحاكم فى ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ ( أول يناير سنة ١٨٧٥ م ) الاّ انها لم تفتح أبوابها الا فى شهر المحرم سنة ١٢٩٣ هـ ( فبراير سنة ١٨٧٦ م ) ، وذلك للعراقيل التى كانت تضعها فرنسا

تشكيل المحاكم المختلطة

وقد أُسس من هذا النوع ثلاث محاكم من الدرجـة الأولى : فى القاهرة والاسكندرية والمنصورة ، ثم محكمة استئناف عليا بالاسكندرية

وهذه المحاكم تفصل فى القضايا المدنية وبعض المخالفات التى يكون فيها أحد الخصمين أو كلاهمـا من الأوربيين أو الأمريكيين المختلفى الجنسية . أما اذا كان الخصوم من الأجانب المتحدى الجنسية فالمحكمة لا تفصل فى النزاع الاّ اذا كان موضوعه عقاراً . وهى مستقلة تماماً عن الحكومة ، وتُعيّن القضاة بها اثنتا عشرة دولة من دول أوربا والولايات المتحدة ، ويجدد هذا النظـام فى كل خمسة أعوام مرة . وهى فى مصر أشبه فى الحقيقة بمملكة صغيرة . ولقضاتها الحق فى شرح القانون وتقرير ما لهم من السلطـة . ولا توجد هيئة تشريعية معتبرة يُرجع اليها اذا تعدت هذه المحاكم حدود اختصاصها . وغاية ما تستطيع الحكومة المصرية عمله فى هذا الصدد ان تفاوض الدول ، حتى اذا اتفقنَ جميعاً على رأى عمِدْنَ الى تعديل القانون

اختصاصها

سعة نفوذها

## ٣ — ﴿ التربية والتعليم ﴾

رأى اسماعيل باشا كما رأى جده المظيم محمد على من قبله أنه لا يتسنى له القيام باصلاحاته ومشروعاته الخطيرة فى البلاد الاّ بتعليم أبناء الأمة ، وإن اختلفت أغراض

مساعى محمد على

الفرق بينهما

كل من الرجلين . فكان الغرض الأول لمحمد على من التعليم أن يكوّن عدداً عظيماً من الضباط والموظفين ليساعدوه فى ادارة شؤون البلاد ، أما اسماعيل فقد غرست فيه تربيته الأوربية مبادئ حب العلم والتعليم ، فأراد أن ينشر العلم لذاته بين جميع طبقات الأمة . لذلك وجّه شطراً عظيماً من عنايته الى هذه الوجهة . وكانت الأحوال مساعدة له ، لخصب مدارك المصرى وقوة حافظته التى لا تضارَع فى أكثر الشعوب ، ولِمَا لمصر من المجد الأثيل والباع الطويل فى نشر العلوم والمعارف : يشهد بذلك جامعة الاسكندرية فى عصر البطالسة ، والجامع الأزهر الذى يؤمه آلاف الطلاب من جميع بقاع العالم الاسلامى

بعض اعوان اسماعيل

وقد ساعد الحظ اسماعيل ، اذ وجد فى خدمته نخبة من أكابر الغربيين ، نهضوا بالتعليم ورقوه ، ونؤثر بالذكر منهم « دور بك » و « كلوت بك » و « رُوجَرْز بك » . وكان لبعض نظار الحكومة فضل عظيم فى هذه النهضة ، وبخاصة « شريف باشا » و « رياض باشا » و « على مبارك باشا » الذى سار بالتعليم شوطاً بعيداً ، وكان له القدح المعلى فى نهضة البلاد الحديثة

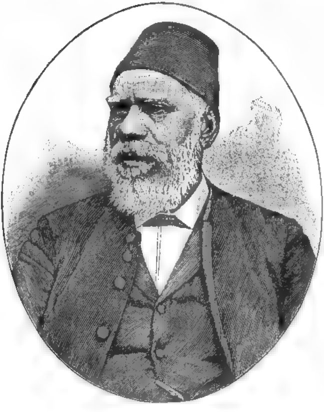
قانون رجب سنة ١٢٨٤ هـ

ولا يفوتنا ان الفضل كل الفضل راجع طبعاً الى رئيسهم الأكبر الخديوى اسماعيل . فأول عمل قام به أنه أصدر قانوناً فى ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ هـ ( ١٨٦٧م ) كان الغرض منه وضع أساس منهج قويم للتعليم فى جميع أنحاء القطر ، وقد ظهرت فائدته ، اذ زاد عدد التلاميذ فى مدة وجيزة الى ٥٢٫٠٠٠ تلميذ يتعلمون فى ١٣٠١ معهد ، ثم ازداد بعدها عدد التلاميذ الى ١٤٠٫٩٧٧ وعدد المدارس الى ٤٨١٧ ،

اتساع نطاق التعليم

وكان فى القاهرة وحدها ما يزيد على ٢٩٥ مدرسة بلغ عدد تلاميذها ١٠٫٠٠٠ تلميذ . عدا طلبة الأزهر الشريف والمعاهد الأجنبية والمعاهد التابعة للأوقاف والمدارس الحربية لتعليم الجيش الذى كان يبلغ اذ ذاك ثلاثين ألفاً *

* وقد قارن المستر ( ادون دى ليون ) فى كتابه عن الخديوى عدد المتعلمين فى مصر من الشبان الذين فى سن التعليم بنظرائهم فى أوربا فى ذلك الحين فقال : « ان نسبة المتعلمين فى مصر تبلغ ٢٣ ٪ ، على حين انها تبلغ فى الدولة العثمانية ١٠ ٪ وفى الروسيا ٣ ٪ وفى ايطاليا لم تتجاوز ٣١ ٪ »



على مبارك باشا

اهم المدارس الخصوصية والعالية

وأهم مدارسه العالية والخصوصية مدرسة الهندسة ، ومدرسة الطب والولادة ، ومدرسة الحقوق، ومدرسة الفنون والصنائع، ومدرسة اللغة المصرية القديمة ، ومدرسة الألسن والمعلمين ( قلم الترجمة ) ومدرسة دار العلوم ( المعلمين الناصرية ) . وكان التعليم فى كل هذه المدارس بالرغبة ، لا بالاكراه كما كان فى عصر محمد على

ولا يتسرَّب الى ذهن القارىء أن كل هذه المدارس أسسها اسماعيل باشا ، بل وضع الحجر الأساسي للكثير منها محمد على باشا ، كمدرسة الطب التى شيدها فى عام ١٢٤٢ ﻫ ( ١٨٢٧ م ) كما أسلفنا من قبل . غير أن الفضل يرجع الى الخديوى

زيادة ميزانية المعارف

فى تنظيم هذه المدارس وزيادة ميزانية نظارة المعارف ورفعها أولاً من ستة آلاف جنيه فى عهد سعيد الى أربعين ألف جنيه ، ثم وقف عليها أراضى الوادى بعد أن اشتراها ثانية من شركة قناة السويس

انواع الدراسة فى المدارس المختلفة

وكان غرض اسماعيل باشا من قانون رجب سنة ١٢٨٤ ﻫ نشر التعليم وتوحيد نظامه فى جميع انحاء البلاد مع مراعاة ما يلائم كل طور من أطوار الدراسة . فكان لا يجهد عقول التلاميذ فى الطور الأول بالمواد التى لا فائدة لهم منها ، بأن جعل التعليم فى المدارس الابتدائية قاصراً على مبادئ الكتابة والقراءة ، وخص المدارس التجهيزية بمن كان يريد التقدم فى مضمار التعليم . أما المدارس العالية والخصوصية فكان يتعلم فيها الطلاب كل العلوم الدراسية وفيها اللغات . وكان يُترك لهم الحرية فى اختيار اللغة التى يتعلمونها بشرط أن يتعلموا اللغتين العربية والتركية . وكان طلاب المدارس الخاصة على قسمين : قسم يتعلم على نفقته الخاصة ، والآخر على نفقة الحكومة ، ولذلك كان يتحتم على هؤلاء أن يخدموا فى وظائف الحكومة مدة معينة . وكان ينتخب أحسن الطلاّب لمدرسة الهندسة ومدرسة الطب ، وحثالة التلاميذ تذهب الى المدارس الحربية . وفى ذلك اجحاف عظيم بالمجتهدين من الطلبة ، لأن معظم الترقية كانت فى الجيش

العقبات فى طريق الاصلاح

ولا شك أن هذا القانون الذى يشمل أربعين مادة وضع أساساً متيناً للتعليم فى البلاد ، الاّ أن الحاجة الى المال والرجال كانتا حجر عثرة فى طريق تنفيذه ، إذ أخذت الحكومة على عاتقها عدة أعباء ثقيلة ، فكانت تعلم التلاميذ مجاناً ، وتتكفل بطعامهم وملبسهم ، وتعطيهم رواتب شهرية ، ولذلك كان الآباء أحياناً يمنعون أبناءهم من الذهاب الى المدرسة اذا قصّر أولو الأمر فى شئ من النفقة ، وربما كان للفلاح عذر فى ذلك ، فان حالته الأدبية كانت منحطة ، وربما كان غير قادر على دفع نفقات التعليم لما كان يعانيه من دفع الضرائب الفادحة والسخرة

وقد شجع الخديوى أعيان الامة على تعليم أولادهم ، فوضع لهم مثالاً ليحذوا حذوه

الخديوى يضع مثالا للامة

بأن عُنِى بتربية أنجاله وأمراء أسرته . فانهُ عند توليته نقل مدرسة « المَنْيَل » الى قصر عابدين بعد ان كانت بجزيرة الروضة ، وكان يتعلم بها مع الأمراء ستون تلميذاً من أبناء الأهالى ، فلم يفرق فى المعاملة بين الفريقين ، وكان من المحتم على الأمراء تمضية الامتحانات كغيرهم من التلاميذ *

مدرسة البنات

ولم تقف همته عند تعليم الشبان من أبناء الأمة ، بل وجه عنايته الى تعليم البنات أيضاً ، فأسس مدرسة لذلك الفرض تحت رعاية احدى زوجاته على نفقتها الخاصة ، وكان الفرض منها تعليم البنات المصريات الواجبات المنزلية ، حتى يستغنين عن الإماء والعبيد ، فكانت هذه أول مدرسة من نوعها فى كل بقاع الدولة العثمانية

أوجه نقص التعليم

غير أنهُ كان فى هذه المدارس بعض العيوب : فنها قلة الأساتذة الأوربيين الذين يحسنون العربية ، إذ لايخفى ما فى القاء المحاضرات بواسطة مترجم من النقص . ومنها أن المعلمين الوطنيين كان ينقصهم أشياء كثيرة أخصها معرفة طرق التعليم ، فكان لاهمّ لهم الاّ إنماء حافظة التلاميذ ، وهذه بلا شك طريقة عقيمة تذهب بكثير من ثمرات التعليم

## دار الكتب

معظم مشتملات دار الكتب

ولايفوتنا عند الكلام على التعليم أن نذكر أن الفضل فى انشاء دار الكتب الحالية يرجع الى همة الخديوى اسماعيل إذ جمع لها كل ما وصلت اليه يده من الكتب المنسوخة باليد والمصاحف المزخرفة التى كانت مبعثرة فى جميع انحاء البلاد ، ولاريب ان هذه المجموعة لاتقل فى بهاءعن مجاميع لندن وباريس وتورين . على أن المجموعة الفارسية التى فيها لايوجد لها نظير فى العالم بأسره

---

* وبعد فترة ألحقت هذه المدرسة بمدارس العباسية التى تمت فى عهد شريف باشا ناظر المعارف فى ذلك الحين حتى صار بها قسم ابتدائى يبلغ عدد تلاميذه ١٢٠٠ وقسم تجهيزى بلغ عدد تلاميذه ٧٠٠ بينهم أمراء الاسرة الخديوية . عدا ثلاث مدارس أخرى ومدرسة الهندسة ومدرسة المعلمين . وكان يجمع الجميع بناء واحد ضخم

مجموعة الأمير مصطفى فاضل

واشترى اسماعيل باشا مجموعة الكتب التى كانت عند أخيه الأمير مصطفى باشا فاضل بعد مماته بمبلغ ١٠٠٠٠ جنيه وأهداها الى دار الكتب

فاسماعيل باشا يُعتبر بما قام به ، وبما تم فى عصره من التعليم والنهوض بالأمة ، من أعظم المشجعين للنهضة الحديثة بالديار المصرية

## دار الآثار المصرية

اهمال الآثار المصرية

لا يكاد يوجد فى العالم أرض تضارع مصر فى كثرة آثارها القديمة ونفاستها ، الآ أن هذه الآثار كانت الى أواخر أيام محمد على باشا مهملة لايهتم بها ملوك مصر ، ولا يفتر قناصل الدول الأجنبية وتجارها عن تبديدها وتهريب ما وصلت اليه أيديهم منها الى بلادهم . فلما قدم شمبليون مصر لدرس النقوش الهيروغليفية عرض على محمدعلى باشا عام ١٨٣٠م انشاء مصلحة لحفظ العاديات المصرية ، ولكن الباشا لم

مشروع شمبليون

يعمل بنصيحته وقتئذ ، بتحريض قناصل الدول وتصويرهم مشروع شمبليون بأشنع صورة لأغراضهم الشخصية

دار الآثار بالازبكية ١٨٣٥م

غير ان نصيحة شمبليون تركت أثراً فى نفس محمد على ، فأصدر أمراً بعد ذلك بخمس سنوات بمنع تصدير الآثار واقامة حراس عليها . وفى ربيع الثانى سنة ١٢٥١هـ ( اغسطس سنة ١٨٣٥م ) أنشأ مصلحة للآثار أمام بركة الأزبكية للمحافظة على العاديات والبحث عنها فى أنحاء البلاد . ولم تكن أعمال هذه المصلحة منتظمة فى أول أمرها ، وبقيت كذلك الى سنة ١٢٦٥ هـ ( ١٨٤٩ م ) إذ أصدرت نظارة المعارف ( التى كانت المصلحة تابعة لها حينئذ ) أمراً الى «لينان بك» بعمل فهرست للآثار

بالقلعة

وجمعها فى مكان واحد . إلاّ أن ذلك لم يضرب على أيدى السرقة والمبددين ، حتى انهُ لما نقلت الآثار الى القلعة لم تشغل بها الاّ حجرة واحدة

وفى سنة ١٢٦٦ هـ ( ١٨٥٠ م ) قدم الى مصر رجل من أذكياء الفرنسيين المشتغلين بالآثار يدعى « المسيو مَرِيت » ( مريت باشا فيما بعد ) أوفدته حكومته

أول قدوم مريت

الى وادى النيل لمشترى مخطوطات قبطية ، فعدل عن ذلك وعكف على درس آثار سقارة حتى كشف بها السرابيوم . ولم تكن له علاقة رسمية بمصلحة الآثار وقتئذٍ ، ولكنهُ لشغفه بالآثار والمحافظة عليها ساعد الحكومة كثيراً حتى زادت محتويات دار العاديات زيادة عظيمة بين سنتى ١٨٥٣ و ٥٤ ، ولكن ما لبثت أعماله ان ذهبت ادراج الرياح ، إذ زار مصر فى عام ١٢٧١ ﻫ ( ١٨٥٥ م ) « الأرشدوق مكسيمِليان » النمسوى ، فطلب من عباس باشا الأول أن يهديه شيئاً من العاديات المصرية ، فسمح له بأن يأخذ كل ما أراد من القلعة ! واذا شاء أحد أن يعرف ما كانت تحويه دار عاديات القلعة فما عليهِ الأ أن يذهب اليوم الى « فينا »

معونته لسعيد باشا

أما المسيو « مريت » فانهُ بقى مشتغلاً بالآثار المصرية ، باذلاً وسعه فى أن تكون له صفة رسمية فيها حتى يضمن ثمرة أتعابه ، فتمَّ له ذلك فى ذى القعدة سنة ١٢٧٤ﻫ ( يوليه سنة ١٨٥٨ م ) ، إذ جعله سعيد باشا بتوسط المسيو ديلسبس مأموراً لأعمال العاديات بمصر

أعماله وهو مأمور الآثار

وقد لاقى فى أول الأمر مصاعب جمة فى تنظيم الآثار وادارة حركتها ، لقلة المال ولعدم ثبات سعيد باشا على مؤازرته ، إذ كان أحياناً يأمر بتوقيف أعماله . ولكنَّ مريت بقى مثابراً على بحثه ، متنقلاً طول النهار بين المصانع والطلال ، حتى أخذت دار العاديات تمتلئ بسرعة ، وسمح له سعيد باشا بنقلها الى مخازن أُعدت لها فى بولاق

معاضدة اسماعيل للمشروع

ثم مات سعيد باشا ومشروع مريت فى نشأته ، فحزن كثيراً وخشى أن لا يلقى من اسماعيل باشا ما لاقاه من سعيد من المؤازرة ، ولكنهُ ما لبث أن وجد من اسماعيل باشا أكبر عضد لمشروعه ، فأمر فى الحال باصلاح مخازن بولاق وتوسيعها

افتتاح محل بولاق رسميا

وافتتحها بحفلة رسمية فى ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٨٠ ﻫ ( ١٨ اكتوبر ١٨٦٣ م )

ثم بقيت دار العاديات سائرة فى طريق التقدم بفضل معاضدة اسماعيل باشا

فى معرض باريز

ومثابرة مريت ؛ ولما أقيم معرض باريز عام ١٢٨٤ ﻫ ( ١٨٦٧ م ) نُقل أجمل ما فيها الى فرنسا لعرضه بالمعرض فكان موضوع اعجاب الفرنسيين وغيرهم من الأوربيين .

لذلك طلبت «الامبراطورة يوجيني» من اسماعيل باشا أن يبقى العاديات بباريز لاهدائها لفرنسا، فكاد يجيب طلبها لولا مقاومة مريت باشا

العسر المالي وفيضان النيل

أفلتت العاديات من هـذه الأزمة فوقعت بعدها في ضيق شديد للعسر المالي الذي أخذ بخناق الحكومة في ذلك الوقت. وفي سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) فاض النيل على أماكن بولاق وكاد يغرق الآثار. فعُني مريت بحفظها في صناديق وبقي محافظاً عليها حتى أعيد افتتاح الدار بعد هبوط النيل

مثابرة مريت

وبقي مريت مثابراً على تنظيم دار العاديات المصرية واصلاحها حتى مات في



مريت باشا

صفر سنة ١٢٩٨ هـ ( يناير ١٨٨١ م ) وهى تضارع أعظم دور العاديات الأوربية

بالجيزة ثم قصر النيل

وفى عام ١٣٠٨ هـ ( ١٨٩١ م ) نقلت دار الآثار الى الجيزة ، فبقيت بها الى عام ١٣٢٠ هـ ( ١٩٠٢ م ) اذ نقلت الى مكانها الحالى قرب قصر النيل

ودفن مريت باشا باووس فى دار الآثار المصرية لايزال الى الآن بها يستقبل القادم عليها

## ٤ — ﴿ منع تجارة الرقيق ﴾

بعد أن بذل اسماعيل باشا جهده فى تأمين الأمة على نفسها ومالها ، وساوى بين أفرادها أمام القانون ، وبذل جل طاقته فى رفع شأن الأهالى بالتعليم ، رأى ان من الكرامة والرحمة أن لايتغاضى عن تجارة الرقيق فى داخل بلاده . فلم يكتف بمنعها على الورق كما فعل من قبله محمد على باشا وسعيد باشا . بل عزم عزماً اكيداً على اقتلاع أصول هذه المهنة والقضاء عليها ما استطاع الى ذلك سبيلاً . ولما كانت هذه المهنة عادة متأصلة فى كل البلاد ، وكان الدين الاسلامى بل كل الشرائع السماوية لا تمنع بيع الرقيق بشروط خاصة ، صادف اسماعيل باشا صعوبات جمة فى سبيل تحقيق أمنيته وتنفيذ عزمه

صعوبة منع بيع الرقيق

المستكشفون الانجليز

وكان أول من لفت نظر الأمم المتمدينة الى الفظائع التى ترتكب فى أواسط افريقية من جراء هذه المهنة كبار المستكشفين من الانجليز ، نخص بالذكر منهم « لفنجستون » و « بيكر » و « استانلى » ، اذ كانوا يروون عن ذلك الحكايات التى تفتت الاكباد وتدمى القلوب ، لما كان يقاسيه أهل تلك البلاد من الذل والهوان وأنواع العذاب . ومهما بالغ الانسان فى وصف هذه الفظائع فانه لايمكنه أن يفهم حالة العبيد والاتجار فيها الا اذا قرأ كتاب « الاسماعيلية » أو كتاب « ألبرت نيانزا » اللذين وضعهما « السير صمويل بيكر » فى هذا الصدد . ويكفى أن نقول هنا ان

فظائع تجارة الرقيق

تخريب السودان جلّابي العبيد خرّبوا بلاد السودان، بصيدهم ما لا يقل عن خمسين ألف زنجي في كل عام تحت ستر الاتجار في العاج

اسماعيل يعمل بمشورة ولي عهد انجلترة — وأول من فكر في القضاء على هذه الحرفة المشؤومة بالفعل ولي عهد انجلترة في ذلك الوقت، إذ عرض على الخديوي أن يتوسط بالسير صموئيل بيكر محو الاتجار بالرقيق على النيل الأبيض وتوطيد النظام في السودان ، فرحب الخديوي بهذا الاصلاح ، وعزم على أن يضرب بسهم صائب في أحشاء هذه السلمة بالرغم من معارضة رعيته وعدم ميلهم لذلك

كثرة النفقات وقلة الاعوان — ولا شك ان تحريم الاتجار في الرقيق صادف قبولاً حسناً في نظر دول أوربا العظام ، إلاّ أنهُ أثقل عاتق الحكومة المصرية بما كلفها من النفقات ، اذ أنفق بيكر وحده في هذا السبيل نحو ٥٠٠,٠٠٠ جنيه . ولم يجد اسماعيل باشا معضداً له من بين رعيته إلاّ شريف باشا ونوبار باشا والأنجال والأمراء . أما باقي الرعيـة فكانوا ينظرون الى المشروع شزراً

استكشافات بيكر — وأول أعمال السير صموئيل بيكر في هذا السبيل أن الخديوي عهد اليه سنة ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م) بالاستكشاف عن الجهات التي قرب منابع النيل الأبيض وضمها الى الحكومة المصرية ، فخرج بحملة مصرية الى اقليم خط الاستواء ، ثم زحف بها حتى بلغ بلدة « جُنْدُوكورو » والبلاد الواقعة على بعد درجتين شمالي خط الاستواء ، وأعلن رسمياً إلحاق المقاطعات الاستوائية بالحكومة المصرية سنة ١٢٨٨ هـ(١٨٧١م) . وكان أينما حل يؤسس باسم مصر نقطاً عسكرية لمنع تجارة الرقيق ، أهمها نقطة « التوفيقية » .

قوة تجار الرقيق — وكان بالسودان في ذلك الوقت عدة بيوت تجارية كبيرة لنقل البضائع من أطراف السودان الى مصر ، فجمع أصحابها رجالاً مسلحة من الزنوج وشيدوا لهم معاقل حصينة ليستعينوا بها على الاتجار فيما يريدون ، وخصوصاً تجارة الرقيق لما فيها لهم من الأرباح الطائلة . واستفحل أمرهم في هذه التجارة حتى ان «بيكر» لما عاد من سياحته الأولى وصف للخديوي مبلغ نفوذهم العظيم في القاصية

مقاومتهم بزعامة الزبير

فأرسل الخديوى الى « حكمدار » السودان أن يتفق مع أصحاب تلك المعاقل على تسليمها للحكومة بمقابل تعويض يدفع لهم ابتغاء منع تجارة الرقيق . فقبل بعضهم، وامتنع بعضهم الآخر بزعامة « الزبير »

تنصيب الزبير مديرا لبحر الغزال

ومن ذلك الحين صار للزبير شأن كبير فى هذه الحرفة ، وصار رئيس تجار الرقيق وبنى لنفسه فى « شكا » قصراً يضارع قصور الملوك ، ونظم له جيشاً مسلحاً لاقتناص الرقيق، وبعد مكافحة طويلة بينهُ وبين الحكومة طلب العفو من الخديوى، فجعله مديراً لبحر الغزال دفعاً لتفاقم الشر

تنصيب بيكر حاكما عاما

أما السير « صموبل بيكر » فانه ذهب فى رحلة ثانيـة الى مديرية بحر الغزال ، ووصل فى سفره الى بحيرة « فكتوريا نيانزا » فرتب المقاطعات الاستوائية ، وأنشأ فيها نقطاً عسكرية . ولما أخلص النصح فى خدمة مصر لقبهُ الخديوى حاكماً عاماً على هذه المقاطعات ، فبقى عليها حتى استقال فى سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م) بعد أن ترك خلفه حكومة مبنية على أساس متين وطرد صيادى الرقيق من هذه الجهات

أعمال غردون

وقام بأعباء العمل بعده الكولونيل « غُردون » . وكل من يعرف ما فُطر عليه هذا الرجل من شدة البأس والمثابرة على العمل يعلم أنه أتى كل ما يمكن لانسان أن يفعله فى سبيل القضاء على طائفه الجلاّبين . إلاّ أنه بمجرد تركه لهذه الأصقاع النائية عادت هذه المهنة الى ما كانت عليه ، بل زادت فى الانتشار حتى أنه فى أيام قيامه بهذه الخدمة فى السودان كان يُجلب الرقيق الى الحدود المصرية ويتجر فيه . وسنتكلم على غردون عند الكلام على السودان

دلا سلا

وكان ثالث رجل قام بهذه الخدمة رئيس جمعية تحريم الاتجار فى الرقيق « كُمت دلاّ سلاّ » ، وكان لا يقل عن سابقه فى النشاط والقوة ، فطارده بجميع قواه فى الوجه القبلى الى الجنادل الثانية ( الشلال الثانى ) ، فنجح نجاحاً باهراً حتى لم تتمكن قافلة واحدة من قوافل الرقيق من الوصول الى أسيوط

ومع ما بذل كل هؤلاء الثلاثة فى سبيل منع الرقيق لم يتمكن أحد منهم إلاّ من

صعوبة العمل

تسكين هذه الرذيلة مدة وسدّ بعض الطرق فى وجهها ، وقد صرح الثلاثة أن من المستحيل محو هذه المهنة دفعة واحدة . ولا شك أن الصعوبات أمامهم كانت عظيمة ، ولا سيما أن شيخ الجامع الأزهر فى ذلك العصر أوعز الى الخديوى أن تحريم الرقيق جملةً يخالف الشرع . إلاّ أن الخديوى رغم ذلك ، ورَغْمَ عدم مساعدة الدول له مساعدة جدية ، أمضى معاهدة مع بريطانيا العظمى لمنع بيع الرقيق فى ٢٤ رجب سنة ١٢٩٤ هـ ( ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ م ) وأُخرى فى المحرم سنة ١٢٩٥ هـ ( يناير سنة ١٨٧٨ م ) وهذا منتهى ما يمكن لانسان أن يأتى به . وفى الحقيقة لم يَغْلُ « اللورد ابردين » الانجليزى حين قال : « انهُ لا يتسنّى لأى حاكم شرقى أو أوروبى أن يعمل على محو الرقيق وتحسين حالة رعيته فى زمن قصير كما فعل حاكم مصر الحالى » ( يعنى اسماعيل )

معاهدتان مع انجلترة

٥ — ﴿ منح السلطة للنظار وانشاء مجلس شورى النواب ﴾

مجلسان فى عهد محمد على

كان أول من سار بالبلاد فى سبيل الحكم الدستورى محمد على باشا ، إذ رأى ضرورة اشراك الرعية معهُ فى تدبير شؤون مصر . فألف من كبار رجال حكومته مجلساً يسمى « المجلس المخصوص » ليعاونه فى ادارة شؤون البلاد ، ويمكن اعتباره الأساس لمجلس الوزراء الحالى . وأنشأ أيضاً مجلساً للشورى ( مجلس المشاورة الملكى ) ألفه من العلماء والأعيان

اسماعيل يعيدهما

وقد مُحى هذان المجلسان بعد وفاة محمد على ، وبقيا كذلك الى أن جاء اسماعيل باشا فأعاد المجلس المخصوص وناط به فحص جميع المشروعات التى يريد ادخالها ، وكان يرأس جلساته بنفسه فى الغالب ، وزاد من اختصاصه حتى صار شبيهاً بمجلس الوزراء الآن . غير أنه بقى هو صاحب النفوذ المطلق لا يعمل نظّاره إلاّ برأيه . فلما تدخلت الدول الأوروبية فى شؤون مصر طلبت اليه أن يمنح أعضاء المجلس سلطة فعّالة بحيث يكونون هم المسئولين عن قراراته . فتشكل وزارة مؤاخَذة برياسة نوبار باشا سنة ١٢٩٥ هـ ( أغسطس سنة ١٨٧٨ م ) كان ضمن أعضائها اثنان من الأجانب ( كما سيأتى مفصلاً

مجلس النظار

عند الكلام على المسائل المالية) فكان ذلك أول مجلس نظار أنشىء بالديار المصرية

مجلس الشورى

وأعاد اسماعيل باشا أيضاً مجلس الشورى وسماه «مجلس شورى النواب» وافتتحه في ١٠ رجب سنة ١٢٨٣ هـ ( ١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٦ م ) ، وهذه من أهم الخطوات في سبيل الحكم النيابي في جميع ممالك الشرق بأسرها . وكان انتخاب هؤلاء الأعضاء

طريقة الانتخاب

بأغلبية الأصوات في جميع البلاد ، الاّ أن عيبها الكبير هو أن المدير كانت له اليد الفعالة في انتخاب الأعضاء ولذلك كان معظمهم ينتخب من أغنياء المديريات من غير نظر الى علمهم ومداركهم ، وكان أغلبهم يأبى أن يكون منتخباً مخافة أن يغضب المدير أو الحكومة في أمر من الأمور ، حتى أن الحكومة كانت تضطر في أغلب الأحيان الى انتخاب الأعضاء بالقوة الجبرية . ويقال ان اسماعيل باشا لم يكن غرضه من هذا المجلس أن يتدخل معه في أمور البلاد بل ليشاركه أعضاؤه في المؤاخذة . وكانت وظيفة هذا المجلس أن يناقش الحكومة ويبدى لها رأيه في كل التغييرات المالية ، وفي المشروعات العامة الجديدة ، وكل ما يتعلق بصالح البلاد من الأمور التي تعرضها عليه الحكومة . وكان يجتمع في كل عام مدة شهرين فتعرض عليه الحكومة التقرير السنوي عن ادارة البلاد أثناء العام .

جهل الاعضاء

وكان أعضاء هذا المجلس لا يدرون في أول الأمر شيئاً من أعمال المجالس النيابية ونظامها ، فلما همّ شريف باشا بتعليمهم واجباتهم وطريقة السير في العمل ظهر من جهلهم وغرارتهم ما يضحك

## ٦ — ﴿ التقدم المادى والأعمال العامة ﴾

يجدر بنا الآن بعد أن تناولنا الكلام على الاصلاحات الاجتماعية والأدبية في عصر الخديوي اسماعيل باشا أن نذكر شيئاً من اصلاحاته المادية التي لا تزال آثارها تدل على عظمته وعلى ما كان يطمح اليه في سبيل رقي البلاد وفلاحها

وان كثيراً من أعداء اسماعيل يدّعون انه لم يفد البلاد ، ولم يقم فيها بعمل يذكر ،

الأ ماشيد من القصور العديدة والمبانى الضخمة والبذل عن سعة فى ملاذه وأغراضه حتى استنفد أموال البلاد وتركها تنوء تحت عبء ثقيل من الديون، ولكننا سنظهر هنا بالبراهين القاطعة، مستشهدين بكلام مشاهير عصره، ان اكثر أقوالهم غير مطابق للواقع، وان اسماعيل باشا أفاد البلاد ورقاها، وان ماقام به وتم فى عصره من الاصلاحات والمشروعات العامة لايضارَع ولا يتسنى لأى حاكم آخر فى موضعه أن يأتى بمثله. الاّ أن خطأه العظيم يرجع الى السرعة وتعدد المشروعات وعدم الحيطة فى الانفاق على أعماله

## الزراعة

اصلاح الرى — كان اسماعيل يعلم أن ثروة البلاد فى زراعتها، لذلك وجّه جانباً عظيماً من عنايته الى تحسين حالها. فكان أول عمل قام به ان حفر اكثر من مائتى ترعة، ورصف مسافات طويلة من شواطئ النيل، وأنشأ آلاف الأميال من الطرق الزراعية فى جميع انحاء القطر، وأقام عليها مالايقل عن ٥٠٠ قنطرة من أهمها قنطرة الجزيرة (كبرى قصر النيل) التى تعتبر من أعظم الأعمال الهندسية فى القطر المصرى. ثم أصلح مالا تقل مساحته عن ١٫٥٠٠٫٠٠٠ من الفدادين، فزاد بذلك الأراضى

زيادة الاراضى المزروعة — المزروعة فى القطر بنسبة ٣٠ ٪. وان لم يكن لاسماعيل باشا حسنة أو اصلاح فى البلاد غير هذه لكفى

وفى أوائل حكمه اشتعلت نار الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة، فحصرت ولاياتُ الشمال تجارةَ الولايات الجنوبية ومنعت صدورها الى أسواق أوربا، وفى ذلك القطن

الحرب الاهلية الامريكية والقطن المصرى — الذى لاغنى لانجلترة وفرنسا عنه، فارتفعت بذلك اسعار القطن فى مصر ارتفاعاً لامثيل له. فانتهز الخديوى هذه الفرصة واكثر من زرع هذا المحصول، وشاركه فى ذلك الاهلون من تلقاء أنفسهم، حتى صار المال يتدفق الى مصر تدفقاً، وارتفعت قيمة الصادرات المصرية من ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه فى عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) الى

١٤،٠٠٠،٠٠٠ جنيه فى عام ١٢٨١هـ (١٨٦٤م) . ولكن ما لبثت الحرب الامريكية أن انتهت ، وعادت أثمان القطن الى حالتها الأولى

قصب السكر

فوجه الخديوى عنايته الى زرع قصب السكر ، فكان ذلك شغله الشاغل ، وأنفق عليه الأموال الطائلة ، وسخر الأهالى فى زرعه ، وأنشأ من أجله خطاً حديدياً من القاهرة الى أسيوط . وقد احتكر زراعته فى أملاكه الخاصة على الضفة اليسرى من النيل بين القاهرة وأسيوط ، واشترى لصنعه من الخارج الآلات الكافية لتشييد أربعة وعشرين معملاً أقيم بعضها وأهمل بعضها الآخر . وقد أنفق اسماعيل على هذه المعامل وما يلزمها سبعة آلاف ألف جنيه ، عدا نفقات الترعة البراهيمية التى حفرها لرىّ هذه الأراضى ، وسخر فى حفرها عدداً عظيماً من أهالى القطر ، وبعد أن أتم حفرها نصب عليها الالات الرافعة . وهذه الترعة من اكبر الترع التى أنشئت فى مصر وأعظمها فائدة واكثرها نفقة

وكان معظم العمال الذين يشتغلون فى معامل السكر يُجبرون على العمل ويتقاضون أجورهم إما من السكر أو العسل

## التجـارة

بناء ١٥ منارة

ووجّه اسماعيل همه أيضاً نحو تحسين حال التجارة ، لعلمه أن مصر كانت من قديم الزمان مركزاً عظيماً للتجارة . فبنى خمس عشرة منارة فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، لترشد السفن التجارية القادمة الى مصر ، فأنفق عليها ما لا يقل عن ٢٠٠،٠٠٠ جنيه ، ثم شرع فى بناء مرافئ ميناء الاسكندرية وميناء السويس ، فناط اصلاح ميناء السويس بشركة فرنسية ، وبلغت نفقاته ٥٠٠،٠٠٠ جنيه . أما ميناء الاسكندرية فانهُ عهد أمر اصلاحه الى شركة انجليزية عقدت معهُ اتفاقاً على ألفى ألف وخمسمائة ألف جنيه . وقد اعترف « السير رِفرْز وِلْسُن » أحد الموظفين فى الحكومة المصرية فى عهد اسماعيل ان هذا الاتفاق كان مجحفاً بمصر ، وان الميناء لم

مرافئ الاسكندرية والسويس

ينفق عليه أكثر من خمسمائة ألف وألف الف . فخدع اسماعيل فى هذا العقد كما خُدع قبله سعيد باشا فى عقد قناة السويس . وهذا فى الحقيقة مثل من كثير من أنواع الاتفاقات التى كان يُخدع فيها اسماعيل ويُضيع من جرائها الأموال الطائلة

الاسطول التجارى

وبنى أيضاً أسطولاً تجارياً ليحمل المتاجر والبريد بين مصر والدولة العلية وبلاد اليونان وغيرها ، وأنفق عليه خمسمائة ألف وألف ألف من الجنيهات

## الأعمال العامة

قام اسماعيل باشا بعدة مشروعات وأعمال عامة تمت فى عصره فأفادت البلاد وجعلتها تضارع البلاد الأوربية فى المدنية والحضارة .

السكك الحديدية

ومن بين هذه المشروعات مد السكك الحديدية فى جميع أنحاء البلاد ، وقد أنفق عليها الأموال الطائلة . وكان طول ما أنشئ من السكك الحديدية قبل توليته لا يزيد على ٣٣٠ ميل ، فازدادت فى مدته حتى بلغت ١٣٣٠ ميل ، أنفق عليها ما يقرب من عشرة آلاف ألف من الجنيهات

وقد شرع فى مدته أيضاً فى مد خط حديدى يخترق أواسط افريقية مبتدئاً من دنقلة ، فكان تصميمه أن يبلغ ١١٠٠ ميل . الا أن العمل وقف لقلة المال بعد أن دُفع من نفقاته ٤٠٠,٠٠٠ جنيه . على ان هذا الخط لو تم لأتى بنفقاته فى مدة سنين قلائل ، لمروره فى وسط سهول فيها الأنواع الكثيرة من الحيوان مما يكفى لسد حاجات مصر بل كل جنوبى أوربا ، كما أثبت ذلك القائد « استون » رئيس أركان حرب الجيش المصرى حينما كان يستكشف عن أواسط افريقية ، إذ قال : « ان محصول الحيوان فى هذه الجهة لا ينفد »

الاسلاك البرقية والبريد

وأنشأ اسماعيل باشا أيضاً ما لا يقل عن ٥,٢٠٠ ميل من خطوط الأسلاك البرقية ، واشترى مصلحة البريد من أحد الغربيين المدعو المسيو « شيتى » فى عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) ، وبذلك أصبحت تحت ادارة الحكومة ونفوذها . وأسس ما

يزيد على ٢١٠ من مكاتب البريد فى طول البلاد وعرضها ، فكان مقدار ماوُزع من الخطابات فى عام ١٢٩٥هـ ( ١٨٧٨ م ) يبلغ ٢,٥٠٠,٠٠٠

الغاز والمياه والشوارع

وأنار أيضاً أمهات المدن كالاسكندرية والقاهرة بالغاز ، ومد بها أنابيب المياه وأنشأ الشوارع الفسيحة بالقاهرة والاسكندرية والسويس وزينها على النمط الغربى الحديث ، وقد بلغ ما أنفقه عليها مايقرب من ثلاثة آلاف الف من الجنيهات

وان أكبر دليل قاطع على تقدم البلاد المادى ازدياد صادراتها ووارداتها فى ذلك العصر ازدياداً مطرداً

## ٧ — ﴿ حروب اسماعيل باشا والفتوح التى تمت فى عصره ﴾*

تنظيم الجيش

لم يكن اسماعيل باشا ميالاً للحروب لجده الأكبر محمد على ، الآ أنهُ رغم ذلك كان يُعنى بجيشه عناية كبيرة ، اذأحضرله كبار الضباط من الممالك الأوربية وأمريكا لتدريبه ، نخص بالذكر منهم « استون باشا » الأمريكى رئيس أركان حربه

عدده

وقد بلغ أقصى عدد الجيش النظامى فى عصره ستين الف مقاتل مسلحة بنحو ١٤٤ مدفعاً ، عدا ثلاثين الف مستحفظ وستين الف جندى غير نظامى

آمال الخديوى فى افريقية

وكان من أهم أغراض اسماعيل باشا توسيع نطاق ملكه فى افريقية وضم كل ما يمكن كشفه أو فتحه من أراضيها الى مصر . فمن ذلك أنهُ عهد الى السير صمويل بيكر بالاستكشاف عن الجهات التى قرب منابع النيل الأبيض وضمها الى الحكومة المصرية ( ١٢٨٦ هـ : ١٨٧٠ م ) كما سبق ذكره عند الكلام على منع الرقيق

منزنجر فى مصوع

وفى عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م ) ولى « مُنْزنْجَر » السويسرى محافظاً على « مصوع » وكان الخديوى قد اشتراها هى وسواكن من الباب العالى فى عام ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦م) فى مقابل ضريبة سنوية قدرها ٣٠,٠٠٠ جنيه . وقد اهتم « منزنجر » هذا بتوسيع أملاك مصر فى السودان الشرقى فألحق بها « بلاد البوغوس » و « بركة القضارف »

* انظر خريطة السودان المصرى

غردون فى خط الاستواء

أما فى وادى النيل فقد طلب الخديوى من الحكومة الانجليزية بارشاد ولى عهد انجلترة أن تمنحه تنصيب القائد « غردون » مديراً لمقاطعة خط الاستواء . فوصل الى مصر ونصبهُ الخديوى « حكمداراً » لخط الاستواء فى ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ ( يناير سنة ١٨٧٤م ) . ومن ذلك الحين اهتم الخديوى بأمر السودان اهتماماً عظيماً فقسم بلاده الجنوبية الى قسمين : أولهما السودان الحقيق (وآخر حدوده «فاشودة» جنوباً )، وجعل ادارته لحاكم السودان العام، والثانى اقليم خط الاستواء وهو ماكان جنوبى فاشودة ، وجعله تحت ادارة غردون . فبسط غردون نفوذ الحكومة المصرية على تلك الجهات ، وأسس النقط العسكرية لضبط السفن التى تتجر بالرقيق

بسط نفوذ مصر هناك

## فتح دارفور

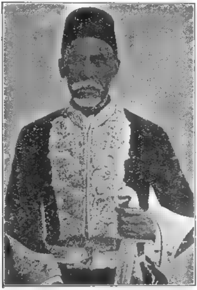
اقتراح الزبير

وفى عام ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م) حسّن « الزبير » للخديوى أمر فتح بلاد دارفور ، وكانت مملكة مستقلة ، فعضدته الحكومــة المصرية ، وتلاقى الزبير بجيش سلطان دارفور المؤلف من ٢٠ ألف مقاتل، فهزمه مراراً وانتهى الأمر بفتح هــذه البلاد ، وصارت تابعة للحكومة المصرية . فعهدت الحكومة الى الزبير ادارة الجهات الجنوبية من دارفور ، ومنحهُ الخديوى رتبة باشا. ثم شكا الزبير كثيراً من ثقل الضرائب على الأهالى ، وطلب أن يتشرف بمقابلة الخديوى ، فأذن له بذلك ، فسافر الى القاهرة وأناب عنه

فتحه دارفور

تنصيبه مديراً عليها

قدومه مصر



الزبير باشا

قبل سفره اليها ابنه سليمان . ولما لم ينل الزبير مطالبه عند قدومه الى القاهرة لم تأذن له الحكومة المصرية بالرجوع الى السودان ، وأبقته فى القاهرة مخافة أن يثور بالسودان عند عودته

ابقاؤه بها

## فتح هرَرَ

فى سنة ١٢٩٢ ﻫ ( ١٨٧٥ م ) نزلت الدولة العلية للحكومة الخديوية عن مدينة «زَيْلَع» وملحقاتها فى مقابل مبلغ تدفعه سنويًا قدره ١٣٫٣٦٥ جنيهاً مصريًا ، وبعد أن ضُمت زيلع الى الأملاك المصرية أخذت الجنود المصرية تستطلع أحوال «هَرَر» وتتعرف مسالكها . ولما تم لها ذلك سارت فرقة بقيادة «محمد رؤوف باشا» فى شعبان سنة ١٢٩٢ ﻫ ( سبتمبر ١٨٧٥ م ) فوصلت بعد قليل الى مدينة هرر ، واحتلتها بدون مقاومة تذكر ، ورفعت العلَم المصرى فوق قصر أميرها

نزول تركيا عن زيلع

ضم هرر

## حملة نهر جوبا وجهات قِسْمايو

ولما أن تم للخديوى توسيع الأملاك السودانية من الجهة الجنوبية عزم على ارسال حملة الى بلاد الصومال الجنوبية لضم البلاد الواقعة على نهر جوبا الى مصر ، حتى يتسنَّى له إيصال أملاكها فى تلك الأصقاع بما لها فى جهات خط الاستواء . فجهز لذلك حملة بقيادة «ماكيلوب باشا» من طريق البحر فى شهر المحرم سنة ١٢٩٢ ﻫ (فبراير ١٨٧٥م) فلما وصلت الى بلدة «براوة» الواقعة شرقى نهر «الجُب» خضعت بعض القبائل للحكومة المصرية . ثم ترك فيها ماكيلوب باشا محافظًا وحامية وتقدم الى «قِسْمايو» عند مصب نهر جوبا . ولما لم تمكن الجنود من السير فيه بالقوارب رجعوا الى «قسمايو» ونزلوا الى البر ، وأخذت الحملة تستكشف عن النهر . ولكن الحكومة رأت أن تستدعى ماكيلوب باشا وحملته خوفًا من وقوع المشاكل بينها وبين حكومة زنجبار التى كانت تحت حماية انجلترة ، هذا الى نشوب الحرب وقتئذٍ بين مصر والحبشة

حملة ماكيلوب باشا فى الصومال الجنوبى

حنق زنجبار وانجلترة

رجوع الحملة

## حرب الحبشة

مشكلة الحدود بين مصر والحبشة

علمنا فيما سبق أن الحكومة المصرية ضمت الى أملاكها فى السودان الشرقى بلاد البوغوس وبركة القضارف على يد « منزنجر باشا » والى مصوع . ثم أرادت أن تمتن الحدود بينها وبين الحبشة من تلك الناحية ، وان تستولى على بعض مقاطعات تتمكن بها من مد طريق حديدى بين مصوع والخرطوم على طريق كسلة و«التاكة» فجردت لذلك حملة بقيادة « أرندروب بك »

حملة أرندروب بك

فلما وصلت هذه الحملة الى بلدة « سعد زجه » ورأى النجاشى توغل الجنود المصرية فى بلاده أخذ يتقهقر أمام القوات المصرية خديعةً منهُ . حتى اذا وصلت الجنود المصرية الى بلدة « عدخالة » أرسل القائد «ارندروب بك» الى ملك الحبشة «يوحنا» يطلب منهُ جعل نهر « خور الجاش » الحد الفاصل بين الأملاك المصرية

الحبشة ترفض طلبه

والحبشة . فلم يقبل ، وكان «أرندروب» قد بلغه ان ملك الحبشة يستعد للهجوم عليه من ثلاث جهات ، فعزم على أن يبدأه بالهجوم ، فتقدم نحو «جونديت» واشتبك

هزيمة الجيش المصرى

مع العدو وكان جيشه اضعاف الجيش المصرى يقوده النجاشى نفسه، فكانت الدائرة على الجيش المصرى ، وفنى معظمه وقتل قائده العام . وتقهقرت فلوله الى الحدود الأصلية بين الحبشة ومصر

فشل حملة منزنجر

وكان الخديوى فى هذه المدة أمر منزنجر باشا حاكم السودان الشرقى والبحر الأحمر أن يجرد حملة على بلاد الحبشة ويذهب بها من طريق « غندار » (عام ١٨٧٥م) فخرج عليه بعض القبائل فى الطريق ، فاغتالته وفتكت بجيشه

ولما ذاعت أخبار هذه الهزيمة غضب الخديوى وعزم على الفتك بالحبشة محافظةً على شرف الجيش المصرى ، فأخذ يجهز لذلك جيشاً عظيماً نصّب عليه «راتب باشا» قائداً عاماً والجنرال « لورنج باشا » الأمريكى رئيس أركان الحرب له

جيش عظيم للفتك بالحبشة

وبعد ان تمت كل المعدات أخذت السفن تنقل الجيوش من السويس الى

وصول حملة راتب باشا الى قرع

مصوع. وكان الخديوى قد أصدر أمراً لثالث أنجاله «الأمير حسن باشا» بمرافقة الحملة تشجيعاً للجنود وتدريباً له . وبعد أن نزلت كل الجنود فى مصوع أخذ الجيش يزحف على بلاد الحبشة، فاستمر فى التوغل حتى وصل الى «قرع» فى ٣ المحرم سنة ١٢٩٣هـ ( يناير سنة ١٨٧٦م ) بعد أن ترك وراءه بعض الجنود لحفظ خط الرجعة بين مصوع والحبشة . ولما عسكر الجيش فى قرع وأقام الاستحكامات رأت القبائل المجاورة قوته، فأخذت تنضم اليه وتذعن له بالطاعة

الفتك بالجيش المصرى

أما الأحباش فانهم لما رأوا ذلك جمعوا جيشاً عظيماً بقيادة النجاشى وقصدوا المصريين أولاً فى « قياخور » ، وكانت تحميها قوة مصرية بقيادة « عثمان رفقى باشا » ، فلم يفلحوا فى مهاجمتها لمناعة الاستحكامات المصرية، فقصدوا جيش القائد العام وأخذوا فى مهاجمته عند قرع ، وبعد معركة لم تدم طويلاً تشتت شمل الجيش المصرى بعد أن هزم شر هزيمة وقتل منهُ عدد عظيم، منهم « محمد على باشا الحكيم » الطبيب الشهير ، وقد نجا القائد العام والأمير حسن بعد أن رأيا الهلاك عياناً . أما الأحباش فكانت خسارتهم أيضاً فى هذه الحروب جسيمة

الصلح

ثم ابتدأت المفاوضات فى أمر الصلح ، فقبلت الحكومة المصرية المهادنة بشرط أن ترد الحبشة ما أخذته من الأسلحة المصرية ، وأن تكون التجارة متبادلة بين المملكتين . فامتنع ملك الحبشة من رد السلاح معتذراً بأن جيشه ليس منظماً حتى يتسنى له جمع كل الأسلحة، وبعد مدة وجيزة تقرر الصلح وأذن ملك الحبشة بعودة الأسرى ( ٢٧ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ : ابريل سنة ١٨٧٦م ) . ثم عاد القائد العام والأمير حسن وفلول الجيش المصرى .

## رجوع غردون الى الحكومة المصرية

غردون حاكما عاما السودان

وفى عام ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧م ) دعا الخديوى «غردون باشا» للخدمة فى الحكومة المصرية بعد أن اعتزلها، فاشترط عليه أن يجعله الحاكم العام على جميع الأقطار السودانية،

تنظيم السودان فقبل منه ذلك . ولما تولى الأمر فى هذه الأصقاع الواسعة رأى عدم استطاعته الانفراد بالحكم فيها وادارة شؤونها وحده ، فقسم المديريات الاستوائية الى قسمين : سمى الأول منهما « مديرية خط الاستواء » وجعل مقرها « لادو » ، وجعل الحاكم عليها امين باشا ( الدكتور شنتزر ) أما القسم الثانى فانه سماه « مديرية بحر الغزال » وجعل المدير لشؤونها المسيو « جيسى الطليانى »

جيسى فى بحر الغزال وكان للمسيو جيسى اليد الطولى فى كشف جميع مجاهل هذه المديرية ، وقد أحسن معاملة الأهالى فيها وعودهم الأعمال العسكرية وشجعهم على انشاء السفن للاتجار ، فكان ذلك مدعاة لحنق الجلابين ، لأن فيه كساداً لتجارتهم . فأرادوا أن يخرجوا عليه ، فتجمعوا بقيادة « سليمان بن الزبير » الشديد الحنق على الحكومة المصرية لمنعها والده من العودة الى بلاده

قهر ابن الزبير وقتله فلما علم غردون بذلك وجّه اليه بعض الجنود تحت امرة «جيسى» فتقاتلا قتالاً شديداً كان النصر فيه حليف الجيش المصرى . وقتل سليمان فى هذه الموقعة . وقد وجد «جيسى» معهُ رسائل من والده « الزبير باشا » تدل على أنه كان هو المحرض على هذا العصيان

استقالة غردون وبقى غردون يدير شؤون السودان ويكافح تجارة الرقيق فيه حتى استقال فى أوائل حكم توفيق باشا

## ٨ — ﴿ اتمام قناة السويس ﴾

اسماعيل بطل المشروع سبق ان أفردنا فصلاً فى هذا الكتاب للكلام على ترعة السويس أوضحنا فيه مشروع حفرها وأتينا بشىء من تاريخ هذا المشروع منذ أزمان غابرة . ولا بدّ لنا من كلمة هنا على افتتاح هذه الترعة ، لأن ذكرها مقرون دائماً باسم اسماعيل ، اذ له العمل الأكبر فى نجاح مشروعها واليد القوية فى انجازه بعد أن دخل فى طور احتضار وكاد يذهب ادراج الرياح



منظر افتتاح قناة السويس بالاسماعيلية

حفلة افتتاح القناة

عزّ على اسماعيل باشا أن يقف هذا المشروع الخطير بعد أن قارب الانتهاء، فأقبل عليه يعضده بكل الوسائل، حتى اذا قرب أجل افتتاح الترعة أخذ على عاتقه أن يتكفل باقامة حفلة الافتتاح على نفقاته الخاصة، غير مدّخر وسعاً في جعلها على خال من العظمة والفخامة بحيث تلائم ذلك المشروع الخطير

بعض الزائرين

أقام اسماعيل باشا حفلة الافتتاح بالاسماعيلية، فكانت غاية فى الإبداع: دعا اليها ملوك أوربا وأمراءها وعظماءها وعلماءها وأدباءها، فأجاب الدعوة منهم عدد عظيم، وفى مقدمتهم «الامبراطورة يوجينى» (زوجة امبراطور فرنسا نابليون الثالث)، ثم امبراطور النمسا «فرنسيس يوسف» والأمير فردريك ولى عهد ألمانيا

عظم الاستعداد

ثم أخذ اسماعيل باشا يعد المعدات ويقيم الزينات، غير ضانّ بما يحمّله ذلك من المال، ظاناً أن فى ذلك ارضاء لزوّاره الأوربيين ووسيلة الى رفع قدره وقدر مصر فى أعينهم. ومن أهم ما أعده لتلك الحفلة أن شيّد بالاسماعيلية قصراً بديعاً على شواطئ

قصر الاسماعيلية

بحيرة التمساح، لتقام فيه حفلة راقصة احتفاء بالامبراطورة يوجينى، لِمَا كان لها من المكانة فى هذا الاحتفال، إذ كانت هى النائبة فيه عن فرنسا صاحبة المشروع. وأقام السرادقات الفخمة المزينة بجميع أنواع الزينة، لتمدّ فيها الأسمطة للزائرين أيام الاحتفال

انشاء طريق الهرم

ولما علم أن الامبراطورة يوجينى ربما تود أثناء اقامتها فى مصر أن تزور الاهرام أمر أن يُنشأ على وجه السرعة طريق يصلح لسير المجلات (العربات) من القاهرة الى قاعدة الهرم الأكبر. فجدّ فى انشائه نحو ١٠,٠٠٠ عامل حتى تم فى أقل من ستة أسابيع. ومن المبانى التى شيّدها سريعاً بمناسبة هذا الاحتفال أيضاً «ملهى «الأوبرا» بالقاهرة

أما ما لاقاه الزائرون فى مصر من أنواع الكرم والحفاوة فلا يكاد يدخل تحت وصف، إذ كان قدومهم من أوربا وعودتهم اليها على نفقة مصر، وسُمح لهم بالسفر مجاناً فى جميع خطوط السكك الحديدية، وأمرت الحكومة موظفيها أن لا يدّخروا وسعاً فى مساعدتهم وارشادهم أثناء وجودهم بمصر، وأعدت لهم المجلات والدواب والتراجمة بدون مقابل. وفى الجملة لا نكون مغالين اذا قلنا انهُ كان فى استطاعة كل

اكرام الزائرين

نفقات الحفلة

زائر أن يقضى بمصر نحو شهرين من غير أن يصرف درهماً واحداً من ماله . وقد بلغ مجموع ما أنفق على هذا الاحتفال نحو ١،٤٠٠،٠٠٠ جنيه

طور جديد فى الملاحة

وكانت الحفلة فى شعبان سنة ١٢٨٦ هـ ( نوفمبر سنة ١٨٦٩ م ) . وبها ابتدأ طور جديد فى تاريخ الملاحة . فصارت السفن التى تجرى بين الشرق والغرب تسير بطريق ترعة السويس بعد ان كانت تعانى اعباء الرحلة الطويلة حول جنوبى افريقية وقد كان لابتداء هذا الطور وقع عظيم فى أنحاء العالم المتمدين، ولم يأت ذكره فى ناد من الأندية أو دائرة من الدوائر الآ كان مقروناً باسم بطله الاكبر « اسماعيل باشا خديوى مصر »

# الفصل الرابع

## المسألة المالية وانتهاء حكم اسماعيل باشا

كثرة النفقات

لو نظرنا الى مقدار ما قام به « اسماعيل باشا » من المشروعات والأعمال العامة فى انحاء البلاد ، وراعينا ما كان فى قصوره وحفلاته من أنواع البذخ والأبهة مما ضارع به اكبر ملوك الأرض ، علمنا أن ذلك كان يتطلب نفقات جمة تضيق خزائن مصر عن تحملها . فكان رحمه الله يستعين على ذلك بانجاز بعض أعماله من غير أن يدفع أجرها نقداً فيبقى عليه ديناً ( وهو ما يسمَّى بالدَّين السائر ) ، ويقترض ديوناً من الدول الأوربية لتسديد نفقات بعضها الآخر (وهذه تسمَّى ديوناً ثابتة) . وكانت الديون الثابتة لا تعطى الآ اذا قُدِّمَ لأصحابها ما يضمن سدادها ، مثل دخل بعض مصالح الحكومة ، والأموال المجبية من بعض المديريات . فاذا تعذر عليه الحصول على ما يبغى من الدول الأوربية لجأ الى جمع ما يطلبه من المال من أهل البلاد : سواء أكان ذلك بزيادة الضرائب أم باقتراض ديون أهلية

انواع الدين

ومن أشهر ما جمعه بهذه الطريقة الأخيرة المبالغ التى جباها بمقتضى القانون

قانون المقابلة

المعروف بقانون « المقابلة » . أعدَّ هذا القانون بمشورة ناظر المالية الشهير « اسماعيل باشا صِدِّيق المفتش » ، الذى يعرف اسمه كل فلاح عاش فى هذا العهد ، والذى كانت له المقدرة العظيمة فى جباية الضرائب من الفلاحين . ومؤدَّاه ان كل مالك من ملاَّك الأرض يمكنهُ أن يصبح مُعْفى على الدوام من دفع نصف ما عليه من الضريبة السنوية ، اذا دفع للحكومة ما يعادل تلك الضريبة ستة أعوام ، وله أن يدفع هذا المبلغ جملةً أو على ستة أقساط سنوية (وفى هذه الحالة تدفع أيضاً الضريبة الأصلية حتى يتم تسديد الأقساط )[1]

صعوبة القرض

ولما كثرت الديون الأوربية على مصر ، وأوشكت موارد الضمان التى يمكن تقديمها عنها أن تنفد ، أصبح من الصعب اقتراض ديون جديدة ، وما أمكن اقتراضه منها كان بأرباح باهظة جداً لم يسبق لها مثيل . من ذلك أن اسماعيل باشا استقرض فى جمادى الثانية سنة ١٢٩٠ هـ ( يونيه سنة ١٨٧٣م ) ديناً قدره ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ليسدد به جميع الديون السائرة ، فلم يتمكن من عقد القرض الآ فى شهر مايو سنة ١٨٧٤ فكان مجموع ما قبضته الحكومة بالفعل من هذا الدين بعد طرح جميع أنواع النفقات والخصم و ( السمسرة ) يبلغ ٢٠,٠٦٢,٠٠٠ جنيه فقط ، أى بنقص ٣٧٪ عن مقدار ما حسب ديناً على الحكومة ، فضلاً عن ان المبلغ الذى قبضته الحكومة لم يدفع كله نقداً بل كان منهُ ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من سندات الخزانة المصرية[2]

الرزنامة

وتعهد اسماعيل باشا فى عقد هذا القرض أن لا يقترض ديوناً أخرى مدة سنتين ثم اشتدت حاجتهُ الى المال ، فلجأ الى جمع قرض من الأهلين يعرف بدين « الرُّزْنامة » . وشروطه أن كل من يدفع للحكومة مبلغاً يأخذ نظيره دُفعاً سنوية على الدوام قدر كل منها ٩ ٪ من أصل ما دفعه . فجمعت الحكومة بهذه الطريقة

---

(١) كل من له المام بالرياضة يعلم ان هذه الطريقة فيها غبن فاحش للحكومة

(٢) معنى ذلك ان الحكومة نظير حصولها على ١١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه نقداً فقط زادت دينها بقدر ٢٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ( الفرق بين ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ و ٩,٠٠٠,٠٠٠ )

٣و٤٢٠و٠٠٠ ، ولكنها لم تدفع من الدُّفع السنوية المذكورة الأجزاءً من دفعة السنة الأولى فقط

اشتداد الأزمة

وفى سنة ١٢٩٢ هـ ( ١٨٧٥ م ) ازدادت أزمة الخديوى المالية ، وصار يصدر سندات على خزائن الحكومة بقيمة تقل كثيراً عن قيمتهـا الاسمية . ولما اشتدت الأزمة على الحكومة عرضت ما لها من أسهم القناة للبيع ، (وكان عددها ١٧٦و٦٠٢) فاشترتها الحكومة الانجليزية بثمن بخس يقل عن ٤و٠٠٠و٠٠٠ جنيه . فلم يفرج ذلك شيئاً يذكر من الأزمة ، وصار يُخشى كل يوم من تدخل الدول الأوربية فى شؤون مصر محافظةً على الأموال التى أقرضتها رعاياها الحكومة المصرية

وفد كيف

وفى رمضان سنة ١٢٩٢ هـ ( اكتوبر سنة ١٨٧٥ م ) حدث ما يمكن اعتباره مبدأ التدخل الأوربى فى الشؤون المصرية . وذلك ان « الخديوى اسماعيل باشا » طلب الى الحكومة الانجليزية أن تبعث الى مصر موظفاً انجليزياً ذا إلمام بالشؤون المالية ليساعده على اصلاح مالية مصر . فاختارت انجلترة لذلك « المستر كيف » . فحضر وفحص الأمور مستعيناً فى عمله بما أمكنهُ الوقوف عليه من المعلومات ، ثم قدم تقريراً بما يلزم عمله لتسوية الديون المصرية . ولكن الخديوى لم يعمل باقتراحـه ، فلم يكن لبعثه الى مصر أثر يذكر*

ابتداء التدخل الاوربى

وفى ١١ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ ( ١٨ ابريل سنة ١٨٧٦ م ) توقف الخديوى عن صرف قيمة سندات الخزانة المصرية ، فكان ذلك اليوم المبدأ الحقيقى للمشكلة المالية المصرية ولتدخل أوربا فى شؤون مصر

---

* يقدر مجموع الديون المصرية فى ذلك الحين من سائرة وغير سائرة بنحو ٩٠و٠٠٠و٠٠٠ جنيه . فلو راعينا ان مجموع دخل الحكومة المصرية زاد على نفقاتها فى مجموع المدة التى حكمها « اسماعيل باشا » بمبلغ ٤٠و٠٠٠و٠٠٠ جنيه وان نصيب مصر من أسهم القناة بيع بمبلغ ٤و٠٠٠و٠٠٠ جنيه كان مجموع ما صرفه اسماعيل باشا وسعيد باشا فى غير شؤون الادارة العادية يساوى ١٣٤و٠٠٠و٠٠٠ جنيه . من ذلك ١٦و٠٠٠و٠٠٠ جنيه انفقت على قناة السويس و ٤٠و٠٠٠و٠٠٠ جنيه على السكك الحديدية واصلاح الاراضى وغير ذلك من الاشغال العامة . ونحو ٥٢و٠٠٠و٠٠٠ جنيه فى تسوية الديون واستبدالها ودفع ارباحها وأقساطها . فيكون الباقى حينئذ نحو ٢٥و٠٠٠و٠٠٠ جنيه لا تعرف الاوجه التى صرفت فيها

صندوق الدين

عند ذلك تذعرت دول أوربا ، فاهتمّ الخديوى بتأمينها على أموال رعاياها ، وسعى الى ذلك بكل الوسائل، الى أن أصدر أمراً فى يوم ٨ ربيع الثانى سنة ١٢٩٣هـ ( ٢ مايو سنة ١٨٧٦ م ) بانشاء لجنة يقال لها «صندوق الدين» تُشكل من مندوبى الدول ويُعهد اليها ادارة شؤون الدين المصرى وتدبير ما يجب لانتظام تسديده . ثم أصدر أمراً آخر فى ٧ مايو بتوحيد جميع الديون المصرية من سائرة وغير سائرة وجعلها ديناً واحداً قدره ٩١،٠٠٠،٠٠٠ جنيه وربحه ٧ ٪ وينتهى تسديده فى ٦٥ سنة

توحيد الدين مايو ١٨٧٦

ولم تقبل الحكومة الانجليزية إرسال مندوب يمثلها فى صندوق الدين اسوة بباقى الدول ، ولكن أُضيف الى لجنة الصندوق فيما بعد عضو انجليزى بدون مؤاخذة انجلترة وهو « السير إفلين بيرنج » الذى منح فيما بعد لقب « لورد » وصار يعرف « باللورد كرومر » . وسنعود الى ذكره فى هذا الكتاب

عدم موافقة انجلترة

على أن توحيد الديون المصرية على هذا الوجه لم يرض انجلترة ، لأن معظم الدائنين الانجليز كانوا حملة سندات مضمونة بموارد ثابتة ، وغير الانجليز كان معظم أموالهم ديوناً سائرة . فلم يرَ الانجليز من الانصاف أن يعامل الفريقان بطريقة واحدة . لذلك أرسلت كل من انجلترة وفرنسا مندوباً للنظر فى تعديل هذا الاتفاق ، فاختارت انجلترة « المستر غوشِن » ( اللورد غوشن فيما بعد ) واختارت فرنسا « الموسيو جوبَر » ، ففحصا الحالة المالية وقدما اقتراحاً بما يلزم ، وأصدر الخديوى به أمراً عالياً فى غرة ذى القعدة سنة ١٢٩٤ هـ ( ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ م ) حذف به من الدين الموحد ما يأتى : —

بعث غوشن وجوبر

انقاص الدين الموحد نوفمبر ٧٦

( ا ) ٤،٢٩٣،٠٠٠ جنيه قيمة الديون التى اقترضت فى ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ م ، أى قبل اشتداد الأزمة المالية . واعتُبر ذلك الدين نوعاً قائماً بذاته ، ويسدد من أقساط المقابلة

( ب ) ١٧،٠٠٠،٠٠٠ جنيه قيمة سندات جديدة أُطلق عليها اسم « الدين الممتاز » وجُعل سعرها ٥ ٪ وجعل الضامن لسدادها دخل السكك الحديدية وميناء

الاسكندرية* ترغيباً فى شرائها، ليصرف ثمنها فى تسديد الديون السائرة (ح) ٨٫٨١٥٫٠٠٠ جنيه قيمة دين الدائرة السنية. واعتبر هذا الدين قائماً بذاته ويسدد من دخل تلك الدائرة

وبذلك نقص الدين الموحد الى ٥٩٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه وجعل سعره ٦٪ واتفق على أن يسدد ١٪ من أصله سنوياً

السعى فى الاصلاح

واقترح اللورد غشن على الخديوى عدة اصلاحات لتوطيد مركز الحالة المالية وتسهيل السير بانتظام فى دفع أرباح الدين وأقساطه

فشرع الخديوى فى انفاذ هذه الاقتراحات، وأدخل بحكومته عدة موظفين أوربيين من أصحاب الكفاءة الكبيرة للقيام بذلك الاصلاح

ابتداء المراقبة الثنائية

من ذلك أنهُ وافق على تعيين مراقبين عموميين لحساب الحكومة: أحدهما انجليزى لمراقبة الدخل وهو « السير رِفَرْزوِلْسُنْ »، والثانى فرنسى لمراقبة المصروفات، وهو « المسيو بِلِنْيير »

على أن الخديوى لم يلبث أن رأى ذلك ينقص من نفوذه، فلم يطلق للمراقبين كل الحرية فى العمل. فلم يكن لذلك الاصلاح الأثر المطلوب، ولم توفّق الحكومة الى أن تجمع قبل الميعاد المحدود لدفع أرباح الدين ما يكفى من المال لتسديدها،

قلة نجاحها

فاُتبعت كل طريقة فى جمع الضرائب قبل ميعادها حتى تيسر جمع المال المطلوب، فَسُلّمَ لصندوق الدين فى آخر لحظة أى قبل الميعاد المحدود ببضع ساعات

دلت هذه الحالة السيئة على أن شؤون الحكومة لم تزل فى حاجة الى الاصلاح، وأحست لجنة صندوق الدين ان اتفاق سنة ١٨٧٦ م بشأن تسديد الدين ربما

لجنة التحقيق

كانت شروطه شديدة. فطلبوا الى الخديوى أن يأمر بتشكيل لجنة تحقيق تفحص الشؤون المالية فحصاً شاملاً حتى تقف على أسباب ذلك العجز فى مورد الحكومة. فلم يرضَ الخديوى فى أول الأمر بمنح اللجنة كل هـذه الحقوق الكبيرة، ورأى

* وجعلت هاتان المصلحتان تحت مراقبة لجنة من مندوبي الدول

أن تكتفي اللجنة المراد انشاؤها باعادة النظر في المقدار الحقيقي للدخل. ولكن الدول تمسكت بطلب لجنة صندوق الدين، وفي غرة ربيع الثاني سنة ١٢٩٥هـ (٤ ابريل ١٨٧٨ م) أصدر اسماعيل باشا أمراً عالياً بتشكيل لجنة للتحقيق* لها الحق المطلق في اجراء كل ما تريد من التحريات والتحقيقات، وعهدت رياسة اللجنة الى «المسيو دیلسبس»، وجعل رياض باشا والسير رفرز ولسن وكيلين لها، وجعل مندوبو الدين أعضاء فيها

شروع اللجنة في العمل

فشرعت اللجنة في فحص كل شيء يختص بالمالية المصرية: من النظر في الأنظمة الادارية والضرائب وأنواع الديون المطالب بها وأصلها وغير ذلك. ولم يكد الأعضاء يشرعون في انجاز مهمتهم حتى اعترضهم حادث وقّف العمل فترة، وذلك أنهُ لما كان قد خول لهم حق الاستفسار من أي موظف في الحكومة عن أي شيء استدعوا «شريف باشا» (ناظر الحقانية وأعظم الوزراء إذ ذاك) للحضور أمامهم للاجابة عن استعلاماتهم، فلم يرضَ «شريف باشا» بالحضور أمامهم محافظة على كرامته، وقال انه مستعد للاجابة عن أسئلة اللجنة كتابةً، فأصرَّت اللجنة على استحضاره، فاضطر الى الاستعفاء. وبعد مضي هــذه الحادثة التي اعترضت السير في التحقيق عادت اللجنة الى مباحثها وانكب أعضاؤها على العمل يومياً حتى وقفوا على مواضع الخلل في المالية؛ فكشفوا بذلك عيوباً خطيرة مما لم يكن على بال، من أهمها عدم التفريق بين المطلوب من الحكومة والمطلوب من الأسرة الخديوية، والاسراف في شراء لوازم الجيش وغيره لمجرد الرغبة في اقتناء كل شيء جديد أو اختراع ظريف يعرضه الأوربيون على الخديوي ويبالغون له في محاسنه، وزيادة أجور الأعمال التي يقوم بها المتعهدون الأوربيون ونحوهم زيادة فاحشة عما تستحق (من ذلك أن نفقات اصلاح ميناء الاسكندرية بلغت ٢،٥٠٠،٠٠٠ جنيه مع أنهـا لم تعادل أكثر من ١،٥٠٠،٠٠٠ جنيه)، واقتراض الأموال بأرباح باهظة لم يسمع بمثلها

استقالة شريف باشا

مباحث اللجنة

* كانت تسمى ديوان التحقيق



شريف باشا

بحوث لجنة التحقيق

ولاحظت اللجنة أن الحكومة فضلاً عن اثقالها كاهل الأهلين بجميع أنواع الضرائب قد جبت منهم مبالغين بشروط لا يمكن الاستمرار على العمل بها : أولهما ما أُخذ منهم بمقتضى قانون « المقابلة »، وثانيهما دين « الرزنامة »، فعولت على مراعاة ذلك عند تسوية الحالة الماليـة . ورأت أيضاً أن الدائنين لم ينحصروا فى أصحاب المصارف والمقاولين ، بل منهم طائفة كبيرة من أصحاب المهنات الحقيرة كالحمارين والجمالين والحلاقين ، وان كثيراً منهم لم تكن بأيديهم من الحجج القوية ما يكفى لتبرير دفع مطالبهم

وقضت اللجنه على كل ذلك ، وقررت الخطة العامة التى يجب اتخاذها لتلافى هذا

مقترحات اللجنة

المرض ، ولكنها رأت قبل التعرض لتفصيلات الواجب اتباعها فى حل المشكلة المالية أن تطلب الى الخديوى اصلاحات لا يتسنى بدونها السير بمقتضى اقتراحاتها . فطلبت من سموه أمرين : الأول ان ينزل عن جميع أملاكه للحكومة ، ويُجعل له نظير ذلك راتب سنوى يفى بحاجاته اذا راعى جانب الاعتدال ، والثانى أن لا يستقل بادارة شؤون البلاد ، بأن يُشرك معهُ وزراء مؤاخذين على أعمالهم ، حتى لا يتم عمل إلاّ بعد مراعاة مصلحة البلاد

تشكيل وزارة مؤاخذة

وأرسلت اللجنة الى سموه تقريراً بذلك فى أوائل شعبان سنة ١٢٩٥ هـ ( أغسطس سنة ١٨٧٨ م ) وبعد أن نظر فى مطالبهم عوّل على اجابتها ، وأمر بتشكيل وزارة مستقلة برياسة نوبار باشا بتاريخ ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٥هـ (٢٣ اغسطس ١٨٧٨م) وأدخل فى عدادها السير رفرز ولسن والمسيو بلنيير ، فصار للأوربيين وزيران فى الحكومة بعد ان كان لهم مراقبان محدودا النفوذ ، وفى ١٩ شوال ( اكتوبر ) أصدر أمراً عالياً بالنزول عن معظم أملاك الأسرة الخديوية للحكومة ، وجُعلت هذه الأملاك « الدومين » ضمانة لدين جديد قدره ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه للاستعانة به فى عدة شؤون ، منها تسديد الديون الثابتة ( ذات السنوات ) . وهذا الدين هو الذى عرف بدين « روتشيلد » نسبة الى أصحاب البيت الذين أقرضوه الحكومة*. وقد تمّ تسديده فى سنة ١٣٣١ هـ ( ١٩١٣ م ) فألغيت إذ ذاك مصلحة الدومين التى كانت تدبر الأملاك الضامنة لهذا الدين ، ودخلت هذه الأملاك من ذلك الحين ضمن الأملاك الأميرية العادية

النزول عن الدومين

دين روتشيلد

صعوبة مهمة اللجنة

واستمرت اللجنة فى فحص الشؤون المالية وادخال الاصلاحات الجديدة تمهيداً لتسوية الدين بطريقة نهائية . وكانت بالطبع تتبع فيما يختص بدفع أرباح الدين وأقساطه النظام الذى سُن بموافقة صندوق الدين فى سنة ١٨٧٦ م ( نتيجة بعث غوشن ) ، ريثما تفرغ من وضع نظامها الجديد . ولا يخفى أن ذلك النظام لم يكن بحيث

* بيت روتشيلد من اكبر البيوت المالية بانجلترة

تقوى موارد البلاد على القيام بشروطه . فعانى الوزراء مصاعب جمة فى جمع الأموال اللازمة ، ولم يعاونهم الخديوى بنفوذه الأدبى . فظن الأوربيون انهُ يعرقل مساعى الاصلاح الذى يريدونه لما فيهِ من سلبهِ بعض نفوذه ، وساعدهم على هذا الاعتقاد أن ثار الجند لعدم قيام الوزارة الجديدة بدفع ما تأخر لهم من الرواتب ، فتجمهروا أمام وزارة المالية وقبضوا على « نوبار باشا » و « السير رفرز ولسن » وأهانوهما ، ولم ينصرفوا الآ بعد أن حضر الخديوى وأمرهم بالانصراف فانصرفوا سريعاً . فكان ذلك سبباً فى الظن بانهم ثاروا بايعاز منهُ

ثوران الجند

اقالة نوبار وتنصيب الامير توفيق

وعند ذلك أعلن الخديوى أعضاء اللجنة انهُ لا يعدّ نفسه مؤاخذاً عما يحدث من الخلل أو الاضطراب بالبلاد ، ما لم يكن له نصيب فعَّال فى حكمها . وبعد أن تداول معهم فى هذا الشأن أُقيل «نوبار باشا» من رياسة الوزراء ، فخافت الدول أن يعود الخديوى الى الاستبداد بالسلطة ، ففاوضوه فى الأمر . ثم أقرّ الخديوى على أن يعهد برياسة الوزارة الجديدة لولى العهد ابنه « الامير توفيق» بشرط أن لا يتدخل هو فى قرارات مجلس النظار ، وأن يكون للناظرَين الأوربيين جميع الحقوق المخولة لباقى النظار

فشرعت الوزارة الجديدة فى العمل بالاتفاق مع أعضاء صندوق الدين ولجنة التحقيق حسب العادة ، وكانت أرباح بعض الدين تستحق الدفع فى ٨ ربيع الثانى سنة ١٢٩٦ ﻫ ( أول ابريل سنة ١٨٧٩ م ) ، فلم يتوافر لدى صندوق الدين المبلغ اللازم لدفعها فى حينها ، فقرر أعضاؤه بالاتفاق مع لجنة التحقيق والوزارة تأجيل الدفع الى أول مايو . فأظهر الخديوى استياءه من ذلك ، وقال انهُ عار على مصر ، وعدّه دليلاً على أن كل هذا التدخل الأوربى لم يأت بالنتيجة المطلوبة وكان تقرير لجنة التحقيق قد قارب الانتهاء وعُرف جل ما فيهِ . وعلم الخديوى أن التقرير سيعلن رسمياً إفلاس الحكومة المصرية ، فانتهز فرصة حدوث كل ذلك ، وعمل على استرجاع نفوذه وخلع الوزارة التى بها عضوان من الفرنج وكل أعمالها باشارتهما

تقرير تأجيل الدفع

عدم رضاء الخديوى

وقام هو باعداد مشروع لتسوية الأمور المالية مخالف لمشروع اللجنة ولا يقتضى

خلع الوزارة التي بها أوروبيان

اعلان الافلاس . وكان قد استمال الأعيان والعلماء ، فقدموا اليه معروضاً أظهروا فيه بالنيابة عن الأمة استياءهم من الحالة الحاضرة ومن عزم الفرنج على اعلان افلاس الحكومة ، وطلبوا اليه تشكيل وزارة مصرية محضة تكون مؤاخذة أمام مجلس الأعيان فعزل الخديوى الوزارة وشكل غيرها برياسة « شريف باشا » اختار جميع أعضائها من المصريين ، وعوّل أيضاً على رفض المشروع الذى ستقدمه لجنة التحقيق لحل المسائل المالية ، وعزم على العمل بموجب المشروع الذى حضّره هو بمعونة أتباعه

التأهب لرفض اقتراح اللجنة

فأثارت كل هذه الأمور غضب الدول الأوربية ، وعلموا أنه لا يمكن انجاز أى عمل لتسوية المالية المصرية وتثبيت حقوق رعاياها ، ما دام اسماعيل باشا خديوياً على مصر ، إذ ظهر أنه يأبى الا أن يكون هو صاحب السلطة فى البلاد ، وأن يتصرف فى شؤونها ومالها كيف شاء ، وبعد أن تفاوضت فيما بينها قررت عزله من خديوية مصر ، فعرضت عليه أن يستقيل ، فلم يقبل وأحال الأمر على السلطان . فما زالت الدول تستعمل النفوذ والتهديد لدى الباب العالى حتى استصدرت منه أمراً بعزل اسماعيل باشا ، فجاء منه الى مصر نبأ برقى بذلك فى ٦ رجب سنة ١٢٩٦ هـ ( ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ م ) ، فلم يبدِ اسماعيل باشا مقاومة أخرى ، وعهد بأمر البلاد الى ابنه « توفيق باشا » ( وكان قد ورد اليه نبأ برقى آخر بتوليته على مصر )

عزل اسماعيل باشا

وخرج اسماعيل باشا من مصر فى ١٠ رجب (٣٠ يونيه) وأبحر من الاسكندرية على سفينة « المحروسة » الى ايطاليا

# الفصل الخامس

## اوائل حكم توفيق باشا

(١٢٩٦ – ١٢٩٨ هـ) (١٨٧٩ – ١٨٨١ م)

المصاعب عند تولية توفيق

تولى توفيق باشا أريكة مصر (١٩ شعبان سنة ١٢٩٦هـ : ٨ أغسطس ١٨٧٩م) والمصاعب تحيط بالبلاد من كل جانب : فالخزانة خالية والجيش مختل النظام، والأهلون ساخطون – الفقراء منهم لما نالهم من الجور، والأغنياء مخافة أن يفقدوا ما نالوه من



توفيق باشا

المزايا فى عهد اسماعيل – والأوربيون ناقمون ، لأن أموالهم لم تدفع اليهم ولأن الاضطرابات السائدة جعلت التجارة فى كساد فقلت بذلك أرباحهم . ولم يكن لتوفيق باشا رحمه الله من الدهاء والعزم ما يجعله خير مكافح لكل هذه الخطوب ، الا أنهُ كان محباً للبلاد شديد الميل الى ما فيهِ راحتها، فلم يدخر وسعاً فى العمل على إسعادها وانقاذها مما حل بها من العناء بادخال كل ما يمكنه من الاصلاح

٤ أمور للفصل فيها

وقبل أن يسير هذا الاصلاح فى مجراه اقتضت الأحوال الفصل فى أربعة أمور هامة : أولها تحديد مقدار نفوذ الخديوى فى حكم البلاد ، والثانى تقرير العلاقة بين الخديوى والدولة العلية ، والثالث تعيين نوع الإشراف الذى يكون للأوربيين على شؤون مصر ، والرابع الفصل فى المسائل المالية بطريقة تكفل الاتفاق بين الحكومة المصرية ودائنيها الأوربيين

١ . الخديوى والوزارة

ففى المسألة الأولى عوّل الخديوى على اشراك وزرائه معه فى حكم البلاد وعدم الاستئثار بالسلطة ، فعهد الى «شريف باشا» بتشكيل وزارة . فقدّم اليهِ هذا مشروعاً يقتضى جعل الحكومة نيابية محضة ، فلم يوافق عليه الخديوى لاعتقاده أن البلاد لاتستطيع أن تخطو دفعة واحدة من حكومة استبدادية مطلقة الى حكومة نيابية محضة، فاضطر شريف باشا الى الاستقالة (٢٩ شعبان سنة ١٢٩٦هـ : ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ م ) . فعزم الخديوى على ترؤس مجلس الوزراء بنفسه ، الا أن هذه الطريقة لم تدم طويلاً ، وفى ٤ شوال (٢٢ سبتمبر) استدعى «رياض باشا» وكلفه تشكيل وزارة . وحفظ الخديوى لنفسه الحق فى ترؤس مجلس الوزراء متى رأى حاجة الى ذلك ، الا أنه جعل للوزراء نفوذاً حقيقياً فى ادارة شؤون البلاد . فحُلّت بذلك المسألة حلاً مرضياً وشرعت وزارة رياض باشا فى مباشرة أعمالها على أساس ثابت

وزارة رياض باشا

٢ . مصر والدولة

أما مسألة علاقة مصر بالدولة فكان الباب العالى يريد بمناسبة عزل اسماعيل باشا أن يزيد من سيادة الدولة على مصر ويلغى الامتيازات التى منحها لاسماعيل . وكان عند اصدار الأمر بعزله أصدر معه أمراً سلطانياً بالغاء تقليد سنة ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م) .



رياض باشا

ولما كانت تولية الخديوى الجديد تقتضى اصدار تقليد آخر عوّل الباب العالى على أن يكون هذا سالباً للامتيازات الأولى ، فعارضت دولتا فرنسا وانجلترة فى الأمر وطلبتا الاطلاع على صورة التقليد قبل اصداره

ميزات تقليد سنة ١٨٧٣

وقد علمنا فيما سبق أن تقليد سنة ١٨٧٣ م يتضمن الميزات الأربع الآتية : — ( ١ ) جعل الوراثة لأكبر أولاد الخديوى بدلاً من جعلها لأكبر فرد فى الأسرة (٢) منح مصر الحق فى عقد معاهدات تجارية مع الدول (٣) تخويل الخديوى حق اقتراض المال من الدول الأجنبية ( ٤ ) تخويله حق زيادة الجيش الى أى عدد أراد

فعارضت فرنسا فى الغاء هذه الامتيازات كل المعارضة ، لأنها كانت تعمل فى ذلك الحين على تقويض أملاك الدولة ونزعها من يدها ، فلا ترضى بأن يرجع اليها

فى مصر نفوذ كان قد ضاع منها . أما انجلترة فلم يكن من سياستها إذ ذاك العمل على اضعاف الدولة، فلم تعارض فيما يريده الباب العالى الا فى مسألة الوراثة ، فانها رأت بقاءها فى أكبر أولاد الخديوى أضمن للسكينة فى مصر : ولكن فرنسا تمسكت كل التمسك بأمر آخر وهو عدم الغاء الامتياز الخاص بعقد المعاهدات التجارية . وبعد أخذ وردّ اذعن الباب العالى لهذين الطلبين واكتفى فى التقليد الجديد بتعديل ما جاء فى تقليد سنة ١٨٧٣ م بشأن الجيش واقتراض الديون من الدول الأجنبية، فاشترط ان لا يزيد الخديوى الجيش على ١٨٫٠٠٠ فى وقت السلم ( وفى وقت الحرب يكون الأمر للدولة )، وأن لا يعقد قروضاً جديدة « الا بالاتفاق مع الدائنين الحاضرين أو وكلائهم ويكون ذلك منحصراً فى تسوية أحوال المالية الحاضرة »

ابقاء مزيتين

أما المسألة الثالثة وهى تعيين نوع اشراف الأوربيين على شؤون الحكومة فقد تم الاتفاق بين الخديوى وبين الدول الأوربية على أن تُجدد « المراقبة الثنائية » التى كانت فى عهد اسماعيل ، بشرط أن تقتصر أعمال المراقبين على الفحص والتحقيق ، وأن لا تتعداها الى التدخل فى شؤون الادارة . فعُين « السير إفلين بيرنج » مراقباً من قبل انجلترة ، و « المسيو دى بلنيير » مراقباً من قبل فرنسا ( ذى الحجة سنة ١٢٩٦ هـ : نوفبر سنة ١٨٧٩ م )، واشترطت حكومتاهما أن لا يُعزل أحدهما من منصبه الا بعد موافقة دولته . فتسلم المراقبان أعمالهما ، ولم يقسما اختصاصهما بل عملا سوياً بالتكافل ، وعوّلا فى مهمتهما على السير مع رجال الحكومة المصرية بالحزم والمجاملة كى يكسبا ثقتها ، فيتيسر لهما اجراء ما يلزم من الاصلاح فى مالية البلاد وشؤونها بدون مقاومة منها . وبالفعل حازا ثقة الحكومة فأذن لهما بحضور جلسات مجلس النظار . وأعدّا مشروعات كثيرة نافعة كان لها الأثر الأكبر فى تسوية الديون المصرية تسوية نهائية، وفى كثير من الاصلاح الذى تم بالبلاد عقب الاحتلال البرطانى

٣ . الاشراف الاوربى

المراقبة الثنائية

وأما المسألة الأخيرة وهى الفصل بين الحكومة المصرية ودائنيها فتقرر بشأنها تشكيل لجنة شبيهة بلجنة التحقيق التى سبق ذكرها يقال لها « لجنة التصفية » ، الغرض

٤ . الدين المصرى

منها عمل حل نهائي للمشاكل التي بين الحكومة ودائنيها، بحيث لايُغبن أحد الطرفين أكثر من الآخر. فتشكلت اللجنة من أعضاء ممثلين للدول الأوروبية العظمى، وفيهم أعضاء لجنة صندوق الدين، برياسة « السير رفرز ولسن »، واتفقت الدول على أن ترضى بما تقرره اللجنة في هذا الشأن. ولم يكن المراقبان من بين أعضاء هذه اللجنة، بل بقيا في جانب الحكومة ليدفعا عنها من الغبن ما عسى أن يطمع فيه أعضاء اللجنة

لجنة التصفية

وفي أثناء اشتغال اللجنة بالفحص والمناقشة في أمر تصفية الدين انصرف المراقبان الى عمل كل اصلاح فيه التسهيل لسير أعمال الحكومة في المستقبل على أساس متين وقاما من تلقاء نفسهما بتحضير مشروع لتصفية الديون رجاء أن تتبعهُ اللجنة ان لم تُوفّق هي الى عمل مشروع من عندها ( لوقوع الخلاف يومئذ بين بعض أعضائها ). وأهم ما جاء في هذا المشروع أن ينقص ربح الدين الموحّد من ٧٪ الى ٤٪، وأن يصرف النظر عن جميع الأرباح المتأخرة التي لم تدفع في الماضي. ومن الاصلاحات التي قام بها المراقبان أنهما سهرا على العمل بما اقترحتهُ لجنة التحقيق من الاصلاح : فألغي قانون المقابلة نهائيًا، وأنقص الفرق بين الأراضي العشرية والخراجية بزيادة ضريبة اضافية على الأراضي العشرية قدرهـا ١٥٠,٠٠٠ جنيه ؛ وألغي معظم الضرائب الدنيئة مثل العوائد الشخصية ورسوم القبانة والصرافة ورسوم الأرضية في أسواق الريف. ومن أهم هذا الاصلاح تعيين مواعيد محدودة لجمع ضريبة الأراضي بحيث تدفع الأقساط في أوقات تناسب المزارعين. ولا يخفى ما كان يلاقيه هؤلاء من قبل من جراء مطالبتهم بها في غير موعد وبدون انذار

مشروع المراقبين للتصفية

اصلاحات المراقبين

وأما مسألة تصفية الدين فلم يقدّم أعضاء اللجنة عنها تقريراً، وانما تم الاتفاق على حل للمسألة (ربما استُمد أكثره من اقتراحات المراقبين)، وصدر بذلك أمر عال في ٨ شعبان سنة ١٢٩٧هـ (١٧ يوليه سنة ١٨٨٠ م ) يعرف « بقانون التصفية ». ويلخص فيما يأتي : —

الموافقة على المشروع

قانون التصفية

( ١ ) يخفض ربح الدين الموحد الى ٤ ٪ ويكون الضمان لذلك الدين دخل المكوس (الجمارك) بما فيها رسوم الدخان، ودخل مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة، وتُدفع هذه الأموال الى صندوق الدين مباشرة

( ٢ ) يدخل فى الدين الموحد الباقى من الديون القصيرة الأجل التى اقترضت فى سنة ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ م بنقص ٢٠ ٪ من قيمتها

( ٣ ) يُستصدر قرض ممتاز جديد بمبلغ ٨,٧٤٣,٨٠٠ جنيه لدفع الديون السائرة التى لم تسدد بعد

( ٤ ) تدير « الدائرة السنية » ادارة تشرف عليها هيئة من مندوبى الدول ، ويكون ربح القرض المستصدر عليها ٤ ٪ حتماً و ٥ ٪ اذا كفت غلة أراضى الدائرة لذلك ( لم تكف الغلة قط لدفع ٥ ٪ )

( ٥ ) تدفع الديون السائرة جزئياً أو بالكامل ، وبالنقد أو بسندات مالية من السندات الممتازة ، حسب أهمية المستندات التى بأيدى أصحاب هذه الديون

( ٦ ) يصرف مبلغ ١٥٠,٠٠٠ جنيه سنوياً لمدة ٥٠ سنة للذين دفعوا أموال « المقابلة » ، اذ أن الضرائب المفروضة على أرضهم لن تخفض كما كانوا ينتظرون

( ٧ ) يقسم دخل الحكومة الى قسمين : قسم خاص بنفقات ادارة البلاد لا يزيد بحال من الأحوال على ٤,٥٢٠,٠٠٠ جنيه ، وقسم لسد أرباح الدين وأقساطه وهو الباقى من الدخل البالغ فى تلك السنة ٨,٤١٢,٠٠٠ جنيه )

حل المسألة المالية نهائياً

هذه هى الأنظمة النهائية التى حُلّت بهـا مسألة المالية المصرية وأقرتها الدول . ويلاحظ أنهُ بمقتضاها نقص مقدار الدين المصرى وأرباحه عما كان عليه بمقتضى الأنظمة السالفة

أما بيان أجزاء الدين عند صدور قانون التصفية فيمكن تلخيصه فيما يأتى :

| الدين وقت صدور قانون التصفية | الدين الموحد | الدين الممتاز | دين الدائرة السنية | دين الدومين ( روتشيلد ) | الجملة | جملة الارباح سنويا |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | بسعر ٤ ٪ | بسعر ٥ ٪ | بسعر ٤ ٪ | بسعر ٥ ٪ | | |
| | ٥٧,٧٧٦,٣٤٠ | ٢٢,٥٨٧,٨٠٠ | ٩,٥١٢,٩٠٠ | ٨,٤٩٩,٦٢٠ | ٩٨,٢٧٦,٦٦٠ | ٣,٩٧٢,٣٨٧ |

الاصلاحات الداخلية

وبعد الفصل فى مسألة الدين تفرغت المراقبة الثنائية والوزارة المصرية لإدخال كثير من الاصلاح . وكان من أهم ذلك أن شُكلت لجنة علمية للنظر فى أمر التعليم برياسة على ابراهيم باشا ناظر المعارف فى ٧ جمادى سنة ١٢٩٧هـ (٢٧ مايو ١٨٨٠م) فاجتمعت مراراً وعدّلت مناهج التعليم ووسعت نطاقه فى البلاد . ثم قدمت تقريراً بما تراه من الاصلاح ، فأقرّتهُ الحكومة وأبلغت ميزانية المعارف الى ضعفى ما كانت عليه . واهتمت الحكومة أيضاً بطرق الرى وانشاء الترع والقناطر والجسور وغير ذلك من أسباب زيادة الثروة . وبالاختصار دخلت البلاد فى طور اصلاح جديد كان يُرجى منه خير كبير لولا أن داهمتها تلك الحوادث المشئومة المعروفة بالثورة العرابية

# الفصل السادس

## الحوادث العرابية

### ١٢٩٨ — ١٢٩٩ هـ : ( ١٨٨١ — ١٨٨٢ م )

تذمر الضباط

عندما كانت الاصلاحات التى ذكرناها سائرة فى طريق تقدم البلاد كان روح الاستياء يتفشى فى الجيش يوماً بعد يوم . ذلك لأن معظم الترقى بين ضباطه كان قاصراً على الأتراك منهم والشراكسة ، وقلّما وُجد وطنى متقلداً احد الرتب والألقاب السامية . وكان الضباط المصريون يتوقعون أن ينال الجيش شيء من الاصلاح العام الذى دخل البلاد فلم يحظوا بأمنيتهم ، فحقدوا على الحكومة . وازداد

سبب سخطهم

سخطهم حينما أصدر « عثمان رفقى باشا » الشركسى الأصل ناظر الحربية قانون القرعة القاضى بمنع الترقى من « تحت السلاح » ، إذ جُعلت فيه مدة الخدمة العسكرية فى الجيش العامل أربع سنوات فقط ، يذهب الجندى بعدها الى بلده ويبقى « رديفاً » خمس سنوات و « احتياطياً » ست سنوات . والمدة الأولى غير كافية للحصول على معلومات عسكرية تؤهل الجند للترقى

اتفاقهم على ارسال معروض

عند ذلك تذمر بعض الضباط المصريين بزعامة « على فهمى » و « احمد عرابى » و « عبد العال حلمى » من أمراء ( الآلايات ) ، وقرروا الاحتجاج على ذلك بارسال معروض الى رياض باشا رئيس النظار يطلبون فيه : — أولاً عزل « رفقى باشا » من وزارة الحربية ، وثانياً اجراء تحقيق فى كفاءة من فازوا بالترقى حديثاً بدون استحقاق . وكان المعروض شديد اللهجة ، فأدى الى سلوك الحكومة مسلكاً جعل هذه الحادثة فاتحة لغيرها من الحوادث التى سُميت بالثورة العرابية

منزلة عرابى وسبب ظهوره

ولم يكن احمد عرابى المحرك الأول لهذه الثورة ، وانما كان المحرك لها « على فهمى بك » لأنه أمير ( الآلاى ) المعهود اليه حراسة القصر الخديوى ، وكان قد أوقع به رفقى باشا عند الخديوى لأمر فى نفسه ، فحقد « على فهمى » عليه ذلك وعمل على النكاية به . أما اطلاق لفظ « عرابيــة » على هذه الحوادث فلأن احمد عرابى هو الذى بعد انضمامه الى أصحاب الحركة الأولين ظهر عليهم حتى صار هو المحرك لكل شىء فيما بعد . وسبب ظهوره على غيره أنه كان قبل الانضمام الى الجيش يطلب العلم بالأزهر الشريف ، فكانت له مقدرة متوسطة فى الخطابة لم تكن عند غيره من الضباط ، فضلاً عن أن انتماءه للبيت العلوى الشريف يرشحه لأكبر زعامة اسلامية ، فأصبح بكل هذا صاحب المقام الأكبر فى الثورة . واعتقد الناس فى اخلاصه ، لأنهم لم يروا له غرضاً خاصاً مما كان يُظن فى غيره من أصحاب هذه الحركة

تقديم المعروض

أما المعروض الآنف الذكر فقدمه الى رياض باشا أحمد عرابى وعلى فهمى بأنفسهما ( ١٣ صفر سنة ١٢٩٨ هـ : ١٥ يناير ١٨٨١ م ) فألح عليهما أن يسترجعاه ، وهو

رياض باشا يرجوهم استرجاعه

فى نظير ذلك يبذل غاية وسعه فى تلبية مطالبهما . فلما لم يذعن الضابطان لنصحه ، وسمع الخديوى بالأمر ، استشاط غضباً ، وأمر بتأديب هؤلاء العصاة وقمع روح الفتنة فى الجيش . وفى يوم ٢٨ صفر ( ٣٠ يناير ) عُقد مجلس النظـار برياسة الخديوى ( ولم يصرَّح للمراقبين الأوربيين بحضور الجلسة ) ، وقرر القبض أولاً على الضابطين المشار اليهما ومحاكمتهما أمام مجلس حربى ، ثم النظر فى مظالمهما

عزم الخديوى على محاكمتهم

وفى غرة ربيع الأول ( فبراير ) استُدعى الضابطان الى وزارة الحربية دون أن يُخبَرا بأن ذلك لمحاكمتهما . ولكن قرار مجلس النظار قد بلغهما سراً ، فاتفقا مع ضباط فرقهما ورجالها على أن هؤلاء ان وجدوا ان رئيسيهما لم يعودا بعد ساعتين ذهبوا لانقاذهما بالقوة . ولما بلغ الضابطان نظارة الحربية ( قصر النيل ) قُبض عليهما وأحيلا فى الحال على مجلس عسكرى للمحاكمة . فبينا هذا المجلس مجتمع اذ هجم ضباط ( الآلايين ) ورجالها وأخرجوا رئيسيهما من حجرة اجتماع المجلس بعد أن عبثوا بأثاثها وأهانوا ناظر الحربية ، ثم سار احمد عرابى وعلى فهمى بجندهما الى قصر عابدين وطلبا الى الخديوى عزل ناظر الحربية . وبعد أن نظر الخديوى فى حرج الأمر لم يرَ بداً من اجابة طلبهما ، فصرف عثمان رفقى باشا بمحمود باشا سامى البارودى . ففرح الثوّار ، وطلب فهمى وعرابى بك العفو من الخديوى بعد أن أعربا له عن رغبتهما فى الولاء لسموه

انقاذهم اثناء المحاكمة

تنصيب البارودى على الحربية

هذه هى ثانى مرة ثار فيها رجال الجيش : ثاروا فى عهد اسماعيل فلم يصبهم أذى ، وعُزل نوبار باشا من رياسة الوزراء عقب ثورانهم ، وثاروا هذه المرة فغلبوا الوزارة والخديوى على أمرهم ، وفازوا فى الحال بعزل رفقى باشا موضوع كراهتهم وأصل تمرّدهم . فعلموا من ذلك أن لا شئ يقف فى سبيل مطالبهم ، وان الفوز فى ثباتهم وتمسكهم برأيهم

روح الفتنة فى الجيش

وبعد أن عزل الخديوى ناظر الحربية أمر بتشكيل لجنـة للنظر فى مظالم رجال الجيش ورفع رواتب الضباط والجند المصريين ، وأعلن أنهم سيكونون فى مستوى

النظر فى مظالم الجيش

واحد مع غيرهم من الأتراك والجراكسة . وبالاختصار هدأت الأحوال قليلاً ، وكان يُظن أن الخطب انتهى عند هذا الحد

خوف رجال الجيش

على أن رجال الجيش لم يهدأ روعهم وعاشوا فى خوف من الخديوى ، خشية ان يكيد لهم كيداً ، عقاباً لهم على ثورانهم ، وكانوا يرون كل يوم من الشبهات ما زاد اضطرابهم ، خصوصاً ان ناظر الحربية الجديد « محمود سامى باشا » عُزل ونُصب مكانه « داود باشا » ابن أخى الخديوى . وفى مساء ١٣ شوال ( ٨ سبتمبر ) ذهب الى بيت عرابى بك رجل غير معروف ، فلم يسمح له بالدخول . فراب عرابى بك أمره وذهب فى الحال ليقص ذلك على زملائه من الضباط ، وإذا بهم قد حدث لهم ذلك الأمر بعينه ! فأيقنوا أن هناك مكيدة لاغتيالهم

مظاهرة عابدين

وازداد اعتقادهم يقيناً عنـــد ما أصبحوا فرأوا أن الأوامر صدرت ( للآلاى ) الثالث ( من الرجالة ) بالسفر الى الاسكندرية . فهاجوا وماجوا ، وسار عرابى بك بقسم من الجيش يبلغ ٢٫٥٠٠ رجل معهم ١٨ مدفعاً الى ميدان عابدين ، واصطفوا أمام قصر الخديوى فى عصر ١٥ شوال ( ٩ سبتمبر ) يريدون مطالب جديدة

الخديوى يستشير اوكلند كلفن

فهال الخديوى الأمر وطلب « السير أوكْلَنْد كُلفِن » المراقب الانجليزى* ليستشيره فيما يجب عمله . فحضر هذا وسار مع الخديوى الى قصر عابدين ، ونصح له بالظهور بالثبات ، وأن لاينسى أنه مليك البلاد ، وأن له هيبة تَصغُر أمامها كل شجاعة لعرابى ورجاله

عرابى يخاطب الخديوى

فنزل الخديوى الى الميدان ، فتقدم اليه عرابى بك ليعرض مطالبه ، وكان ممتطياً جواده وبيده حسامه . فناداه الخديوى أن « تَرَجَّل واغمد سيفك » . ففعل ذلك بالامتثال الواجب للملوك . ثم سأله الخديوى عما يقصد من عمله هذا ، فقال « يامولاى للأمة ثلاثة مطالب قد أتى الجيش الى هنا للحصول عليها بالنيابة عن الأمة ، ولن ينصرف حتى يحظى بها »

عند ذلك أشار « السير أوكلند كلفن » على الخديوى أن لا يناقش الجند فى

* وكان هذا قد نصب مكان السير اظن بيرنج الذى نقل الى منصب آخر بالهند

نصيحة اوكلند كلفن الجيش — هذه الأمور ، حفظاً لكرامته ، وأن يدخل القصر ويترك له أمر المفاوضة معهم فيما يريدون . فخاطب السير أوكلند كلفن الجيش ، وشرح لهم حرج الحالة ، ونصح لهم

مطالب العرابيين — بالانصراف قبل أن يتفاقم الخطب . فتمسك الثائرون بمطالبهم وهي :

(١) عزل جميع النظار وتشكيل وزارة جديدة

(٢) تشكيل مجلس نيابي للأمة

(٣) زيادة عدد الجيش الى ١٨,٠٠٠

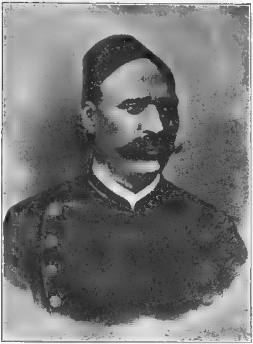
منح المطلب الاول — وبعد المداولة رضي الخديوي بعزل النظار مع إرجاء الفصل في الطلبين الآخرين الى أن يؤخذ رأي الباب العالي

انصراف الجيش — فقبل عرابي ذلك : وانصرف الجيش داعياً للخديوي بطول البقاء . وطلب عرابي الى الخديوي أن يصفح عنه ، فكان له ذلك

اتساع نفوذ عرابي — وكانت شوكة عرابي قد عظمت ، ونفذت كلمته في الجيش ، ثم تمدته الى الكثير من العمد والأعيان والعلماء ، بما ينشره بينهم من الأقوال الجاذبة من «انقاذ الوطن» وغير ذلك من الزخارف الباطلة التي كان لها أسوأ عاقبة في البلاد . وسهّل انقياد بعض الأهلين له ما رأوه من تدخل الأجانب في شؤون مصر ، واجحافهم بحقوق الوطنيين عند اعداد قانون التصفية . ثم داخل « عرابياً » الغرورُ ، فبالغ في ادعاء

منشور عرابي للقناصل — ما ليس من حقه . من ذلك أنهُ أصدر في ٩ سبتمبر منشوراً لقناصل الدول يطمئنهم فيه على رعايا دولهم ويخبرهم أنهُ المؤاخَذ على حفظ النظام . وهو حق غريب استباحه لنفسه ، وكان الأجدر تركه لأمير البلاد أو لأحد وزرائه

وزارة شريف باشا — ولما انقضت مظاهرة عابدين طلب الخديوي من شريف باشا أن يشكل وزارة جديدة ، فتردد أولاً لعلمه انه سيكون ألعوبة في يد الحزب العسكري ، اذ كانوا هم العاملين على اسقاط مَنْ قبله . ثم ألحَّ عليه الأعيان ورجال الجيش ، فقبلها على شرط أن يتعهد رؤساء الحزب العسكري بالامتثال للأوامر ، فقبلوا ذلك ، وشُكلت الوزارة في ٢٠ شوال سنة ١٢٩٨ هـ ( ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ م )



احمد عرابى

ابعاد عرابى وعبد العال

ورأى شريف باشا تهدئةً للأفكار أن يُبعد رؤساء الحزب العسكرى عن العاصمة فأشار على عرابى بالذهاب مع آلايه الى راس الوادى، وعلى عبد العال بالذهاب مع آلايهِ الى دمياط، فامتثلا. وصادف غيابهما عن القاهرة حضور وفد من قبَل الباب العالى للنظر فيما سمعته الدولة من المشاكل الجارية فى مصر، فوجد ظاهر الأمور هادئًا فأعلم الدولة بذلك

تشكيل مجلس الشورى

وبعد سفر الوفد أصدر الخديوى أمراً فى ٢٦ المحرم سنة ١٢٩٩هـ (١٨ ديسمبر ١٨٨١ م) بتنصيب «محمد سلطان باشا» رئيساً لمجلس شورى النواب، فاجتمعت أعضاؤه وشُكلت منهم لجنة لمراجعة قانون المجلس. فأقرَّت اللجنة اكثر مواده، الاّ ما تعلق منها بميزانية الحكومة، فان اللجنة رأت أن للمجلس الحق فى مراجعتها،

رفض مطالب الاعضاء

مع أن شريف باشا قد شرّع فى القانون عدم جواز ذلك للمجلس ، عملاً برغبة المراقبين والدول الأوربية ، لأنهم كانوا يخشون تسرّب الاضطراب ثانيةً الى الشؤون المالية مما يؤدى الى نقض أحكام قانون التصفية

تمسكهم بمطالبهم

وكانت عُرى الاتفاق بين الأعيان ورجال الجيش قد وثقت ، ثم قوى جانب الجميع بثبوت قدم الحزب العسكرى وتنصيب عرابى باشا فى ربيع الأول سنة ١٢٩٩ هـ ( يناير ١٨٨٢ م ) وكيلاً لنظارة الحربية ارضاء لذلك الحزب . فتمسكت اللجنة برأيها ولم يرَ شريف باشا وسيلة الى اجابة طلبها لعلمه أن الدول لاتسمح بذلك مطلقاً

اغراض فرنسا

وكانت الحكومة الفرنسية منذ مظاهرة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م ترى وجوب بسط انجلترة وفرنسا شيئاً من الإشراف على الديار المصرية . فلما رأس الوزارة الفرنسية المسيو « غَمْبِتّا » فى شهر ديسمبر عمل بكل قواه على تنفيذ هذه السياسة ، وعرض الفكرة على اللورد « غِرَنْفِل » وزير الخارجية البريطانية ، موضحاً له أن الحوادث الجارية بمصر تستدعى التدخل فى شؤون تلك البلاد محافظة على الأموال والمصالح الأوربية

تهيئها لانتهاز الفرصة

سياسة انجلترة

ولم يكن من سياسة بريطانيا العظمى فى ذلك الحين مشاركة فرنسا فى بسط شىء من النفوذ على مصر ، ولكن دفعتها الرغبة فى ارضاء تلك الدولة ( لما بينهما من التحالف ) الى اظهار شىء من الموافقة على رأى المسيو غمبتا . على أن هذا الوزير طالما عرض عليه اللورد غرنفل أن يطلب من الباب العالى أن يتدخل هو فى أمر مصر ويحتلها بجنوده ان اقتضى الأمر ذلك ، فكان دائما يقابل ذلك بالرفض

اقتراح فرنسا على انجلترة

ثم وجد المسيو غمبتا من عزم مجلس شورى النواب المصرى على طلب فحص الميزانية فرصة للشروع فى انفاذ ما يرمى اليه . فعرض على اللورد غرنفل أن ترسل حكومتا انجلترة وفرنسا بالاشتراك مذكرة الى معتمديهما بمصر ليخبرا الخديوى « برغبة دولتيهما فى مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى ، وأن الدولتين على وفاق تام فيما يختص

بمصر خصوصاً بعد ما حدث من الحوادث الأخيرة التى من أهمها اجتماع مجلس شورى النواب »

مذكرة انجلترة وفرنسا الى الخديوى

فوافق اللورد غرنفل على ارسال المذكرة بعد تردد ، واشترط فى جوابه ان موافقة الحكومة البريطانية على ذلك لا يقيدها بالقيام بأى عمل فى المستقبل للتدخل فى مصر ان اقتضى الأمر ذلك . فرضيت الحكومة الفرنسية بالشرط ، وأرسلت المذكرة وبلّغت رسمياً للخديوى فى ١٩ صفر سنة ١٢٩٩ هـ ( ٨ يناير ١٨٨٢ م ) ، فقابلها الخديوى بالشكر والامتنان

أثر المذكرة السيئ فى مصر

على أن المذكرة وقعت على غير الخديوى وقوع الصاعقة ، وارتاب جميع الطبقات فى نيات الدولتين ، واعتقد أعضاء مجلس الشورى أنهم المقصودون بذلك ، وان الدولتين تريدان تقويض سلطة مجلسهم ، فزاد اتحادهم مع رجال الجيش وتمسكوا بأذيال عرابى وحزبه . أما الباب العالى فثار خاطره أيضاً لهذا العمل الذى فيه افتيات على حقوقه ، إذ هو صاحب السيادة فى مصر ، وكان هو الأولى بالتدخل فى شؤونها

اقتراح ارسال مذكرة ايضاحية

فلما رأى شريف باشا ما كان للمذكرة من الأثر السيئ طلب الى الدولتين أن ترسلا مذكرة ايضاحية تفسر الأولى وتبين أن الدولتين لا ترميان الى غرض سيئ. فوافقت الحكومة الانجليزية على هذا الرأى، ولكن المسيو غمبتا عارض أشد المعارضة وقال انه يذهب بهيبة الدولتين ، فعملت الحكومة الانجليزية هذه المرة أيضاً برأيه على غير رغبتها

اسقاط وزارة شريف باشا

وفى هذه الأثناء كان يزداد سخط أعضاء مجلس الشورى ، وازدادوا تمسكاً برأيهم فى أمر الميزانية . ولما رأوا أن شريف باشا يعارضهم طلبوا الى الخديوى اقالته فاستقال ثم شكل الخديوى وزارة جديدة فى ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٩٩ هـ ( ١٥ فبراير سنة ١٨٨٢ ) برياسة « محمود سامى باشا البارودى » طبقاً لرغبة أعضاء المجلس وجُعل أيضاً عرابى باشا وزير الحربية فيها

وزارة البارودى

على أن اذعان الخديوى لرغبة الأعيان بهذه الصفة لم يُقصد به الا حل عاجل



محمود باشا سامى البارودى

حل وفق

للمشكلة ريثما يتم الاتفاق على من يوكل اليه قمع هؤلاء الثوار بالقوة ، لأنه يستحيل حكم البلاد بوزارة رأسها من المنتمين للحزب الثائر ، ووزير الحربية فيها عرابى نفسه، وهو اكبر عامل فى الثورة

ازدياد نفوذ الحزب العسكرى

وبمجرد تشكيل الوزارة الجديدة أخذ نفوذ الحزب العسكرى فى الازدياد يوماً بعد يوم ، حتى امتد الى جميع أعمال الحكومة ، وفى يوم ٢٠ فبراير كتب « السير إِدْوَرْدْ مَلِتْ » المعتمد البرطانى بمصر الى حكومته يخبرها بأن المراقبة الثنائية أصبحت اسمية فقط

الخلاف بين الخديوى ووزرائه

ثم زادت الوزارة الجديدة من عدد الجيش، ورفعت رواتب رجاله ، بلا اكتراث بما يصيب الميزانية من جراء ذلك ، ورقّت كثيراً من الضباط بدون اختيار ، فجرّ كل ذلك الى اشتداد الخلاف بين الخديوى ووزرائه ، وتفاقم الخطب حتى كان يُظن

ان العرابيين يرمون الى عزل الخديوى وتنصيب محمود باشا سامى مكانه

تحريك الدول

كل هذه الأعمال حرّكت همة الدول الأوربية من جديد . وكانت وزارة المسيو غمبتا فى فرنسا قد سقطت وخلفه المسيو « دى فريسنيه » . ولم يكن هذا شديد

غمبتا وفريسنيه

الإصرار على التدخل فى مصر كما كان سلفه ، إلاّ أنهُ رأى أن فرصة عدم التدخل قد فاتت ، وان الحال فى مصر وصلت الى حد يستحيل معهُ السكوت ، اذ ظهرت كل معالم الثورة فى أنحاء البلاد

احتجاج الباب العالى على المذكرة

وكان الباب العالى قد احتجّ على ارسال مذكرة انجلترة وفرنسا ، فرأت هاتان عرض المسألة على باقى الدول الأوربية النظر فى الطريقة التى يجب بها الفصل فى

سكوت الدول

الأمر ، فلم تبد الدول معارضة فى النظر فى الأمر ، ولكنها لم تفعل شيئاً فعّالاً للوصول الى نتيجة . فبادرت الحكومة الفرنسية بمفاوضة الحكومة الانجليزية فى الأمر ، فأقرّ قرارهما على ارسال أسطول من قبل الدولتين الى مياه الاسكندرية وتكليف الوزارة

انجلترة وفرنسا تقرران استعمال القوة

المصرية الاستقالة . ورأت الحكومة الانجليزية فوق ذلك أن يُطلب الى الباب العالى أن يصدر أمراً الى مصر يعضد به الخديوى ، ويستدعى زعماء الثورة الى الاستانة للاجابة عن عملهم ، فوافقت على ذلك الحكومة الفرنسية بعد تردد

اقالة وزارة البارودى

وفى ٨ رجب ( ٢٦ مايو ) قدّم معتمدا انجلترة وفرنسا مذكرة الى رئيس مجلس النظار طلبا فيها استقالته من الوزارة ، وإبعاد عرابى باشا عن القطر المصرى مؤقتاً مع حفظ راتبه وألقابه ، وأن يقيم عبد العال باشا وعلى فهمى باشا فى الأرياف ، ولهما أيضاً رواتبهما وأوسمتهما . فاستقالت الوزارة ، ولكن لم يسافر أحد ممن ذكروا فى المذكرة

الاسطول الانجليزى بالاسكندرية

أما الأسطول الانجليزى الفرنسى فقد وصل الى ميــاه الاسكندرية حسب الاتفاق . وكان قائد السفن الانجليزية السير « بوشمب سيمور » ، فلما وصل وجد ان النفوذ كله فى المدينة بيد الحزب العسكرى ، وان الأحوال فى هيج واضطراب ، فأخبر دولته بذلك . وكانت الوفود من الأعيان والعلماء وغيرهم تذهب الى الخديوى يرجونه ارجاع عرابى الى منصبه ، فلم يقبل منهم

الدول تنوى ارسال سفير الى مصر

أما الباب العالى فانه لما بلغه رجاء انجلترة وفرنسا أراد أن يظهر بمظهر صاحب السيادة فى البلاد ، وقال انه سيرسل سفيراً من قبله لفحص المسئلة ، وانه لا داعى لبقاء أساطيلهما بالاسكندرية . فلم توافق الدولتان على استرجاع أساطيلهما ، ورأت أن مجرد بقائها بالمياه المصرية يكفى لارهاب الثائرين وإلقاء الرعب فى قلوبهم

مؤتمر القسطنطينية

ولما لم يُجْدِ هذا التأثير الأدبى نفعاً ، وازدادت الحالة خطورة يوماً بعد يوم، دعت انجلترة وفرنسا الدول الأوربية الى مؤتمر بالاستانة للنظر فى المسألة المصرية ، ودُعى اليه الباب العالى، فلم يرض بارسال مندوب من قبله اعتقاداً أن حلّ المسألة المصرية من شأنه هو، لا من شأن مؤتمر يعقده غيره من الدول . ثم أسرع الى ارسال المشير

مندوب الباب العالى فى مصر

مصطفى درويش باشا مبعوثاً من قبله الى مصر لتفقد أحوال العسكرية . ومن الغريب أن الباشا المذكور قال فى تقريره الى الحضرة السلطانية ان العسكر محافظة على الطاعة والنظام، وطلب لضباط الجيش نحو ٢٠٠ وسام منها الوسام المجيدى من الطبقة الأولى لعرابى نفسه !

استعداد الحزب العسكرى

ثم اشتد غلو الحزب العسكرى ، وأخذ يجمع الجيوش ويعد العدة ، فزاد خوف الأوربيين المقيمين بالبلاد ، حتى أن سكان الاسكندرية منهم تأهبوا للدفاع عن أرواحهم عند الحاجة ، وبقيت الأحوال تزداد صعوبة واضطراباً حتى جاءت تلك الحادثة المشئومة الشهيرة بحادثة ١١ يونيه أو « واقعة الأحد »

حادثة ١١ يونيه ( واقعة الاحد )

وأصل هذه الحادثة انه فى يوم ٢٤رجب سنة١٢٩٩هـ (١١ يونيه سنة ١٨٨٢م) تشاجر رجل مالطى مع مكارٍ مصرى فى الاسكندرية لامتناع المالطى عن اعطاء الأجر الكافى نظير ركوب حمار المكارى . وكان المالطى ثملاً بالخمر ، فطعن المكارى بمدية، فانتصر لكل منهما قوم من أبناء ملته ، فتذمر بعض الرعاع من الوطنيين وأرادوا أن يثأروا من الأوربيين ، ولا سيما أن حوادث الحركة العرابية كانت قد أوغرت صدور بعض الفريقين من بعض ، وابتدأ الأوربيون يطلقون النيران من نوافذ بيوتهم على كل مار من الوطنيين . فازداد غضب المتجمهرين ، وتضاعف الخطب ولم يوجد

مَنْ يزجر الرعاع أو يشرح لهم ضرر فعلتهم مع تمادى الأور بيين المتحصنين فى بيوتهم فى اطلاق النار حتى عظم القتال بين الفريقين ونُهب كثير من مخازن المدينة . ثم صدرت الأوامر للجنـد بتفريق المتجمهرين ، فلم يأت الغروب إلاَّ وقد هدأت الأحوال وسكن الاضطراب . وقبضت الحكومة على كثير ممن وقعت عليهم شبهة القيام بهذه الثورة

سكون الاضطراب

وقد كان لهذه الحادثة المحزنة أثر سيئ لدى الدول الأوربية ، وقالت من عطفهم على مصر والقائمين بالحركة العرابية فيها ، وقالوا ان هذه الحركة يصحبها شىء من التعصب الذميم . وقد كان ذلك من اكبر المؤثرات فيما قرروه فى المؤتمر الذى عقد فى الاستانة للنظر فى شؤون مصر

اثر الحادثة فى اوربا

أما ما كان من أمر هذا المؤتمر فانه عُقـد بالاستانة فى ٦ شعبان ( ٢٣ يونيه ) وشرع أعضاؤه فى التفاوض فى الأمر ، ولكن مفاوضاتهم سارت بغاية البطء لاختلاف مشارب الدول الأوربية فى أمر مصر ، وخوف كل منها من تحمّل المؤاخذة ، بالرغم من اعتقادهم جميعاً بأن الحالة فى مصر أصبحت تدعو الى التدخل بالقوة . وبقى الباب العالى محجماً عن ارسال مندوب من قِبله الى المؤتمر . ثم عرض عليه المؤتمر فى ٦ يوليه أن يرسل قوة الى مصر بشروط معينة لتثبيت عرش الخديوى بمقتضى التقاليد السابقة . فأخذ يرجئ ويماطل الى أن أعلن فى يوم ٢١ شعبان ( ١٠ يوليـه ) أنه سيرسل مندوباً الى المؤتمر فى اليوم الثانى

أعمال المؤتمر

الباب العالى يرسل مندوبا

على أن الفصل فى أمر مصر كان فى الحقيقة قد أفلت من يد الباب العالى والمؤتمر باعلان قائد الأسطول الانجليزى بالاسكندرية فى فجر ١٠ يوليه المذكور أنهُ سيضرب قلاع المدينة ان لم تسلّم له فى مدة أربع وعشرين ساعة

ولكن بعد فوات الفرصة

وذلك أنهُ منذ قدومه الى المياه المصرية كان يلاحظ الهيج يزداد فى المدينة يوماً بعد يوم، ثم بلغهُ أن عرابى باشا يأمر بزيادة تحصين قلاع الثغر ليضرب منها الأسطول الانجليزى . فطلب ابطال هذا التحصين، فأخبره عرابى أنه ليس بالقلاع أدنى حركة

تحصين قلاع الاسكندرية

اعلان سيمور أنه سيضرب الاسكندرية

تحصين جديدة ، وان ليس بها الا المدافع القديمة العهد . ولكن « سيمور » أبصر بعد ذلك أن الاستعداد فى القلاع قائم على قدم وساق ، فأصدر بلاغاً الى قناصل الدول بالاسكندرية فى فجر ١٠ يوليه بأنهُ سيضرب المدينة ان لم تسلم اليه قلاعها

انفراد الاسطول الانجليزي

وكانت الحكومة الانجليزية قد عرضت على الحكومة الفرنسية أن تشرك أسطولها مع الأسطول الانجليزى فى ضرب المدينــة ان اقتضى الأمر ذلك ، فامتنع المسيو « فريسينيه » بعلة أن حكومته تأبى أن تتحمل تبعــة هذا العمل . فعزم الأسطول الانجليزى على الانفراد بالعمل ، وفى الساعة السابعة من صباح ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ ( ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ م ) أطلقت العمارة الانجليزية ( وعددها ١٤ سفينة بين مدرعة ومدفعية ) مدافعها على قلاع الاسكندرية ، فجاوبتها قلاع الاسكندرية بعد ١٥ طلقة ، واستمر تبادل النار بين الفريقين ١٠ ساعات انتهت بدك تلك القلاع الضعيفة دكاً من غير أن يصيب السفن الانجليزية أذى يذكر

ضرب الاسكندرية

احراق الاسكندرية

وفى اليوم التالى تراجعت حامية المدينة الى الداخل ، وعند خروجها من الاسكندرية أمر أحد أمراء ( الألايات ) المدعو « سليمان داود » ( بغير علم عرابى ) أن تُحرق المدينة ، فاشتعلت فيهــا النيران ، ونهبها الرعاع . وفى يومى ٢٤ و ٢٥ شعبان أنزل الأسطول الانجليزى بعض الجنود ، فاحتلوا المدينة ، فعاد اليها الأمن وأخذ الأهلون يرجعون اليها بعد أيام قلائل

معسكر كفر الدوار

ثم أخذت الجيوش الانجليزية والهندية تفد الى الاسكندرية لمحاربة عرابى ، بقيادة « جارنت وُلسِلى » . وكان عرابى قد عسكر بجهة « كفر الدوار » على بعد بضعة أميال من الاسكندرية ، فلما وجد الانجليز ان موقعه هناك حصين رأوا أن يدخلوا البلاد من الشرق من جهــة قناة الســويس . وعلم بذلك عرابى ، فعزم على ردم القناة كى لا تمرَّ منها السفن الانجليزية . ولكن المسيو ديلسبس حمله على الكف عن هدم هذا العمل الخطير ، وقال انهُ يمنع بحق حياد القناة مرور أى سفن حربية منها . فخدع عرابى بأقواله ، ولم يقدر ديلسبس طبعاً على انجاز وعده ، ونزلت الجنود

عزم عرابى على ردم قناة السويس

الانجليزية من طريق القناة . فاستعد العرابيون لقائهم بجهة « التل الكبير » . وكانت أهالى القطر تمد جيش عرابى بحاجاته طوعاً أو كرهاً ، حتى اجتمع له من الخيل والبغال شىء كثير

نزول الانجليز من طريق القناة

وكان الباب العالى طول هذه المدة يتباطأ فى الفصل فى أمر مصر ، وأخيراً اشترك فى مفاوضات مؤتمر الاستانة بارساله مندوبين من قبله فى ٢٠ يوليه . ثم أعرب لرجال المؤتمر أنهُ مستعد لارسال جيش لاخماد الثورة المصرية ، فاشترطت عليه الدول شروطاً خاصة ، مؤدّاها أن لا يغير علاقة الدولة بمصر عما تقضى بهِ التقاليد السابقة . وكانت فى مقدمتهم فى ذلك انجلترة ، لأنها أصبحت منذ ضرب الاسكندرية أكبر الدول ارتباطاً بالشؤون المصرية . ولم تُبد لها احدى الدول شيئاً من المعارضة لعلمها بوجوب قيام احدى الدول باطفاء الثورة

الباب العالى والدول.

فاشترطت انجلترة على الباب العالى أن لا يرسل جندياً واحداً الى مصر الّا بعد أن يصدر منشوراً بأن عرابى باشا عاص للسلطان ، وبعد ابرام اتفاق حربى مع انجلترة بشأن أعمال الجيش التركى والانجليزى بمصر

انجلترة والباب العالى

فأخذ الباب العالى يعرض عدة صور بما يصدره فى المنشور على انجلترة ( فتشير هذه بتعديلها حسب ما تراه موافقاً للأحوال ) ثم كتب صورة نهائية ونشرها قبل أن يطلع مندوب انجلترة عليها فى ٢٢ شوال ( ٩ سبتمبر ) . فغضبت لذلك انجلترة وامتنعت عن توقيع الاتفاق الحربى . عند ذلك شرع الباب العالى يفاوض انجلترة بشأن توقيع الاتفاق بالرغم مما حصل ، وكادت الحكومة الانجليزية تقبل ذلك فى ٢٩ شوال ( ١٣ سبتمبر ) لولا أن جاءت الأنباء فى ذلك اليوم بأن الجيوش الانجليزية بددت شمل جيش عرابى فى صبيحة ذلك اليوم عند التل الكبير ، وبذلك زالت الأسباب الداعية الى مفاوضة الباب العالى فى هذا الشأن

منشور السلطان

انجلترة تستغنى عن الباب العالى

أما موقعة التل الكبير فكانت فى السحر فى الساعة الرابعة من صباح ٢٩ شوال سنة ١٢٩٩ هـ (١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م) . وكان عدد الجيش الانجليزى فيها يبلغ

موقعة التل الكبير

هزيمة العرابيين ١٧,٤٠٠ مقاتل ، وجيش عرابى نحو ٢٧ ألف جندى ما بين نظامى وغير نظامى .
فلم يجد هذا الفرق شيئاً أمام العلم وحسن النظام ، ولم تدم الواقعة أكثر من عشرين دقيقة انتهت بتبديد الانجليز لجيش عرابى . وفرّ عرابى نفسه الى القاهرة بعد أن بذل جهده عبثاً فى رد المنهزمين من جيوشه الى أماكنهم . وأراد عرابى الوقوف للانجليز فى طريق القاهرة فخذله الناس وانكسرت نفوس مساعديه

دخول الانجليز القاهرة

فسار الانجليز الى القاهرة فدخلوها بلا مقاومة ، وتسلموا القلعة وباقى الثُّكنات العسكرية فى ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ ( ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م ) ، وبذلك ابتدأ احتلالهم القطر المصرى

ثم سلّم عرابى نفسه وقبض الانجليز على معظم زعماء الثورة

# الفصل السابع

## عهد الاحتلال البرطانى

### ١ — « قدوم اللورد دُفرين الى مصر »

طور جديد

دخلت مصر منذ عام ١٢٩٩هـ ( ١٨٨٢م ) فى طور جديد ، وهو الاسترشاد بدولة أوربية عظيمة فى السير فى سبيل تهدئة أحوالها وتنظيم ادارتها . وقد سبق أن أوضحنا الأسباب التى دعت برطانيا العظمى الى ارسال جيش لاحتلال مصر ، والآن نبين كيف امتد هذا الاحتلال الى اليوم ، مع ذكر أهم الأعمال العامة التى تمت فى عهده

مهمة اللورد دفرين

بعد أن أودع عرابى السجن وأُخمدت نار الثورة كان أول واجب إعمال التدبير لتهدئة أحوال البلاد ومنع حدوث مثل هذه الفتنة فى المستقبل . لذلك أمرت الحكومة البرطانية اللورد « دُفرين » ( سفيرها فى الاستانة ) أن يسافر الى مصر ويبدى للحكومة الخديوية ما يراه من المشورة والنصح ، لاتخاذ الحيطة الكافلة بتثبيت عرش

العفو عن صغار الضباط

سمو الخديوى وإسعاد جميع طبقات الأمة . وكانت الحكومة قد سجنت ، غيرَ زعماء الثورة ، عدداً كبيراً من الأهلين والعلماء لشبهات يسيرة . فلما حضر اللورد «دفرين» الى مصر نصح للحكومة بالنظر فى أمرهم ، فعملت بمشورته ، ثم أصدر الخديوى أمراً بالعفو عن جميع الضباط الذين تقل رتبتهم عن ( البكباشى ) ، مع تجريدهم من رتبهم وحرمانهم من معاشهم



اللورد دفرين

محاكمة زعماء العرابيين

ثم عيِّنَت « لجنة تحقيق » للنظر فى أمر عرابى ومحمود سامى وعبد العال وطلبة وعلى فهمى ، فأقرّت محاكمتهم أمام مجلس عسكرى ، بتهمة ثورانهم على الحكومة . فأثبت المجلس اداناتهم وحُكم عليهم بالاعدام ، ثم أُبدل بالحكم أخف منهُ وهو النفى المؤبد الى جزيرة « سَرَنْديب » ( سيلان ) بالهند

الغاء المراقبة الثنائية

بعد أن دخلت الجنود الانجليزية مصر واحتلتها لم يكن هناك داع للمراقبة الثنائية ، إذ فى انجلترة وحدها الكفاية ، للمحافظة على الأموال الأوربية ، وفى بقاء المراقبة احتمالٌ لفساد العلائق بين فرنسا وانجلترة ، لتوقُّع الخلاف بينهما فى الرأى . على أن الحكومة المصرية نفسها طالما وجدت المراقبة الثنائية حجرَ عثرة فى سبيل أعمالها ، ولذلك اقترح شريف باشا الغاءها فأيدتهُ الحكومـة الانجليزية فى رأيه وساعدتهُ على انفاذ رغبته بالرغم من احتجاج فرنسا وتشنيع الصحف الفرنسية عبثاً ، وفى ٩ ربيع الأول سنة ١٣٠٠ هـ ( ١٨ يناير سنة ١٨٨٣ م ) أصدر الخديوى أمراً عالياً بالغائها . فغادر المراقب الفرنسى مصر بحجـة قيامه باجازة ، وجُعل المراقب الانجليزى مستشاراً ماليًّا للحكومة المصرية

اقتراحات اللورد دفرين

ونظر اللورد دفرين أثناء اقامته بمصر فى عدة أمور لإصلاح البلاد . فمن أهم ذلك انشاء جيش مصرى جديد ، لأن القديم قد حُلّ لقيامه بالثورة ، ولأن انجلترة كانت فى ذلك الوقت تنوى استرجاع جيوشها من مصر فى أقرب فرصة ، فيحل الجيش الجديد محل الجيوش البرطانيـة . ولما لم يجد اللورد دفرين العدد الكافى من المصريين اللائقين لأن يكونوا ضباطاً فى الجيش اقترح أن ينصَّبَ عليهِ قائد

جيش جديد

انجليزى ويضمّ اليه بعض كبار الضباط من الانجليز . فوقع الاختيار على « السير افلن وُود » ، فنُصّب ( سرداراً ) للجيش المصرى فى أوائل سنة ١٣٠٠هـ ( ١٨٨٣ م ) وأخذ فى القيام بتنظيم الجيش

الشرطة

واقترح اللورد دفرين اصلاح الشرطة ، فعُهد بأمرها الى الجنرال « بيكر » وألحقت ادارتها بوزارة الداخلية

مجلس الشورى

ونظر أيضاً فى تشكيل هيئات نيابية تساعد الحكومة فى ادارة شؤون البلاد ، فاقترح انشاء مجلس شورى لسنّ القوانين يؤلف من ٢٦ عضواً ، يكون بمثابة مرشد لمجلس النظار ، وتشكيل جمعية عمومية مكوَّنة من ٤٦ من الأعيان تجتمع كل سنتين مرة يسترشد بهم كل من مجلسى النظار والشورى فى الوقوف على رغبات أهل البلاد .

فلم يمكن انفاذ هذا النظام دفعة واحدة لعدم تدرب البلاد على الحكومة النيابية ، ورأت انجلترة ارجاءه الى أن يتم هذا التدرب

أمد الاحتلال

على أن انجلترة لم تقصد بقاءها بمصر أمداً طويلاً ، بل كانت على العكس من ذلك عازمة على الجلاء عنها بعد أن ترسخ قدم الاصلاح فيها وتخرج من الأزمة التى كانت سبباً فى نزول الجيش البرطانى الديار المصرية : يدل على ذلك ما جاء فى خطاب الملكة فكتوريا يوم افتتحت البرلمان البرطانى فى ٧ ربيع الثانى سنة ١٣٠٠ هـ ( ١٥ فبراير سنة ١٨٨٣ م ) وتصريحات اللورد دفرين فى التقرير الذى رفعه للحكومة البرطانية عن حالة مصر

الامور التى عاقت تقدم مصر

غير أنهُ حدثت أمور ومشاكل عاقت تقدم مصر على الوجه الذى تريده انجلترة ، فاضطرت للبقاء فيها الى هذا اليوم . ومن أعظم هذه المشاكل قيام الفتن والحروب فى السودان ، فانها ، فضلاً عن جعلها البلاد فى خطر اذا انجلت عنها الجيوش البرطانية ، عاقت سير الاصلاحات المدة التى اقترحها اللورد دفرين ، وهى تتناول أموراً كثيرة أهمها الجيش والشرطة والهيئات النيابية والتعليم والمحاكم والرى ومسح الأراضى وتخفيض الضرائب واصلاح حال الفلاح وغير ذلك

عودة دفرين الى الاستانة

وبعد ان وضع اللورد دفرين الخطة للاصلاح الذى يريده فى مصر عاد الى مقره بالاستانة ، وعُهد بانفاذ هذا الاصلاح الى معتمد برطانيا العظمى فى مصر بحيث يكون مركزه فى ذلك مركز الناصح والمرشد للحكومة المصرية ووزرائها

اللورد كرومر معتمد برطانيا

ثم اختير لهذا المنصب « السير افلين بيرنج » . ( اللورد كرومر فيما بعد ) فوصل الى مصر فى ٩ ذى القعدة سنة ١٣٠١ هـ ( ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٣ م ) ، أى بعد مغادرة اللورد دفرين بأربعة أشهر ، فبقى فيها يواصل هذا العمل الى أن استقال من منصبه فى صيف عام ١٣٢٥ هـ ( ١٩٠٧ م )

ولما كان للحروب السودانية الأثر الأكبر فى تأخير سير هذه الاصلاحات حسُن بنا أن نأتى على ذكرها أولاً ثم نعود الى الكلام على الاصلاحات التى لم نشرحها بعد



اللورد كرومر

## ٢ — ﴿ حروب السودان ﴾

اضطراب السودان

استولى محمد على باشا على السودان سنة ١٢٣٥ هـ ( ١٨٢٠ م ) ، ولكنه لم يوطد فيه نفوذ مصر ، فبقيت سلطة الحكومة عليه ضئيلة منذ هذه المدة ، وكاد يكون الحل والعقد فيه بأيدى الباشوات الترك وجباة الضرائب من البشبزق وغيرهم ، ممن لم يكن لهم همٌّ سوى جمع الثروة وابتزاز الأموال من أبناء السودان التعاس . وكان الشغل الشاغل لكل حاكم عام وُلى السودان فى هذه المدة اطفاء الثورات التى لم تخمد نارها قط فى انحاء البلاد ، وصد هجمات الحبشة على الحدود السودانية

وقد استتب النظام نوعاً فى المقاطعات الاستوائية فى سنة ١٢٩١ هـ ( ١٨٧٤ م )

على يد وال انجليزى هو « الجنرال غُردون » ، ولكنهُ ما لبث أن غادر البلاد فى سنة ١٢٩٣ هـ ( ١٨٧٦ م ) فعاد باشوات الأتراك الى ظلمهم القديم . وبعد قليل قامت ثورة فى السودان استفحل أمرها وانتهت بزوال حكم المصريين من تلك البلاد

أسباب الثورة فى السودان

ومن أهم الأسباب التى أفضت الى قيام هذه الفتنة :

أولاً – ظلم جباة الضرائب وحبهم للرشوة

ثانياً – وقوف الحكومة المصرية فى وجه تجارة الرقيق

ثالثاً – مؤازرة بعض رجال الجيش المصرى الثائرين وإطماعهم فى النجاح اذ ثاروا على الحكومة . فقد قيل ان « عرابياً » كان يرسل اشارات برقية الى أهل السودان يحرضهم على مقاومة سلطة الخديوى

ومما سهل الأمر على الثائرين جلاء الجنود المصرية عن السودان لاطفاء الثورة العرابية

المهدى

ثم استفحلت الثورة بزعامة رجل يدعى محمد احمد ظهر فى السودان وادعى أنهُ « المهدى » المنتظر ولذلك لقب بالمهدى

نشأته

وُلد « المهدى » فى مدينة دنقلة عام ١٢٥٩ هـ ( ١٨٤٣ م ) ، واشتغل فى صباه مع عمه فى صنع السفن بجزيرة أمام « سنار » . ثم ضربه عمه ذات يوم ففر منه والتحق بأحد معاهد التعليم العربية التى كان يتعلم فيها الدراويش ، فدرس بها الدين مدة ، ثم ذهب الى « بربر » ومنها الى « كانا » على النيل الأبيض ، فتقلد بها منصب « فقير » ( شيخ ) فى سنة ١٢٨٧ هـ ( ١٨٧٠ م ) واستوطن بجزيرة « أبا » بالقرب من كانا المذكورة

نهوضه ودعوته

ثم أخذ صيته فى الازدياد ، فجمع ثروة طائلة ، والتفّت حوله التلاميذ ، وتزوج بينات أعاظم رؤساء قبائل البقّارة ، فعظمت بذلك عصبيته بين قبائل تلك الجهة . وفى سنة ١٢٩٨ هـ ( ١٨٨١ م ) أخذ يكتب الرسائل الى فقهاء السودان يخبرهم أنهُ هو المهدى المنتظر ، وان كل من لم يؤمن به هالك لا محالة ، سواء أ كان وثنياً أم



المهـدى

اتحاد السودان معه على الحكومة

مسيحياً أم مسلماً . فشاع ذكره في السودان ، حتى بلغ أمره مسامع الحاكم العام رؤوف باشا فى أوائل رمضان سنة ١٢٩٨ هـ ( يوليه سنة ١٨٨١ م ) . ولم يكد يسمع العلماء بأمره حتى أفتوا بأنه دجّال ، وكاد السودانيون أنفسهم ينفضّون من حوله ، بالرغم من جهلهم وتخريفهم ، ولولا استياؤهم من الحكومة فى ذلك الوقت ما اندفعوا معهُ فى مقاومتها

المهـدى ورؤوف باشا

فاستدعاه رؤوف باشا الى الخرطوم ليحضر فى مجمع من العلماء ويقيم الحجة على دعواه ، فأبى المهدى الحضور ، فسيّر عليـهِ رؤوف باشا عدة حملات للقبض عليه ، فانقضّ أتباع المهدى عليها وفتكوا بها . ثم عُزل رؤوف باشا من ولاية السودان فلما خلفهُ « عبد القادر باشا حلمى » فى ولاية السودان انتصر على أتباع المهدى

( الدراويش ) فى بضع مواقع صغيرة . غير أن ذلك لم يذهب بقوتهم ، وأخذت ثورتهم تتضاعف يوماً فيوماً حتى اتضح للحكومة المصرية المتباطئة فى أمره ، أنها ليست بالأمر اليسير ، بعد أن أمهلت المهدى حتى انقض على مدينة « الأُبيّض » فى أوائل سنة ١٣٠٠ هـ ( ١٨٨٣ م ) واستولى عليها

استيلاؤه على الابيض

على أن مركز الحكومة المصرية إزاء هذا الحادث كان فى شدة الحرج ، لعدم وجود جيش مدرب لديها تمدّ به والى السودان الذى لم يعدل منذ نشوب الفتنة عن استصراخها واستنجادها . وقد كان لانجلترة جيش احتلال فى مصر، لكنها لم ترغب إذ ذاك فى التدخل فى الأمر ، كى لا تضطر الى تجريد حملة على السودان كالتى جردتها على مصر . فأخبرت الحكومة أنها اذا أرادت إخماد الفتنة فى السودان فليكن ذلك بالجيوش المصرية

انجلترة تحجم عن محاربته

وفى ربيع سنة ١٣٠٠ هـ ( ١٨٨٣ م ) استخدمت الحكومة المصرية عدداً من الضباط الانجليز فى الجيش المصرى المؤلف لانقاذ السودان وعلى رأسهم « هِكس باشا » فتقلد قيادة الجيوش السودانية فى رمضان ( يوليه ) ، وجعل وكيله « علاء الدين باشا » التركى . غير أن جيوشه لم تكن على ما يرام من التدرب ومعظمهم ( من جنود وضباط ) كان من جيش عرابى المنحلّ وممن نبذهم « الجنرال وود » لعدم لياقتهم لجيشه الجديد . ذلك الى قلة وسائل النقل ، وعدم توافر الأموال الكافية للانفاق على الحملة

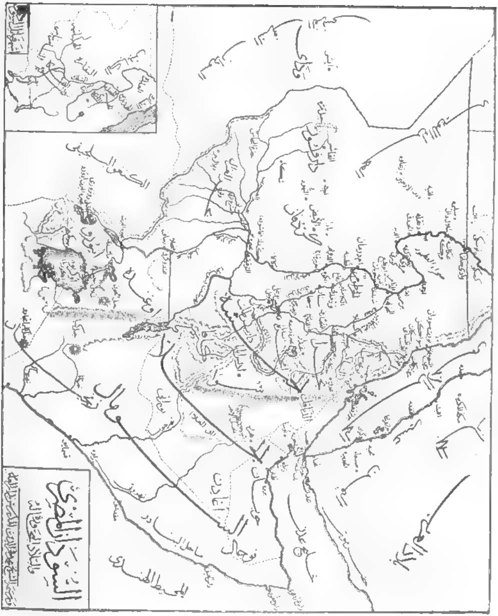
حملة هكس باشا

خرج « هكس باشا » بجيشه المختلط من الخرطوم فى ذى القعدة سنة ١٣٠٠ هـ ( سبتمبر سنة ١٨٨٣م ) يريد استرداد « الأُبيّض » . فوصل الى « الدويم » دون أن يلقى أحداً من الأعداء ، وقد أخذ التعب والظمأ يفعلان بجيشه أكثر مما تفعله النيران . وبيناهم بين الدويم والأُبيّض إذ خرج عليهم الدراويش من كمين فى الطريق وأفنوهم عن آخرهم

انهزامها بين الدويم والابيض

وصل خبر هذه الفاجعة الى القاهرة فى المحرم سنة ١٣٠١ هـ ( نوفمبر سنة ١٨٨٣م ) فكان وقعه كالصاعقة فى نفوس أولى الشأن ، إذ به انقطع كل أمل فى القضاء على المهدى عاجلاً ، وخشى الناس أنه عما قريب يأخذ « الخرطوم » نفسها

هول الفاجعة فى مصر


السودان المصري

## إخلاء السودان

مشورة انجلترة باخلاء السودان

وكانت الحكومة الانجليزية لا تزال مصرة على عدم ارسال جيش من قبلها الى السودان ، ورأت أن الجيوش القليلة التى يتسنى للحكومة المصرية ارسالها لا تفيد بشيء ، بل ربما أدى ارسالها الى زيادة الويل. فنصحت الحكومة المصرية باخلاء السودان : من خط الاستواء الى جنوبي وادى حلفا ، ريثما تتحسن الأحوال ويقوى مركز مصر ذاتها فتعود الى فتحه من جديد . فلم يوافق « شريف باشا » رئيس الوزارة على اخلاء السودان بحجة انهُ المورد الحيَويّ لمصر ، ولأن الاقرار بسلخه عنها مسقط لحقوقها عليه فيصبح نَهباً للدول ، فاعتزل منصبه ؛ وخلفه فى رياسة الوزارة «نوبار باشا» فوافق على سلخهِ من مصر

شريف باشا لا يوافق ويستقيل

موافقة نوبار

اختيار غردون لاخلاء السودان

وكان فى النية أولاً ارسال عبد القادر باشا الى الخرطوم لتولى استرجاع الجنود المصرية من السودان ، ولكن قرَّ الأمر أخيراً على ارسال غردون باشا (الجنرال غردون) الانجليزى فى هذه المهمة ، لما له من النفوذ والمحبة عند أهل السودان ، فيكون ذلك أكبر عون فى هذا العمل الشاق الذى ان لم تُراع فيه الحكمة ورباطة الجأش استخف السودان بالحكومة المصرية وفتكوا بجيشها قبل أن يجلوا عنهم ، وكان يُظن أن «غردون» يستطيع بماله من المكانة المذكورة أن يطيّب خاطر القبائل فلا تنتشر الثورة أثناء جلاء الجيش المصرى . وفى ربيع الأول سنة ١٣٠١ هـ ( يناير ١٨٨٤ م ) أُرسل غردون فى هذه المهمة ، وجعل وكيله « الكولونيل استيوارت » وكان من أحذق الضباط الانجليز

وفى أثناء ذلك كان أمرُ المهدى قد استفحل ، وأخذت دعوته تنتشر فى أنحاء السودان حتى لحقت السودان الشرقى . ففى شوال سنة ١٣٠١هـ ( أغسطس سنة ١٨٨٣ م ) وصلت رسل المهدى الى تلك الجهة بالقرب من «سِنكات» وأخذوا يثيرون القبائل على الحكومة . وكان زعيم هذه الحركة رجل من سلالة تركية قديمة يدعى «عثمان دِقْنَة» أصله تاجر رقيق جهة سواكن ، ولما كسدت تجارته بتضييق الحكومة على الرقيق تألّب عليها وانضم الى المهدى ، فلقّبه أميراً من أمرائه . ولم يلبث أن انضمت اليه

عثمان دقنة فى السودان الشرقى

جميع قبائل السودان الشرقى ، فلم يبق تحت نفوذ الحكومة المصرية الا حاميات « سنكات » و « طوكر » و « سواكن » و « ترنكتات » على البحر الأحمر

حملة بيكر لانقاذ حاميتى طوكر وسنكات

ورأت الحكومة المصرية أن ترسل لانقاذ حاميتى طوكر وسنكات «الجنرال بيكر» مع رجال الشرطة الذين عهد اليه تدريبهم . وربما كان هؤلاء الرجال فى الجملة خيراً ممن خرج بهم « هكس باشا » ، وان لم يكونوا على ما يُرام من النظام والتدرب ، إذ أن بعضهم لم يفق فى تعلمه رجال الشرطة العاديين ، وكثير منهم كان قريب العهد بمبادئ الحركات النظامية . خرجت هذه القوة لانفاذ غرضها ، فالتقت بالدراويش عند «الطيب» فى جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ ( فبراير سنة ١٨٨٤ م ) ، فانهزمت شرّ هزيمة ، إذ كانت الجنود ترمى سلاحها وتلوذ بالفرار لقلة تدربهم على الحرب . وقد كان عدد رجال هذه الحملة ٣,٧٠٠ فلم ينج منهم سوى ١,٣٠٠ رجل

هزيمتها عند الطيب

حملة هيوت البحرية

عند ذلك اضطرت الحكومة الانجليزية بعد ابادة الجيوش المصرية القديمة والجديدة الى فعل ما لم ترض به من قبل وهو ارسال حملة الى السودان . فأمرت القائد البحرى « هيوت » بإنزال قوة فى « سواكن » ، وأرسلت الى «ترنكتات» قسماً من جيش الاحتلال بمصر بقيادة « السير جيمس جراهام » ، وكانت حاميتا طوكر وسنكات قد اضطرتا الى التسليم قبل أن تصلهما النجدة ، فخرج «جراهام» الى الطيب حيث هُزم بيكر من قبل ، فكسر الأعداء كسرة شنيعة . ثم جدّ فى اقتفاء « عثمان دقنة » فالتقى به بجهة «طماى» ، ففتك بجيشه وأحرق معسكره ، ولكنه لم يقدر على القبض عليه

جراهام يهزم الدراويش عند الطيب

وبعد أن ألحق هاتين الهزيمتين بالدراويش اكتفى بالرجوع الى سواكن ، وباتت هذه المدينة هى وترنكتات فى مأمن من العدو . ثم استُدعى جراهام الى مصر فى أواخر جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ ( مارس سنة ١٨٨٤ م )

غردون فى الخرطوم

أما غردون باشا فانه بلغ الخرطوم فى ١٩ ربيع الثانى ١٣٠١هـ (فبراير سنة ١٨٨٤م) فنُصّب حاكماً عاماً على السودان . وقد كان لقدومه فى أول الأمر وقع حسن فى نفوس القبائل ، واستتبت السكينة فى الخرطوم . غير أنهُ لم يشرع توًّا فى إخلاء السودان

توانيه فى اخلاء السودان

حسبما كان معهوداً اليه ، بل أخذ يضيع الوقت فى مخابرة أولى الشأن بالقاهرة فى الطريقة التى يجب أن يُحكم بها السودان بعد اخلائه ، وعرض عليهم من ذلك عدة خطط ومشروعات ، مندفعاً فى ذلك بخوفه على الأهلين من ثورة المهدى ومن الفوضى التى لابد أن تنتشر فى طول البلاد وعرضها عقب جلاء الجيش المصرى . ومما اقترحهُ فى هذا الشأن أن يُرسَل اليه « الزبير باشا » ليساعده فى الجلاء ، وبعد ذلك تعهد



غردون باشا

اليه ولاية السودان . وقد عرض هذا الاقتراح بالحاح اكثر من مرة ثم رأى أولو الشأن بعدُ رفضه بتة . على أن غردون كان فى ذلك الحين يستهين بقوة المهدى ويطلب من الحكومة مراراً أن تمده بجيش « ليقضى على المهدى » ، وأن تعدل عن اخلاء السودان

ولا يخفى ان ذلك كان مخالفاً للاتفاق الذى أُرسل بمقتضاه الى السودان ، فلم ترسل اليه الحكومتان الانجليزية والمصرية شيئاً من الجند . وصار نطاق نفوذ المهدى

الدراويش يحصرونه فى الخرطوم

يتسع يوماً بعد يوم حتى عم القبائل التى بين « بربر » و « الخرطوم » فانضموا الى المهدى فى أواخر رجب سنة ١٣٠١هـ ( مايو ١٨٨٤م ) . فانقطع بذلك خط الرجعة على غردون ، وأصبحت حالته تؤذن بالخطر

## حملة انقاذ غردون

انجلترة تهتم بأمره

والظاهر أن الحكومة الانجليزية لم تعرف بادئ الأمر الخطر الذى كان يتهدد « غردون » مع وجوده بلا جيش فى السودان . فلما حدث ما تقدم ، ورأت الخطر يحدق به أسرعت الى ارسال نجدة من القاهرة لانقاذه بقيادة « اللورد وُلسِلى »*. وبينا هذه الحملة فى طريقها أرسل غردون « الكولونيل استيوارت » فى نفر من الرجال

حملة ولسلى

على باخرة من الخرطوم قاصدين مقابلة الحملة القادمة لنجدته وابلاغها ما يهمها معرفته عن الحالة فى السودان . فمرت الباخرة على « بربر » دون أن تلاقى شيئاً . الاّ أنها اصطدمت بصخر قرب « أبى حمد » ، وفتكت بمن فيها احدى قبائل البدو غدراً بعد أن أنزلتهم فى ضيافتها

ولسلى فى كورتى

وفى يوم ٣٠ ديسمبر وصل « ولسلى » بجيشه الى « كورتى » ، فرأى أن يُسيّر قوتين للقاء الدراويش جهة « المتمة » : قوة تذهب بطريق النيل ، والأخرى

واقعة أبى قليع

بالصحراء ، فوصلت هذه القوة الأخيرة الى « المتمة » ، وهزمت جيوش المهدى عند «أبى قليع» . ثم بلغت «جوبات» فى ٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٢هـ ( ٢٠ يناير سنة ١٨٨٥ م ) ، وهنا اتصلت بالبواخر التى ذهبت بطريق النيل . وعلم « ولسلى »

تأخر الحملة فى طريق الخرطوم

أن غردون فى خطر ، وأنهُ يخشى العاقبة كثيراً اذا تأخر وصول النجدة عن ٢٤ يناير فأسرع « ولسلى » الى تسيير باخرتين بالجند لانقاذه . ولكن هذه الرحلة لم تكن بالأمر السهل وفى ٨ ربيع الثانى ( ٢٥ يناير ) اصطدمت احدى السفينتين بصخور الشلال السادس ، فعطل المسير أربعة وعشرين ساعة

سقوط الخرطوم ومقتل غردون

وبينا هذه النجدة تعانى الوصول الى « الخرطوم » إذ استولى الدراويش على

* هو الذى قاد الجيوش البرطانية فى واقعة التل الكبير

المدينة ، وقتلوا « غردون » ، وذلك فى ٩ ربيع الثانى سنة ١٣٠٢ ( ٢٦ يناير ١٨٨٥ ) ومما ساعد على سقوط المدينة خيانة « فرج باشا » قائد الحصون ، فانهُ انضم الى جيوش المهدى فى الليلة السابقة لسقوط المدينة

وعند ذلك صدرت الأوامر للورد « ولسلى » أن يهاجم الخرطوم ليستردها ، فشرع يهاجمها من ثلاث جهات ، ولكن بعد قليل عدلت الحكومة الانجليزية عن استمرار القتال لاشتغالها ببعض مناوشات على حدود الهند . وفى ٢٢ رمضان (٥ يوليه) أخليت مدينة « دنقلة » وصارت « وادى حلفا » أقصى الحدود المصرية

اخلاء السودان

وكان هذا النصر قد ضاعف ثقة أتباع المهدى به ، وظنوا أنهُ سيقودهم الى فتح جميع ممالك الأرض ، وأنه لن يموت الا بعد فتح الحرمين ، ولكن ما لبث أن خاب فألهم ، إذ لم تمض عليهِ بضعة أشهر فى عاصمته « أم درمان » حتى لحقته المنية كغيره من البشر فى ٩ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ ( ٢١ يونيه سنة ١٨٨٥ م ) ، وكان قبل وفاته قد أوصى بالخلافة من بعده « لعبد الله التعايشى » ، فبايعه أتباع المهدى وسموه « خليفة المهدى » . أما جثة المهدى فانها دفنت فى الحجرة التى فارقته الحياة فيها ، ثم أقيمت عليها قُبَّة صار الناس يزورونها للتبرك

وفاة المهدى

التعايشى يخلفه

ولم يكد « التعايشى » يتسلم مقاليد الأمور حتى عزم على فتح مصر . ولكن الجيش المصرى كان قد تمّ تدريبه ، فخرجت من مصر فرقة ، بعض جيوشها مصرية وبعضها انجليزية ، وهزمت جيوش « الخليفة » بلا عناء عند « جنس » فى ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٣ هـ ( ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ م ) فسلمت مصر من غارته

عزمه على فتح مصر

الدفاع عن مصر

ولكن نفوذه عمّ السودان ، ولم يخرج عن دائرة سلطته الا عدة من المقاطعات النائية ، فانها كانت من نصيب الممالك المجاورة لها : فأعطيت « مصوّع » وما يجاورها لايطاليا ، وأعطيت « بوغوس » لملك الحبشة ، مكافأة له على مساعدته فى تسهيل جلاء الجيوش المصرية من « اماديت » و « سنهيت » و « غلباط » ، خصوصاً أن هذه كلها بلغت مصر سالمة . وأعلنت انجلترة امتلاك مقاطعة « بربرة » وزَيلع وأوغندا

نفوذ التعايشى فى السودان الشرقى

الدراويش يحصرونه فى الخرطوم

يتسع يوماً بعد يوم حتى عم القبائل التى بين « بربر » و « الخرطوم » فانضموا الى المهدى فى أواخر رجب سنة ١٣٠١هـ ( مايو ١٨٨٤م ) . فانقطع بذلك خط الرجعة على غردون ، وأصبحت حالته تؤذن بالخطر

## حملة انقاذ غردون

انجلترة تهتم بأمره

والظاهر أن الحكومة الانجليزية لم تعرف بادئ الأمر الخطر الذى كان يتهدد « غردون » مع وجوده بلا جيش فى السودان . فلما حدث ما تقدم ، ورأت الخطر يحدق به أسرعت الى ارسال نجدة من القاهرة لانقاذه بقيادة « اللورد وُلسِلى »*.
وبينا هذه الحملة فى طريقها أرسل غردون « الكولونيل استيوارت » فى نفر من الرجال

حملة ولسلى

على باخرة من الخرطوم قاصدين مقابلة الحملة القادمة لنجدته وابلاغها ما يهمها معرفته عن الحالة فى السودان . فمرت الباخرة على « بربر » دون أن تلاقى شيئاً . الا أنها اصطدمت بصخر قرب « أبى حمد » ، وفتكت بمن فيها احدى قبائل البدو غدراً بعد أن أنزلتهم فى ضيافتها

ولسلى فى كورتى

وفى يوم ٣٠ ديسمبر وصل « ولسلى » بجيشه الى « كورتى » ، فرأى أن يُسيّر قوتين للقاء الدراويش جهة « المتمة » : قوة تذهب بطريق النيل ، والأخرى

واقعة أبى قليع

بالصحراء ، فوصلت هذه القوة الأخيرة الى « المتمة » ، وهزمت جيوش المهدى عند «أبى قليع» . ثم بلغت «جوبات» فى ٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٢ هـ ( ٢٠ يناير سنة ١٨٨٥ م ) ، وهنا اتصلت بالبواخر التى ذهبت بطريق النيل . وعلم « ولسلى »

تأخر الحملة فى طريق الخرطوم

أن غردون فى خطر ، وأنه يخشى العاقبة كثيراً اذا تأخر وصول النجدة عن ٢٤ يناير فأسرع « ولسلى » الى تسيير باخرتين بالجند لانقاذه . ولكن هذه الرحلة لم تكن بالأمر السهل وفى ٨ ربيع الثانى ( ٢٥ يناير ) اصطدمت احدى السفينتين بصخور الشلال السادس ، فعطل المسير أربعة وعشرين ساعة

سقوط الخرطوم ومقتل غردون

وبينا هذه النجدة تعانى الوصول الى « الخرطوم » إذ استولى الدراويش على

* هو الذى قاد الجيوش البرطانية فى واقعة التل الكبير

المدينة ، وقتلوا « غردون » ، وذلك فى ٩ ربيع الثانى سنة ١٣٠٢ (٢٦ يناير ١٨٨٥) ومما ساعد على سقوط المدينة خيانة « فرج باشا » قائد الحصون ، فانهُ انضم الى جيوش المهدى فى الليلة السابقة لسقوط المدينة

وعند ذلك صدرت الأوامر للورد « ولسلى » أن يهاجم الخرطوم ليستردها ، فشرع يهاجمها من ثلاث جهات ، ولكن بعد قليل عدلت الحكومة الانجليزية عن استمرار القتال لاشتغالها ببعض مناوشات على حدود الهند . وفى ٢٢ رمضان (٥ يوليه) أخليت مدينة « دنقلة » وصارت « وادى حلفا » أقصى الحدود المصرية

اخلاء السودان

وكان هذا النصر قد ضاعف ثقة أتباع المهدى به ، وظنوا أنهُ سيقودهم الى فتح جميع ممالك الأرض ، وأنه لن يموت الاّ بعد فتح الحرمين ، ولكن ما لبث أن خاب فألهم ، إذ لم تمض عليهِ بضعة أشهر فى عاصمته « أم درمان » حتى لحقته المنية كغيره من البشر فى ٩ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ ( ٢١ يونيه سنة ١٨٨٥ م ) ، وكان قبل وفاته قد أوصى بالخلافة من بعده « لعبد الله التعايشى » ، فبايعه أتباع المهدى وسموه « خليفة المهدى » . أما جثة المهدى فانها دفنت فى الحجرة التى فارقته الحياة فيها ، ثم أقيمت عليها قُبّة صار الناس يزورونها للتبرك

وفاة المهدى

التعايشى يخلفه

ولم يكد « التعايشى » يتسلم مقاليد الأمور حتى عزم على فتح مصر . ولكن الجيش المصرى كان قد تمّ تدريبه ، فخرجت من مصر فرقة ، بعض جيوشها مصرية وبعضها انجليزية ، وهزمت جيوش « الخليفة » بلا عناء عند « جنس » فى ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٣ هـ ( ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ م ) فسلمت مصر من غارته

عزمه على فتح مصر

الدفاع عن مصر

ولكن نفوذه عمّ السودان ، ولم يخرج عن دائرة سلطته الاّ عدة من المقاطعات النائية ، فانها كانت من نصيب الممالك المجاورة لها : فأعطيت « مصوّع » وما يجاورها لايطاليا ، وأعطيت « بوغوس » لملك الحبشة ، مكافأة له على مساعدته فى تسهيل جلاء الجيوش المصرية من « اماديت » و « سنهيت » و « غلباط » ، خصوصاً أن هذه كلها بلغت مصر سالمة . وأعلنت انجلترة امتلاك مقاطعة « بربرة » وزَيلع وأوغندا

نفوذ التعايشى فى السودان الشرقى

وضمت بلجيكا الى مستعمراتها ( الكنغو الحرة ) وبعض الأقاليم المجاورة لها ، وشرعت فرنسا فى الاستيلاء على بحر الغزال والنيل الأبيض

الباب العالى والسودان

مضت كل هذه الحوادث ولم يفعل الباب العالى فيها شيئاً يذكر ، وانما أرسل فى آخر الأمر سفيراً الى مصر ليساعد الخديوى فى توطيد الأمن فى السودان بالطرق السلمية ؛ فابتدأت المفاوضات مع الدراويش ، ولكن لم يكن لذلك أية نتيجة . على أن مصر كانت طول هذه المدة آخذة فى النهوض من افلاسها شيئاً فشيئاً ، وقوى جيشها وصار يصد جموع الدراويش كلما حاولوا الاعتداء على الأراضى المصرية ، وفى

نهوض مصر

ربيع الثانى سنة ١٣٠٦ هـ ( ديسمبر سنة ١٨٨٨ م ) أجلتهم حامية سواكن عن الجهات المجاورة لها ، فلم يعيدوا الكرة عليها بعد

ولد النجومى

وفى سنة ١٨٨٩ م حدث حادث من أكبر حوادث هذه الحروب . إذ أن « ولد النجومى » أحد الأمراء المستمسكين بدعوة المهدى خرج فى ١٣٫٠٠٠ مقاتل يريد غزو مصر فى رمضان سنة ١٣٠٦ هـ ( مايو سنة ١٨٨٩ م ) ، فالتقى بجيش يقوده « السير فرنسيس غرنفل » عند « طوشكى » ، فكانت هذه أول تجربة عظيمة

هزيمته عند طوشكى

لاختبار قوة الجيش المصرى الجديد ؛ فانتصر على جيش « ولد النجومى » انتصاراً مبيناً فلم ينج منه الا ٣٫٠٠٠ رجل ، وصُرع ولد النجومى نفسه وهو يقاتل فى هذه الموقعة قتالاً شديداً . وبعد هذه الموقعة أخذت قوة التعايشى فى أسباب الضعف

تهدئة السودان الشرقى

وفى سنة ١٣٠٨ هـ ( ١٨٩١ م ) رأت الحكومة أن الدراويش لايزالون قُرب سواكن ، وأن تجارة الرقيق سائرة بلا انقطاع بين بلاد العرب وفُرض البحر الأحمر ، فأرسلت عليهم حملة بحرية من سواكن الى « ترنكتات » . فانهزم الدراويش بجهة « طوكر » وفر « عثمان دقنة » وقُتل معظم من معه من الأمراء . ومن ذلك الحين هدأت الأحوال فى السودان الشرقى

## استرجاع السودان

لم يأتِ عام ١٣١٣ هـ ( ١٨٩٥ م ) حتى تقدمت مالية مصر وتحسنت حال جيشها فصار يُظَنُّ من السهل تجريد حملة على السودان لاسترجاعه . وكانت الحكومة إذ

ذلك تنظر فى مشروع آخر عظيم وهو إقامة خزان على النيل (خزان اسوان)، ورأت أن ادخار المال لهذا المشروع النافع أولى من صرفه على الحروب السودانية، فكان يُظن أن فتح السودان سيُرجأ الى ما بعد ذلك، لولا أن حدثت أمور خارجية اضطرت الحكومة الى العمل بغير رغبتها. وذلك أن الأحباش اتحدوا مع الدراويش وشنّوا الغارة على الطليان وهزموهم بجهة «عَدوة» فى رمضان سنة ١٣١٣ هـ (مارس ١٨٩٦م) وذاع الخبر أنهم عما قريب يهجمون على كَسَلة*. ولذلك طلبت ايطاليا من انجلترة لما بينهما من الصداقة أن تساعدها بارسال حملة الى السودان تهدد الدراويش فتقل وطأتهم على المستعمرة الايطالية الجديدة (مصوع والإريتريا)

اتحاد الاحباش والدراويش على الطليان

وقد كان لدى انجلترة حينئذ من الأسباب والاعتبارات ما يحملها على تلبية هذا الطلب، الذى أقل ما فيه سبق فرنسا الى أعالى النيل وصدها عن التوغل فى جنوبى السودان، والأخذ بثأر غردون الذى لم يزل قلب كل انجليزى يدمي لمصرعه.

ايطاليا تستنجد بانجلترة

فقررت انجلترة اجابة دعوة ايطاليا، وفى الحال أُعدّ لذلك جيش مكون من الجنود المصرية والانجليزية بقيادة «السير هربَرت كِتْشنَر» سردار الجيش المصرى فى ذلك الوقت (وهو اللورد كتشنر المتوفى غرقاً سنة ١٩١٦ م وقت ان كان يشغل منصب وزير الحربية البريطانية)

انجلترة تجيب الطلب

حملة كتشنر

خرج كتشنر من مصر ووجهته دنقلة، فأمر بانشاء خط حديدى من وادى حلفا، وكلما أُنشئ منه جزء تقدم الجيش، حتى وصل فى ذى الحجة سنة ١٣١٣ هـ (يونيه ١٨٩٦ م) الى جهة قريبة من «عُكاشة». فبلغه هناك ان ٣٫٥٠٠ من الدراويش مجتمعون عند «فِرْكة» جنوبى عكاشه على بعد ١٦ ميلاً منها، فسار اليهم ليلاً وفتك بهم فتكاً ذريعاً. ثم تفشى الهواء الأصفر فى الجيش، ولكن تيسر التغلب على المرض وعلى غيره من المصاعب حتى سقطت «دنقلة» فى يد الجيش المصرى الانجليزى

انشاء خط حديدى

واقعة فركة

فتح دنقلة

* كان الطليان قد استولوا على كسلة من المهدى فى سنة ١٨٩٤ م، ولكنهم تخلوا عنها عام ١٨٩٧ لكثرة النفقات التى يتطلبها حكمها، فعادت الجيوش المصرية الى احتلالها (٢٥ ديسمبر سنة ١٨٩٧)



اللورد كتشنر

فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣١٤ هـ ( ٢٣ سبتمبر سنــة ١٨٩٦ م ) وجلت جيوش التعايشى عن هذه المديرية بأكلها . ثم استمر الجيش فى الزحف نحو الخرطوم، متغلباً على ما لاقاه من المصاعب فى طريقه ، حتى استولى على « أبى حمد » فى ٧ أغسطس سنة ١٨٩٧ م وعلى « بربر » فى ٣١ منه . ووقف تقدم الجيش بعد ذلك عدة أشهر ريثما يتم انشاء الخط الحديدى المخترق صحراء العطمور

مدد لكتشنر

وفى ٧ شعبان سنة ١٣١٥ هـ ( أول يناير سنة ١٨٩٨ م ) سمع السير هربرت كتشنر ان الدراويش سيهجمون على جيشه فى جموع كبيرة ، فبعث اشارة برقية الى القاهرة يطلب المدد ، فأرسل اليه قسم من الجيوش البريطانية . ثم وقفت الجيوش

المصرية الانجليزية وقفة المدافع الى أن ترى فرصة ملائمة للزحف على الخرطوم

واقعة النخيلة

وكان « الأمير محمود » ( ابن عم التعايشى ) قد عسكر بنحو ١٢,٠٠٠ مقاتل عند «النخيلة» على نهر عطبرة ، فخرج كتشنر لملاقاته فى ٢٦ ذى القعدة (٢٠ مارس) متوخياً التأنى فى مسيره ، وفى ١٦ ذى الحجة ( ٨ ابريل ) التحم الجيشان فلم تدم الموقعة أكثر من ٤٠ دقيقة ، وانتهت بأسر الأمير محمود وقتل نحو ٢,٠٠٠ من رجاله

واقعة أم درمان

ولم ينته شهر أغسطس عام ١٨٩٨م حتى تمكن السردار من حشد نحو ٢٢,٠٠٠ مقاتل على بعد ٤٠ ميلاً شمالى الخرطوم ، وعزم على لقاء الأعداء . وفى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣١٦ هـ ( ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨م ) التقى بالدراويش فى موقعة « أم درمان» الفاصلة التى لم تقم لهم بعدها قائمة : كان عددهم يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ ألف مقاتل ، قُتِل منهم أكثر من ١١,٠٠٠ وجُرح نحو ١٦,٠٠٠ ، ولم يخسر جيش السردار سوى ٥٠٠ ما بين قتيل وجريح . وفى اليوم الرابع من شهر سبتمبر استولى الجيش الانجليزى المصرى على الخرطوم ورُفع على مكان مركز حكومتها العلمان المصرى والانجليزى أحدهما بجانب الآخر



واقعة أم درمان

مقتل التعايشي

أما الخليفة التعايشي فانهُ فرّ من وجه الجيوش الفاتحة . وأراد فى العام المقبل أن يغير على أم درمان ، فسار اليه جيش السودان وقتله وبدد شمل جيشه ، فى رجب سنة ١٣١٧ ﻫ ( نوفبر سنة ١٨٩٩ م ) . وبقتله انقضت دولة الدراويش*

اتفاقية السودان

وقد هدأت أحوال السودان منذ فتح أم درمان بفضل حسن ادارة الحكومتين الانجليزية والمصرية اللتين تحكمانه بالاشتراك . وفى ٦ رمضان سنة ١٣١٦ ﻫ (١٩ يناير سنة ١٨٩٩) عُقد وفاق بين الحكومتين يُعرف «باتفاقية السودان» وُضحت فيهِ شروط حكم السودان وألغى به ما كان للباب العالى من السيادة على تلك البلاد

تقدم السودان

وما زال السودان فى تقدم تدريجى مستمر منذ دخوله تحت حكم انجلترة ومصر ، وهو وان كان للآن لم يكسب احدى الحكومتين شيئاً وصُرف من حزانة مصر الخاصة مبالغ سنوية لإصلاحه ، فانهُ بلا شك سيعوض ذلك ، لوفرة موارده الطبيعية خصوصاً عند ما يزداد عدد سكانه بعد أن نقص نقصاً فاحشاً أيام فتنة المهدى

## ٣ — ﴿ تقدم مصر منذ عام ١٨٨٢ ﴾

### خصوصاً الأشغال العامة التى تمت بها منذ ذلك العهد

يرجع التقدم العام الذى حدث بمصر منذ عام ١٢٩٩ ﻫ ( ١٨٨٢ م ) الى أمرين أساسيين : الأول الاصلاحات الادارية التى أجريت فى مصالح الحكومة على اختلافها والثانى الأشغال العامة التى أجريت لتحسين الرى وزيادة ثروة البلاد

المسائل المالية

وقد كانت الحالة المالية فى مقدمة ما نُظر فيه بعد اخماد الثورة العرابية ، وذلك من وجهتين : الأولى حالة السكان وما يمكن عمله لتحسينها ، والثانية حال ميزانية الحكومة وكيف يتسنى وضعها على أساس متين بحيث يكفى الدخلُ المنصرفَ مع عدم الإضرار بتقدم البلاد

* ولما فتح كتشنر باشا أم درمان رأى الا يبقى لذكرى المهدى تعلقا بقلوب قبائل السودان، فأمر بهدم قبته ونبش قبره ، فبعثرت عظامه فى النيل وبعث بجمجمته الى دار التحف البرطانية . وقد أعجبت انجلترة بفوزه فنحته لقب « لورد الخرطوم » وصار من ذلك الحين يسمى « لورد كتشنر »

سوء حالة الفلاح

فبالنظر فى أحوال الأهلين اتضح أنهم فى بؤس شديد، وأن المفروض على أرضهم من الضرائب يزيد كثيراً على الحد المعتدل بالنسبة لقيمة ما تنبته الأرض من المحصول إذ أن أثمان المحصولات كانت قد نزلت كثيراً فى السنوات الأخيرة : فصار ثمن أردب القمح مثلاً ٧٥ قرشاً بعد أن كان ١٠٩ قروش فى ١٢٩٢ هـ ( ١٨٧٥ م ) ، وكذلك ثمن القطن من السكر نزل من ٢٣ جنيهاً الى ١٥ جنيهاً . ذلك الى ضعف الأرض بسبب اجهادها بزراعة القطن ، إذ دلت الاحصاءات أن محصول الفدان من القطن فى الأربع السنوات ١٢٩٦ - ١٢٩٩ هـ : ( ١٨٧٩ - ١٨٨٢ م ) نقص من ثلاثة قناطير ونصف الى قنطارين وعشر قنطار . فرأت الحكومة ان أول واجب عليها تحسينُ حال الفلاح ، حتى اذا ما انتعش وزادت ثروته أدى ذلك حتماً الى زيادة دخل الحكومة . فخففت ضريبة الأرض فى المديريات الفقيرة ، وأبطلت ضريبة الملح وغيرها ، وألغت السخرة التى هى فى الحقيقة نوع من الضريبة*

اصلاحها

الميزانية والدين

غير أن هذه الإصلاحات وحدها لم تكن تكفى لتحسين دخل الحكومة والقيام بعبء الدين والشروط الثقيلة التى تكفلت بها مصر بمقتضى قانون التصفية . فبذلت انجلترة وسعها لدى الدول فى تخفيف هذه الشروط مخافة الوقوع فى افلاس نهائى ، فزادت نسبة ما يخص الحكومة المصرية من الدخل بتخفيض نسبة ما يعطى لصندوق الدين ، وصار للحكومة الحق أيضاً فى الاستيلاء على نصف ما يزيد من الدخل بعد دفع الأرباح ، بدل ان كان جميعه يُعطى لصندوق الدين لتسديد الأقساط

الدين المضمون

ورأت الحكومة أيضاً أن كل ذلك ربما لا يكفى لإصلاح حال المالية المصرية وهى على وشك الإفلاس ، فتوسطت انجلترة لدى الدول فى عقد قرض جديد ، لتستعين به مصر على وضع ميزانيتها على أساس متين ، والقيام بمشروعات عامة فى الرى تزداد بها ثروة البلاد حتى تتحسن ماليتها على مدى الأيام . وبعد الجهد الطويل امكن عقد قرض جديد بضمانة انجلترة قدره ٩،٠٠٠،٠٠٠ جنيه يسمى «الدين المضمون»

---

* وبقى مسموحا بها لحماية شواطئ النيل وقت الفيضان فقط

فى سنة ١٣٠٢ هـ ( ١٨٨٥ م ) . واشتُرط فى عقده أن تنتظم حالة المالية المصرية قريباً ، وإلاّ شُكّلت لجنة دولية أخرى للنظر فى شؤون مصر

وقد خُصص هذا المبلغ للأوجه الآتية :

أوجه صرفه

( ١ ) تعويض ما خسره أصحاب الأملاك بالاسكندرية وقت نشوب الفتنة فى تلك المدينة أيام الثورة العرابية ، ( ٢ ) سد العجز فى ميزانية الحكومة لعامى ١٨٨٢ و ١٨٨٣ م ، ( ٣ ) تحسين الرى ( وسيأتى الكلام على ذلك مفصلاً )

حرص الحكومة على الاقتصاد

وقد جعلت الحكومة نصب عينها أن لا يحدث أى فشل فى تنظيم المالية ، كى لا يفضى الأمر الى تدخل الدول الأوربية حسبما اشترطتهُ فى عقد الدين الأخير . فتوخت الاقتصاد التام فى جميع أوجه الصرف ، اللهمّ إلاّ فى تحسين الرى الذى كان من شأنه زيادة الثروة فيما بعد والمساعدة الكبيرة فى تثبيت الحالة المالية التى هى موضوع الخوف والقلق

وقبل الانتقال الى وصف الأشغال العمومية التى تمت بمصر فى ذلك العهد نقول كلمة عن المصاعب التى لاقتها انجلترة من الدول فى سبيل السير فى عملها فى مصر :

المسائل الدولية

كانت فرنسا أول من وضع العراقيل فى سبيل انجلترة فى مصر، لحنقها من الغاء المراقبة الثنائية واستئثار انجلترة بأمر مصر. ثم عضدتها الروسيا فى ذلك ، وشاركهما الباب العالى طبعاً فى الاستياء ، احتجاجاً على استمرار الاحتلال البريطانى لمصر

ثم كرر الباب العالى احتجاجه ، وبعد المفاوضة مع انجلترة تمّ الاتفاق فى المحرم سنة ١٣٠٣هـ ( اكتوبر ١٨٨٥م ) على ان ترسل كل من الدولتين العثمانية والانجليزية سفيراً الى مصر لفحص شؤونها والاتفاق على أجل ينتهى فيه الاحتلال البريطانى

درمندولف ومختار باشا فى مصر

فأرسلت انجلترة «السير دِرمَنْدوُلف» وأرسل الباب العالى «مختار باشا الغازى» غير أنه لم يتم الاتفاق على تحديد أجل الجلاء لمعارضة فرنسا والروسيا فى شروط الاتفاق ؛ وكل ما نتج عن بحوث السفيرين أن جرت بعض مفاوضات مع الدراويش لم يكن لها أثر يذكر ، وقد أشرنا الى ذلك عند الكلام على السودان . وقد بقى

مختار باشا بمصر الى وقت قريب احتجاجاً حياً على الاحتلال البرطانى

مركز قناة السويس

على أنهُ قد حُلّت فى عام ١٨٨٥ م مسألة من المسائل الدولية الكبرى وهى بيان مركز قناة السويس من الوجهة الدولية . فحصل الاتفاق على أن تكون هذه الترعة مفتوحة لجميع السفن وقت السلم ، وفى أوقات الحرب يُسمح لسفن المتحاربين بالمرور من القناة بشرط ألاّ تقع بينهما أعمال حربية الى مسافة ثلاثة أميال من طرفى القناة ، وأن لا يُسمح للسفن الحربية التابعة للدول المتحاربة بالبقاء فى الموانى المصرية أكثر من ٢٤ ساعة . وحُفظ للحكومة المصرية الحق فى عمل أى شىء تراه ضرورياً للمحافظة على القناة

الاتفاق الودى

وبقيت فرنسا تنظر شَزْراً الى بقاء انجلترة فى مصر ، وتضع العراقيل فى سبيلها مهما كان عملها فى صالح مصر ، حتى عام ١٣٢٢ هـ ( ١٩٠٤ م ) فعقدت الدولتان بينهما «الاتفاق الودى» المشهور ، وبه قبلت فرنسا أن تطلق يد انجلترة فى مصر ، فى نظير أن تسمح انجلترة باطلاق يد فرنسا فى مراكش . وبذلك حُلت مشكلة من أكبر المشاكل الدولية الخاصة بمصر . وبمقتضى هذا الاتفاق أيضاً صار جميع دخل الحكومة يرد الى الخزانة المصرية ، بعد أن كان جزء منه يورد الى صندوق الدين توّاً ، وكان لدى صندوق الدين مبلغ ١٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه متوافر من السنين الماضية ، فسلّمه الى الحكومة لتستعين به على إنجاز بعض المشروعات العامة

## الاشغال العامة

قدكانت الأشغال العامة التى تمت بمصر منذ عام ١٨٨٢ م لتحسين الرى وتوسيع نطاقه من أعظم الأمور التى سهلت تنظيم المالية المصرية ، وصارت بالبلاد فى طريق التقدم العظيم الذى نشاهده الآن :

١ . مصر السفلى

شرعت الحكومة منذ عام ١٣٠٠ هـ ( ١٨٨٣ م ) فى الاهتمام بشؤون الرى ، فبدأت فى ذلك العام باصلاح « القناطر الخيرية » . أنشئت هذه القناطر فى عهد محمد على باشا كما ذكرنا فى غير هذا المكان ، ولكنها أُهملت مدة طويلة وقرر الخبيرون

١ . القناطر الخيرية

أن قد لحقها من الخلل ما يجعلها غير صالحة للاستعمال : إذ حدثت صدوع فى عقود المنافذ ، وجرى الماء تحت الأساس نفسه . وكان الغرض من انشاء هذه القناطر فى أول الأول أن تحجز المياه قبلها حتى يرتفع سطحها عن المستوى الأصلى (بعد القناطر) بقدر ٤½ من الأمتار ، وبذلك تستق منها ثلاث ترع كبيرة سطحها أعلى من سطح النيل وهى : الرياح البحيرى ، والرياح المنوفى ، والرياح التوفيقى . على أن الرياح الأول يجرى فى الصحراء بعد تفرعه من القناطر بمسافة صغيرة ، فلما أهمل تراكمت عليه رمال الصحراء وطمرته . أما الرياح الثانى فكان مستعملاً عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) ولكن الثالث كان لا يزال مشروعاً لم ينفذ بعد

الرياحات

فرأت مصلحة الرى أن من أول واجباتها إصلاح هذه القناطر العظيمة والترع التى تستق منها ، فوجهت الى ذلك معظم عنايتها بين عامى ١٣٠١ و ١٣٠٦ هـ ( ١٨٨٤ و ١٨٨٩ م ) . وقد قامت بعبء هذا العمل الشاق عاماً بعد عام فى أيام انخفاض النيل ، بالرغم من عظم الصدوع التى بالبناء ، وما اعترض العملَ من المصاعب الى أن أصلح الأساس وضُمت الصدوع ( بالأسمنت ) ، وانتهى الأمر ببناء منطقة من الحجر حول الأساس لوقايتها . ومما زاد العمل صعوبة أن القناطر كانت تُستخدم فى أيام الفيضان فيما أعدت له ، وقد قال أحد المهندسين فى ذلك : «إن هذا العمل كان أشبه شئ باصلاح ساعة دون ايقاف أتراسها »

وقاية الاساس

وتم فى أثناء ذلك كَرْىُ ريّاح البحيرة ، ومُنعت عنـهُ الرمال بزرع ضفافه بالأعشاب . وزيد أيضاً فى عمق رياح المنوفية ، ووُضع باب (هاويس) عند تفرعه. أما الرياح التوفيقى وهو الذى يروى المديريات التى شرقى فرع دمياط فحُفر بين عامى ١٨٨٧ و ١٨٨٩ م . ولم تكد تتم هذه الأعمال العظيمة حتى ظهرت فائدتها ، فقد زاد محصول القطن بالوجه البحرى فى ١٣٠٩- ١٣١٠هـ (١٨٩١ - ١٨٩٢م) على متوسط محصول الاحدى عشرة سنة السابقة بنحو ١٬٦٠٠٬٠٠٠ قنطار . هذا الى ما حدث من الزيادة فى المحصولات الأخرى . وقد بلغت قيمة ما زاده محصول

الرياحات

ثمرة هذه الاعمال

القطن وحده فى مجموع المدة التى أصلحت فيها القناطر (١٣٠١ – ١٣٠٦ هـ : ١٨٨٤ – ١٨٨٩ م) ما يربو على ٥،٠٠٠،٠٠٠ جنيه

أما نفقات هذا العمل فقد دُفع معظمها من قرض عام ١٨٨٥ م ، ولكنَّ جزءًا منها سُدد مما حدث فى الميزانية من زيادة الدخل على المصروفات

ولا يخفى أن الغرض من القناطر ليس خزن المياه وقت الفيضان للانتفاع بها وقت انخفاض النيل، انما كان الغرض منها حجز المياه حتى يرتفع سطحها فتصب فى الرياحات الثلاثة العظيمة ، فتروى هذه الوجه البحرى بمياهها ولو كان النيل منخفضاً

سد أمام القناطر

وقد أجرى اصلاح آخر فى القناطر عام ١٣١٤ هـ ( ١٨٩٧ م ) ، وذلك بانشاء سد أصم أمام القناطر ( نحو المصب ) ، كى لا تندفق المياه دفعة واحدة بعد حجزها، فأصبحت تتسرَّب على دفعتين ، وبذلك نقص الفرق بين مستوى المياه بين القناطر وبعدها (فرق التوازن)، وذلك يخفف من الضغط الشديد على القناطر أثناء الفيضان

٢ . قناطر زفتى

ومما زاد فى انتظام توزيع المياه فى الوجه البحرى انشاء « قناطر زفتى » ، فإنها أيضاً تحجز المياه قبلها حتى يعلو سطحها فتملأ الترع التى تتفرَّع من النيل عند هذه النقطة . وقد بلغت نفقات هذه القناطر ٣٢٠،٠٠٠ جنيه، وتم انشاؤها فى سنة ١٣٢٠هـ ( ١٩٠٢ م )

٣ . المصارف

وأجرى منذ ذلك العام تعديل كثير فى ترع الوجه البحرى . وابتدأت الحكومة فى انشاء مصارف عظيمة فى مديريتى البحيرة والغربية . وبذلك سيتسع نطاق أراضى مصر الزراعية، وعلى مدى الأيام سيتم تجفيف بحيرة مريوط وتصبح أرضاً صالحة للزراعة

على أن ما تم من الأعمال فى الوجه البحري لم يصرف الحكومة عن الاهتمام بالوجه القبلى . الا أن قلة المال والرجال حتمت عليها فى أوائل هذا العهد الاقتصار فى مصر العليا على المشروعات الصغيرة . وكان معظم الوجه القبلى فى ذلك الحين يُروَى بالحياض ، أى انه وقت الفيضان تغمر مياه النيل المساحات الفسيحة من الأرض ، فلا يتسنى مباشرة شىء من الأعمال الزراعية فيها الى انخفاض النيل . ففى عام ١٣٠٨هـ

ب . مصر العليا

( ١٨٩١ م) أنشأت الحكومة بجهة « قشيشة » ببنى سويف سداً لتصريف المياه ،

فكان ذلك أكبر عون على تنظيم المياه التى تركد على تلك الأراضى الواسعة

١ . تحويل رى الحياض الى رى دورى

ولا يخفى ان هذه الطريقة وهى الرى بالحياض معيبة بالاضافة الى مزايا الرى الدورى ، إذ به تجرى المياه الى الأراضى فى الترع فيتسنى توزيعها من حيث الزمن والمقدار معاً . لذلك أقدمت الحكومة على مشروع عظيم وهو تحويل الرى بالحياض الى رى دورى فى مديريات أسيوط والمنية وبنى سويف والجيزة ، فحفرت لذلك الترع ، واهتمت اهتماماً خاصاً بترعة الابراهيمية العظيمة فوسّعتها وأصلحتها

٢ . قناطر أسيوط

وفى سنة ١٣١٥ هـ ( ١٨٩٨ م ) شرعت فى انشاء « قناطر أسيوط » لحجز المياه حتى ترتفع وتملأ ترعة الابراهيمية فتروى المديريات التى تمر فيها . وقد تم انشاء هذه القناطر عام ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) قبيل الفيضان ، وكان النيل منحطاً جداً فى هذه السنة ، فبادرت وزارة الأشغال باغلاق أبواب القناطر، فارتفع سطح المياه فى ترعة الابراهيمية متراً ونصف متر . وقد قدّر ما اكتسبهُ المزارعون من هذا العمل تلك السنة بما يربو على ٦٠٠,٠٠٠ جنيه

٣ . قناطر اسنا

ولما رأت الحكومة ثمرة عملها فى المديريات التى تقدم ذكرها عوّلت على اجراء مثله فى المديريات التى فى أقاصى الصعيد ، فأنشأت «قناطر إسنا» التى تم انشاؤها عام ١٣٢٧ هـ ( ١٩٠٩ م ) فأفادت مديريتى قنا وجرجا فائدة قناطر أسيوط فى المديريات الشمالية

ويلاحظ أن جميع هذه القناطر لاتخزن المياه لادخارها الى وقت الحاجة ، وانما هى ترفع سطح الماء فى النيل حتى يتسنى ملء الترع فتوزع المياه بها فى أنحاء البلاد

٤ . خزان اسوان

وكانت الحكومة قد فكرت منذ عام ١٣٠٧ هـ (١٨٩٠م) فى مشروع لخزن مياه النيل وقت الفيضان للانتفاع بها وقت انخفاض النيل فى رى جميع أنحاء مصر ، فلا يُحرم جزء منها من الزراعة . فتأخر انفاذ المشروع الى سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٨ م)، إذ ابتدئ فى انشاء خزان عظيم عند «اسوان» فى نفس الوقت الذى ابتدأ فيه انشاء قناطر أسيوط . وهذا البناء من أعظم ما شيّده الانسان، انتهى تشييده سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢م) فكان طوله يبلغ ٢١٥٦ متراً، وارتفاعه عن قاع النهر ٢٨ متراً، والفرق بين مسطح



خزان أسوان

الماء قبله وبعده ( فرق التوازن ) ٢٠ متراً ، وبه ١٨٠ باباً ، ويخزن المياه الى ارتفاع يزيد على سطح البحر بنحو ١٠٦ أمتار . وقد بلغت نفقات انشائه هو وقناطر أسيوط ٤,٧٠٠,٠٠٠ جنيه ، ولكنه أفاد من أول سنة من انشائه فائدة تكاد توازى كل هذه النفقات ، إذ لولاه فى تلك السنة هو وقناطر أسيوط لكانت الطامة كبرى على البلاد ، فقد كان النيل فيها منخفضاً جداً ، ولم يكد يشعر بنقصه أحد . وجاء منخفضاً مرة أخرى عام ١٣٢٣ هـ ( ١٩٠٥ م ) ، فكان الخزان أيضاً أكبر عون للبلاد

ويتضح من الجدول الآتى الفائدة التى عادت على مصر من هذه المشروعات العامة فى سنى انخفاض النيل

| سنة م | عدد الافدنة التى لم تزرع ( شراق ) | سنة م | عدد الافدنة التى لم تزرع ( شراق ) |
|---|---|---|---|
| ١٨٧٧ | ١,٠٠٠,٠٠٠ | ١٩٠٢ | ١٢٨,٦٦٣ |
| ١٨٨٨ | ٢٦٩,١١٠ | ١٩٠٤ | ٤٦,٨٧١ |
| ١٨٨٩ | ١٨٨,١٣٧ | ١٩٠٥ | ٤٥,٠٠٠ |

تعلية الخزان

وعند ما انشئ الخزان كان الغرض منه ايجاد المياه اللازمة لجميع أراضى مصر المزروعة فى أى وقت من السنة . ثم فكرت الحكومة فى زيادة سعته بتعليته بحيث يمكن به رى ١,٠٠٠,٠٠٠ فدان فى شمالى ( الدال ) لم تكن تصل اليها المياه من قبل . فتم هذا العمل عام ١٣٣٠ هـ ( ١٩١٢ م ) وزاد مقدار ما يخزن قبل الخزان من المياه من ٩٤٠,٠٠٠,٠٠٠ متر مكعب الى ٢,٤٢٠,٠٠٠,٠٠٠ متر مكعب ؛ وهى زيادة هائلة جداً ، وسببها ان الزيادة فى ارتفاع الخزان زادت فى امتداد المياه المحجورة قبله جنوباً الى بُعد ٣٢٥ كيلومتراً

وقد تم بفضل انشاء الخزان تحويل رى الحياض بمصر الوسطى الى رى دورى وعند ما تجفف بحيرة مريوط وغيرها سيرويها الخزان بمياهه طول أوقات السنة

مشروعات جديدة

على أن الحكومة لا تزال لديها مشروعات أخرى لتحسين الرى ، ففى نيتها أن تصلح رى المديريات الجنوبية، بانشاء القناطر عند تفرع ترعة السوهاجية لتسهيل امتلاء تلك الترعة وشرعت كذلك فى انشاء خزان آخر عظيم على النيل الأبيض ، ليحفظ

البلاد اذا اشتد الفيضان ويكون بمثابة حوض عظيم لخزن مقادير وافرة من المياه .

ثمرة خزان اسوان وقناطر اسيوط والرى الدورى

وقد ذكرنا أن نفقة انشاء خزان أسوان وقناطر أسيوط بلغت ٤٫٧٠٠٫٠٠٠ جنيه ، ولكننا لا نكون مغالين اذا قلنا ان مجموع ما اكتسبته مصر الى الآن من وراء انشائهما لا يقل عن خمسة أمثال هذا المبلغ . وكذلك بلغت نفقات تحويل رى الحياض الى رى دورى بمصر الوسطى نحو ٦٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه ، ولكنه عاد على البلاد بفائدة تقدر بنحو ٢٫٦٧٥٫٠٠٠ جنيه

ازدياد الميزانية

وبالجدول الآتى بيان دخل الحكومة ومصروفها فى عدة سنوات ، ولكن يجب عند الرجوع اليه أن نلاحظ أن ضريبة الأرض فى تلك المدة نقصت عما كانت عليه

| السنة | الوارد | المصروف | السنة | الوارد | المصروف |
| --- | --- | --- | --- | --- | --- |
| ١٨٨٦ | ٩٫٢٤١٫٥٨٦ | ٩٫٢٣٣٫٧٤٦ | ١٩٠٥ | ١٤٫٨١٣٫٠٠٠ | ١٢٫١٢٥٫٠٠٠ |
| ١٨٩٠ | ١٠٫٢٣٧٫٠٠٠ | ٩٫٥٩٠٫٠٠٠ | ١٩٠٧ | ١٦٫٣٦٨٫٠٠٠ | ١٤٫٢٨٠٫٠٠٠ |
| ١٨٩٤ | ١٠٫١٦١٫٠٠٠ | ٩٫٤٧٠٫٠٠٠ | ١٩٠٨ | ١٥٫٥٢٢٫٠٠٠ | ١٤٫٤٠٨٫٠٠٠ |
| ١٨٩٥ | ١٠٫٤٣١٫٠٠٠ | ٩٫٤٢١٫٠٠٠ | ١٩٠٩ | ١٥٫٨٨٧٫٣١٣ | ١٤٫٩٠٠٫٠١٥ |
| ١٨٩٧ | ١١٫٠٩٣٫٠٠٠ | ٩٫٧٠٩٫٠٠٠ | ١٩١٠ | ١٥٫٩٦٥٫٦٩٣ | ١٤٫٤١٤٫٤٩٩ |
| ١٩٠١ | ١١٫٩٤٤٫٠٠٠ | ٩٫٩٢٤٫٠٠٠ | ١٩١٢ | ١٧٫٥١٥٫٧٤٣ | ١٥٫٤٧٠٫٥٨٤ |
| ١٩٠٣ | ١٢٫٤٦٤٫٠٠٠ | ١١٫٧٢٠٫٠٠٠ | ١٩١٣ | ١٧٫٣٩٨٫٦١٦ | ١٥٫٧٢٨٫٧٨٥ |

الاصلاحات الاخرى

وقد تم فى هذا العصر أيضاً اصلاحات أخرى كثيرة تناولت كل مصالح الحكومة . من أهم ذلك اصلاح المحاكم الأهلية ، فانها كانت قبل الثورة العرابية غير منتظمة ، لاتحكم بمقتضى قانون خاص ، وكانت الحكومة المصرية قد أحسّت بهذا النقص ، وأعدت قانوناً أهلياً شبيهاً بالقانون الفرنسى ، لتجعله سارياً فى جميع المحاكم الأهلية .

اصلاح المحاكم

فلما احتل الانجليز مصر وابتدأت نهضة الاصلاح عقب قدوم اللورد دفرين عرضت الوزارة المصرية هذا القانون فتمت الموافقة عليه ، وعمل به

وكانت المحاكم الأهلية قبلُ لا تنظر فى قضايا الجرائم الكبيرة ، بل كانت تُنظر أمام لجان خاصة يرأسها المدير تسمى « لجان الأشقياء » لم تكن أحكامها دائماً مطابقة للعدالة ، فتقرر الغاؤها . على أن حالة المحاكم الأهلية كانت سيئة جداً ، ولم يكن من

السهل اصلاحها فى وقت قريب . فبقى الاصلاح سائراً فيها ببطء الى أن اقترح اللورد كرومر عام ١٣٠٨ هـ ( ١٨٩١ م ) تعيين مستشار قضائى بوزارة الحقانية ، ليشرف على هذه المحاكم ويصلح ما اعتل فيها . فعارض فى ذلك رياض باشا رئيس الوزارة واعتزل منصبه ، فخلفه مصطفى فهمى باشا ووافق على تعيينه*

المستشار القضائى

بذلك دخلت المحاكم فى طور اصلاح جدى ، فنُظّمت أعمالها وسُهلت حركتها وفُصل منها القضاة الذين لم تتوافر فيهم شروط الكفاءة ، وأُصلحت مدرسة الحقوق لتخريج قضاة أكفاء . ثم زيد فى عدد المحاكم تسهيلاً للتقاضى بين أهل القطر . وفى الجملة يُعتبر جوهر نظام المحاكم الحالى مستحدثاً فى هذا العصر

طور جديد للمحاكم

كذلك عمّ الاصلاح باقى مصالح الحكومة . فنظمت أعمال المالية ، وضُبط حسابها ، ومُسحت الأراضى وحُددت الضرائب ، وعُيّنت لجبايتها مواعيد تناسب حال الفلاح . وأُلغيت السخرة ، وبطل استعمال السوط ( الكرباج ) ، الا فى بعض أنواع العقاب . وزيد من الطرق الزراعية فى انحاء البلاد حتى صار مجموعها لا يقل عن ٢٥٠٠ كيلومتر . وسمح للشركات الأوربية بمباشرة أعمال مالية شتى ، فانتشرت بذلك سكك الحديد الضيقة فى الوجهين القبلى والبحرى ، وفيها تسهيل كبير لنقل حاصلات البلاد . وانشأت الشركات أيضاً خطوط (الترام) فى القاهرة والاسكندرية فسهل الانتقال فيهما ، كما أُنشئ فيهما كثيرٌ من المبانى العظيمة التى اكسبت هاتين المدينتين فخامة وجمالاً تضارعان فيهما كثيراً من المدن الأوربيه العظيمة . ومن أعظم ما أنشأته الحكومة من هذه المبانى قصر المحكمة المختلطة الكبرى بالاسكندرية ، ودار العاديات المصرية بالقاهرة ، ولا سيما البناء الأخير الذى أصبح بجماله وفخامته لائقاً لأن يضم بين جدرانه الكنوز النفيسة من المخلفات المصرية القديمة

الاصلاحات العامة

وكثرت العناية بالأمور الصحية ، وانتشرت المستشفيات فى انحاء البلاد . ذلك الى ما أُنشئ من المكاتب والمدارس فى جميع أطراف القطر ، واعادة عهد البعوث العلمية الى أوربا حيث يغترف الشبان المصريون من أبحر المعارف والعلوم الأوربية

وجملة القول ان فى البلاد المصرية نهضة مباركة عظيمة ، يجب على كل مصري معاضدتها والسير بها الى ما فيه خير مصر وفلاحها

---

* هو السير جون سكوت

## ملخص لأهم الحوادث فى الباب الثالث

| | ه | م |
|---|---|---|
| ﴿ عباس باشا الأول وسعيد باشا ﴾ | ١٢٦٥ — ١٢٧٩ | ١٨٤٩ — ١٨٦٣ |
| عباس باشا الاول | ١٢٦٥ — ١٢٧٠ | ١٨٤٩ — ١٨٥٤ |
| انشاء الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية | ١٢٦٨ — ١٢٧٢ | ١٨٥٢ — ١٨٥٦ |
| مقتل عباس باشا الاول فى قصره ببنها | ذى الحجة ١٢٧٠ | يوليه ١٨٥٤ |
| سعيد باشا | ١٢٧٠ — ١٢٧٩ | ١٨٥٤ — ١٨٦٣ |
| اذنه لديلسبس بابتداء حفر قناة السويس | ١٢٧١ | ١٨٥٤ |
| عقد الاتفاق النهائى لحفر القناة | ربيع الثانى ١٢٧٢ | يناير ١٨٥٦ |
| سن قانون الاراضى | ١٢٧٤ | ١٨٥٨ |
| موافقة الباب العالى على حفر القناة | ١٢٧٥ | » |
| ابتداء العمل فى حفر القناة | رمضان » | يناير ١٨٥٩ |
| امضاء عقد أول قرض مصرى فى لندن | ١٢٧٨ | ١٨٦٢ |
| وفاة سعيد باشا | ١٢٧٩ | ١٨٦٣ |
| اسماعيل باشا | ١٢٧٩ — ١٢٩٦ | ١٨٦٣ — ١٨٧٩ |
| افتتاح دار الآثار المصرية رسمياً ببولاق | ١٢٨٠ | ١٨٦٣ |
| غلاء القطن بسبب الحرب الاهلية فى أمريكا | ١٢٨١ | ١٨٦٤ |
| شراء اسماعيل باشا مصلحة البريد للحكومة | ١٢٨٢ | ١٨٦٥ |
| جعل الوراثة فى اكبر أنجال الخديوى | ٢ المحرم ١٢٨٣ | ٢٧ مايو ١٨٦٦ |
| شراء اسماعيل باشا مصوع وسواكن من الباب العالى | » | » |
| تشكيل مجلس شورى النواب | رجب » | » |
| منح اسماعيل باشا لقب خديوى | ربيع الاول ١٢٨٤ | يوليه » |
| سن قانون ١٠ رجب بشأن التعليم وترقيته | ١٢٨٤ | ١٨٦٧ |
| اتمام حفر القناة وحفلة افتتاحها | شعبان ١٢٨٦ | نوفمبر ١٨٦٩ |
| تولية منزنجر السويسرى على مصوع | ١٢٨٧ | ١٨٧٠ |
| اعلان ضم المقاطعات الاستوائية الى مصر رسمياً | ١٢٨٨ | ١٨٧١ |

| | | ه | | م |
|---|---|---|---|---|
| انحطاط قيمة سهام قناة السويس لقلة الريع | | ١٢٨٨ | | ١٨٧١ — ١٨٧٢ |
| انعقاد مؤتمر دولي بلندن للنظر في أمر القناة | | ١٢٩٠ | | ١٨٧٣ |
| تقليد من الباب العالي مؤيد للتقاليد السابقة ومنح اسماعيل باشا استقلالاً داخلياً | | » | | » |
| فتح دارفور | | » | | » |
| تشكيل المحاكم المختلطة | ذي الحجة | ١٢٩١ | يناير | ١٨٧٥ |
| الحملة على حوض نهر جوبا وجهات قسمايو | المحرم | ١٢٩٢ | فبراير | » |
| فتح هرر على يد محمد رؤوف باشا | شعبان | ١٢٩٢ | سبتمبر | » |
| فشل حملة منزنجر على بلاد الحبشة | | » | | » |
| نزول الدولة عن زيلع للخديوي مقابل جزية | | ١٢٩٢ | | ١٨٧٥ |
| بيع نصيب الحكومة من سهام القناة لانجلترة | | » | | » |
| وفد « كيف » لاصلاح المالية المصرية | رمضان | ١٢٩٢ | اكتوبر | » |
| هزيمة الجيوش المصرية عند قرع | المحرم | ١٢٩٣ | يناير | ١٨٧٦ |
| افتتاح المحاكم المختلطة | | » | | » |
| ابرام الصلح بين مصر والحبشة بعد موقعة قرع | ربيع الاول | » | ابريل | » |
| توقف اسماعيل عن دفع قيمة اسناد الخزانة | » » | » | » | » |
| انتقاص الدين الموحد باتفاق انجلترة وفرنسا | ذي القعدة | » | نوفمبر | » |
| عودة غردون وتنصيبه حاكماً عاماً على السودان | | ١٢٩٤ | | ١٨٧٧ |
| تشكيل لجنة التحقيق | ربيع الثاني | ١٢٩٥ | ابريل | ١٨٧٨ |
| وزارة مؤاخذة برياسة نوبار باشا | شعبان | » | أغسطس | » |
| النزول عن معظم أملاك الاسرة الخديوية | شوال | » | اكتوبر | » |
| ثوران الجند وقبضهم على نوبار ورفرز ولسن | | » | | » |
| اقالة نوبار باشا وتنصيب الامير توفيق | | » | | » |
| عدم رضاء الخديوي بقرارات لجنة التحقيق والوزارة وحله الوزارة | | ١٢٩٦ | | ١٨٧٩ |
| نزول اسماعيل باشا عن اريكة مصر | رجب | » | يونيه | » |
| توفيق باشا ( توليته ) | شعبان | » | أغسطس | » |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| استقالة وزارة شريف باشا | ٢٩ شعبان | ١٢٩٦ | ١٨ أغسطس | ١٨٧٩ |
| تشكيل وزارة برياسة رياض باشا | شوال | » | سبتمبر | » |
| اصدار قانون التصفية | ٨ شعبان | ١٢٩٧ | ١٧ يوليه | ١٨٨٠ |
| تشكيل لجنة علمية للنظر فى أمر التعليم | ١٧ جمادى ٢ | » | ٢٧ مايو | » |
| تقديم العرابيين معروضاً الى رياض باشا | ١٣ صفر | ١٢٩٨ | ١٥ يناير | ١٨٨١ |
| مظاهرة عابدين | ١٥ شوال | » | ٩ سبتمبر | » |
| منشور عرابى لسفراء الدول يطمئنهم فيه | ١٥ شوال | » | ٩ سبتمبر | » |
| تشكيل وزارة برياسة شريف باشا | ٢٠ شوال | » | ١٤ سبتمبر | » |
| تنصيب محمد سلطان باشا رئيساً لمجلس الشورى | ٢٦ المحرم | ١٢٩٩ | ١٨ ديسمبر | » |
| تنصيب عرابى باشا وكيلاً للحربية | ربيع الاول | » | يناير | ١٨٨٢ |
| ارسال فرنسا وانجلترة مذكرة الى الخديوى تمدانه بالمساعدة ان اقتضى الحال | ١٩ صفر | » | ٨ يناير | » |
| استقالة وزارة شريف باشا وتشكيل وزارة البارودى | ربيع الاول | ١٢٩٩ | فبراير | » |
| طلب فرنسا وانجلترة استقالة الوزارة وابعاد عرابى | رجب | » | مايو | » |
| حادثة ١١ يونيه ( واقعة الاحد ) | ٢٤ رجب | » | ١١ يونيه | » |
| انعقاد مؤتمر فى الاستانة للنظر فى شؤون مصر | ٦ شعبان | » | ٢٣ يونيه | » |
| ضرب الاسطول الانجليزى قلاع الاسكندرية | ٢٢ شعبان | » | ١١ يوليه | » |
| موقعة التل الكبير | ٢٩ شوال | » | ١٣ سبتمبر | » |
| أول ظهور المهدى | | ١٢٩٨ | | ١٨٨١ |
| قدوم اللورد دفرين الى مصر | | ١٣٠٠ | | ١٨٨٢ |
| صدور أمر عال بالغاء المراقبة الثنائية | ربيع الاول | » | يناير | ١٨٨٣ |
| تنصيب السير افلن وود سردارا للجيش المصرى | | » | | » |
| تنصيب السير افلن بيرنج معتمدا لانجلترة فى مصر | ذى القعدة | » | سبتمبر | » |
| استيلاء المهدى على مدينة الابيض | | » | | » |
| خروج جيش هكس من الخرطوم لاسترداد الابيض | ذى القعدة | » | سبتمبر | » |
| خبر ابادة جيش هكس باشا | المحرم | ١٣٠١ | نوفبر | » |

| | هـ | | م | |
|---|---|---|---|---|
| خروج غردون الى السودان لاخلائه | ربيع ١ | ١٣٠١ | يناير | ١٨٨٤ |
| هزيمة الجنرال بيكر عند الطيب | جمادى ١ | » | فبراير | » |
| جراهام يقهر عثمان دقنة عند طماى | » | » | مارس | » |
| وصول غردون الى الخرطوم | ربيع ٢ | » | فبراير | » |
| قطع المهدى خط الرجعة عليه | رجب | » | مايو | » |
| وصول حملة انقاذ غردون الى الشلال السادس | ٨ ربيع ٢ | ١٣٠٢ | ٢٥ يناير | ١٨٨٥ |
| استيلاء الدراويش على الخرطوم ومقتل غردون | ٩ » | » | ٢٦ يناير | » |
| وفاة المهدى وتولى التعايشى الخلافة | رمضان | » | يوليه | » |
| قهر التعايشى عند جنس بعد عزمه على فتح مصر | ربيع ١ | ١٣٠٣ | ديسمبر | » |
| قهر ولد النجومى الزاحف على مصر فى طوشكى | رمضان | ١٣٠٦ | مايو | ١٨٨٩ |
| اصلاح القناطر الخيرية | | ١٣٠١ — ١٣٠٦ | | ١٨٨٤ — ١٨٨٩ |
| تهدئة السودان الشرقى | | ١٣٠٨ | | ١٨٩١ |
| خروج كتشنر لاسترجاع السودان | | ١٣١٣ | | ١٨٩٦ |
| واقعة أم درمان | ربيع ٢ | ١٣١٦ | سبتمبر | ١٨٩٨ |
| اتفاقية السودان بين مصر وانجلترة | رمضان | ١٣١٦ | يناير | ١٨٩٩ |
| انشاء سد قشيشة | | ١٣٠٨ | | ١٨٩١ |
| انشاء قناطر زفتى ( انتهاؤها ) | | ١٣٢٠ | | ١٩٠٢ |
| انشاء قناطر أسيوط وخزان أسوان | | ١٣١٥ — ١٣٢٠ | | ١٨٩٨ — ١٩٠٢ |
| « » اسنا ( انتهاؤها ) | | ١٣٢٧ | | ١٩٠٩ |
| تعلية خزان أسوان ( انتهاؤها ) | | ١٣٣٠ | | ١٩١٢ |

# فهرست

## كتاب تاريخ مصر من الفتح العثماني

٢٢/٢/٨٠٠٠/٥